كتاب

الفرج بعد الشدة

تأليف

القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي

المتوفى سنة ٣٨٤ هـ

تحقيق

عبود الشالجي

الجزء الثاني

دار صادر

بيروت

١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م

الفرج بعد الشدة

٢

الباب الخامس[1]

من خرج من حبس أو أسر واعتقال
إلى سراح وسلامة وصلاح حال

١٥١

رسول الله يمنّ على هوازن
ويطلق لهم أسراهم ويردّ عليهم ما غنم منهم

حدّثنا الأمير أبو بكر محمّد بن بدر[2] ، قال : حدّثنا الأمير أبو النّجم بدر الكبير المعروف بالحمامي[3] ، قال : حدّثنا محمّد بن عبد الله العبسي الجشمي

---

١ ورد في غ ، في صدر هذه القصّة : بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، أوّل الجزء الثاني من كتاب الفرج بعد الشدّة .

٢ أبو بكر محمّد بن بدر الحمامي المعروف ببدر الكبير : كان أبوه بدر أميراً على فارس ، ولما توفّي تقلّد الولاية على فارس في محله ، ودامت ولايته مدّة ، ثم قدم بغداد وتوفّي بها سنة ٣٦٤ (الأعلام ٦/٢٧٤ وتاريخ بغداد للخطيب ٢ / ١٠٨) وكانت داره على دجلة بمحلة باب البستان (بستان الزاهر) (وزراء ٣٣١) .

٣ أبو النجم بدر بن عبد الله ، المعروف بالحمامي ، نسبة لطير الحمام ، ويقال له بدر الكبير : من كبار القوّاد الأتراك في الدّولة العباسيّة ، نشأ بمصر ، ووليّ ولايات ، ثم انتقل لخدمة العبّاسيّين ، فولّي أصبهان ، وتوفّي في شيراز سنة ٣١٠ وهو عامل على فارس ، وكان شجاعاً ، جواداً ، عادلاً (الأعلام ٢ / ١٢ وتاريخ بغداد للخطيب ٧ / ١٠٥) راجع القصّة ٢ / ١٥٦ من نشوار المحاضرة ، وكان المقتدر متزوّجاً بابنته (راجع القصّة ٥ / ٢ من نشوار المحاضرة) .

من قوّاد فلسطين[4] ، قال : حدّثنا أبو عمر زياد بن طارق ، قال : قال لي ابن الرماحي ، وكانت قد أتت عليه عشرون ومائة سنة[5] ، وهو يصعد يلقط التين ، قال : سمعت أبا جرول زهير بن صرد الجشمي[6] ، يقول :

أسرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [يوم حنين و][7] يوم هوازن[8] ، وذهب يفرّق السبي ، فقمتُ ، فأنشدته : [٥٢ ر]

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنّـك المـرء نرجـوه وننتظـر
امنن على بيضة ، قد عاقهـا قـدر ... مفرّق شملها ، في دارهـا غِيَر
أبقت لنا الحربُ هيّافاً[9] على حزن ... على قلوبهم الغمّاء والغمـــر
إن لم تداركهُم نعمـاء تنشرهـا ... يا أرجح النّاس حلماً حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... [إذ فوك يملؤه من محضها الدرر][10]
[إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها][10] ... وإذ يريبك[11] ما تأتي وما تـذر
لا تجعلنّا كمن شالت نعامته[12] ... واستبق منّا فإنّا معشر زهـر

---

٤ كذا ورد في غ ، ولعلّ الصحيح : من قرّاء فلسطين .

٥ ورد السند في تاريخ بغداد للخطيب ٧ / ١٠٥ كما يلي : أخبرنا أبو نعيم ، قال : حدّثنا أبو بكر محمّد ابن بدر الأمير مولى المعتضد ببغداد ، قال : حدّثنا أبي أبو النجم بدر الكبير ، قال : حدّثنا عبيد الله ابن محمّد بن رماحس ، قال : حدّثنا أبو عمرو زياد بن طارق ، وكانت قد أتت عليه عشرون ومائة سنة ، قال : سمعت أبا جرول زهير بن صرد الجشمي ... الخ .

٦ في الطبري ٣ / ٨٦ ، إنّه زهير بن صُرَد ، يكنّى أبا صرد .

٧ الزيادة من غ .

٨ أخبار غزوة هوازن بحنين في الطبري ٣ / ٧٠ - ٨٢ و٨٦ - ٩٤ .

٩ الهيف : العطش الشديد .

١٠ الزيادة من تاريخ بغداد للخطيب ٧ / ١٠٦ .

١١ في تاريخ بغداد للخطيب : وإذ يزينك ص ٧ / ١٠٦ .

١٢ شالت نعامته : مات ، وشالت نعامة القوم : أخلوا منازلهم ، وتفرّقوا ، وذهب عزّهم .

إنّا لنشكر للنعماء إذ كفـرت[13] وعندنا بعد هـذا اليوم مدّخـر
يا خير من مرحت كمت الجياد به عند الهيـاج إذا ما استوقـد الشرر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه من أمّهاتك إنّ العفو مشتهر
إنّا نؤمّل عفواً منك تلبســه هذي البريّة إذ تعفـو وتنتصر
عفواً عفا الله عمّا أنت راهبـه يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

قال : فلمّا سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذا الشعر ، قال : ما كان لي ولبني عبد المطلب ، فهو لكم .

فقالت قريش : ما كان لنا فهو لله ولرسوله .

وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لله ولرسوله .

فأطلقهم جميعاً[14] .

وحدّثنا أبو العبّاس محمّد بن أحمد المعروف بالأثرم ، المقرئ الخيّاط البغدادي ، بالبصرة ، قال : حدّثنا أبو عمر أحمد بن عبد الجبّار العطاردي[15] ، قال : حدّثنا يونس بن بكير الشيباني[16] ، عن محمّد بن إسحاق[17] ، قال :

---

١٣ في تاريخ بغداد للخطيب ٧ / ١٠٦ : إنّا لنشكر للنعمى إذا كفرت .

١٤ وردت القصّة في الطبري ٣ / ٨٦ و٨٧ وفي تاريخ بغداد للخطيب ٧ / ١٠٥ و١٠٦ وفي حلّ العقال ص ٣٧ ، وفي نفح الطيب ٢ / ٥٦٢ و٥٦٣ .

١٥ أبو عمر أحمد بن عبد الجبار بن محمّد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي ، المعروف بالعطاردي : ترجم له الخطيب في تاريخه ٤ / ٢٦٢ – ٢٦٥ وقال : إنّه توفّي سنة ٢٧٢ .

١٦ أبو بكر يونس بن بكير بن واصل الشيبانيّ الحافظ : ترجم له صاحب الخلاصة ٣٧٩ وقال : إنّه توفّي سنة ١٩٩ .

١٧ أبو بكر محمّد بن إسحاق بن يسار : صاحب السيرة ، أقدم مؤرّخي العرب ، زار الإسكندرية ، وأقام ببغداد ، توفّي سنة ١٥١ (الأعلام ٦ / ٢٥٢) .

حدّثني عمرو بن شعيب[١٨] ، عن أبيه[١٩] ، عن جدّه[٢٠] ، قال :

كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحنين ، فلمّا أصاب من هوازن ما أصاب من أموالهم وسباياهم ، أدركته هوازن بالجعرانة ، وقد أسلموا .

فقالوا : يا رسول الله ، لنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا منّ الله عليك .

وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال : يا رسول الله ، إنّ ما في الحظائر من النّساء ، خالاتك ، وعماتك ، وحواضنك اللّاتي تكفّلنك ، ولو أنّا مالحنا[٢١] ابن أبي شمر[٢٢] ، أو النّعمان بن المنذر[٢٣] ، ثمّ أصابنا مثل الّذي أصابنا منك ، رجونا عائدتهما ، وعطفهما . وأنشد أبياتاً قالها .

وذكر من الأبيات ثمانية ، فقال في الأوّل : وندّخر[٢٤] ، وقال في الثّاني : ممزّق ، وقال في الثّالث : نهّافاً[٢٥] ، وقال في السّادس : نعامتهم ، وقال في السّابع : إنّا لنشكر آلاء وإن كفرت .

١٨ أبو إبراهيم عمرو بن شعيب بن محمّد بن عبد الله بن عمرو بن العاص السّهمي المدني ، نزيل الطائف : ترجم له صاحب الخلاصة ٢٤٦ وقال إنّه توفّي سنة ١١٨ .

١٩ شعيب بن محمّد بن عبد الله بن عمرو بن العاص السهميّ : ترجم له صاحب الخلاصة ١٤١ .

٢٠ محمّد بن عبد الله بن عمرو بن العاص السهميّ : ترجم له صاحب الخلاصة ٢٨٥ ، وأحسب أنّ المقصود بالجدّ أبا محمّد عبد الله بن عمرو بن العاص ، ترجم له صاحب الخلاصة ١٧٦ وقال : كان بينه وبين أبيه إحدى عشرة سنة .

٢١ الممالحة : المؤاكلة ، وهو يشير هنا إلى رضاع النبيّ صلوات الله عليه في بني سعد .

٢٢ الحارث بن أبي شمر الغسانيّ : من أمراء غسّان في أطراف الشام ، أدرك الإسلام ، ومات سنة ٨ للهجرة .

٢٣ أبو قابوس النعمان بن المنذر بن امرئ القيس اللّخمي : ممدوح النابغة الذبيانيّ ، من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية ، قال صاحب الأعلام ٩ / ١٠ إليه تنسب مدينة النعمانية على ضفة دجلة ، أقول : أنا أشكّ كثيراً في كون مدينة النعمانيّة من بناء النعمان بن المنذر ، وأرجّح ما أثبته ياقوت في معجمه ٤ / ٧٩٦ إذ قال : كأنّها منسوبة إلى رجل اسمه النعمان .

٢٤ في الأصل : وترخر ، وهو تصحيف .

٢٥ في الأصل : نهانا ، وهو تصحيف ، والنهّاف : المتحيرون .

١٥٢

الوزير القاسم يعتقل ثلاثة أمراء عبّاسيّين

أخبرنا أبو بكر الصولي ، قال :

كان القاسم بن عبيد الله[١] ، قد تقدّم عند وفاة المعتضد ، إلى صاحب الشرطة مؤنس الخازن[٢] ، أن يوجّه إلى قصيّ بن المؤيّد[٣] وعبد العزيز بن المعتمد[٤] ،

---

١ أبو الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي (٢٥٨ – ٢٩١) : استوزره المعتضد العباسي ، بعد وفاة والده عبيد الله ، سنة ٢٨٨ ، ولمّا استخلف المكتفي في السنة ٢٨٩ ، أخذ له البيعة ، واستمرّ على وزارته لـه ، إلى أن مات ، والأبيات التي قالها ابن بسّام فيه ، عند وفاته ، تدلّ على أنّه توفّي مصاباً باسهال الدوزنطاريا (ابن الأثير ٧ / ٥٣٣ و٥٣٤) ، وكان جبّاراً ، سفّاكاً للدماء ، مطعوناً في دينه ، واتّهم بأنّه قتل ابن الرّومي بالسم (الفخري ٢٥٧ ومروج الذهب ٥٣١/٢) .

٢ مؤنس الخازن : ويقال له مؤنس الفحل ، تمييزاً له عن مؤنس الخادم ، القائد العباسي المعروف بالمظفّر ، كان مؤنس الخازن صاحب الشرطة ببغداد ، ولمّا خرج المعتضد لقتال أحمد بن عيسى بن شيخ في السنة ٢٨٥ استخلفه على بغداد (تاريخ الحكماء ٧٧) ، راجع القصّة ٤٧/٣ من كتاب نشوار المحاضرة .

٣ قصي بن المؤيد إبراهيم بن جعفر المتوكّل : كان أبوه إبراهيم أحد أولاد المتوكّل الثلاثة الذين عقد لهم العهد في السنة ٢٣٥ ، ثمّ قتله أخوه المعتز في السنة ٢٥٢ ، وترجمة المؤيّد في حاشية القصّة ٢٨٤ من الكتاب ، ويظهر من اعتقال هؤلاء الثلاثة ، أنّهم كانوا في مقدّمة الأمراء العباسيّين المرشحين للخلافة في ذلك الحين .

٤ للمعتمد على الله أربعة أولاد ، أكبرهم جعفر الملقّب بالمفوّض ، وكانت إليه ولاية العهد ، وعبد العزيز ، وأبو عبد الله محمّد ، وأبو أحمد إسحاق مات في حياة أبيه (خلاصة الذهب المسبوك ٢٣٤) ولما حلّ المعتضد محلّ أبيه الموفّق ، في السنة ٢٧٨ ، أجبر عمّه المعتمد على أن يبايع له بولاية العهد ، بعد المفوّض ، وبعد سنة واحدة ، خلع المفوّض من ولاية العهد ، وحلّ المعتضد محلّه ، وتوفّي المعتمد بعد ذلك بسبعة أشهر ، والمفوّض إذ ذاك محجور عليه ، في دار المعتضد ، لا يخرج ولا يظهر ، وتوفّي في السنة ٢٨٠ ، بعد وفاة أبيه بقليل (الطبري ١٠ / ٢١ و٢٢ و٢٨ و٢٩ و٣٣) ، أمّا أبو عبد الله

وعبد الله بن المعتز [5] ، فيحبسهم في داره [6] ، ويوكّل بهم ، ففعل ذلك ، وكانوا محبوسين خائفين ، إلى أن قدم المكتفي [7] بغداد فعرف خبرهم ، فأمر بإطلاقهم ، ووصل كلّ واحد منهم بألف دينار .

قال : فحدّثني عبد الله بن المعتز ، قال : سهرتُ في الليلة الّتي في صبيحتها دخل المكتفي إلى بغداد [8] ، فلم أنم ، خوفاً على نفسي ، وقلقاً لوروده ، فمرّت بي في السّحر طير ، فصاحت ، فتمنّيت أن أكون مخلّى مثلها ، لما جرى عليّ من النّكبات [9] .

ثمّ فكّرت في نعم الله تعالى عليّ ، وما خاره لي من الإسلام والقرابة من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وما أؤمّله من البقاء الدّائم في الآخرة [٦٦ م] فقلت :

يا نفس صبراً لعلّ الخير عقباك   خانتك من بعد طول الأمن دنياك
مرّت بنا سَحَراً طيرٌ فقلت لها :   طوباك يا ليتني إيّاك طوباك
لكن هو الدّهر فالقيه على حذر   فربّ مثلك ينزو تحت أشراك

محمّد بن المعتمد ، فقد كان مرشّحاً للخلافة في مكان المقتدر ، ولكنّه أصيب بعارض ، وفلج في مجلس الوزير ، فحمل إلى داره ، ومات في السنة ٢٩٥ (تجارب الأمم ١ / ٤ و ٥) .

٥ أبو العبّاس عبد الله بن محمّد المعتز بن المتوكّل (٢٤٧ – ٢٩٦) : ترجمته في حاشية القصّة ٥٠ من الكتاب .

٦ راجع ابن الأثير ٧ / ٥١٤ .

٧ أبو محمّد علي المكتفي بن أبي العبّاس أحمد المعتضد (٢٦٣ – ٢٩٥) : ولّي الخلافة سنة ٢٨٩ على أثر وفاة أبيه ، وأنفق الأموال العظيمة على حرب القرامطة ، ومات شاباً من علّة الخنازير في حلقه (الأعلام ٥ / ٦٥ ، والقصّة ١ / ١٥٥ من نشوار المحاضرة) .

٨ دخل المكتفي بغداد يوم ٨ جمادى الأولى سنة ٢٨٩ (ابن الأثير ٧ / ٥١٦) .

٩ في م : من النكاية .

١٥٣

البحتري وأبو معشر يؤصّلان عند المعتزّ أصلاً

حدّثني عليّ بن هشام بن عبد الله الكاتب[١] ، قال : حدّثني أبو القاسم سليمان ابن الحسن بن مخلد[٢] ، قال :

لما أنفذ[٣] أبي إلى مصر ، اجتذبت أبا عبادة البحتري[٤] ، وأبا معشر المنجّم[٥] ، وكنت [٩٣ غ] آنس بهما في وحدتي ، وملازمتي البيت ، فكانا أكثر الأوقات عندي ، يحادثاني ويعاشراني .

فحدّثاني يوماً : إنّهما أضاقا إضاقة شديدة ، وكانا مصطحبين ، فعنّ[٦] لهما أن يلقيا المعتزّ بالله[٧] ، وهو محبوس ، فيتودّدان إليه [٦٦ ظ] ويؤصّلان

---

١ أبو الحسين علي بن هشام بن عبد الله الكاتب المعروف بابن أبي قيراط .

٢ أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد بن الجرّاح .

٣ في غ : أبعد .

٤ أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي البحتري (٢٠٦ – ٢٨٤) : أحد ثلاثة كانوا أشعر أهل عصرهم : المتنبّي ، وأبو تمام ، والبحتري ، وقال أبو العلاء المعرّي : المتنبّي وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحتري ، مدح جماعة من الخلفاء أوّلهم المتوكّل ، وعاد فأقام بمنبج مسقط رأسه ، ومات بها .

٥ أبو معشر جعفر بن محمّد بن عمر البلخي الفلكي : عالم فلكي مشهور كان أوّلاً من أصحاب الحديث ، وتعلّم النجوم وهو ابن ٤٧ سنة ، راجع في القصّة ٤ / ٣٥ من نشوار المحاضرة كيفيّة تعلّمه النجوم ، وكان أعلم الناس بتاريخ الفرس وسائر الأمم ، وعمّر طويلاً ، ومات بواسط سنة ٢٧٢ (الأعلام ٢ / ١٢٢) بشأن أبي معشر راجع القصص ٢ / ١٧٠ و ٢ / ١٧١ من نشوار المحاضرة .

٦ في غ : فعرض .

٧ أبو عبد الله محمّد المعتز بن جعفر المتوكّل (٢٣٢ – ٢٥٥) : ولد بسامراء ، وبويع بولاية العهد سنة ٢٣٥ ، ولمّا ولّي المستعين سنة ٢٤٨ سجن المعتز ، فأخرجه الأتراك سنة ٢٥١ وبايعوه بالخلافة ، وكانت أيّامه أيّام فتن وقلاقل ، وقتله الأتراك بعد أن عذّبوه (الأعلام ٦ / ٢٩٦) .

عنده أصلاً ، فتوصّلا إليه ، حتّى لقياه في حبسه .

قال البحتريّ : فأنشدته أبياتي الّتي كنت قلتها في محمّد بن يوسف الثغري[8] ، [لما حبس][9] ، وخاطبت بها المعتزّ ، كأنّي عملتها له في الحال ، وهي :

جعلت فداك الدّهر ليس بمنفكّ ... من الحادث المشكوّ والنّازل المشكي[10]
وما هذه الأيّام إلّا منازل ... فمن منزلٍ رحب ومن منزلٍ ضنْك
وقد هذّبتك الحادثات وإنّما ... صفا الذّهب الإبريز قبلك بالسّبك[11] [٥٣ ر]
أمّا في رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوساً على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في السّجن برهة ... فآل به الصّبر الجميل إلى الملك
على أنّه قد ضيم في حبسك العلى ... وأصبح عزّ الدّين في قبضة الشرك[12]

---

٨ أبو سعيد محمّد بن يوسف بن عبد الرحمن الثغري الطائي الصامتي : كان من القوّاد الشجعان ، اشترك في جميع الحملات التي جرّدت لحرب بابك الخرميّ منذ السنة ٢١٤ ، وهو الذي أسر بابك ، وسلّمه للإفشين سنة ٢٢٢ (الكامل ٦ / ٤١٢ – ٤٧٤) ، ولقب بالثغري : نسبة إلى الثغر ، وهو الموضع المواجه للعدو (اللباب ١ / ١٩٥) ، وكان الثغري شديد النكاية في الروم (راجع ديوان البحتري ٢٤٥ – ٢٥٥) وغضب عليه المتوكّل فصرفه عن حرب الثغور (ديوان البحتري ٢٤٩ سطر ٣) ثمّ اعتقله (ديوان البحتري ٦٥١) وقتل أبو سعيد بأرسناس وهو يقاتل الروم ، ورثاه البحتري ، ديوان البحتري ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ .

٩ الزيادة من غ ومن القصّة ٨ / ١٩ من نشوار المحاضرة ، وكان المتوكّل لمّا اعتقل الثغري ، سلّمه إلى كاتب نصراني لسعيد الحاجب ، وأمره بتعذيبه والغلظة عليه في المطالبة والاستخراج ، (ديوان البحتري ٦٥١) .

١٠ ديوان البحتري ص ٧٣٥ .

١١ في الديوان يوجد بيت بعد هذا البيت لم يذكر في القصّة ، وهو :

وما أنت بالمهزوز جأشاً على الأذى ... ولا المتفرّي الجلدتين على الدلك

١٢ هذا البيت في غ : وأضحت يد الإسلام في قبضة الشرك ، وفي الديوان :

على أنّه قد ضيم في حبسك الهدى ... وأضحى بك الإسلام في قبضة الشرك

قال : فأخذ الرّقعة الّتي فيها الأبيات ، فدفعها إلى خادم كان واقفاً على رأسه ، وقال له : احتفظ بهذه الرّقعة ، فإن فرّج الله عنّي ، فأذكرني بها ، لأقضي حقّ هذا الرّجل الحرّ .

وقال لي أبو معشر : وقد كنت أنا أخذت مولده ، ووقت عقد له العهد ، ووقت عقدت البيعة للمستعين[13] بالخلافة ، فنظرت في ذلك ، وصحّحت الحكم للمعتزّ بالخلافة بعد فتنة تجري وحروب ، وحكمت على المستعين بالقتل ، فسلّمت ذلك إلى المعتز ، وانصرفنا .

وضرب الزّمان ضربه[14] ، وصحّ الحكم بأسره .

قال أبو معشر : فدخلت أنا والبحتري جميعاً إلى المعتزّ ، وهو خليفة ، بعد خلع المستعين[15] [وتغريقه][16] ، فقال لي : لم أنسك ، وقد صحّ حكمك ، وقد أجريت لك في كلّ شهر مائة دينار ، وثلاثين ديناراً نزلاً ، وجعلتك رئيس المنجّمين في دار الخلافة ، وأمرت لك عاجلاً بإطلاق ألف دينار صلة ، فقبضت ذلك كلّه في يومي .

---

١٣ أبو العباس أحمد المستعين بن محمّد بن المعتصم بن هارون الرشيد (٢١٩ – ٢٥٢) : ولد بسامراء ، وبويع بالخلافة بعد وفاة المنتصر سنة ٢٤٨ ، وكان الحكم في زمانه للأتراك ، كان المسيطر أوتامش التركي ، فقتـل ، وتسلّط أتراك آخرون ، وانتقل إلى بغداد ، فغضب الأتراك المسيطرون وطالبوه بالعودة ، فامتنع ، فخلعوه ، وأخرجوا المعتز من سجنه فبايعوه ، وحاربوا المستعين ، وانتصروا عليـه فخلع نفسه ، ثمّ قتلوه (الأعلام ١ / ١٩٤ ، ومروج الذهب ٢ / ٤٤٧ و٤٤٨) .

١٤ في غ : وضربت الأيّام ضربها .

١٥ بشأن خلع المستعين راجع الكامل لابن الأثير ٧ /١٦٧ .

١٦ هذه الكلمة لم ترد في غ ، وثمة اختلاف في كيفية قتل المستعين ، وفي موضع القتل : ففي تاريخ بغداد للخطيب ٥ / ٨٥ انّه قتل بموضع يقال له : القادسيّة ، في طريق سرمن رأى ، وفي الكامل لابن الأثير ٧ / ١٧٣ انّ سعيد بن صالح أدخله إلى منزله ، وضربه حتى مات ، وقيل : جعل في رجله حجراً وألقاه في دجلة ، وقيل ضربه بالسيف ، فصاح ، وصاحت دايته ، فقتلهما معاً .

وقال لي البحتري : وتقدّمت أنا ، فأنشدت المعتزّ قصيدة مدحته بها ، وهنّأته بالخلافة ، وهجوت المستعين ، أوّلها :

يجانبنا في الحبّ من لا نجانبه ⁂ ويبعد عنّا في الهوى من نقاربه[17]

فلمّا بلغت فيها إلى قولي ، [والمعتزّ يستمع][18] :

فكيف رأيت الحقّ قرّ قراره ⁂ وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه
ولم يكن المغترّ بالله إذ سرى ⁂ لِيُعْجِزَ والمعتزّ بالله طالبه
رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر ⁂ وعرّي من برد النّبي مناكبه
وقد سرّني أن قيل وجّه غادياً[19] ⁂ إلى الشّرق تحدّى سفنه وركائبه
إلى واسط حيث الدجاج ولم تكن ⁂ لتنشب إلّا في الدجاج مخالبه[20]

فاستعادني هذه الأبيات مراراً ، فأعدتها عليه ، فدعا الخادم الّذي كان معه في [٩٤ غ] الحبس ، وطلب منه الرّقعة الّتي كنت أنشدته الشّعر الّذي كان فيها ، في حبسه ، فأحضره إيّاها بعينها .

فقال : قد أمرت لك بكلّ بيت منها بألف دينار ، وكانت ستّة أبيات ، فأخذت ستّة آلاف دينار .

ثمّ قال لي : كأنّي بك ، وقد بادرت ، فاشتريت منها جارية ، وغلاماً ، وفرساً ، وأتلفت المال ، لا تفعل ، فإنّ لك فيما تستأنفه معنا من أيّامك ، ومع

---

١٧ في ظ وم و ر : ورد الشطر الأوّل من البيت وحده ، والإضافة من غ ومن نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي ٨ / ١٩ .

١٨ لا توجد في غ .

١٩ في ظ : غازياً ، وفي م : عارياً ، وفي ر : عازباً ، وفي غ : عادياً ، وفي نشوار المحاضرة ٨ / ١٩ مسرعاً .

٢٠ لم أجد في ديوان البحتري من هذه الأبيات الستّة سوى بيت المطلع : يجانبنا في الحب ، والبيت الّذي أوّله : فكيف رأيت الحق ، راجع الديوان ص ١٣٥ و١٣٦ .

وزرائنا وأسبابنا ، إذا عرفوا موضعك عندنا ، غناء عن ذلك ، ولكن افعل بهذا المال كما فعل ابن قيس الرقيّات[21] بالمال الّذي أعطاه عبد الله بن جعفر ، واشترى به ضيعة ، فاشتر أنت أيضاً به ضيعة تنتفع [٦٧ م] بغلّتها ، ويبقى عليك وعلى ولدك أصلها .

فقلت : السّمع والطّاعة ، وخرجت فاشتريت بالمال ضيعة جليلة بمنبج[22] ، ثم ارتفعت حالي معه وزادت[23] .

---

٢١ عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك ، المعروف بابن قيس الرقيّات : ترجمته في حاشية القصّة ٤٦٢ من هذا الكتاب .

٢٢ راجع بشأن هذه الضيعة ، القصّة ٨ / ٢٠ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخيّ .

٢٣ وردت هذه القصّة في كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخيّ ٨ / ١٩ .

١٥٤

أبو سعيد الثغري يعتقل ويعذّب

قال مؤلّف هذا الكتاب : وللبحتري في هذه الأبيات الكافيّة ، خبر آخر حسن ، نذكره لأنّه أيضاً يدخل في هذا الباب ، أخبرني أبو بكر الصولي [إجازة ، ونقلته من خطّه ، قال : حدّثني أحمد بن إبراهيم القنوي ،][١] قال :

طولب أبو سعيد الثغري ، بمال ، بعد غزواته المشهورة ، وسلّم إلى أبي الحسين النصراني الجهبذ [٥٤ ر] ليستخرج منه المال ، فجعل يعذّبه [٦٧ ظ] فشقّ ذلك على المسلمين ، وقالوا : يأخذ بثأر النصرانية .

فقال البحتري :

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها ... والمسلمين وضيعة الإسلام
طلبت ذحول الشرك في دار الهدى ... بين المداد وألسن الأقلام
هذاابن يوسف في يدي أعدائه ... يجزى على الأيّام بالأيّام[٢]
نامت بنو العبّاس عنه ولم تكن ... عنه أميّة – لو رعت – بنيام

فقرئ هذا الشّعر على المتوكّل ، فأمر بإطلاق أبي سعيد ، وتوليته ، [وأمر بإحضار قائل الأبيات ، فأحضر][٣] البحتري ، واتّصل به ، فكان أوّل شعر أنشده ، قوله في أبي سعيد :

جعلت فداك الدّهر ليس بمنفكّ

[وذكر الأبيات ، إلّا أنّه قال في البيت الثّالث ، بدل الحادثات : النائبات ،

---

١ الزيادة من غ .

٢ لم يرد هذا البيت في ظ .

٣ كذا ورد في غ ، وفي بقيّة النسخ : واستدعى .

وقال في البيت الّذي أوّله :

على أنّه قد ضيم في حبسك العلى وأضحى بك الإسلام في قبضة الشّرك][4]

4 الزيادة من غ ، وتوفّي أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري في السنة ٢٣٦ ، وكان قد ولّي أذربيجان وأرمينية ، فعسكر بكرخ فيروز ، وهو كرخ سامراء (المفترق صقعاً ٣٦٩) ، وأراد الركوب ، فلبس أحد خفّيه ، ومدّ الآخر ليلبسه ، فسقط ميتاً (الطبري ١٨٥/٩ ، وتجارب الأمم ٥٤٦/٦) ورثاه البحتري (ديوان البحتري ٤٨٨-٤٩٣) .

١٥٥

البحتري يهنّئ إبراهيم بن المدبّر

ومن محاسن شعر البحتري الّذي يتعلّق بهذا الباب ، وإن كان تعلّقاً ضعيفاً ، [إلاّ أنّ الشيء بالشيء يذكر ، ولا سيّما إذا قاربه][١] ، ما أخبرنيه الصولي ، إجازة ، قال :

ذكر إبراهيم بن المدبّر[٢] ، يوماً ، البحتري ، فقال : ما رأيت أتمّ طبعاً منه ، ولا أحضر خاطراً ، فقد مدحني حين تخلّصتُ من الأسر[٣] ، [يعني أسرَ صاحب الزنج بالبصرة][٤] وذكر الضربة الّتي في وجهي[٥] ، وتخلّصي ، ومدحُ المأسور شيء ما راعاه قبله أحد .

قال الصولي : والأبيات من قصيدة أوّلها :

قد كان طيفك مرّةً يغرى بي[٦]

---

١ كذا ورد في غ ، وفي بقيّة النسخ : ولكنّه يقاربه .

٢ أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن عبيد الله بن المدبّر : ممدوح البحتري ، راجع ديوان البحتري ٢١١ - ٢٣٣ ، كاتب ، شاعر ، تولّى الولايات الجليلة ، واستوزره المعتمد العباسي لمّا خرج يريد مصر سنة ٢٦٩ ، وكان غَزِلاً ، وكانت بينه وبين عريب حال مشهورة ، وكان يهواها وتهواه ، انظر أخبارهما في الأغاني ، طبعة بولاق ١٩ / ١١٤ ، توفّي ببغداد سنة ٢٧٩ وهو يتقلّد ديوان الضياع للمعتضد ، راجع ترجمته في الأعلام ١ / ٥٦ ، وراجع القصّة ١ / ١٤٥ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخيّ .

٣ انظر كيفيّة تخلّص إبراهيم بن المدبّر من الأسر في الكامل لابن الأثير ٧ / ٢٤٢ .

٤ الزيادة من غ .

٥ لما هاجم صاحب الزنج الأهواز ، هرب من فيها من الجند ومن أهلها ، ولم يبق إلاّ القليل ، فدخلها الزنج ، وأخربوها ، وكان بها إبراهيم بن المدبّر متولّي الخراج ، فأخذوه أسيراً ، بعد أن جرح ، ونهب جميع ماله ، وكان ذلك يوم ١٢ رمضان سنة ٢٥٦ (الكامل لابن الأثير ٧ / ٢٣٧) .

٦ ديوان البحتري ص ٢٢٠ ، وتتمّة البيت : يعتاد ركبي طارقاً وركابي .

قال فيها :

لو أنّه استام النّجاة لنفسه ... وجد النّجاة[7] رخيصة الأسباب
ومبينة شهد المنازلُ رسمها ... والخيل تكبو في العجاج الكابي
كانت بوجهك دون عرضك درأة ... إنّ الوجوه تصانُ بالأحساب [٩٥ غ]
ولئن أسرت فما الإسار على امرئ ... لم يأل صدقاً في اللقاء بعاب[8]
نام المضلّلُ عن سراك ولم يخف ... حرس الرّقيب وقسوة البوّاب[9]
ورأى بأنّ الباب مذهبك الّذي ... يخشى وهمّك كان غير الباب

[قال ذلك لأنّه نقب نقباً ، وخرج منه .][10]

فركبتها هولاً متى تخبربها ... يقل الجبان أنيت غير صواب
ما راعهم إلّا امتراقك مصلتاً ... عن مثل برد الأرقم المنساب
تحمي أغيلمة وطائشة الخطى ... تصل التلفّت خشية الطلّاب

[قال ذلك لأنّه أخرج معه من الحبس امرأة ، وأخرج ابن أخيه][10]

ما زال يوم ندى بطَولكَ زاهراً ... حتّى أضفت إليه يوم ضراب[11]
[ذِكَر من البأس استعدت إلى الّذي ... أُعطيتَ في الأخلاق والآداب

وروى غير الصولي ، في البيت الّذي قبل هذا الآخر :

لم ترضَ يوم ندى بطولك ...][10]

---

٧ في الأصل : الحياة ، والتصحيح من الديوان .
٨ في الديوان : نصر الأسار على الفرار بعاب .
٩ كذا ورد في غ ، وفي الديوان : سنة الرقيب ونشوة البوّاب .
١٠ الزيادة من غ .
١١ في الديوان : قد كان يوم ندى بطولك راهن .

١٥٦

يمنع ابن أبي سبرة علناً ويجيزه سرّاً

[حدّثنا أحمد بن عبد الله الورّاق ، من كتاب نسب قريش للزبير بن بكّار ، قال : حدّثنا أحمد بن سليمان الطوسي ، قال : حدّثنا الزّبير بن بكّار ، قال : أخبرني عمّي مصعب بن عبد الله ، وحدّثني سعيد بن عمرو ، جاء بهما الزّبير خبرين مفردين فيهما تكرير وزيادة في أحدهما على الآخر ، وأنا هنا أجمع بينهما ، وأجعلهما سياقة واحدة ، وأسقط التكرير ، قال :][١]

كان أبو بكر محمّد بن أبي سبرة [بن أبي ريم بن عبد العزّى بن أبي قيس ابن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي بن غالب بن نصر بن مالك بن النضر بن كنانة][١] عاملاً لرياح بن عثمان[٢] ، على مسعاة[٣] أسد وطيئ .

فلمّا خرج محمّد بن عبد الله بن الحسن [بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام][٤] جاء بما صدّق من المال إليه ، ومبلغه أربعة وعشرون ألف دينار[٥] ،

---

١ الزيادة من غ .

٢ رياح بن عثمان بن حيّان بن معبد المريّ : كان أبوه عاملاً على المدينة للوليد الأمويّ وكان ظالماً جائراً ، وسار ولده رياح على طريقته في الظلم والجور ، فعسف الناس عسفاً شديداً من أجل القبض على محمّد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن ، فظهر محمّد ، واستولى على المدينة ، وقتل رياحاً (الطبري ٧ / ٥١٧ ، ٥٣١ ، ٥٩١) .

٣ المسعاة : الولاية على الصدقات ، يقال : استسعى الرجل ، أي استعمله على الصدقات ، وولاّه استخراجها من أربابها .

٤ أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علـيّ بن أبي طالب ، الملقّب بالنفس الزكيّة (٩٣ – ١٤٥) : عالم ، شجاع ، سخي ، حازم ، رشّحه الهاشميون ، من عبّاسيّين وعلويّين ، للخلافة ، وبايعوه سرّاً في العهد الأمويّ ، وكان السفاح والمنصور من دعاته ، فلمّا ولّي المنصور ، ألحّ في طلبه حتى اضطرّه للخروج عليه ، فخرج بالمدينة ، وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة ، فقبض المنصور على والدهما وعلى اثني عشر رجلاً من أقاربهما ، وعذبهم أشدّ العذاب ، حتى ماتوا في حبسه بالكوفة (راجع حاشية

فدفع ذلك إليه ، فكانت قوّة لمحمّد .

فلمّا قتل عيسى بن موسى[6] محمّداً بالمدينة ، قيل لأبي بكر : اهرب ، قال : ليس مثلي يهرب ، فأخذ أسيراً ، فطرح في حبس المدينة ، ولم يحدث عيسى بن موسى في أمره شيئاً غير حبسه ، فأمر المنصور بتقييده ، فقيّد[7] .

فقدم المدينة بعدما شخص عيسى بن موسى ، عبد الله بن الرّبيع المدني[8] ومعه جند ، فعاثوا في المدينة وأفسدوا[9] ، فوثب عليه سودان المدينة والرعاع ، فقتلوا جنده ، وطردوهم ، وانتهبوهم ، وانتهبوا عبد الله بن الرّبيع ، فخرج حتّى نزل ببئر المطلب ، يريد العراق ، على خمسة أميال من المدينة[10] .

وكبس السودان السجن ، فأخرجوا أبا بكر .

وقال سعيد : فأخرج القرشيون أبا بكر ، فحملوه على منبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فنهى عن معصية أمير المؤمنين ، وحثّ على طاعته .

وقيل له : صلّ بالنّاس .

فقال : إنّ الأسير لا يؤمّ ، ورجع إلى محبسه .

القصّة ٣١٨ من هذا الكتاب) ، وبعث المنصور عيسى بن موسى لقتال محمّد ، فقتله بالمدينة ، وقُتل أخوه إبراهيم بباخمرى ، بين الكوفة وواسط (معجم البلدان ١ / ٤٥٨ ، الأعلام ٧ / ٩٠) .

٥ الطبري ٧ / ٦٠٩ .

٦ أبو موسى عيسى بن موسى بن محمّد (١٠٢ - ١٦٧) : ابن أخ السفّاح العبّاسي ، أمير ، من الولاة القادة ، كان يلي الكوفة ، وكانت إليه ولاية عهد المنصور ، فنحّاه المنصور للمهدي ، ونحّاه المهدي لولديه موسى وهارون ، وخلعه من ولاية العهد (الأعلام ٥ / ٢٩٦) .

٧ في غ : فأمر المنصور بتحديده ، فحدّد .

٨ في غ : عبد الله بن الربيع الحارثي .

٩ قدم عبد الله بن الربيع المدينة والياً عليها من قبل أبي جعفر المنصور ، في يوم السبت ٢٥ شوال سنة ١٤٥ (الطبري ٧ / ٦١٠) .

١٠ بئر المطّلب : قال ياقوت في معجم البلدان ١ / ٤٣٤ إنّها على سبعة أميال من المدينة ، على طريق العراق ، منسوبة إلى المطّلب بن عبد الله المخزوميّ .

فلمّا ولّي المنصور ، جعفر بن [٦٨ م] سليمان[11] ، على المدينة ، قال له : بيننا وبين أبي بكر رحم ، وقد أساء وأحسن ، فإذا قدمت المدينة ، فأطلقه ، وأحسن جواره .

[وقال سعيد : فأمره بإطلاق ابن أبي سبرة [٩٦ غ] ، وأوصاه به ، وقال : إن كان قد أساء فقد أحسن .][12]

فأطلقه جعفر .

فسأل جعفر أن يكتب له بوصاة إلى معن بن زائدة [٥٥ ر] ، وهو إذ ذاك على اليمن ، فكتب له بوصاة إليه .

فلقي الرابحي ، فقال : هل لك في الخروج معي إلى العمرة ؟

فقال : أما والله ، ما أخرجني من منزلي إلاّ طلب شيء لأهلي ، فما تركت عندهم شيئاً ، فأمر له ابن أبي سبرة بنفقة [٦٩ ظ] أنفذها إلى عياله[13] ، وخرج معه .

فلمّا قضيا عمرتهما ، قال للرابحي : هل لك أن نأتي معن بن زائدة؟

قال : نعم .

فأمر له بنفقة أنفذها إلى عياله ، وأخرجه معه ، حتى قدما على معن بن زائدة .

فدخل عليه ابن أبي سبرة وحده ، فدفع إليه كتاب جعفر بالرّضا عنه ، فلمّا قرأه ، قال : كان جعفر أقدر على صلتك منّي ، انصرف ، فليس لك عندي شيء ، فانصرف مغموماً .

---

١١ جعفر بن سليمان بن عليّ العباسي : ابن عمّ المنصور ، ولّي المدينة في السنة ١٤٦ على أثر مقتل النفس الزكيّة ، وعزل في السنة ١٥٠ ، وولّي مكة والطائف واليمامة ، وتوفّي في السنة ١٧٧ وهو أمير البصرة للرشيد (ابن الأثير ٥ / ٥٧٦ و٥٩٣ و٦ / ٥٦ ، ١٤٠ ، ٢١٤) .

١٢ الزيادة من غ .

١٣ في غ : فقال له ابن أبي سبرة : تكفاهم ، وأمر لهم بما يصلحهم .

فلمّا انتصف النهار ، أرسل إليه ، فجاءه ، فقال له : يا ابن أبي سبرة ما حملك على أن قدمت عليّ ، وأمير المؤمنين عليك واجد ؟

ثم سأله : كم دينك ؟

قال : أربعة آلاف دينار .

فأعطاه أربعة آلاف دينار ، وأعطاه ألفي دينار أخرى ، وقال : أصلح بهذه أمرك .

فانصرف إلى منزله ، فأخبر الرابحي ، بما صنع معن معه ، فراح الرابحي إلى معن ، فأنشده :

الرابحيّ يقول في مدح   لأبي الوليد أخي النّدى الغمر
ملك بصنعاء الملوك له   ما بين بيت الله والشِحْرِ [14]
لو جاودته الرّيح مرسلة   لجرى بجود فوق ما تجري
حملت به أمّ مباركة   وكأنّها بالحمل لا تدري

فقال له معن : فكان بماذا ويحك ؟

فقال :

حتّى اذا ما تمّ تاسعها   ولدته مولد ليلة القدر

[فقال له معن : ثمّ ماذا ويحك ؟] [15]

فقال :

فأتت به بيضاً أسرّته   يرجى لحمل نوائب الدّهر

---

١٤ الشِحْر ، بكسر الشين وسكون الحاء : صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، بين عدن وعُمان (معجم البلدان ٣ / ٣٦٣) .

١٥ الزيادة من غ .

مسح القوابـل وجهـه فبـدا كالبـدر بل أبهـى مـن البدر
فنـذرن حـين رأيـن غـرّتـه إن عـاش أن يـوفـين بالنّذر
لله صومـاً شكـر أنعمـه والله أهـل الحمـد والشّكـر

فقال له معن : ثمّ ماذا ؟

فقال :

فنشا بحمـد الله حـين نشـا حسن المـروءة ،نابـه الذّكـر

[فقال معن : ثمّ ماذا ؟][16]

فقال :

حتّى إذا ما طرّ شاربـه خضـع الملـوك لسيّـدٍ بهر[17]
فـإذا وهـي ثغـر يقـال لـه : يا معن أنت سداد ذا الثغـر

فقال معـن : أنا أبو الوليد ، أعطوه ألف دينار .

فأخذهـا ورجع إلى ابن أبي سبرة ، فخرجا جميعاً إلى مكّة .

فقال ابن أبي سبرة : أمّا الأربعة آلاف دينار ، فلقضاء ديني ، وأمّا الألفان الفاضلة ، فلك منها ألف .

قال الرّابحي : قد أعطاني ألف دينار ، وهي تجزيني ، فلا تضيّق على نفسك ، في الألفي الدينار [٩٧ غ] .

فقال له : أقسمت عليك لتأخذنّها ، فأخذها ، وأنفق عليه ، حتّى أتى المدينة .

ونمى الخبر إلى المنصور ، فكتب إلى معن : ما حملك على أن أعطيت

---

١٦ الزيادة من غ .

١٧ بهر الرجل : فاق أقرانه .

ابن أبي سبرة ما أعطيته ، وقد علمت ما صنع ؟

فكتب إليه معن : إنّ جعفر بن سليمان كتب إليّ يوصيني به ، ولم أظنّ أنّ جعفراً يكتب في رجل لم يرضَ عنه أمير المؤمنين .

فكتب المنصور إلى جعفر ، يبكّته بذلك .

فكتب إليه جعفر : أنت ، يا أمير المؤمنين أوصيتني به ، ولم يكن في استيصائي به شيء أيسر من كتاب وصاة إلى معن[18] .

---

١٨ قال ابن خلّكان في وفيات الأعيان ٥/٢٥٤ : ومن المراثي النادرة ، أبيات الحسين بن مطير الأسدي في معن . وهي من أبيات الحماسة ، قال :

ألمّا على معنٍ ، وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معنٍ أنت أوّل حفرةٍ ... من الأرض خطّت للسماحة مضجعا
ويا قبر معنٍ كيف واريتَ جوده ... وقد كان منه البرُّ والبحرْ مترعا
بلى ! قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميّتٌ ... ولو كان حيّاً ضقتَ حتّى تصدّعا
ب فتى عِيشَ في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى معنٌ مضى الجودُ وانقضى ... وأصبح عرنينُ المكارم أجدعا

١٥٧

بال في ثيابه خوفاً منه ثم بال على قبره

[وجدت في كتاب أبي الفرج المخزومي الحنطبي ، عن أبي طالب الجعفري ، أنه سمع رجلاً][١] يحدّث عن محمّد بن الفضل الجرجرائي[٢] [في وزارته للمعتصم[٣] ، قال :][٤]

كنت أتولّى ضياع عجيف[٥] ، بكسكر[٦] ، فرفع عليّ أنّي خنته ، وأخربت

---

١ كذا ورد في غ ، وفي ر : وحكي أنّ محمّد بن الفضل الجرجرائي ، في وزارته ، حدّث أنّه ... الخ وفي م : وحدّث أبو طالب الجعفريّ . أنّ محمّد بن الفضل الجرجرائي ، حدّث ... الخ .

٢ أبو جعفر محمّد بن الفضل الجرجرائي : كاتب ، ظريف ، حسن الأدب ، كتب للفضل بن مروان ، ثمّ وزّر للمتوكّل ، ثمّ للمستعين ، توفّي سنة ٢٥١ نسبته إلى جرجرايا ، مدينة من أعمال النهروان الأسفل ، بين واسط وبغداد في الجانب الشرقي ، خربت مع ما خرب من النهروان (الأعلام ٧ / ٢٢١ ومعجم البلدان ٢ / ٥٤) .

٣ كذا ورد في غ ، والجرجرائي لم يوزّر للمعتصم ، وإنّما وزّر للمتوكّل ، ثمّ للمستعين (الأعلام ٧ / ٢٢١) ، وأحسب أنّ هذا من أغلاط النسّاخ ، وقد وردت هذه الفقرة في نسخة م : حدّث أبو طالب الجعفري أنّ محمّد بن الفضل الجرجرائي حدّث أنّه كان في ولاية المعتصم يتولّى ضياع عجيف ... الخ ، وفي نسخة ظ : حدّث محمّد بن الفضل الجرجرائي أنّه كان يتولّى ضياع عجيف .. الخ ، وفي نسخة ر : وحكي أنّ محمّد بن الفضل الجرجرائي في وزارته حدّث أنّه كان يتولّى ضياع عجيف ... الخ .

٤ الزيادة من غ .

٥ عجيف بن عنبسة : من قوّاد الدولة العباسيّة ، كان من أصحاب رافع بن الليث الخارج على الدولة العباسيّة بخراسان ، وفارقه ، وانحاز إلى القائد العبّاسي هرثمة بن أعين ، وقمع للمأمون ثورة قم ، وهارون الشاري ، وقاتل عليّ بن هشام وأسره وقدم به على المأمون فقتله ، وفي السنة ٢١٩ وجّهه المأمون لحرب الزطّ الذين قطعوا الطريق من كسكر إلى البصرة وعاثوا فيها ، فقتل منهم ، واستسلم له الباقون وقدرهم سبعة وعشرون ألفاً ، فأصعدهم إلى بغداد ، وأنزلهم بالزعفرانية ، وهي قرية قرب بغداد ، تحت كلواذى (معجم البلدان ٢ / ٦٣١) وما زال هذا اسمها إلى الآن ، وفيها الآن مزرعة نموذجية

الضياع ، فأنفذ إليّ [٦٩ م] من قيّدني ، وأدخلت عليه في داره بسرّ من رأى ، على تلك الحال ، فإذا هو يطوف على صنّاع فيها .

فلمّا نظر إليّ شتمني ، وقال : أخربت الضّياع ، ونهبت الارتفاع ، والله لأقتلنّك ، هاتوا السياط .

فأحضرَتْ ، وشلّحتُ للضرب[7] .

فلمّا رأيت ذلك ، ذهب عليّ أمري ، وبلت على ساقي .

فرآني كاتبه ، فقال لعجيف : أعزّ الله الأمير ، أنت مشغول القلب بهذا البناء ، وضرب هذا وقتله في أيدينا ، ليس يفوت ، فتأمر بحبسه ، وانظر في أمره ، فإن كانت الرّفيعة[8] [٦٩ ظ] صحيحة ، فليس يفوتك عقابه ، وإن كانت باطلة ، لم تتعجّل الإثم ، وتنقطع عمّا أنت مهتمّ [٥٦ ر] به[9] .

فأمر بي إلى الحبس ، فمكثت فيه أيّاماً .

حكوميّة . أمّا كلواذى . فقد حرّف اسمها الآن إلى : گراره . بالكاف الفارسية . ثمّ ان عجيف نقلهم إلى عين زربة وكانت من الثغور . فأغارت الروم عليهم واصطلمتهم . وكان أحد قوّاد المعتصم في فتح عموريّة . ثمّ اشترك في المؤامرة لخلع المعتصم ونصب العبّاس بن المأمون . فاعتقله المعتصم . وسلّمه إلى إيتاخ . فلمّا صار بباعيناثا – فوق بلد قليلاً – مات في المحمل . فطرح عند صاحب المسلحة . فجاء به إلى جنب حائط . فطرحه عليه . فقبره هناك (الطبري ٨ / ٣٤٠ . ٦١٤ . ٦٢٧ و ٩ / ٨ – ١٠ . ٥٧ . ٦٩ – ٧١ . ٧٧) .

٦ كسكر : كورة واسعة قصبتها واسط . وقبل واسط كانت قصبتها خسرو سابور . تنسب إليها الفراريج الكسكرية . قال ياقوت رحمه الله في معجم البلدان ٤ / ٢٧٤ : رأيت الفراريج تباع بكسكر . أربعة وعشرين فروجاً كباراً بدرهم واحد .

٧ التشليح : التعرية . وهذا التعبير ببغداد الآن مقصور على من انكشفت عورته . ويقولون عنه : مشلّح . بتشديد اللاّم . أمّا المتعرّي . فيقولون عنه : مصلّخ . بالصاد واللاّم المشددة . وفصيحها بالسين . يقال : انسلخ من ثيابه إذا تجرّد وتعرّى . وفي م : سحبت للضرب .

٨ الرفيعة : ما يرفع على الإنسان من التهم .

٩ في غ : وتنقطع عمّا أنت بسبيله من المهمّ .

وغزا أمير المؤمنين المعتصم ، عموريّة[10] ، وكان من أمر عجيف ما كان[11] ، فقتله ، واتّصل الخبر بكاتبه ، فأطلقني .

فخرجت من الحبس ، وما أهتدي إلى حبّة فضة ، فما فوقها .

فقصدت صاحب الدّيوان بسرّ من رأى ، وكان صديقي ، فلمّا رآني سرّ بإطلاقي وتوجّع لي من سوء حالي ، وعرض عليّ مالاً .

فقلت : بل تتفضّل بتصريفي[12] في شيء أستتر بجاريه[13] .

فقلّدني عملاً بنواحي ديار ربيعة[14] ، فاقترضت من التّجار لما سمعوا بخبر ولايتي ، ما تحمّلت به إلى العمل ، وخرجت .

وكان في ضياع عملي ، ضيعة تعرف بكراثا[15] ، فنزلت بها في بعض طوافي بالعمل ، وحصلت في دار منها ، فلمّا كان السّحر ، وجدت المستحمّ[16] ضيّقاً غير نظيف ، فخرجت من الدّار إلى تلّ في الصّحراء ، فجلست أبول عليه .

فخرج إليّ صاحب الدّار ، فقال لي : أتدري على أيّ شيء تبول ؟

قلت : على تلّ تراب .

فضحك ، وقال : هذا قبر رجل يعرف بعجيف ، قائد من قوّاد السلطان ، كان قد سخط عليه ، وحمله معه مقيّداً ، فلمّا بلغ إلى هاهنا قتل ، فطرح في هذا المكان تحت حائط ، فلمّا انصرف العسكر ، طرحنا عليه الحائط ، لنواريه من الكلاب ، فهو – والله – تحت هذا التلّ التّراب .

فعجبت من بولي خوفاً منه ، ومن بولي على قبره .

---

١٠ غزا المعتصم عموريّة . في السنة ٢٢٣ (الطبري ٩ / ٥٧) .

١١ راجع تفصيل ذلك في الطبري (٩ / ٥٧ – ٧٧) . ١٢ صرّف الرجل : وجّه إليه عملاً له رزق أي راتب .

١٣ في ظ : بجائزته . والتصحيح من م ، و ر ، وغ .

١٤ ديار ربيعة : ما بين الموصل إلى رأس عين . وما بين ذلك من المدن والقرى (معجم البلدان ٢ / ٦٣٧) .

١٥ كراثا : قرية من قرى الموصل . بينها وبين جزيرة ابن عمر (معجم البلدان ٤ / ٢٤٥) .

١٦ المستحمّ : كناية عن المرحاض .

١٥٨

لقاء بين الجدّ الرّومي النصراني والحفيد العربيّ المسلم

[وروى إبن دريد][1] عن أبي حاتم ، عن أبي معمّر ، عن رجل من أهل الكوفة ، قال :

كنّا مع مسلمة بن عبد الملك[2] ، ببلاد الرّوم ، فسبا سبايا كثيرة ، وأقام ببعض المنازل ، فعرض السبي على السيف ، فقتل خلقاً ، حتّى عرض عليه شيخ كبير ضعيف ، فأمر بقتله .

فقال له : ما حاجتك إلى قتل شيخ مثلي ؟ إن تركتني حيًّا ، جئتك بأسيرين من المسلمين شابّين .

قال له : ومن لي بذلك ؟

قال : إنّي إذا وعدتُ وفيتُ .

قال : لست أثق بك .

فقال له : دعني حتّى أطوف في عسكرك ، لعلّي أعرف من يتكفّل [٩٨ غ] بي إلى أن أمضي وأعود أجيء بالأسيرين .

فوكّل به من يطوف به ، وأمره بالاحتفاظ به ، فما زال الشّيخ يطوف ، ويتصفّح الوجوه ، حتّى مرّ بفتى من بني كلاب ، قائماً يحسّ فرسه[3] .

---

١ الزيادة من غ .

٢ أبو سعيد مسلمة بن عبد الملك بن مروان الأمويّ : أمير ، قائد ، من أبطال عصره ، كان يلقّب بالجرادة الصفراء ، له فتوحات مشهورة ، توفّي بالشام سنة ١٢٠ ، قال الذهبيّ : كان أولى بالخلافة من سائر إخوته (الأعلام ٨ / ١٢٢) ، أقول : حال بينه وبين الخلافة أنه ابن أمة ، راجع ما كتبناه حول هذا الموضوع في حاشية القصّة ٨١ من هذا الكتاب .

٣ حسّ الدابّة : نفض التراب عنها بالمحسّة ، ما زال هذا التعبير مستعملاً في بغداد .

فقال له : يا فتى ، اضمنّي للأمير ، وقصّ عليه قصّته .

فقال : أفعل ، وجاء الفتى إلى مسلمة ، فضمنه ، فأطلقه مسلمة .

فلمّا مضى ، قال للفتى : أتعرفه ؟

قالَ : لا ، والله .

قال : فلمَ ضمنته ؟

قال : رأيته يتصفّح الوجوه ، فاختارني من بينهم ، فكرهت أن أخلف ظنّه فيّ .

فلمّا كان من الغد ، عاد الشيخ ، ومعه أسيران شابّان من المسلمين ، فسلّمهما إلى مسلمة ، وقال : إن رأى الأمير أن يأذن لهذا الفتى أن يصير معي إلى حصني لأكافئه على فعله .

فقال مسلمة للفتى الكلابي : إن شئت فامضِ معه .

فلمّا صار إلى حصنه ، قال له : يا فتى ، تعلم – والله – أنّك ابني ؟

قال له : وكيف أكون ابنك ، وأنا رجل من العرب مسلم ، وأنت رجل من الرّوم نصراني .

فقال له : أخبرني عن أمّك ، ما هي ؟

قال : روميّة .

قال : فإنّي أصفها لك ، فبالله إن صدقت ، إلّا صدقتني .

قال : أفعل .

فأقبل الرّومي ، يصف أمّ الفتى ، ما خرم من صفتها شيئاً .

فقال له الفتى : هي كذلك ، فكيف عرفت أنّي ابنها ؟

قال : بالشبه ، وتعارفِ الأرواح [٤] ، وصدقِ الفراسة .

---

٤ في م وظ : وتقارب الأرواح .

ثمّ أخرج إليه امرأة . فلمّا رآها الفتى لم يشكّ فيها أنّها [٧٠ م] أمّه ، لتقارب الشّبه ، وخرجت معها عجوز كأنّها هي ، فأقبلتا تقبّلان رأس الفتى ، ويديه ، وترشّفانه .

فقال له : هذه جدّتك ، وهذه خالتك .

ثمّ اطّلع من حصنه ، فدعا بشباب في الصّحراء ، فأقبلوا ، فكلّمهم بالرّوميّة ، فأقبلوا يقبّلون رأس الفتى ويديه ، فقال : هؤلاء [٧٠ ظ] أخوالك ، وبنو خالاتك ، وبنو عمّ والدتك .

ثمّ أخرج إليه حلياً كثيراً ، وثياباً فاخرةً ، وقال : هذا لوالدتك عندنا منذ سُبِيَتْ . فخذه معك ، وادفعه إليها ، فإنّها ستعرفه ، ثمّ أعطاه لنفسه مالاً كثيراً ، وثياباً ، وحلياً ، وحمله على عدّة دواب . وألحقه بعسكر مسلمة ، وانصرف .

وأقبل الفتى قافلاً حتّى دخل إلى منزله [٥٧ ر] فأقبل يخرج الشيء بعد الشيء ممّا عرّفه الشّيخ أنّه لأمّه ، وتراه أمّه ، فتبكي ، فيقول لها : قد وهبته لك .

فلمّا كثّر عليها ، قالت له : يا بنيّ ، أسألك بالله ، من أي بلد صارت إليكم هذه الثّياب ، وهل تصف لي أهل هذا الحصن الّذي كان فيه هذا ؟

فوصف لها الفتى صفة البلد والحصن ، ووصف لها أمّها وأختها ، والرّجال الّذين رآهم ، وهي تبكي وتقلق .

فقال لها : ما يبكيك ؟

فقالت : الشّيخ والله والدي ، والعجوز أمّي ، وتلك أختي .

فقصّ عليها الخبر ، وأخرج بقيّة ما كان أنفذه معه أبوها إليها ، فدفعه إليها .

١٥٩

يحتال لإخراج أحد أصحابه من الحبس

حدّثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق التنوخي ، قال :

كان إسماعيل الصفّار البصري[١] ، أحد شيوخ المعتزلة الأجلاد ، وكان النّاس – إذ ذاك – يتشدّدون على المعتزلة[٢] ، وينالونهم بالمكاره .

فتقلّد البصرة نزار بن محمّد الضبّي[٣] ، فرُفع إليه عن رجل أنّه معتزلي ،

---

١ إسماعيل الصفّار : قال عنه التنوخيّ في نشوار المحاضرة . كان إسماعيل الصفّار البصري . أحد شيوخ أصحابنا المعتزلة . راجع القصّة ٢ / ١٠٧ و ٢ / ١٠٨ من النشوار .

٢ المعتزلة : ويسمّون أصحاب العدل والتوحيد . مذهب ضمّ كثيراً من المفكّرين مثل واصل بن عطاء . وعمرو بن عبيد ، وأبي الهذيل العلاف ، والنظّام ، وثمامة بن أشرس ، والجاحظ ، وأحمد بن أبي دؤاد . والجبائيان أبو علي وأبو هاشم (راجع أسماءهم في الفهرست ص ٢٠١ – ٢٢٢) والمعتزلة يقولون : إنّ الله تعالى قديم ، والقدم أخصّ وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلاً ، وإنّ كلام الله محدث مخلوق . وإنّ العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرّها . ويقولون بالمنزلة بين المنزلتين . وهذا القول سبب تسميتهم بالمعتزلة . فإنّ واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري . وحصلت المناقشة بشأن مرتكبي الكبائر . فقال الخوارج : هم كافرون . وقال الجماعة : هم مؤمنون وإن فسقوا بارتكاب الكبائر ، فخرج واصل عن الفريقين ، وقال : إنّ مرتكب الكبيرة باعتباره فاسقاً ، لا مؤمن ولا كافر . منزلة بين منزلتين . فنفاه الحسن عن مجلسه . فاعتزله . واجتمع وأصحابه في موضع آخر ، فسمّوا المعتزلة . راجع اللباب ٣ / ١٥٦ بحث « المعتزلي » . وللتفصيل عن المعتزلة : راجع كتاب الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٥٣ – ٩٦ وراجع كذلك حاشية القصّة ٤٥٩ من هذا الكتاب . وخطط المقريزي ٢ / ٣٤٥ – ٣٤٨ .

٣ أبو معد نزار بن محمّد الضبّي : من عمّال الدولة العباسيّة . كان في السنة ٢٨٨ عاملاً على إحدى جهات الثغر . وفي السنة ٢٩٢ كان عاملاً على البصرة . وفي السنة ٢٩٤ على الكوفة . ثم ولّي شرطة بغداد . وفي السنة ٣٠٦ عزل عنها (الطبري ١٠ / ٨٥ و ١١٨ و ١٣٥ والكامل ٧ / ٥١٠ ، و ٨ / ١١٣) . راجع القصّة ٤ / ١٢ من كتاب نشوار المحاضرة .

فحبسه . فاستغاث الرّجل بإسماعيل ، فكلّم غير واحد من رؤساء البلد ، أن يكلّم نزاراً فيه ، فتجنّبوا ذلك بسبب المذهب ، فبات إسماعيل قلقاً .

ثمّ بكر من غد ، فطاف على كلّ معتزليّ بالبصرة ، وقال [٩٩ غ] لهم : إن تمّ هذا عليكم هلكتم متفرّقين ، وحبستم ، وأُتي على أموالكم ونفوسكم ، فاقبلوا منّي ، واجتمعوا ، وتدبّروا برأيي ، فإنّ الرّجل يتخلّص وتعزّون .

فقالوا : لا نخالف عليك .

فوعدهم ليوم بعينه ، ووعد معهم كلّ من يعرفه من العوام ، وأصحاب المذاهب[٤] ممّن يتّبع قصّاص المعتزلة ، ومنْ يميل إليهم .

فلمّا كان ذلك اليوم ، اجتمع له منهم أكثر من ألف رجل ، فصار بهم إلى نزار ، واستأذن عليه ، فأذن له ولهم .

فقال : أعزّ الله الأمير ، بلغنا أنّك حبست فلاناً ، لأنّه قال : إنّ القرآن مخلوق[٥] ، وقد جئناك ، وكلّنا نقول : إنّ القرآن مخلوق ، وخلفنا ألوف يقولون كما نقول ، فإمّا حبستنا جميعاً ، وإمّا أطلقت صاحبنا ، وإذا كان السلطان — أطال الله بقاءه — قد ترك المحنة ، وقد أقرّ النّاس على مذاهبهم ، فلِمَ نؤاخذ نحن بمذهبنا ، من بين سائر المقالات ؟

فنظر نزار فإذا فتنة تثور ، لم يؤذن له فيها ، ولم يدرِ ما تجرّ ، فأطلق الرّجل ، وسلّمه إليهم .

فشكره إسماعيل ، وانصرف والجماعة[٦] .

---

٤ كذا وردت في ر ، وفي ظ وم : أصحاب المدات ، وفي غ : أصحاب المداب .

٥ القول بأنّ القرآن مخلوق ، تبنّاه المأمون ، وأخذ النّاسَ بأن يتابعوه في ذلك ، وأتبعه المعتصم والواثق ، وامتحنوا المخالفين لهم وآذوهم .

٦ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخيّ برقم ٢ / ١٠٨ .

١٦٠
شاميّ عظيم الجاه من بقايا بني أميّة

[وجدت في كتاب أبي الفرج المخزومي الحنطبي ، عن أبي أميّة الهشامي ، عن أبي سليمان داود بن الفضل العبدي ، قال : أخبرني أبي ، عن محمّد بن الحسن بن بشر الأدمي ، قال : حدّثني][١] منارة ، خادم الخلفاء[٢] ، قال :

رفع إلى هارون الرّشيد ، أنّ رجلاً بدمشق ، من بقايا بني أميّة ، عظيم الجاه واسع الدّنيا ، كثير المال والأملاك ، مطاعاً في البلد ، له جماعة أولاد ومماليك وموالي ، يركبون الخيل ، ويحملون السّلاح ، ويغزون الرّوم ، وأنّه سمح جواد ، كثير البذل والضيافة ، وأنّه لا يؤمن منه فتق لا يمكن رتقه ، فعظم ذلك على الرّشيد .

قال منارة : وكان وقوف الرّشيد على هذا وهو بالكوفة ، في بعض خرجاته إلى الحجّ سنة ست وثمانين ومائة[٣] ، وقد عاد من الموسم ، وقد بايع للأمين ثمّ المأمون ثمّ المؤتمن[٤] .

---

١ الزيادة من غ ، وفي بقيّة النسخ : قال منارة .

٢ منارة خادم الخلفاء : مولى المنصور ، وكان مع المنصور عند وفاته في طريقه إلى الحج سنة ١٥٨ ، فقدم على المهدي بمدينة السلام ، بخبر وفاة أبيه ، والبيعة له ، وأحضر معه القضيب والبردة وخاتم الخلافة (ابن الأثير ٦ / ٣٤ والطبري ٨ / ١١٢) ، واستمرّ في خدمة الخلفاء إلى آخر حياته .

٣ شخص هارون الرشيد من الرقّة في رمضان سنة ١٨٦ وأخرج معه الأمين والمأمون وليي عهده وقوّاده ووزراءه وقضاته ، فلمّا قضى مناسك الحج ، كتب ببيعة الأمين والمأمون وجعل الكتاب في البيت الحرام ، راجع تفصيل ذلك مع نصّ كتاب البيعة في الطبري ٨ / ٢٧٣ – ٢٨٦ ، ولمّا عاد من حجّه أوقع بالبرامكة ، راجع تفصيل ذلك في الطبري ٨ / ٢٨٧ – ٣٠٢ .

٤ لمّا حجّ الرشيد في السنة ١٨٦ لم يكن قد بايع للقاسم ، فإنّه بايع للأمين في السنة ١٧٥ وهو ابن خمس سنين (تاريخ اليعقوبي ٢ / ٤٠٨) وفي السنة ١٨٣ بايع للمأمون (تاريخ اليعقوبي ٢ / ٤١٥) ولمّا حجّ

فدعاني وهو خالٍ ، فقال لي : دعوتك لأمر أهمّني وقد منعني النوم ، فانظر كيف تكون ؟ ثمّ قصّ عليّ خبر الأموي .

وقال : اخرج السّاعة ، فقد أعددت لك الجمّازات ٥ ، وأزحت علّتك في الزاد والنّفقة والآلات ، وضممت إليك مائة غلام ، فاسلك البريّة ، وهذا كتابي إلى أمير دمشق ، وهذه قيود ، فادخل ، وابدأ بالرجل [٧١ م] ، فإن سمع وأطاع ، فقيّده ، وجئني به [٧١ ظ] وإلّا فتوكّل به أنت ومن معك

في السنة ١٨٦ أخذهما معه ، وأخذ عليهما العهد في الكعبة بأن يحفظ أحدهما الآخر ويصونه (تاريخ اليعقوبي ٢ / ٤١٦) ، أمّا القاسم فقد بايع لـه في السنة ١٨٩ ولقّبه المؤتمن ، بسعي من الفضل بن الربيع (الأغاني ١٨ / ٣١٥) وعبد الملك بن صالح الهاشميّ (الطبري ٨ / ٢٧٦) ، وكان قد مهّد لمبايعته ، بأن أغزاه الصائفة في السنة ١٨٧ و١٨٨ وولّاه الجزيرة والثغور والعواصم (تاريخ اليعقوبي ٢ / ٤٢٣ والطبري ٨ / ٢٧٦ و٣٠٢ والكامل ٦ / ١٧٣) ، وجعل الرشيد أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى المأمون إذا أفضت إليه الخلافة (الطبري ٨ / ٣١٥ والكامل ٦ / ١٧٣ و١٩١) ، وكان القاسم جميل الصورة (وفيات الأعيان ٦ / ٤١) ولكنّه كان ظالماً (الأغاني ٤ / ٦٦) ساقط الهمّة ، دنيء النفس (المحاسن والمساوئ للبيهقي ١ / ١٣٤) ، وقد أدّى به سوء تصرّفه إلى أن عزله أخوه الأمين عن جميع ما كان أبوه هارون ولّاه من عمل الشام وقنسرين والعواصم والثغور ، وأمره بالمقام بمدينة السلام (الطبري ٨ / ٣٧٤) ، وكان المأمون على أن يعهد إليه ، ويؤكّد له ما كـان والده جعله له من ولاية العهد ، غير أنّه كان يبلغه عنه ما يكره ، مرّة في نفسه ، وأخرى في حشمه ، فرفع إليه يوماً أنّه قـال لقوّام حمّامه : نوّروا الناسَ بالمجّان ، ففعلوا ذلك ، فلمّا اجتمع الناس ، أخرج عليهم الأسد ، فخرج الناس عراة مغمى عليهم ، مع ما عليهم من النورة ، وأشرف عليهم ، وهو يضحك ، فلما كثر هذا من فعله ، خلعه من ولاية العهد ، وصرفه عنها ، وكتب بذلك كتاباً (المحاسن والمساوئ ١ / ١٣٤) ومات القاسم ببغداد في السنة ٢٠٨ وهو ابن ٣٥ سنة (تاريخ بغداد للخطيب ١٢ / ٤٠٣) .

٥ الجمز : العدو السريع ، والجمّازات : إبل بختيّة ، تدرّب على نوع من السير السريع ، يرتاح إليه الراكب ، ويأنس به ، وأوّل من اتّخذ الجمّازات أمّ جعفر زبيدة ، كانت في سفر مع الرشيد ، ففاتها ، فأمرت الرحّالين ، أن يزيدوا في سير البختيّة ، فلمّا حرّكوها ، مشت ضروباً من المشي ، وجمزت خلال ذلك ، فوجدت لذلك النوع من السير راحة ، فأمرتهم أن يدرّبوها على الجمز ، فما زالوا بها حتى تمّ ذلك واستوى (لطائف المعارف ٢٠ و٢١) .

حتّى لا يهرب ، وأنْفِذِ الكتابَ إلى أمير دمشق ، ليركب في جيشه فيقبض عليه ، وتجيئني به ، وقد أجّلتك لذهابك ستّاً ، ولعودك ستّاً ، ويوماً لمقامك ، وهذا محمل ، تجعله – إذا قيّدته – في شقّه ، وتجلس أنت في الشقّ الآخر ، ولا تكل حفظه إلى غيرك ، حتّى تأتيني به في اليوم الثّالث عشر من خروجك ، وإذا دخلت داره فتفقّدها ، وجميع ما فيها ، وأهله ، وولده ، وحاشيته ، وغلمانه ، وقدر النعمة ، والحال ، والمحل ، واحفظ [٥٨ ر] ما يقوله الرّجل حرفاً بحرف ، بجميع ألفاظه ، منذ وقوع طرفك عليه ، إلى أن تأتيني به ، وإيّاك أن يشذّ عليك شيء من أمره ، انطلق مصاحباً .

قال منارة : فودّعته وخرجت ، فركبنا الإبل ، وطوينا المنازل ، أسير اللّيل والنّهار ، ولا أنزل إلّا للجمع بين الصلاتين ، والبول ، وتنفيس النّاس قليلاً .

إلى أن دخلتُ دمشق في أوّل اللّيلة السّابعة ، وأبواب البلد مغلقة ، فكرهت طرقها ، فنمت بظاهر البلد ، إلى أن فتح بابه في [١٠٠ غ] الغد ، فدخلت على هيأتي ، حتّى أتيت باب دار الرّجل ، وعليه صُفَفٌ[٦] عظيمة ، وحاشية كثيرة ، فلم أستأذن ، ودخلت بغير إذن .

فلمّا رأى القوم ذلك ، سألوا بعض أصحابي عنّي ، فقالوا لهم : هذا منارة ، رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم ، فأمسكوا .

فلمّا صرت في صحن الدّار ، نزلتُ ، ودخلت مجلساً ، رأيت فيه قوماً جلوساً ، فظننت أنّ الرّجل فيهم ، فقاموا إليّ ، ورحّبوا بي ، وأكرموني .

فقلت : أفيكم فلان ؟

قالوا : لا ، نحن أولاده ، وهو في الحمّام ،

---

٦ الصُفَف ، والصُفّات ، والصِفاف : مفردها صُفّة ، موضع للجلوس مظلّل بسقف من جريد النّخل وغيره ، والبغداديون يسمّونها : سقيفة ، فان كانت أعمدتها مرادي ، وظللها بواري ، فيسمّونها : چرداغ . (بالجيم المثلّثة) وأحسبها فارسيّة : چارطاق أي الطاقات الأربع .

فقلت : استعجلوه .

فمضى بعضهم يستعجله ، وأنا أتفقّد الدّار ، والأحوال ، والحاشية ، فوجدت الدّار قد ماجت بأهلها موجاً شديداً .

فلم أزل كذلك ، حتّى خرج الرّجل ، بعد أن أطال ، وآستربت به ، واشتدّ قلقي وخوفي من أن يتوارى .

إلى أن رأيت شيخاً قد أقبل بزيّ الحمّام ، يمشي في الصّحن ، وحوله جماعة كهول ، وأحداث ، وصبيان ، هم أولاده ، وغلمان كثيرة ، فعلمت أنّه الرّجل .

فجاء حتّى جلس ، وسلّم عليّ سلاماً خفيفاً ، وسألني عن أمير المؤمنين ، واستقامة أمر حضرته ، فأخبرته بما وجب .

فما انقضى كلامه حتّى جاؤوه بأطباق الفاكهة ، فقال لي : تقدّم يا منارة فكل معنا .

فقلت : ما بي إلى ذلك حاجة .

فلم يعاودني ، وأقبل يأكل هو والحاضرون معه ، ثمّ غسل يديه ، ودعا بالطعام ، فجاؤوه بمائدة حسنة جميلة[7] ، [لم أر مثلها إلّا للخليفة][8] ، فقال : تقدّم يا منارة فساعدنا على الأكل ، لا يزيد على أن يدعوني باسمي ، كما يدعوني الخليفة .

فامتنعت ، فلم يعاودني ، وأكل هو وأولاده ، [وكانوا تسعة ، عددتهم ، وجماعة كثيرة من أصحابه ، وحاشيته ، وجماعة من أولاده وأولاد أولاده][2] .

فتأمّلت أكله في نفسه ، فرأيته أكل الملوك ، ووجدت جأشه رابطاً ، وذلك الاضطراب الّذي كان في داره قد سكن ، ووجدته لا يُرفع من بين يديه

---

٧ في غ : عظيمة .

٨ الزيادة من غ .

شيء ، كان على المائدة ، إلّا وهب[9] .

وقد كان غلمانه ، لما نزلت الدّار ، أخذوا جمالي ، وجميع غلماني ، فعدلوا بهم إلى دار له ، فما أطاقوا ممانعتهم ، وبقيت وحدي ، ليس بين يديّ إلّا خمسة أو ستة غلمان وقوف على رأسي .

فقلت في نفسي : هذا جبّار عنيد ، فإن امتنع عليّ من الشّخوص ، لم أطق إشخاصه بنفسي ، ولا بمن معي ، ولا حفظه إلى أن يلحقني أمير البلد ، وجزعت جزعاً شديداً ، ورابني منه استخفافه بي ، وتهاونه بأمري ، وأن يدعوني باسمي ، وقلّة اكتراثه بامتناعي من الأكل والشرب ، ولا يسألني عمّا جئت له ، ويأكل مطمئنّاً .

وأنا أفكّر في ذلك ، إذ فرغ من طعامه ، وغسل يديه ، واستدعى بالبخور ، فتبخّر ، وقام إلى الصّلاة ، فصلّى الظهر صلاة حسنة ، وأكثر من الدّعاء والابتهال .

فلمّا انفتل من محرابه ، أقبل عليّ ، وقال : ما أقدمك يا منارة ؟

فقلت : أمر لك من أمير المؤمنين ، وأخرجت الكتاب ، فدفعته إليه ، ففضّه ، وقرأه [٧٢ ظ] ، فلمّا استتمّ قراءته ، دعا أولاده ، وحاشيته ، فاجتمعوا ، فلم [٧٢ م] أشكّ أنّه يريد أن يوقع بي .

فلمّا تكاملوا ، ابتدأ فحلف أيماناً غليظةً ، فيها الطّلاق ، والعتاق ، [والحجّ ، والصّدقة ، والوقف ، والحبس][10] ، إن اجتمع اثنان منهم في موضع ، وأن يتفرّقوا ، ويدخلوا منازلهم ، ولا يظهر منهم أحد [١٠١ غ] ، إلى أن ينكشف له أمر يعمل عليه .

---

٩ في غ : نهب .

١٠ الزيادة من غ .

ثمّ قال : هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالمصير إلى بابه ، ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة .

وقال لغلمانه ، وأولاده : [٥٩ ر] استوصوا بمن ورائي من الحرم خيراً ، وما بي حاجة أن يصحبني غلام ، هات أقيادك يا منارة .

فدعوت بها ، وكانت في سفط ، فأحضر حدّاداً ، ومدّ ساقيه ، فقيّدته ، وأمرت غلماني بحمله حتّى حصل في المحمل ، وركبت في الشقّ الآخر ، وسرت من وقتي ، ولم ألق أمير البلد ، ولا غيره .

وسرت بالرّجل ، ليس معه أحد ، إلى أن صرنا بظاهر دمشق ، فابتدأ يحدّثني بانبساط ، حتّى انتهينا إلى بستان حسن في الغوطة ، فقال : ترى هذا ؟

فقلت : نعم .

قال : هو لي ، وفيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ، ثمّ انتهى إلى آخر ، فقال مثل ذلك ، ثمّ انتهى إلى مزارع حسان ، وقرى سريّة ، فأقبل يقول : هذا لي ، ويصف كلّ شيء فيها .

فاشتدّ غيظي منه ، فقلت له : هل علمت أنّي شديد التعجّب منك ؟

قال : ولِمَ ؟

قلت : ألست تعلم أنّ أمير المؤمنين قد أهمّه أمرك ، حتّى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ، وولدك ، ومالك ، وأخرجك عن جميع حالك ، وحيداً ، فريداً ، مقيّداً ، لا تدري ما يصير إليه أمرك ، ولا كيف تكون ، وأنت مع هذا ، فارغ القلب ، تصف بساتينك وضياعك ، [هذا وقد رأيتك ، وقد جئتُ ، وأنت لا تعلم فيم جئتُ ، وأنت][10] ساكن القلب ، قليل الفكر ، وقد كنت عندي شيخاً عاقلاً .

فقال مجيباً لي : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، أخطأت فراستي فيك يا منارة ، قدّرتك رجلاً كامل العقل ، وأنّك ما حللت من الخلفاء هذا المحلّ ، إلّا بعد أن

عرفوك بذلك ، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم ، فالله المستعان .

أمّا قولك في أمير المؤمنين ، وإزعاجه لي من داري ، وإخراجه إيّاي إلى بابه على هذه الصّورة ، فأنا على ثقة بالله عزّ وجلّ ، الّذي بيده ناصية أمير المؤمنين ، فلا يملك معه لنفسه ، ولا لغيره ، ضرًّا ولا نفعاً ، إلّا بإذن الله ومشيئته ، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه ، وبعد ، فإذا عرف أمير المؤمنين أمري ، وعلم سلامة جانبي ، وصلاح ناحيتي ، وأنّ الأعداء والحسدة ، رموني عنده بما لست في طريقه ، وتقوّلوا عليّ الأباطيل الكاذبة ، لم يستحلّ دمي ، وتحرّج من أذاي وإزعاجي ، فردّني مكرّماً ، أو أقامني ببابه معظّماً ، وإن كان سبق في قضاء الله تعالى ، أنّه يبدر إليّ ببادرة سوء ، وقد حضر أجلي ، وحان سفك دمي على يده ، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل السماوات والأرض ، على صرف ذلك عنّي ، ما استطاعوا ، فلِمَ أتعجّل الهمّ ، وأتسلّف الفكرة والغمّ ، فيما قد فرغ الله منه ، وأنا حسن الظنّ بالله الّذي خلق ورزق ، وأحيا وأمات [وفطر وجبل ، وأحسن وأجمل ، وأين الصّبر والرّضا ، والتفويض والتّسليم إلى من يملك الدّنيا والآخرة][10] وكنت أحسب أنّك تعرف هذا ، فإذ قد عرفتُ مبلغ فهمك ، فإنّي لا أكلّمك بكلمة ، حتّى تفرّق بيننا حضرة أمير المؤمنين .

ثمّ أعرض عنّي ، فما سمعت له لفظة بغير القرآن والتسبيح ، أو طلب ماء أو حاجة تجري مجراه ، حتّى شارفنا الكوفة في اليوم الثّالث عشر بعد الظّهر ، فإذا النّجب[11] قد استقبلتنا على فراسخ[12] من الكوفة ، يتجسّسون خبري .

---

١١ النجب : جمع نجيب ، من النجابة ، والبعير النجيب : هو الكريم العتيق .

١٢ الفرسخ : في اللغة : السكون ، وأطلق الاسم على مسافة معيّنة ، لأنّ من سار تلك المسافة قعد واستراح ، فكأنّه سكن ، وجاء في الغيث المسجم ٢ / ١٢٣ : أنّ الفرسخ : ثلاثة أميال ، والميل : ألف باع ، والباع : أربعة أذرع ، والذراع : أربعة وعشرون إصبعاً ، والإصبع : ستّ شعيرات ، والشعيرة : ستّ شعرات من ذنب بغل ، وأنّ البريد : أربعة فراسخ .

فلمّا رأوني رجعوا بخبري إلى أمير المؤمنين ، فانتهيت إلى الباب آخر النّهار ، فدخلت على الرّشيد ، فقبّلت [١٠٢ غ] الأرض ، ووقفتُ بين يديه .

فقال : هات ما عندك ، وإيّاك أن تغفل منه لفظة واحدة .

فسقت [٧٣ ظ] إليه الحديث من أوّله ، حتّى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطّعام والغسل والطهور والبخور [٧٣ م] ، وما حدّثت به نفسي من امتناعه منّي ، والغضب يظهر في وجهه ويتزايد ، حتّى انتهيت إلى فراغ الأمويّ من الصّلاة ، وانفتاله ، وسؤاله عن سبب مقدمي ، ودفعي الكتاب إليه ، ومبادرته إلى إحضار ولده وأسبابه ، ويمينه أن لا يتبعه أحد منهم ، وصرفه إيّاهم ، ومدّ رجليه حتّى قيّدته ، فما زال [٦٠ ر] وجه الرّشيد يسفر .

فلمّا انتهيت إلى ما خاطبني به في المحمل ، عند توبيخي إيّاه ، قال : صدق والله ، ما هذا إلّا رجل محسود على النّعمة ، مكذوب عليه ، ولقد آذيناه ، ولعمري لقد أزعجناه ، وروّعناه ، وروّعنا أهله ، فبادِرْ بنزع قيوده عنه ، وأئتني به . فخرجت ، فنزعت قيوده ، وأدخلته على الرّشيد ، فما هو إلّا أن رآه ، حتّى رأيت ماء الحياء يدور في وجه الرّشيد ، ودنا الأمويّ ، فسلّم بالخلافة ، ووقف ، فردّ عليه الرّشيد ردًّا جميلاً ، وأمره بالجلوس ، فجلس .

وأقبل عليه الرّشيد ، ثم قال له : إنّه بلغنا عنك فضل همّة ، وأمور ، أحببنا معها أن نراك ، ونسمع كلامك ، ونحسن إليك ، فاذكر حوائجك .

فأجاب الأموي جواباً جميلاً ، وشكر ، ودعا ثمّ قال : أمّا حاجتي ، [فما لي إلّا حاجة][11] واحدة .

فقال : مقضيّة ، فما هي ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، تردّني إلى بلدي ، وأهلي ، وولدي .

فقال : نحن نفعل ذلك ، ولكن سل ما تحتاج إليه من صلاح جاهك ومعاشك ، فإنّ مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شيء من هذا .

فقال : عمّال أمير المؤمنين منصفون ، وقد استغنيت بعدله عن مسألته ، وأموري منتظمة ، وأحوالي مستقيمة ، وكذلك أمور أهل بلدي [بالعدل الشّامل في دولة أمير المؤمنين][10] .

فقال له الرّشيد : انصرف محفوظاً إلى بلدك ، واكتب إلينا بأمرٍ إن عرض لك ، فودّعه الأموي .

فلمّا ولّى خارجاً ، قال لي الرّشيد : يا منارة ، احمله من وقتك ، وسر به راجعاً كما أتيت به ، حتّى إذا أوصلته إلى المجلس الّذي أخذته منه ، فأرجع وخلّه .

ففعلت ذلك[13] .

---

١٣ نقلها باختصار صاحب حلّ العقال ص ٤٤ .

١٦١

ابن الفرات يتحدّث عن اعتقاله وتعذيبه

حدّثني عليّ بن هشام بن عبد الله الكاتب ، ويعرف هشام بأبي قيراط ، قال : كنت حاضراً مع أبي رحمه الله ، في مجلس أبي الحسن بن الفرات ، في شهر ربيع الأوّل سنة خمس وثلثمائة ، في وزارته الثانية[١] ، فسمعته يتحدّث ، قال :

دخل عليّ أبو الهيثم العبّاس بن محمّد بن ثوابة الأنباري[٢] ، في محبسي بدار المقتدر[٣] ، فطالبني بكتب خطّي بثلاثة عشر ألف ألف دينار .

فقلت : والله ، ما جرى قدر هذا المال ، على يدي للسلطان ، في طول وزارتي ، فكيف أصادر على مثله ؟

فقال : قد حلفتُ بالطّلاق أنه لا بدّ من أنّك تكتب خطّك بذلك ، فكتبتُ ثلاثة عشر ألف ألف ، من غير ما أذكر ما هي ، أو ضماناً فيها .

---

١ وزارة أبي الحسن عليّ بن محمّد بن الفرات الثانية للمقتدر ٣٠٤ - ٣٠٦ راجع نشوار المحاضرة ج٥ ص ٥٠ سطر ٦ والوزراء ١١٨ .

٢ في ظ ، ور : أبو العباس بن ثوابة الأنباري ، وفي م : أبو العباس بن محمّد بن ثوابة الأنباري ، والتصحيح من تجارب الأمم ١ / ٨٨ ومن كتاب الوزراء ص ١١٨ ، راجع كتاب نشوار المحاضرة للتنوخيّ ، القصّة ٥ / ٢٧ ج٥ ص ٥٠ .

٣ لمّا عزل ابن الفرات من وزارته الأولى في السنة ٢٩٩ ظلّ معتقلاً في دار المقتدر ، حتى خرج ليعود وزيراً في وزارته الثانية ، وكذلك لمّا عزل من وزارته الثانية ، أعيد اعتقاله ، حتى خرج ليكون وزيراً في وزارته الثالثة التي قتل في آخرها ، وكان في دار الخلافة ، دار لاعتقال الوزراء ، وكبار رجال الدولة ، تشرف عليها زيدان القهرمانة ، وفي هذه الدار اعتقل الوزير ابن الفرات ، وظلّ معتقلاً خمس سنين أولاً ٢٩٩ - ٣٠٤ وخمس سنين ثانياً ٣٠٦ - ٣١١ وحاول حامد في وزارته أن يتسلّم ابن الفرات ، فقال له المقتدر : أنا أسلّمه إليك ، وأوكّل به خادماً يحفظه ، يعني أنّه يخشى عليه أن يقتله خصمه غيلة أو بالسمّ (تجارب الأمم ١ / ٦٦ و١٩٨) .

قال : فاكتب ديناراً ، لتبرني من يميني .

فكتبت ديناراً ، ثمّ ضربت عليه ، وأكلت الرّقعة ، وقلت له : قد برئت من يمينك ، ولا سبيل لك إلى غير هذا منّي .

فاجتهد بي ، فلم أجبه إلى شيء ، فحبسني .

فلمّا كان من [١٠٣ غ] الغد ، دخل إلى الحبس ، ومعه أمّ موسى[٤] ، فطالبني بذلك ، وأسرف في سبّي وشتمي ، ورماني بالزّنا .

فحلفت بالطّلاق ، والعتاق ، والأيمان المغلظة ، أنّي ما دخلت في محظور من هذا الجنس ، من نيّف وثلاثين سنة ، وسمته أن يحلف بمثل تلك اليمين أنّ غلامه القائم على رأسه ، لم يأته في ليلته تلك[٥] ، فأنكرت أمّ موسى هذا الحال ، وغطّت وجهها حياء منه .

---

٤ أمّ موسى الهاشمية القهرمانة : كانت إحدى السيّدات المسيطرات على أمور الدولة في عهد المقتدر ، قهرمتها السيّدة أمّ المقتدر في السنة ٢٩٩ على أثر غرق فاطمة القهرمانة في طيارها تحت الجسر في يوم ريح عاصف ، وكانت تنقل رسائل السيدة ، ورسائل المقتدر إلى الوزير ، وتمكّنت من الدّولة ، تمكّناً عظيماً ، وأثرت إثراء فاحشاً ، وكان لها أخ اسمه أحمد بن العباس ، ارتفع بارتفاعها ، وكان يجلس فيلقاه الناس ويأخذ رقاعهم وقصصهم إلى أمّ موسى ، وكان المقتدر ينفذه في أموره التي يحرص على كتمانها ، وقد أنفذه في السنة ٣٠٠ إلى ابن أبي البغل ، عامل الأهواز ، يدعوه لتولّي الوزارة ، ولمّا توفّي في السنة ٣٠٢ أحمد بن عبد الصمد بن طومار الهاشمي ، نقيب بني هاشم ، عبّاسيين وطالبيّين ، قلّده المقتدر النقابة ، فضجّ الهاشميون من ذلك ، فاضطرّ المقتدر إلى عزله ، وبلغ من مكانته في الدولة أنّ راتبه الشهري بلغ سبعة آلاف دينار ، وولّاه المقتدر في السنة ٣٠٩ إقامة موسم الحجّ ، وفي السنة ٣١٠ دالت دولة أمّ موسى ، إذ اتّهمها المقتدر بأنّها تسعى في إزاحته واستخلاف أبي العباس محمّد بن إسحاق ابن المتوكّل الذي زوّجته بابنة أخيها ، فقبض عليها وعلى أخيها وأختها ، وأسلمهم إلى ثمل القهرمانة ، وكانت موصوفة بالشرّ ، فاستخرجت منهم ألف ألف دينار (المنتظم ٦ / ١٦٦ وتجارب الأمم ١ / ٢٠ و٨٣ و٨٤ والوزراء ٣٠١ وصلة الطبري ٢١ ، ٣١ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٧) .

٥ راجع تجارب الأمم ١ / ٢٢ و٩٠ .

فقال ابن ثوابة[٦] : إنّ هذا إنّما تبطره الأموال الّتي وراءه ، ومثله في ذلك ، كمثل المزيّن[٧] مع كسرى ، والحجّام مع الحجّاج ، فتستأمرين السّادة ، في إنزال المكروه به ، حتّى يذعن بالأموال .

قال أبو الحسين : ويعني بالسّادة : المقتدر ، ووالدته[٨] ، وخالته[٩] [٧٤ م]

٦ أبو الهيثم العباس بن محمّد بن ثوابة الأنباري الكاتب : كان من شرار الناس . اشترك في حادثة ابن المعتز ، فاعتقله ابن الفرات لمّا وزّر للمقتدر ، فحقدها على ابن الفرات ، وانتصب لمحاسبته لمّا عزل من الوزارة ، وعذّبه ، وأهانه ، وكان يتقرّب للمقتدر بالسعايات ، والتحريض على المصادرات ، مما أدّى بالوزير عليّ بن عيسى إلى أن يعتقله لما عاد إلى الوزارة ، ومات وهو معتقل في سجن الكوفة (تجارب الأمم ١ / ٢٢ و٢٧ و٨٨) .

٧ المزيّن : الحلّاق ، والبغداديون من أقدم الأزمان يسمّون الحلّاق : المزيّن ، وعلى ذلك وردت قصّة : مزيّن بغداد .

٨ السيّدة شغب ، والدة المقتدر : كان إليها ، وإلى أختها خاطف ، وإلى دستبويه أمّ ولد المعتضد ، تدبير أمور الدولة ، وكان هؤلاء الثلاثة يسمّون : السادة (الوزراء ١١٩) وكان الوزير يخاطبها في الأمور البالغة الأهميّة (وزراء ٣٠٨) ويعنون رسالته إليها ، بان يكتب لها : عبدها فلان (وزراء ١٧٢) ، وكان في حيازتها خيرة الأراضي والضياع المعروفة بالارتفاع الوافر ، في واسط (وزراء ٣٨) والسيب الأسفل وجنبلاء (وزراء ١٢٢) وفي الأهواز (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة رقم القصّة ٨ / ١١٧) ، وكان واردها من ضياعها يبلغ ألف ألف دينار في السنة (المنتظم ٦ / ٢٥٣) ، وكانت تتدخّل في أمور الوزراء وكبار الموظّفين وتشد أزرهم (وزراء ٤٥ ، ٥٦ ، ٢٩٥ ، ٣٢١ و٣٢٤ و٣٢٥ و٣٤٣) وتقبل هداياهم (وزراء ٣٤٧) ، وكان موظفو الدولة كافّة ، من الوزراء فنازلاً ، يسعون إلى كسب رضاها (وزراء ١١١ و١١٢ و٢٩٤) ، بحيث أنّ الوزير ابن الفرات ، أظهر في وزارته الثالثة عدم اهتمام بها ، فقال أصحابه : هذا آخر عهد الوزير بالحياة ، فما مضت مديدة حتى عزل وقتل (وزراء ٧٧) ، ولمّا قتل ولدها ، واستخلف أخوه محمّد القاهر ، طالبها بأن تخرج أموالها ، وضربها بيده مائة مقرعة ، وعلّقها برجل واحدة منكّسة ، واجبرها على بيع أملاكها ، وحلّ أوقافها ، وباعها ، وماتت بعد مقتل ولدها بسبعة أشهر وثمانية أيّام ، في السنة ٣٢١ (المنتظم ٦ / ٢٥٣) .

٩ خاطف : خالة المقتدر ، واحدة من الثالوث النسائي الذي سيطر على أمور الدولة خلال حكم المقتدر ، وكانت تتدخّل حتى في تعيين الوزراء (تجارب الأمم ١ / ٩٠ ، ١٤٣ ، راجع القصّة ٣٧٨ من هذا الكتاب) .

خاطف ، ودستنبويه[١٠] أمّ ولد المعتضد ، لأنّهم كانوا – إذ ذاك – يدبّرون الأمور ، لحداثة سنّ المقتدر[١١] .

قال ابن الفرات : فمضت أمّ موسى ، ثمّ عادت ، فقالت لابن ثوابة : السّادة يقولون لك : صدقتَ فيما ذكرتَ ، ويدك مطلقةٌ فيه .

وكنت في دار ضيّقة ، في حرّ شديد [٧٤ ظ] فأمر بكشف البواري[١٢] حتّى صرت في الشّمس ، ونحّي الحصير من تحتي ، وأغلق أبواب البيوت ، حتّى حصلت في الصّحن[١٣] ، ثمّ قيّدني بقيد ثقيل ، وألبسني جبّة صوف قد نقعت في ماء الأكارع[١٤] ، وغلّني بغلّ[١٥] ، وأقفل باب الحجرة وانصرف ، فأشرفت على التّلف .

وعدّدت على نفسي ذنوبي ، فوجدتني قد عوملت بما عاملت به النّاس ، من المصادرة ، ونهب المنازل ، وقبض الضياع ، وتسليم النّاس إلى أعدائهم ، وحبسهم ، وتقييدهم ، وإلباسهم جباب الصّوف ، وهتك حريمهم ، وإقامتهم في الشّموس ، وإفرادهم في الحبوس .

ثمّ قلت : ما غللت أحداً ، فكيف غُلِلْتُ ؟

ثمّ تذكّرت أنّ النرسي[١٦] ، كاتب الطائي[١٧] ، كان سلّمه إليّ عبيد الله بن

---

١٠ دستنبويه أمّ ولد المعتضد : واحدة من الثالوث النسائي الذي سيطر على أمور الدولة في أيّام المقتدر ، وكانت تأخذ الرشى وتنصب الوزراء (وزراء ٢٨٧ ، ٢٨٨) .

١١ كان سنّ المقتدر ، وقت حصول هذه القضيّة ١٧ سنة .

١٢ البارية ، والجمع بواري : الحصير المنسوجة من القصب ، وما يزال هذا اسمها ببغداد .

١٣ صحن الدار : الساحة تكون في وسط الدار ، وتحيط بها البيوت أي الحجر ، وما زال هذا اسمها ببغداد .

١٤ ماء الأكارع : راجع التفصيل في آخر القصّة .

١٥ الغُلّ ، بضم الغين ، وجمعه أغلال وغلول : طوق من الحديد أو الجلد ، يجعل في اليد أو العنق .

١٦ عبيد الله بن الحسن النرسي : النسبة إلى النرس ، نهر من أنهار الكوفة عليه عدّة من القرى (اللباب ٢ / ٢٢١) ، كان عبيد الله وأخوته يتقلّدون عدّة نواح من سقي الفرات ، وكان عبيد الله في السنة ٢٨٢

سليمان[١٨] ، لمال عليه ، فسلّمته إلى الحسن ، المعروف بالمعلوف ، المستخرج ، وكان عسوفاً ، وأمرته بتقييده ، وتعذيبه ، ومطالبته بمال ذكرته له ، فألطّ به ، فأمرت به أن يغلّ ، ثم تحوّبت بعد أن غلّ مقدار ساعتين من النّهار ، فأمرت بأخذ الغلّ عنه .

فلمّا جازت السّاعتان ، تذكّرت شيئاً آخر ، وهو أنّه لما قرب سبكرى[١٩] من الجبل[٢٠] ، مع رسول صاحب خراسان[٢١] ، مأسوراً ، [٦١ ر] كتبت إلى بعض عمّال المشرق[٢٢] ، بمطالبته بأمواله وودائعه ، فكتب إليّ بالطاطه ، فكتبت

عاملاً على السيب الأعلى ، وكان أبو العبّاس بن الفرات على ديوان الخراج ، يخلفه عليه أخوه أبو الحسن ، وكانا يستقصيان على آل النرسي استقصاء غليظاً ، فخاصموهما ، وصاحبوا أعداءهما ، وسعوا عليهما عند الوزير عبيد الله بن سليمان ، وزير المعتضد ، ولكنهما انتصرا عليهم ، راجع تفاصيل ذلك في الوزراء ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٤ .

١٧ أبو جعفر أحمد بن محمّد الطائي : ولّي في السنة ٢٦٩ الكوفة وسوادها ، معاوناً ، وخراجاً ، وفي السنة ٢٧١ ولّي مكة والمدينة ، وغضب عليه الموفّق في السنة ٢٧٥ فاعتقله ، ثمّ أطلقه ، وأعاده إلى ولايته في الكوفة ، توفّي في السنة ٢٨١ بالكوفة ، ودفن بمسجد السهلة (الطبري ٩ / ٦٢١ و١٠ / ٧ – ٣٦ والكامل لابن الأثير ٧ / ٤١٧ – ٤٦٧ والوزراء ١٥ . الأعلام ١ / ١٩٥) ، وهو أحد الذين ذكرهم ابن بسام في قصيدته التي هجا فيها رجال الدولة ، راجع مروج الذهب ٢ / ٥٤٢ .

١٨ أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي ، وزير المعتضد .

١٩ سبكرى : من قوّاد الدولة العبّاسيّة ، كان حاكماً على فارس في السنة ٢٩٧ ، وانتقض على الدولة ، فحاربه الجند العباسي ، وفرّ فاعتقله صاحب خراسان وما وراء النهر ، أحمد بن إسماعيل الساماني ، وبعث به إلى بغداد (تجارب الأمم ١ / ١٦ – ١٩) .

٢٠ الجبل : إقليم عراق العجم . راجع حاشية القصّة ٦٥ من هذا الكتاب .

٢١ صاحب خراسان : أبو نصر أحمد بن إسماعيل الساماني ملك ما وراء النهر وعاصمته بخارى . واستولى على خراسان ، وهراة ، والريّ ، وسجستان ، لقّب بالشهيد ، لأنّ غلمانه قتلوه سنة ٣٠١ (الأعلام ١ / ٩٣) .

٢٢ المشرق : ذكر الجهشياري في أخبار الوزراء : أنّ الرشيد ولّى جعفر بن يحيى ، المغرب كلّه ، من الأنبار إلى إفريقية ، وقلّد الفضل المشرق كلّه ، من شروان إلى أقصى بلاد الترك (وفيات الأعيان ٤ / ٢٩) .

بأن يغلّ ، وكنت أتغدّى ، فلمّا غسلت يدي ، تندّمت ، وتحوّبت ، فكتبت بأن يحلّ الغلّ عنه إن كان قد غلّ ، فوصّل الكتاب الأوّل فغلّ ، ووصل الكتاب الثّاني بعد ساعتين ، فحلّ عنه ، على ما كتبت به .

فلمّا مضت أربع ساعات ، إذا بصوت غلمان مجتازين في الممرّ الّذي فيه الحجرة الّتي أنا محبوس فيها ، فقال لي الخدم الموكّلون بي : هذا بدر الحرمي [٢٣] وهو لك صنيعة .

فاستغثت به ، وصحتُ : يا أبا الخير ، أللهَ ، أللهَ ، فيّ ، لي عليك حقوق ، وقد ترى حالي ، والموت أسهل ممّا أنا فيه ، فتخاطب السّادة في أمري ، وتذكّرهم حرمتي ، وخدمتي في تثبيت دولتهم ، إذ خذلهم النّاس [٢٤] ، وافتتاحي البلدان المنغلقة [٢٥] وإثارتي الأموال المنكسرة ، فإن كان ذنبي يوجب القتل ، فالسّيف أروح لي ، فرجع ، فدخل إليهم ، فخاطبهم ورقّقهم ، ولم يبرح حتّى أمروا بأخذ حديدي ، وإدخالي الحمّام ، وأخذ شعري [٢٦] ، وتغيير لباسي ، وتسليمي إلى زيدان [٢٧] ، وترفيهي .

---

٢٣ أبو الخير بدر الحرمي : النسبة إلى حرم الخليفة ، أي أنّه من الخدم المرخّص له بالدخول والخدمة في دار حريم الخليفة ، وكان بدر من الخدم ذوي المكانة عند المقتدر .

٢٤ يشير إلى وقوفه إلى جانب المقتدر لما خذله الناس في فتنة ابن المعتز (تجارب الأمم ١ / ٥) .

٢٥ يشير إلى افتتاحه فارس (تجارب الأمم ١ / ١٩) .

٢٦ أخذ الشعر : قصّه وحلقه .

٢٧ زيدان القهرمانة : كان لها دار خاصة ، في دار الخلافة ، تعرف بدار زيدان القهرمانة ، يحبس فيها وجوه الدولة ، والوزراء ، وكبار العمّال ، وقد حبس عندها في السنة ٣٠٤ الحسين بن حمدان التغلبيّ ، والوزير أبو الحسن عليّ بن عيسى ، والأمير يوسف بن أبي الساج ، كما اعتقل عندها في السنة ٢٩٩ الوزير أبو الحسن بن الفرات ، واعتقل عندها كذلك في السنة ٣٠٦ ، واعتقل عندها في السنة ٣١٤ الوزير الخصيبي ، وفي السنة ٣١٦ الوزير عليّ بن عيسى ، وكانت زيدان تتعصّب لابن الفرات ، وتتخبّر له ، وكان ابن الفرات عندما يكتب إليها ، يضيف إلى الدعاء ، كلمة : يا أختي ، ولمّا عزل المقتدر ،

فجاءني بذلك ، وقال [١٠٤ غ] : يقولون لك ، لن ترى بعدها بأساً ، وأقمت عند زيدان ، إلى أن رددت إلى هذا المجلس[٢٨] .

وأعيد ، حمل إلى دار زيدان القهرمانة (وزراء ١٧٢ . تجارب الأمم ١ / ٣٨ . ٤٠ . ٥٠ . ٦٦ . ٦٨ . ١٤٩ . ١٨٤ . ١٩٨) .

٢٨ يعني أنّه ردّ إلى الوزارة . وكان الوزير ابن الفرات معروفاً بالكرم والنبل في معاملة الناس . حتى خصومه ولكنّه في وزارته الثالثة . أنكر الناس أخلاقه . وما كان يعرف من كرمه ونبله (تجارب الأمم ١/١١٣) ، فإنّه اعتقل كثيراً من خصومه ، وسلّمهم إلى ولده المحسّن . وكان ساديّ الطبع . قاسياً . فقتل منهم قوماً (تجارب الأمم ١/١١٣ و ١٢٣) . فنقم عليه الخاصّة (تجارب الأمم ١/١١٥ و ١١٦ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٦) ، وحدث ان اجتاح القرمطيّ الحجّاج في وقعة الهبير (تجارب الأمم ١/١٢١) فنقمت عليه العامّة أيضاً ، ورجمت طيّاره ، وطيّار ولده المحسّن بالآجرّ ، ومنعت من الصلاة في المساجد (تجارب الأمم ١/١٢٢ و ١٢٦) ، فاعتقل الخليفة المقتدر ، الوزير ابن الفرات ، وولده ، وأراد أن يحبسهما في داره ، فهدّد القواد بخلع الطاعة إن أبقاهما ، فأمر بقتلهما ، فقتل الابن أوّلاً ، وحمل رأسه ووضع بين يديّ أبيه ، ثم قتل الأب ، وحمل رأساهما إلى الخليفة ، فأمر برميهما في النهر (تجارب الأمم ١/١٣٧ و ١٣٨) .

ماء الأكارع

الكراع ، في الدوابّ ما دون الكعب ، وفي الإنسان ، ما دون الركبة من مقدّم الساق ، ويطلق الكراع كذلك ، على مستدقّ الساق من ذوات الظلف ، وفي بغداد ، يكنّون عن النساء ، بقولهم : أمّهات كراع ، وربما كان ذلك ، لدقّة ساق المرأة ورقّته ، وماء الكراع : الماء الذي يطبخ به الكراع ، وهو طعام يستطيبه العرب قديماً وحديثاً ، وقد روي عن النبيّ صلوات الله عليه ، أنّه قال : لو دعيت إلى كراع لأجبت ، والكراع يؤكل في جميع البلاد العربية ، ويسمّى في مصر : كوارع ، وفي الشام : مقادم ، وفي لبنان : غمّي ، محرّف : غنمة ، بالإمالة ، وأمّا في بغداد ، فيسمّى : پاچه ، بالباء والجيم الفارسيتين ، والكلمة فارسية ، بمعنى كراع الماشية (المعجم الذهبي) ، والبغداديون يتأنّقون في صنع الپاچه ، وهي عندهم تشتمل على الكراع ، والرأس ، واللسان ، والكرش ، وهم يقطّعون الكرش قطعاً ، ويحشون كلّ قطعة بمخلوط من الأرز واللحم واللوز والتوابل ، ثم يخيطونها ، ويسمّونها : كيبايات ، مفردها : كيبايه ، وفي بغداد دكاكين عديدة ، عمل أصحابها مقصور على صنع الپاچه ، ويسمّى صاحبها : پاچه‌چي ، وچي ، فارسيّة تفيد النسبة ، ويقصد الناس هذه الدكاكين ، ويأكلون الپاچه في داخل الدكان ، وقد استعدّ صاحبه لذلك ، بمناضد ، وصواني ، وصحون ، وكراسي ، ومغاسل ، ومناديل ، والمتعارف أن يكون بجانب كلّ پاچه‌چي ، طرشچي ، أي بائع الطرشي ، والطرشي ، هو الكبيس ، أصل الكلمة فارسيّة ، ترش بمعنى الحامض ، أو ما فيه خل ، وإذا طلب القاصد الپاچه ، أحضر له الطرشچي المجاور ، كأساً من الطرشي ، يشتمل على أنواع الكبيس ، كالشلغم (اللفت) ، والباذنجان ، والخيار ، وثوم العجم ، وأنواع أخرى يطول ذكرها ، وأهل الكرخ من بغداد ، أكثر رغبة في الپاچة ، وإقبالاً عليها ، وكان في الكرخ عدد كبير من الپاچچية ، أشهرهم : ابن طوبان ، وبجواره طرشچي ، يعرف بحنانش ، وكان الناس يقصدونهما من أطراف بغداد ، وفي السنة ١٩٢٩ – ١٩٣٠ ، عندما كنت كاتباً في مجلس النوّاب العراقي ، وكان المجلس في جانب الكرخ ، في البناء الذي شاده مدحت باشا رحمه الله ، على شاطئ دجلة ، واتّخذه مستشفى ، كنت أنا وأصحابي من الكتّاب ، مولعين بپاچة ابن طوبان ، وطرشي حنانش ، أمّا في أيّامنا هذه فقد انتقل سوق الپاچة ، إلى جانب الرصافة ، فاتّخذ لها أصحابها دكاكين في منطقة الشيخ عمر ، وضعفت شهرة ابن طوبان ، وحنانش ، وجميع پاچچية الكرخ .

١٦٢

كتاب ابن ثوابة باستيزار ابن الفرات

[وحدّثني أبو محمّد القاسم بن هشام بن أبي قيراط ، أنّ أباه حدّثه ، أنّه سمع أبا الحسن بن الفرات ..... فذكر نحو هذا الحديث ، إلّا أنّه زاد][1] : أنّ ابن الفرات لما خرج من هذه الشّدائد الهائلة ، إلى الوزارة الثّانية ، أمر أبا الحسن محمّد بن جعفر بن ثوابة ، صاحب ديوان الرّسائل[2] ، أن يكتب عن المقتدر بالله ، إلى أصحاب الأطراف ، بردّه إيّاه إلى الوزارة ، فكتب إلى جميعهم كتاباً [بنسخة واحدة ، سمعت أبي وغيره من مشايخ الكتاب – إذ ذاك – يقولون : إنّهم][3] ما سمعوا في معناه أحسن منه ، فأعطانيه أبي ، وأمرني بحفظه ، وتلاه عليّ القاسم ، فحفظت منه فصلاً ، وهو :

لما لم يجد أمير المؤمنين بدًّا منه ، ولم يكن بالملك غنى عنه ، انتضاه أمير المؤمنين من غمده ، فعاود ما عرف من حدّه ، ودبّر الأمور كأن لم يخل منها ، وأمضاها كأن لم يزل عنها ، إذ كان الحوّل القلّب ، المحنّك المدرّب ، العالم بدرّة المال كيف تحلب ، ووجوهه من أين [٧٥ م] تطلب ، وكان الكتّاب على اختلاف طبقاتهم ، وتباين مرتباتهم ، يقفون عنده إذا استبقوا ، وينتهون إليه إذا احتكموا ، وكان هذا الاسم حقّاً من حقوقه ، استعير منه ، ثمّ ردّ إليه .

---

١ الزيادة من غ ، وفي بقيّة النسخ : وقيل في غير هذه الرواية.

٢ أبو الحسن محمّد بن جعفر بن محمّد بن ثوابة بن خالد الكاتب : كان على ديوان الرسائل ، ولمّا توفّي في السنة ٣١٢ خلفه ولده أبو عبد الله أحمد بن محمّد ، قال الوزير أبو الحسن عليّ بن عيسى لأبي عبد الله أحمد بن ثوابة : ما قال : أمّا بعد ، أحد على وجه الأرض ، أكتب من جدّك ، وكان أبوك ، أكتب منه ، وأنت أكتب من أبيك (معجم الأدباء ٢ / ٨٠ ، راجع القصّة ٤ / ١٧ و٨ / ٦٢ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخيّ) .

٣ الزيادة من غ .

١٦٣

خرج من حبس المقتدر ونصب

مستشاراً للوزير ابن مقلة

حدّثني علي بن هشام أبي قيراط الكاتب ، من حفظه ، وكتبت بإملائه ، قال :

تطاول الحبس بأبي الحسن عليّ بن عيسى[1] في دار المقتدر[2] ، حتّى أيس منه ، فلمّا اجتمع أبو الهيجاء[3] ، ونازوك[4] ، والطبقة الّذين تجمّعوا وخلعوا المقتدر

---

١ أبو الحسن عليّ بن عيسى بن داود بن الجرّاح (٢٤٤ – ٣٣٤) : وزّر للمقتدر ، وللقاهر ، أحد العلماء الرؤساء من أهل بغداد . نشأ كاتباً كأبيه وجدّه ، وولّي الوزارة للمقتدر سنة ٣٠٠ ، فحمدت سيرته ، وعزله سنة ٣٠٤ وحبسه ، ونفاه إلى مكة ، ثم إلى صنعاء ، ثم ولّاه الاطّلاع على أعمال مصر والشام ، ثمّ أعاده للوزارة سنة ٣١٤ ثمّ عزله سنة ٣١٦ وقبض عليه ، ثمّ أناط به الإشراف على الدواوين والنظر في المظالم ، قال عنه الصولي : لا أعلم انه وزّر لبني العباس مثله في عفّته وزهده وعلمه (الأعلام ٥ / ١٣٤) ، وقال عنه في كتابه : الأوراق – أخبار الراضي والمتّقي ص ٦٥ – ٦٧ وص ١٨٧ و١٨٨ : إنّه جمال بغداد ، ومن لا يرى الناس مثله ، ووصفه بأنّه تاج الدولة وجمالها وشيخ الإسلام .

٢ لمّا عزل المقتدر أبا الحسن عليّ بن عيسى في السنة ٣١٦ بعد وزارة دامت سنة واحدة وأربعة أشهر ، اعتقله عند زيدان القهرمانة وقلّد الوزارة ابن مقلة . وفي السنة ٣١٧ جرت الفتنة التي أدّت إلى خلع المقتدر ونصب القاهر . راجع تفصيل ذلك في تجارب الأمم ١ / ١٤٩ ، ١٨٥ ، ١٨٩ – ٢٠١ .

٣ أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبيّ العدويّ : والد الأمير سيف الدولة الحمداني ، من القادة المقدّمين في العصر العباسي . ولّي الموصل وأعمالها للمكتفي سنة ٢٩٣ ، وعزله المقتدر سنة ٣٠١ فقدم بغداد فخلع عليه المقتدر وأعاده . وقلّده في السنة ٣٠٨ طريق خراسان والدينور ، وضمن في السنة ٣١٥ أعمال الخراج والضياع بالموصل (الأعلام ٤ / ٢١٣) ، وكان شجاعاً (القصّة ٣ / ٥٠ من كتاب كتاب نشوار المحاضرة) . جواداً (تجارب الأمم ١ / ١١٢ سطر ١٧ – ٢٠) ، حميّ الأنف ، كان مع القاهر لمّا هاجمه الجند ، فقال لـه : أنا في ذمامك ، فأقسم أن لا يتركه ، وحامى عنه حتى قتل (الكامل ٨ / ٢٠٤ ، تجارب الأمم ١ / ١٩٦) ، وبالرغم من كون أبي الهيجاء شارك في خلع المقتدر ، فقد حزن المقتدر عليه لمّا قتل ، وظهر عليه من الكآبة أمر عظيم (تجارب الأمم ١ / ١٩٨ ، ١٩٩) .

٤ أبو منصور نازوك ، صاحب الشرطة ببغداد ، ترجمته في حاشية القصّة ٧٦ من الكتاب .

وأجلسوا القاهر ، وحصّلوا المقتدر في دار مؤنس[5] ، كسرت الحبوس ، ونهب بعض دار المقتدر ، فأفلت عليّ بن عيسى من الموضع الّذي كان فيه محبوساً ، فخرج ، فاستتر تلك الأيام الثّلاثة الّتي كان فيها المقتدر محبوساً عند مؤنس[6] ، والقاهر متّسم[7] بالخلافة .

فلمّا جاءت الرّجالة ، بغير مراسلة من المقتدر لهم ، ولا حيلة منه في أمر نفسه ، وإنّما كان بصنع طريف ، وسوء تدبير نازوك في خطابهم بما كرهوا ، فثاروا ، وقتلوا أبا الهيجاء ، ونازوك ، وكبسوا دار [٧٥ ظ] مؤنس ، وأخذوا المقتدر من يده ، وأعادوه للخلافة ، وردّوا القاهر إلى دار ابن طاهر[8] ، وظهر ابن مقلة ، وكان وزير المقتدر ، وكان قد استتر .

---

٥ دار مؤنس : أنظر التفصيل في آخر القصّة .

٦ مؤنس المظفّر (٢٣١ - ٣٢١) : من أكابر القوّاد الأتراك في دولة العباسيين . كان شجاعاً . من الدهاة . دامت إمارته ستّين سنة . ولّي دمشق للمقتدر . وتولّى الفداء بين المسلمين والروم سنة ٢٩٧ . ولما حصلت وقعة الهبير (أنظر حاشية القصّة ١ / ١٠٨ من كتاب نشوار المحاضرة) كتب إليه المقتدر بالعودة . ولمّا عاد إلى بغداد اتّهم المقتدر بأنّه قد دبّر عليه ، فخلعه ونصب أخاه القاهر بدلاً منه . وبعد يومين هاج الجند . وأعادوا المقتدر . وفي السنة ٣٢٠ حارب المقتدر وقتله . ونصب القاهر خليفة . ثم انّ القاهر قبض على مؤنس بحيلة وقتله في السنة ٣٢١ (الكامل ٨ / ١٥ - ٢٧٩ وتجارب الأمم ١ / ٦ - ٣٩٦) .

٧ في غ : مرتسم .

٨ دار ابن طاهر أو الحريم الطاهري : موضعها بأعلى مدينة السلام في الجانب الغربي . على دجلة (معجم البلدان ٢ / ٢٥٥) . وكانت متصلة من الغرب بمحلة دار الرقيق (معجم البلدان ٢ / ٨٠٤) وبينها وبين باب التبن (الكاظمية) محلّة تدعى ربض أبي حنيفة ، نسبة إلى أحد قوّاد المنصور (معجم البلدان ٢ / ٧٥٠) ، فيكون موضعها اليوم « العطيفيّة » وسمّيت حريماً لأنّ كلّ من لجأ إليها أمن . وأوّل من جعلها حريماً أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين . وكان عظيماً في دولة بني العباس . وكانت إليه الشرطة ببغداد . وخراسان . والجبال . وطبرستان . والشام . ومصر (معجم البلدان ٢ / ٢٥٥) . ثم أصبح الحريم الطاهريّ محلّ سكنى الأمراء العباسيّين الذين يرى الخليفة ضرورة بقائهم تحت رقابته . وكان يحيط بالحريم سور (معجم البلدان ٢ / ٢٥٥) وعليه موكّل يحفظه .

[قال : فحدّثني أبو عبد الله محمّد بن عبدوس الجهشياري ، وأبو عبد الله محمّد بن إسماعيل زنجي الكاتب ، وأبو الحسين محمّد بن عبد الرّحمن الروذباري ، صاحب الفضل بن جعفر ، قالوا : كنّا] [9] في دار مؤنس ، والنّاس يهنّونه ، وعليّ ابن عيسى مستتر ، فلم يشعر إلّا وقد جاء عليّ بنْ عيسى بطيلسان [10] ، وأحفى المسألة [11] أن يردّ إلى الحبس ، خوفاً من عواقب الاستتار ، وأن يولّد عليه أكثر من الحبس .

فتلقّاه مؤنس أحسن لقاء وأجمله ، واستصوب رأيه في الظّهور ، وراسل

ويمنع من فيه أن يبارحه إلاّ بإذن (القصّة رقم ١٦٦ وتجارب الأمم ١ / ١٩٣ والتكملة ٥٩) . ولمّا تقرّر في السنة ٢٩٥ نصب المقتدر ، أحدر من دار ابن طاهر (تجارب الأمم ١ / ٣ والقصّة ٥ / ٣٠ من نشوار المحاضرة) ولمّا بويع ابن المعتز بالخلافة في السنة ٢٩٦ أمر المقتدرَ بأن ينصرف مع والدته إلى دار ابن طاهر (تجارب الأمم ١ / ٦) ولمّا خلع المقتدر في السنة ٣١٧ وطلب أخوه القاهر ، رفض كافور ، الموكّل بالدار ، أن يفتح أبوابها ، وطالب بعلامة من مؤنس المظفّر (تجارب الأمم ١ / ١٩٣) ، ولمّا قتل المقتدر في السنة ٣٢٠ أحضر مؤنس من دار ابن طاهر أميرين هما أبو أحمد محمّد بن المكتفي ، ومحمّد بن المعتضد ، ولمّا بايع ثانيهما بالخلافة ، صرف الأوّل إلى داره في دار ابن طاهر (تجارب الأمم ١ / ٢٤٢ وابن الأثير ٨ / ٢٠١) ولمّا خلع القاهر من الخلافة ، وأطلق من اعتقاله ، أعيد إلى داره في دار ابن طاهر (تجارب الأمم ٢ / ٨٠ و٨١) ، ولمّا جرت المفاوضة مع المستكفي من أجل استخلافه ، أخرج من دار ابن طاهر في زيّ امرأة (ابن الأثير ٨ / ٤٢٠) .

٩ الزيادة من غ .

١٠ الطيلسان : لباس المشايخ والفقهاء ، وهو قطعة من القماش مدوّرة الشكل أو مربعة ، تطوى فتكون بشكل نصف دائرة أو مثلّث ، وتلقى على الكتف ، وفي بعض الأحيان على العمامة . والطيلسان ما يزال شائع الاستعمال في اليمن ، ولكنّه قليل الاستعمال ببغداد ، يرتديه بعض المعمّمين المتقدّمين في السنّ ، ويسمونه : شالة ، ويتّخذونه من قطعة مربعة من الصوف الأنيق الفاخر . وتكون في الغالب مطرّزة ، وتطوى حتى تصير مثلثة الشكل ، ثم توضع على الكتفين فوق الجبّة ، وربما وضعت فوق العمامة ولفّ بها الرّأس ، راجع معجم دوزي بأسماء الملابس عند العرب ٢٢٩ ، والقصّة ٧ / ٦٧ من كتاب نشوار المحاضرة للتنوخيّ .

١١ أحفى المسألة : ردّدها .

المقتدر في الحال ، فعاد الجواب من المقتدر ، بأجمل قول وأحسنه ، وأنّه قد ردّ إلى عليّ بن عيسى الإشراف على ابن مقلة ، والاجتماع معه على سائر أمور المملكة ، وأمر أن يصل بوصوله[12] ، وأن لا ينفرد ابن مقلة بتدبير أمر دونه ، وأفرد عليّ بن عيسى بالمظالم ، من غير أن يكون لابن مقلة فيها نظر .

فقال له مؤنس : ليس يجوز مع هذا أن تلبس الطيلسان ، وعليك أن تتلقّى هذا [١٠٥ غ] الإنعام بالشّكر .

فانصرف عليّ بن عيسى ، وعاد عشيّاً وعليه درّاعة[13] ، وجلس في دار مؤنس ، منتظراً مجيء الوزير ابن مقلة ، إلى أن جاء ، فاجتمعا يتفاوضان في أمور الأموال والأعمال .

فقال له ابن مقلة : إنّ أبا بكر محمّد بن عليّ المادرائيّ[14] يطيعك ، وهو من أكبر صنائعك ، فاكتب إليه بحمل مالٍ .

فقال عليّ بن عيسى : إنّ مصر مع الاضطراب الواقع ، ستفور ناراً ، لكثرة الجيش بها ، وعظم مال صلة البيعة ، والوجه أن يكتب الوزير أعزّه الله .

فقال مؤنس لابن مقلة : افعل ما أشار به أبو الحسن .

---

١٢ يعني أن يدخل على الخليفة مع الوزير .

١٣ الدرّاعة : ثوب له جيب يلبسه الكتّاب ، ولا تكون الدرّاعة إلاّ من الصوف ، وتشبه ما يسمّى الآن ببغداد : الدشداشة ، وفي مصر : الجلابيّة ، وذكر صاحب الأغاني ٥ / ١٨٥ : أنّ موسى الهادي طرب يوماً فمدّ يده إلى جيب درّاعته فحطّها ذراعاً ، ثمّ ضرب بيده إليها ثانياً ، فحطّها ذراعاً آخر ، راجع معجم دوزي بأسماء الملابس عند العرب ١٤٦ .

١٤ أبو بكر محمّد بن عليّ بن أحمد بن رستم المادرائي (٢٥٨ — ٣٤٥) : وزير من الكتّاب ، وصفه المقريزي بأنّه أحد عظماء الدنيا ، أصله من مادرايا ، من قرى البصرة ، دخل مصر سنة ٢٧٢ وخلف أباه في ولاية النظر في أمور خمارويه بن أحمد بن طولون ، ثم استوزره هارون بن خمارويه ، ولمّا انقرضت دولة بني طولون قدم العراق ، ثمّ ولّي خراج مصر ، ثم جعل له الاخشيد أمور مصر كلّها ، توفّي بالقاهرة (الأعلام ٧ / ١٥٨) .

فقال : لا يحسن أن أكتب في شيء من هذا ، وهذا الشّيخ حاضر .

فقال أبو الحسن : فأنا أكتب بخطّي عنك ، إلى محمّد بن عليّ ، فإنّك أنت الوزير ، وكلّنا أعوانك وأتباعك ، فسرّ بذلك ابن مقلة جدًّا ، وصارت له عند النّاس جميعاً منزلة .

ودعا عليّ بن عيسى بثلث قرطاس ، وكتب فيه ، في الحال ، بغير نسخة ، كتاباً نسخته :

بسم الله الرّحمن الرّحيم ، أعزّك الله ، وأطال بقاك ، وأكرمك ، وأتمّ نعمته عليك ، وزاد في إحسانه إليك ، قد عوّد الله أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – في تصاريف أحواله ، ومعقبات أعماله ، وعند الخطوب إذا ألمّت ، والحوادث إذا أظلّت ، أن لا يخليه من نظر يتيحه له ، ونعمٍ يجدّدها عنده ، ومنح يضاعفها لديه ، لما يعرفه [٧٦ م] من صفاء نيّته ، وخلوص طويّته ، وحسن سريرته ، لسائر رعيّته ، عادة في الصّلاح والإصلاح ، هو – عزّ وجلّ – متمّمها ، وموزع الشّكر عليها ، وكان جماعة من الأولياء ، وجمهور الرّجال والأصفياء ، عدلوا عن طريق السّلامة ، وزالوا عن مذهب الاستقامة ، وحادّوا[١٥] ما توالى عليهم من النّعمة ، ووصل إليهم من الإحسان في طول المدّة ، وحملهم الحَيْنُ المتاح لأمثالهم ، وما قرّب الله من آجالهم ، [على الخروج عن مدينة السّلام ، بغير تدبير ولا نظام][٩] ، والمطالبة بما لا يستحقّون من الأرزاق ، على سبيل السطوة والاقتدار ، غير مفكّرين في ذميم المذاهب ، ووخيم العواقب ، متردّدين في بغيهم ، متسكّعين في جهلهم وغيّهم ، وأمير المؤمنين – أدام الله عزّه – يعدهم بنظره الّذي لا يخلفه ، والعطاء الّذي لا يؤخّره ، ويتوخّاهم بالموعظة الحسنة ، وينهاهم عن الأفعال القبيحة المنكرة ، وهم يأبون ما يدعوهم

---

١٥ حادّ : عادى .

إليه ، ويسرفون في التحكّم والبغي عليه ، إلى أن أدّاهم الجهل والطغيان ، والتمرّد والعصيان ، إلى إحضارهم دار المملكة من لقّبوه بالخلافة يوماً واحداً ، ثمّ صرف عنها ، وأمير المؤمنين – أيّده الله تعالى – يعمل فكره ورويّته في حلّ نظامهم ، وحسم موادّ اجتماعهم ، وتشتيت كلمتهم ، وتفريق جماعتهم ، حتّى يتمكّن منهم تمكّناً يفتّ في أعضادهم ، ويوهن من عنادهم ، ثمّ يعفو عمّن يرى العفو عنه ، ويوقع القصّاص على من يوجب الحقّ القصّاص منه ، فلم تكن إلّا وقعة من الوقعات ، وساعة من السّاعات ، حتّى أخلف الله آمالهم ، وأكذب أطماعهم [٧٦ ظ] وبدّد شملهم ، وخيّب سعيهم ، وأكبى زندهم ، وانفضّوا بعد أن استلحم[١٦] من كان مضرماً للفتنة ، وملهبا للنائرة[١٧] . وعاد أمير المؤمنين – أيّده الله – على الباقين بالصّفح الشّامل ، والإنعام الكامل ، وتغمّد هفوتهم . وأقال عثرتهم . وأحسن صلتهم ، واستأنف أفضل [١٠٦ غ] الأحوال بهم . وعادت الأمور كما كانت ، وتكشّفت الخطوب وزالت ، وخلصت النيّات وصلحت . وهدأت الرعيّة وسكنت ، وقد تكفّل الله – عزّ وجلّ – بنصر أمير المؤمنين ، وتشييد أركان عزّه ، والله يحقّ الحقّ ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون ، فأجر أعمالك – أعزّك الله – على أجمل ما تجريها عليه ، وأحسن سيرتك فيها ، مستعملاً فيها أجدّ الجدّ ، وأبلغ التشمير ، حتّى تسهل صعابها ، وتدرّ أحلابها ، وتجري على أحسن مجاريها ، وأجمل تأتّيها ، واحذر أن ترخّص لنفسك في تأخير الحمل ، فتخرج إلى التأنيب والعذل ، وبادر الجواب عن هذا الكتاب ، لأعرضه على أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه –

---

١٦ استلحم الرجل : نشب في الحرب فلم يجد مخلصاً .

١٧ النائرة : الهائجة والفتنة .

فإنّه يتوكّفه[18] ، ويراعيه ، ويتشوّفه[19] ، والدعاء له[20] ، وكتب يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة سبع عشرة وثلثمائة .

---

١٨ يتوكّفه : ينتظره ويسأل عنه .

١٩ التشوّف : التطلّع . من الشوف . أي الجلاء . والشوف هو الرؤية . لأنّها تجلو حقيقة الشيء . تقول : شاف يشوف شوفاً . أي رأى . يرى . رؤية . والبغدادي . لا يقول : رأيت . وإنّما يقول : شفت .

٢٠ يريد به الدعاء المقرّر للعامل في المراسلة . وكان الدعاء المقرّر لعامل مصر الذي أرسلت إليه الرسالة : أدام الله عزّك . وأطال بقاءك . وأكرمك . وأتمّ نعمته عليك وإحسانه إليك (الوزراء ١٧٥) .

دار مؤنس

كانت دار مؤنس على شاطئ دجلة ، مجاورة لدار الخلافة (رسوم دار الخلافة ١٣٦) وكان الجسر بحضرتها (المنتظم ٧ / ١٧١) وكانت بسوق الثلاثاء (المنتظم ٦ / ٢٠٦ والتكملة ١١٠) وهو سوق البزّازين (معجم البلدان ٣ / ١٩٣) ومن دار مؤنس اقتطعت المدرسة النظامية (التكملة ١٤٨) وكانت في وسط سوق الثلاثاء (ابن بطوطة ١٧٥) واقتطعت كذلك المدرسة المستنصرية ، وكانت في آخر سوق الثلاثاء (ابن بطوطة ١٧٥) ، ويبدو من هذه الدلالات أنّ دار مؤنس كانت واقعة على دجلة شمالي دار الخلافة ، يفصلها عنها السوق الذي ينزل من دجلة من قهوة الشطّ مارًّا بخان دلّة والممتد إلى الشورجة ، أمّا طرفها الثاني فقد كان مطلاً على الجسر ، وقد كان في موضعه الذي هو فيه الآن ، ولا يستغرب أن تكون دار مؤنس بهذه السعة ، فقد كان القائد العام للجيش ، وكانت سلطته تزيد على سلطة الخليفة ، وكانت داره تشتمل على كتّابه وعمّاله وحرسه وغلمانه مع دوابهم وما يقتضي إعداده لإيوائهم وإطعامهم ، وأصبحت هذه الدار من بعد مقتل مؤنس ، مقراً للحكّام المتسلّطين على بغداد . فنزلها ابن رائق لمّا أصبح أميراً للأمراء في السنة ٣٢٤ . ونزلها من بعده بجكم في السنة ٣٢٦ (التكملة ١١٠) ونزلها من بعدهما أبو الحسين البريدي لمّا استولى على بغداد في السنة ٣٣٠ في عهد المتّقي (التكملة ١٢٧) كما نزلها توزون لمّا نصب أميراً للأمراء في السنة ٣٣١ (التكملة ١٣٤) وأقام بها من بعده سيف الدّولة الحمداني في السنة ٣٣١ (التكملة ١٣٤) وأقام بها كذلك معزّ الدّولة البويهي لمّا استولى على بغداد في السنة ٣٣٤

(التكملة ١٤٨) إلى أن بنى داره بالشمّاسية فانتقل إليها في السنة ٣٥٠ قبل أن يتمّ بناءها (تجارب الأمم ٢ / ١٨٣ والتكملة ١٧٩) . وبعد أن تركها معزّ الدّولة . أصبحت مقراً للأمراء من أولاده (التكملة ٢١٤) ، إنّ المدرسة المستنصرية ما تزال ماثلة تحدّد لنا الجانب الشمالي من دار مؤنس . أمّا المدرسة النظامية وسوقها الملاصق لها . فيبدو أنّها كانت على قطعة الأرض المستطيلة المنتظمة التي يحدّها من الشرق سوق الجوخجية (باعة الجوخ) ومن الغرب سوق المصبغة ، ومن الشمال : سوق اليمنجيّة . وهم صنّاع الأحذية الحمراء الصرّارة المسمّاة باليمنيّات . مفردها : يمني . ومن الجنوب : السوق النازل من دجلة . من قهوة الشطّ . ماراً بخان دلّة . والممتد إلى سوق العطّارين . وعلى هذا فإنّ المدرسة النظامية التي كانت الأمثال تضرب بحسنها (ابن بطوطة ١٧٥) لم يبق منها الآن إلاّ قطعة صغيرة من الأرض ، بين الدكاكين . لعلّها لا تزيد في المساحة على حجرة واحدة من حجراتها الماضية ، اتّخذت كتّاباً للصبيان . كان فيه مؤدّب يعلّمهم الكتابة وقراءة القرآن اسمه الملاّ أحمد ، لم أدركه ، وأدركت ولده الملاّ إبراهيم . توفّي . وخلفه أخوه الملاّ مسلم ، ولمّا مات أغلق بابها ، وظلّت سنين مهجورة . ثم أقدم بعض البزّازين من أصحاب الدكاكين المحيطة بهذه القطعة ، ففتحوا بابها ، ورمّوا شعثها ، وفرشوها بالحصر والبواري ، وجهّزوها بالماء والنور ، واتّخذوها مصلّى لأهل سوقهم .

أقول : ورد في البحث ذكر سوق اليمنجية : نسبة إلى اليمني . وهو حذاء أحمر صرّار ، ينسب إلى اليمن ، معروف من القديم بهذا الاسم ، وقد أدركت هذا السوق ، وجميع دكاكينه عامرة ببائعي هذا الصنف من الأحذية . أمّا الآن فقد انقرض هذا الصنف ، ولم يبق من بائعيه أحد . وحلّ محلهم في السوق الخيّاطون والسقطيون . ولمحمّد بن دانيال الموصلي في وصف اليمني (فوات الوفيات ٢ / ٣٨٤) :

من اليمنيّـات التي حرّ وجههـا ... يفوق صقالاً صفحة الصارم الهندي
ومن عجـبي أنّي إذا مـا وطئتهـا ... تئنّ أنينـاً دونه أنّـة الوجـد
ولم أر وجهـاً قبلها كـلّ ساعـة ... عـلى الترب ألقاها معفّرة الخـدّ

١٦٤

من مكارم القاضي أحمد بن أبي دؤاد

أ – سيّد العرب أحمد بن أبي دؤاد

أخبرني محمّد بن الحسن ، قال : أخبرني أبو بكر الصولي ، قال : حدّثنا محمّد بن القاسم بن خلاد[1] ، قال :

رفع بعض العمّال إلى المعتصم ، وكان يلي الخراج بموضع يلي فيه خالد بن يزيد[2] الحرب ، أنّ خالد بن يزيد اقتطع الأموال واحتجن بعضها .

فغضب المعتصم ، وحلف ليأخذنّ أموال خالد ، ويعاقبه .

---

١ أبو عبد الله محمّد بن القاسم بن خلّاد بن ياسر ، المعروف بأبي العيناء (١٩١ – ٢٨٣) : أديب ، فصيح ، ذكيّ ، من ظرفاء العالم ، من أسرع الناس جواباً ، حسن الشعر ، جيّد العارضة ، مليح الكتابة والترسّل ، بليغ الخطابة ، حاضر النادرة ، أضرّ بعد الأربعين ، نشأ بالبصرة ، وأقام ببغداد طويلاً ، ثم انحدر إلى البصرة ، فمات فيها ، ومن أنبل صفات أبي العيناء : الوفاء ، فإنّه رثى الحسن بن سهل لمّا مات ، أجمل رثاء (القصّة ٦ / ٣٥ من نشوار المحاضرة) ، مع أنّ الحسن بن سهل توفّي والدهر عنه منصرف ، وكذلك كانت حاله مع السيد العربي النبيل القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، فقد أثنى عليه بعد وفاته ، مع أنّه توفّي مشلولاً منكوباً ، ومن بديع أقواله : أنّ رجلاً وقف عليه ، فلما أحسّ به ، قال لـه : من أنت ؟ قال : رجل من بني آدم ، فقال له أبو العيناء : مرحباً بك أطال الله بقاءك ، كنت أظنّ أنّ هذا النسل قد انقطع (وفيات الأعيان ٤ / ٣٤٤) ، ومرّ يوماً بدار أحد أصحابه ، وكان مريضاً ، فسأل : كيف حال فلان ؟ فقالوا : كما تحبّ ، فقال : فما لي إذن لا أسمع الصراخ في الدار (الديارات ٨٤) ، راجع أخبار أبي العيناء في كتاب الملح والنوادر للحصري ٦٢ ، ١٢٩ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٣١ ، ٢٩٢ ، وفي وفيات الأعيان ٤ / ٣٤٣ – ٣٤٨ وفي الديارات ٧٩ – ٩٢ ، وفي المنتظم ٥ / ١٥٦ ، وفي الأعلام ٧ / ٢٢٦ .

٢ أبو يزيد خالد بن يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني : أحد الأمراء الأجواد في العصر العباسيّ ، مدحه أبو تمّام ، ولّاه المأمون مصر ، ثمّ ولّاه الموصل وديار ربيعة ، ولما انتقضت أرمينية ، جهّزه الواثق إليها ، فمات في طريقه سنة ٢٣٠ (الأعلام ٢ / ٣٤٣) .

فلجأ خالد إلى أحمد بن أبي دؤاد القاضي [3] [١٣٨ م] . فاحتال حتّى جمع بينه وبين خصمه ، فلم تقم على خالد حجّة .

فعرّف ابن أبي دؤاد المعتصم ذلك ، وشفع إليه في خالد ، فلم يشفّعه .

وأحضر خالداً ، وأحضر آلات العقوبة ، وقد كان قبل ذلك . قبض أمواله ، وضياعه ، وصرفه عن العمل .

وحضر ابن أبي دؤاد المجلس ، فجلس دون النّاس .

فقال له المعتصم : ارتفع إلى مكانك .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أستحقّ إلاّ دون هذا المجلس .

قال : وكيف ؟

قال : النّاس يزعمون أنّ ليس محلّي محلّ من شفع في رجل قرف بما لم يصحّ عليه فلم يشفّع .

قال : ارتفع إلى موضعك .

قال : مشفّعاً أو غير مشفّع ؟

---

٣ أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد بن جرير بن مالك الإيادي (١٦٠ – ٢٤٠) : رجل كلّه محاسن ، وفضائل . ومكارم أخلاق . وأخباره المنثورة في ثنايا كتب التاريخ والعلم والأدب ، تنبئ عن سيرة تفيض خيراً . وتنفح عطراً . راجع مدائحه في ديوان أبي تمّام ، وأخباره في وفيات الأعيان ١ / ٦٣ وشذرات الذهب ٢ / ٩٣ ومروج الذهب ٢ / ٣٩٩ وتاريخ بغداد ٤ / ١٤١ ودائرة المعارف الإسلامية ١ / ٤٥٤ والكامل لابن الأثير في المجلدين ٦ و٧ وفي تاريخ الطبري في المجلدين ٨ و٩ وفي هذا الكتاب وفي كتاب المستجاد من فعلات الأجواد ص ١٤١ و١٤٨ و١٥٩ و٢٠٦ . وفي القصص ٢ / ٤٩ و٣ / ٤٨ و٧ / ١١٤ و٧ / ١٤١ و٧ / ١٤٢ من نشوار المحاضرة . وراجع ما قاله فيه أبو العيناء في نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٠٢ وج ٣ ص ٦٨ . اتّصل أوّلاً بالمأمون . فقرّبه . ثم أوصى به المعتصم ، فجعله قاضي قضاته . وأخذ يستشيره في جميع أموره . ولما استخلف الواثق . زاد تقريباً له ، وتعويلاً على رأيه . ولما مات الواثق . أصرّ على مبايعة المتوكّل . فلقي جزاء خطيئته هذه . إذ عزله المتوكّل ، وصادره ، وحبس أولاده ، وصادرهم ، وشرّدهم .

قال : مشفّعاً ، قد وهبت لك خالداً ، ورضيت عنه .

قال : النّاس لا يعلمون بهذا .

قال : وقد رددت عليه العمالة ، والضياع ، والأموال الّتي له .

قال : ويشرّفه أمير المؤمنين بخلع تظهر للعامّة .

فأمر أن تفكّ قيوده ويخلع عليه ، ففعل به ذلك ، وردّ إلى حضرته .

فقال ابن أبي دؤاد : قد استحقّ هو وأصحابه رزق ستّة أشهر ، فإن رأى أمير المؤمنين ، أن يجعلها صلة له .

قال : لتحمل معه .

فخرج خالد ، والنّاس منتظرون الإيقاع به ، فلمّا رأوه على تلك الحال ، سرّوا ، وصاح به رجل : الحمد لله على خلاصك يا سيّد العرب .

فقال : مه ، سيّد العرب – والله – ابن أبي دؤاد ، [الّذي طوّقني هذه المكرمة الّتي لا تنفكّ من عنقي أبداً] [4] لا أنا .

وفي هذه القضيّة ، يقول أبو تمّام الطائي :

يا سائلي عن خالد وفعاله ... ردْ فاغترف علماً بغير رشاء

قد كان خطب عاثر فأقاله ... رأي الخليفة كوكب الخلفاء

فخرجت منه كالشّهاب ولم تزل ... مذ كنت خرّاجاً من الغمّاء [١٧٥ ظ]

ما سرّني بخروجه من حجّة ... ما بين أندلس إلى صنعاء [5]

---

٤ الزيادة من المستجاد ص ١٦٠ .

٥ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ . ووردت في كتاب نشوار المحاضرة رقم القصّة ٧ / ١١٤ وفي كتاب المستجاد من فعلات الأجواد ص ١٥٩ – ١٦٠ .

ب – إطلاق الكتّاب من حبس الواثق

حدّثني عليّ بن هشام ، قال : سمعت أبا الحسن عليّ بن عيسى ، يتحدّث ، قال : سمعت عبيد الله بن سليمان بن وهب ، يقول : حدّثني أبي ، قال :

كنت وأبو العبّاس أحمد بن الخصيب ، مع خلق من العمّال والكتّاب ، معتقلين في يدي محمّد بن عبد الملك الزيّات ، في آخر وزارته للواثق ، نطالب ببقايا مصادراتنا[1] ، ونحن آيس ما كنّا من الفرج ، إذ اشتدّت علّة الواثق ، وحجب ستّة أيّام عن النّاس ، فدخل عليه أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد القاضي .

فقال له الواثق : يا أبا عبد الله – وكان يكنّيه – ذهبت منّي الدنيا والآخرة .

قال : كلّا يا أمير المؤمنين .

قال : بلى ، أمّا الدّنيا ، فقد ذهبت منّي بما ترى من حضور الموت [٧٧ م] ، وذهبت منّي الآخرة ، بما اسلفت من عمل القبيح ، فهل عندك من دواء ؟ .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قد غرّك محمّد بن عبد الملك الزيّات في الكتّاب والعمّال ، وملأ بهم الحبوس ، ولم يحصل من جهتهم على كبير شيء ، وهم عدد كثير ، ووراءهم ألف يد ترفع إلى الله تعالى بالدّعاء عليك ، فتأمر بإطلاقهم ، لترتفع تلك الأيدي بالدعاء لك ، فلعلّ الله أن يهبّ لك العافية ، وعلى كلّ حال ، فأنت محتاج الى أن تقلّ خصومك .

فقال : نِعْمَ ما أشرت به ، وقّع عنّي إليه بإطلاقهم .

فقال : إن رأى خطّي ، عاندَ ولجَّ ، ولكن يغتنم أمير المؤمنين الثوابَ ، ويتساند ، ويحمل على نفسه ، ويوقّع بخطّه .

---

١ راجع في الكامل لابن الأثير ٧ / ١٠ بحثاً مفصّلاً بأسماء المصادرين من كتّاب الواثق ، ومقادير ما صودروا عليه .

فوقّع الواثق ، بخطّ مضطرب إلى إبن الزيّات بإطلاقهم ، وإطلاق كلّ من في الحبوس ، من غير استئمار ولا مراجعة .

فقال ابن أبي دؤاد : يتقدّم أمير المؤمنين إلى إيتاخ[2] أن يمضي بالتوقيع ، ولا يدعه يعمل شيئاً ، أو يطلقهم ، وأن يحول بينه وبين الوصول إليك ، أو كتب رقعة ، أو اشتغاله بشيء البتّة ، إلّا بعد إطلاقهم ، وإن لقيه في الطّريق أنزله عن دابّته ، وأجلسه على غاشيته[3] في الطّريق ، حتّى يفرغ من ذلك .

فتوجّه إيتاخ ، فلقي ابن الزيّات راكباً يريد دار الخليفة .

فقال له : تنزل عن دابّتك ، وتجلس على غاشيتك .

فارتاع وظنّ أنّه قد وقع به الحال ، فنزل ، وجلس على غاشيته ، فأوصل إليه التوقيع ، فامتنع ، وقال : إذا أطلقت هؤلاء فمن أين أنفق الأموال ، وأقيم الأنزال[4] ؟

فقال له : لا بدّ من ذلك .

فقال : أركب إليه وأستأذنه .

فقال : ما إلى ذلك سبيل .

قال : فدعني أكاتبه .

قال : ولا هذا .

قال : فما تركه يبرح من موضعه ، حتّى وقّع بإطلاق النّاس .

فصار إيتاخ إلينا ، ونحن في الحبس ، آيس ما كنّا من الفرج ، وقد بلغنا شدّة علّة الواثق ، وأن قد أرجف لابنه بالخلافة ، وكان صبيّاً ، فخفنا أن يتمّ

---

٢ إيتاخ : القائد الخزريّ : ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من هذا الكتاب .

٣ الغاشية : كل ما يغطّي الشيء . وغاشية السرج غطاؤه (مفردات الراغب ٣٦٦) .

٤ النزل (بفتح النون والزاي) . وجمعه أنزال : الأرزاق والأعطية .

[١٠٧ غ] ذلك ، فيجعل ابن الزيّات الصبيَّ [٧٧ ظ] شبحاً ، ويتولّى التدبير فيتلفنا ، وقد امتنعنا لفرط الغمّ من الأكل .

فلمّا دخل علينا إيتاخ ، لم نشكّ أنّه قد حضر لبليّة ، فأطلقنا ، وعرّفنا الصّورة ، فدعونا للخليفة ، ولأحمد بن أبي دؤاد ، وانصرفنا إلى منازلنا لحظة ، ثمّ خرجنا فوقفنا لأبي عبد الله بن أبي دؤاد على الطريق ، ننتظر عوده من دار الخليفة عشيّاً .

فحين رأيناه ترجّلنا له ، فقال : لا تفعلوا ، وأكبر ذلك ، ومنعنا من الترجّل ، فلم نمتنع ، ودعونا له وشكرناه .

فوقف حتّى ركبنا وسايرناه ، وأخذ يخبرنا بالخبر ، ونحن نشكره ، وهو يستصغر ما فعل ، ويقول : هذا أقلّ حقوقكم ، وكان الّذي لقيه أنا وأحمد بن الخصيب .

وقال لنا : ستعلمان ما أفعله مستأنفاً .

ثمّ رجع ابن أبي دؤاد إلى دار الخليفة عشيّاً ، فقال له الواثق : قد تبرّكت برأيك يا أبا عبد الله ، ووجدت خفّة من العلّة ، ونشطت للأكل ، فأكلتُ وزن خمسة دراهم [٥] خبزاً بصدر درّاج [٦] .

فقال له أبو عبد الله : يا أمير المؤمنين ، تلك الأيدي الّتي كانت تدعو عليك غدوة ، صارت تدعو لك عشيّة ، ويدعو لك بسببهم خلق كثير من رعيّتك ،

---

٥ الدرهم : يونانية ، دراخمه (تفسير الألفاظ الدخيلة ٢٧) ، تعادل في الوزن سبعة أعشار المثقال ، أي انّ المثقال الواحد يزن درهماً وثلاثة أسباع الدرهم (مفاتيح العلوم ١١) .

٦ الدرّاج : طائر شبيه بالحجل ، أكبر منه ، قصير المنقار ، يكثر في وسط العراق وجنوبيه ، واحدته درّاجة ، للتفصيل راجع معجم الحيوان لأمين المعلوف ١٨٤ وقوله : صدر درّاج ، لأنّ المعروف أنّ أطيب ما في الدرّاج صدره ، كما أنّ أطيب ما في الدجاج أفخاذه ، راجع القصّة ١ / ١٧٨ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخيّ ج ١ ص ٣٣٤ سطر ٤ - ٩ .

إلّا أنّهم قد صاروا إلى دور خراب ، وأحوال قبيحة ، بلا فرش ، ولا كسوة ، ولا دواب ، ولا ضياع ، موتى جوعاً وهزالاً .

قال : فما ترى ؟

قال : في الخزائن والاصطبلات بقايا ما أخذ منهم ، فلو أمرت أن ينظر في ذلك ، فكلّ من وجد له شيء باقٍ من هذا ردّ عليه ، وأطلقت لهم ضياعهم ، لعاشوا ، وخفّ الألم[٧] ، وتضاعف الدّعاء ، وقويت العافية .

قال : فوقّع عنّي بذلك ، فوقّع عنه أحمد بن أبي دؤاد .

فما شعرنا من الغد ، إلّا وقد [٧٨ م] رجعت علينا نعمتنا . ومات الواثق بعد ثلاثة أيّام .

وفرّج الله عنّا بابن أبي دؤاد ، وبقيت له هذه المكرمة العظيمة في اعناقنا[٨] .

[وقد ذكر محمّد بن عبدوس ، هذا الخبر ، في كتاب الوزراء ، عن محمّد بن داود بن الجرّاح ، عن عبيد الله بن سليمان ، بما يقرب من هذه الالفاظ ، والمعنى واحد ، إلّا أنّه لم يذكر أنّه كان معهم في الحبس أحمد بن الخصيب .][٩]

ج – انقاذ أبي دلف من موت محقّق

حدّثني أبي رضي الله عنه ، في المذاكرة ، بإسناد لست أقوم عليه ، لأنّي لم أكتبه في الحال ، قال :

كان ابتداء العداوة بين أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد ، وبين الإفشين ،

---

٧ في م : وخفّ الإثم .

٨ وردت القصّة في المستجاد ص ١٤١ – ١٤٤ ونقلها باختصار صاحب حل العقال ص ٤٦ .

٩ الزيادة من غ .

أنّ الإفشين[1] كان أغرى المعتصم بأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي[2] ، لعداوة كانت بينهما[3] ، فسلّمه إليه المعتصم ، فأجمع على قتله مِنْ يومه ذاك .

وبلغ الخبر أبا دلف ، فارتحل إلى ابن أبي دؤاد ، فاستجار به ، وعرّفه ما قد أشرف عليه .

فجاء ابن أبي دؤاد إلى المعتصم ليسأله عن أمره ، فوجده نائماً ، فكره أن

---

١ أبو الحسن خيذر بن كاوس ، الملقّب بالإفشين : من أعاظم القوّاد في الدولة العباسيّة ، أصله من أشروسنة ، وهو الذي أخمد ثورة بابك الخرميّ ، اعتقله المعتصم في السنة ٢٢٥ ، واتّهم بالخيانة ، وحوكم ، ثم أخرج ميتاً ، فصلب بباب العامّة في السنة ٢٢٦ راجع تفاصيل محاكمته في الطبري ٩ / ١٠٤ – ١١٤ والكامل لابن الأثير ٦ / ٥١٠ – ٥١٨ والعيون والحدائق ٤٠٤ – ٤٠٧ ، وكان طاغية ، لجوجاً ، شديد العربدة ، راجع في وفيات الأعيان ٣٨٨/١ قصّته مع إبراهيم بن المهديّ .

٢ أبو دُلَف القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل العجليّ : أمير عربي ، قائد ، شجاع ، جواد ، شاعر ، فارس ، موسيقي ، قلّده الرشيد أعمال الجبل ، وارتفع شأنه في عهد المأمون والمعتصم ، توفّي سنة ٢٢٦ (الأعلام ٦ / ١٣) ، طعن مرّة فارساً فنفذت الطعنة فيه وفي آخر وراءه رديفه ، فقتلتهما معاً ، فقال بكر بن النطّاح [وفيات الأعيان ٤ / ٧٥]

قالوا وينظم فارسين بطعنةٍ ... يوم الهياج ولا تراه كليلا
لا تعجبوا فلو أنّ طول قناته ... ميلاً ، إذن نظم الفوارس ميلا

وكان أبو عبد الله بن أبي دؤاد ، قاضي القضاة ، ينكر أمر الغناء إنكاراً شديداً ، فأعلمه المعتصم ، أنّ صديقه أبا دلف يغنّي ، فقال : ما أراه – مع عقله – يفعل ذلك ، فستر أحمد بن أبي دؤاد في موضع ، وأحضر أبا دلف ، وأمره أن يغنّي ، ففعل ذلك ، وأطال ، ثم أخرج أحمد بن أبي دؤاد عليه من موضعه ، والكراهة ظاهرة في وجهه ، فلما رآه أحمد قال : سوأة لهذا من فعل ، بعد هذا السنّ ، وهذا المحلّ ، تضع من نفسك كما أرى ؟ فخجل أبو دلف ، وتشوّر ، وقال : إنّهم أكرهوني على ذلك ، فقال : هبهم أكرهوك على الغناء ، أفأكرهوك على الإحسان والإصابة ؟ (الأغاني ٨ / ٢٥١) .

٣ وردت مقدمّة القصّة في وفيات الأعيان ١ / ٨٢ كما يلي : كان الإفشين يحسد أبا دلف ، للعربية ، والشجاعة ، فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية وقتل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره ، وأحضر السيّاف ليقتله ، فبلغ ابن أبي دؤاد الخبر ، فركب من وقته ... الخ .

يقيمه وينبّهه ، وخاف أن يشرع الإفشين في قتل أبي دلف ، فجاء إلى الإفشين فقال له : يقول لك أمير المؤمنين ، بلّغني أنّك تريد أن تحدث على القاسم بن عيسى حادثة ، ووالله لئن فعلت لأقتلنّك ، ولم يكن المعتصم أرسله ، ولا قال له شيئاً [٤٠ ن] .

فرهب الإفشين أن يقتل أبا دلف .

وعاد ابن أبي دؤاد إلى المعتصم ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ليس الكذّاب من أصلح بين النّاس ، فقال خيراً ، ومنّى خيراً ، وقد أدّيت عنك رسالة أحييت بها أهل بيت من المسلمين ، وكففت بها أسياف خلق من العرب ، بلغني أنّ الإفشين عزم على قتل القاسم بن عيسى العجلي ، فأدّيت إليه عنك رسالة هي كذا وكذا ، فحقنت دم الرّجل ، ونعشت عياله ، وكففت عنك عصيان عجل ومن يتبعها ممّن يتعصّب له فيتّفق عليك من ذلك ما تغتمّ به ، والرّجل في يده مشفٍ على القتل .

فقال له المعتصم : قد أحسنت .

ووجّه الإفشين إلى ابن أبي دؤاد : لا تأتيني ، ولا تقربني .

فقال للرّسول : أتؤدّي عنّي كما أدّيت إليّ ؟

قال : قل .

قال : قل له : ما آتيك تعزّزاً من ذلّة ، ولا تكثّراً من قلّة ، وإنّما أنت رجل ساعدك زمان ، ورفعك سلطان ، فإن جئتك فله ، وإن تأخّرت عنك فلنفسك .

أخبرني القاضي أبو طالب محمّد بن إسحاق بن البهلول التّنوخي ، فيما أجاز لي روايته عنه ، بعدما سمعته منه ، قال : حدّثنا محمّد بن خلف ، وكيع القاضي ، قال : أخبرنا موسى بن جعفر ، أخو نعس[٤] الكاتب ، قال :

---

٤ كذا وردت في الأصل ، بلا نقط ، وأحسب أنّ اسمه : يعيش .

كان أحمد بن أبي دؤاد حين ولي المعتصم الخلافة ، عادى الإفشين وحرّض عليه المعتصم ، وذكر حديثاً طويلاً ، ليس هذا موضعه .

ثمّ قال فيه : وكان سبب العداوة بين أحمد بن أبي دؤاد ، وبين الإفشين ، أنّ الإفشين أراد قتل أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي ، فاستجار بابن أبي دؤاد ، ثمّ ذكر نحواً مما ذكرته عن أبي رضي الله عنه ، إلّا أنّه لم يقل في خبره أنّ ابن أبي دؤاد جاء إلى المعتصم فوجده نائماً ، ثمّ عاد فوجده قد انتبه ، وقال في آخر حديثه : وإنّما أنت رجل رفعتك دولة ، فإن جئتُ فلها ، وإن قعدتُ فعنك .

وأخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني . قال : قال أحمد بن أبي طاهر :

كان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي ، في جملة من كان مع الإفشين خيذر بن كاوس لما خرج لمحاربة بابك . ثمّ تنكّر له ، فوجّه من جاءه به ليقتله .

وبلغ المعتصم الخبر ، فبعث إليه بأحمد بن أبي دؤاد ، وقال له : أدركه ، وما أراك تدركه ، واحتل في خلاصه منه كيف شئت .

قال أحمد : فمضيت ركضاً ، حتّى وافيته ، فإذا أبو دلف واقف بين يديه ، وقد أخذ بيده غلامان له تركيان ، فرميت بنفسي على البساط ، وكنت إذا جئته دعا لي بمصلّى .

فقال : سبحان الله ، ما حملك على هذا ؟

قلت : أنت أجلستني هذا المجلس ، ثمّ كلّمته في القاسم بن عيسى ، وسألته فيه ، وخضعت له ، فجعل لا يزداد إلّا غلظة .

فلمّا رأيت ذلك منه ، قلت ، هذا عبد ، وقد أغرقت في الرقّة معه فلم تنفع ، وليس إلّا أخذه بالرهبة .

فقمت ، وقلت : كم تراك قدّرت في نفسك تقتل أولياء أمير المؤمنين واحداً بعد واحد ، وتخالف أمره في قائد بعد قائد ؟ قد حملت إليك هذه الرّسالة عن

أمير المؤمنين ، فما تقول ؟

فقلّ ، وذلّ ، حتّى لصق بالأرض ، وبان لي الاضطراب فيه .

فلمّا رأيت ذلك ، نهضت إلى أبي دلف ، فأخذت بيده ، وقلت : قد أخذته بأمر أمير المؤمنين .

فقال : لا تفعل ، يا أبا عبد الله .

فقلت : قد فعلت ، وأخرجت القاسم ، وحملته على دابّة ، ووافيت المعتصم .

فلمّا بصر بي ، قال : بك يا أبا عبد الله وريت زنادي ، ثمّ سرد عليّ خبري مع الإفشين ، حديثاً ما أخطأ فيه حرفاً .

ثمّ سألني : هل هو كما قال ؟ فاخبرته أنّه لم يخطئ حرفاً واحداً .

وأخبرني أبو علي محمّد بن الحسن بن المظفّر ، المعروف بالحاتميّ ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني جدّك المظفّر بن الحسن ، قال : حدّثني أبو العباس ابن الفرات قال : حدّثني أبو إسحاق إبراهيم بن ثوابة ، قال :

كان الإفشين نقم على أبي دلف العجلي ، وهو مضموم إليه في حرب بابك ، أشياء ، فلمّا ظفر ببابك ، وقدم سرّ من رأى ، شكاه إلى المعتصم ، وسأله ليأمره به[5] ، ففعل ، ثم سأله أن يطلق يده عليه ، فلم يفعل[6] ، وكان أحمد بن أبي دؤاد متعصّباً لأبي دلف ، يقول للمعتصم : إنّ الإفشين ظالم له ، وإنّما نقم عليه نصيحته في محاربة بابك ، وجدّه فيها ، ودَفْعَهُ ما كان الإفشين يذهب إليه من مطاولة الأيّام ، وإنفاق الأموال ، وانبساط اليد في الأعمال ، وتركَهُ متابعته على ذلك ،

فألحّ الإفشين على المعتصم بالله في إطلاق يده عليه ، وكان للإفشين قدر جليل عند المعتصم ، يدخل عليه بغير إذن .

---

٥ كذا ورد في الأصل .

٦ كذا ورد في الأصل . وأحسب أنّ الصحيح : ففعل .

قال أبو إسحاق ، وأنبأنا أبو عبد الله بن أبي دؤاد ، قال : دخلت على المعتصم يوماً ، فقال : يا أبا عبد الله ، لم يدعني اليوم أبو الحسن الإفشين حتّى أطلقت يده على القاسم بن عيسى .

فقمت من بين يديه ، وما أبصر شيئاً خوفاً على أبي دلف ، ودخلني أمر عظيم ، وخرجت فركبت دابّتي ، وسرت أشدّ سير من الجوسق إلى دار الإفشين بقرب المطيرة ، أؤمّل أن أدرك أبا دلف قبل أن يحدث الإفشين عليه حادثة .

فلمّا وقفت ببابه ، كرهت أن أستأذن فيعلم أنّي قد حضرت بسبب أبي دلف ، فيعجّل عليه ، فدخلت على دابتي إلى الموضع الّذي كنت أنزل فيه ، وأوهمت حاجبه أنّي قد جئت برسالة المعتصم ، ثمّ نزلت ، فرفع الستر ، فدخلت ، فوجدت الإفشين في موضعه ، وأبو دلف مقيّد بالحديد بين يديه في نطع ، وهو يقرّعه ، ويخاطبه بأشدّ غضب وأعظم مخاطبة .

فحين قربت منه أمسك ، فسلّمت ، وأخذت مجلسي ، ثمّ قلت للإفشين : قد عرفت حرمتي بأمير المؤمنين ، وخدمتي إيّاه ، وموضعي عنده ، وموقعي من رأيه ، وتفرّده بالصنيعة عندي والإحسان ، وعلمت مع ذلك ميلي إليك ، ومحبّتي لك ، وقد رغبت إليك فيما يرغب فيه مثلي إلى مثلك ، ممّن رفع الله قدره ، وأجلّ خطره ، وأعلى همّته .

فقال : كلّ ما قلت كما قلت ، وكلّ ما أردت فهو مبذول لك ، خلا هذا الجالس ، فإنّي لا أشفّعك فيه .

فقلت : ما جئتك [٤١ ن] إلّا في أمره ، ولا ألتمس منك غيره ، ولولا شدّة غضبك ، وما تتوعّده به من القتل ، لكان في جميل عفوك ما يغني عن كلامك ، ولكنّي لما عرفت غيظك ، وما تنقمه عليه ، احتجت – مع موقعه منّي – إلى كلمة في أمره ، واستيهاب عظيم جرمه ، إذ كان مثلك في جلالتك إنّما يسأل جلائل الامور .

فقال : يا أبا عبد الله ، هذا رجل طلب دمي ، ولم تقنعه إزالة نعمتي ، ولا سبيل إلى تشفيعك فيه ، ولكن هذا بيت مالي ، وهذه ضياعي ، وكلّ ما أملك بين يديك ، فخذ من ذلك كلّه ما أردت .

فقلت : بارك الله لك في أموالك وثمّرها ، لم آتك في هذا ، وإنّما أتيتك في مكرمة يبقى لك فضلها ، وحسن أحدوثتها ، وتعتقد بها منّة في عنقي ، ولا أزال مرتهناً في شكرها .

فقال : ما عندي في هذا شيء البتّة .

فقلت له : القاسم بن عيسى فارس العرب وشريفها ، فاستبقه ، وأنعم عليه ، فإن لم تره لهذا أهلاً ، فهبه للعرب كلّها ، وأنت تعلم أنّ ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب ، ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النّعمان حتّى ملّكه ، وأنت الآن بقيّة العجم وشريفها ، والقاسم شريف العرب ، فكن اليوم شريفاً من العجم أنعم على شريف من العرب ، وعفا عنه .

فقال : ما عندي في هذا جواب إلّا ما سمعت ، وتنكّر ، وتبيّنت الشرّ في وجهه .

فقلت في نفسي : أنصرف ، وأدع هذا يقتل أبا دلف ؟ لا والله ، ولكن أمثل بين يديه قائماً ، وأكلّمه ، فلعله أن يستحي ، فقمت ، وتوهّمني أريد الانصراف ، فتحفّز لي .

فقلت : لست أريد الانصراف ، وإنّما مثلت بين يديك قائماً ، صابراً ، راغباً ، ضارعاً ، سائلاً ، مستوهباً هذا الرّجل منك .

فكان جوابه أغلظ .

فتحيّرت ، وقلت في نفسي : أنكبّ على رأسه ، فأقبّله . فدخلني من

ذلك أَنَفٌ شديد[7] ، وقلت في نفسي : أقبّل رأس هذا الأقلف[8] ؟ لا يكون هذا أبداً .

ثمّ راجعتني الشّفقة على أبي دلف ، فقبّلت رأسه ، وضرعت إليه ، فلم يجبني ، فأخذني ما قدم وما حدث .

فجلست ، وقلت له : يا أبا الحسن ، قد طلبت منك ، وضرعت إليك ، ووضعت خدّي لك ، ومثلت بين يديك ، وقبّلت رأسك ، فشفّعني ، واصرفني شاكراً ، فهو أجمل بك .

فقال : لا والله ، ما عندي غير الّذي قلته لك .

فقلت له : أنا رسول أمير المؤمنين إليك ، وهو يقول لك : لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً ، فإنّك إن قتلته قتلتَ به .

قال : أمير المؤمنين يقول هذا بعد أن أطلق يدي عليه ؟

قلت : نعم ، أنا رسوله إليك بما قلته لك ، فإن كنت في الطّاعة فاسمع وأطع ، وإن كنت قد خلعت ، فقل : لا طاعة ، ونفضت في وجهه يدي ، ونهضت .

فاضطرب حتّى لم يقدر أن يدعو لي بدابّتي .

وركبت ، فأغذذت السير إلى المعتصم ، لأخبره الخبر ، وبما اضطررت إليه من تأدية رسالته ، لأنّي علمت أنّه لم يقل لي ما قاله ، إلّا وهو يحبّ استبقاء أبي دلف .

فانتهيت إلى الجوسق في وقت حار ، والحجّاب جميعاً نيام ، والدّار خالية ، فدخلت حتّى انتهيت إلى ستر الدّار الّتي فيها المعتصم ، فجلست ، وقلت :

---

٧ الأَنَفُ : الترفّع والتنزّه .

٨ الأقلف : الذي لم يختتن .

إن جاء الإفشين دخلت معه وتكلّمت ، وإن سأل الوصول ، أخبرت أمير المؤمنين الخبر كلّه .

فبينا أنا كذلك ، إذ خرج خادم من وراء الستر ، فعرّفته ، ثمّ دخل وخرج فقال : أدخل .

فدخلت ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، أما لي حرمة ؟ أما لي ذمام ؟ أما لي حقّ ؟ أما في فضل أمير المؤمنين عليّ ، ونعمته عندي ، ما تجب رعايته ؟

فقال : ما لك يا أبا عبد الله ؟ ما قصّتك ؟ اجلس ، فجلست .

ثمّ قلت : يا أمير المؤمنين ، قلتَ لي اليوم في القاسم بن عيسى قولاً علمت معه أنّك أردت استبقاءه وحقن دمه ، فمضيت من فوري إلى أبي الحسن الإفشين ، ثمّ قصصت عليه القصّة إلى موضع الرّسالة الّتي أدّيتها عنه إليه ، وهو في كلّ ذلك يتغيّظ ، ويفتل سباله[9] ، حتّى إذا أردت أن اعرّفه الرّسالة الّتي أدّيتها عنه ، قطع ، وقال : يمضي قاضيّ ، وصنيعتي أحمد بن أبي دؤاد إلى خيذر ، فيخضع له ، ويقف بين يديه ، ويقبّل رأسه ، فلا يشفّعه ؟ قتلني الله إن لم أقتله ، يكرّرها .

فما استوفى كلامه ، حتّى رفع السّتر ودخل الإفشين ، فلقيه بأكبر البرّ والإكرام ، وأجلسه بقربه ، وقال : في هذا الوقت الحارّ يا أبا الحسن ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، رجلٌ قد عرفتَ ما نالني منه ، وأنّه طلب دمي ، وقد اطلقت يدي عليه ، يجيئني هذا ، ويقول لي إنّك بعثتَ إليّ تأمرني أن لا أحدث فيه حَدَثاً ، وأنّي إن قتلته قتلت به . ؟

قال : فغضب ، وقال : أنا أرسلته إليك ، فلا تحدث على القاسم بن عيسى حدثاً .

فنهض الإفشين مغضباً يدمدم ، واتّبعته لأتلافاه ، فصاح بي المعتصم :

---

٩ السبال : شعر الشارب .

ارجع يا أبا عبد الله ، فرجعت ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّه كان بقي شيء مما جرى منّي قطعتني بكلامك عن ذكره لك .

قال : تعني الرّسالة ؟

قلت : نعم .

قال : قد فهمتها ، والقاسم يوافيك العشيّة ، فاحذر أن تفوه بشيء ممّا جرى .

ومضى الإفشين ، فأطلق القاسم ، وخلع عليه ، وحمله ،فجاءني القاسم من العشيّة .

وما أخبرت بالحديث حتّى قتل الإفشين ومات المعتصم[10] .

---

١٠ انفردت بها ن .

١٦٥

الصريفيني الكاتب يعلّم العمّال حسن الصرف

[حدّثني أبو الحسين علي بن هشام ، قال : سمعت أبا الحسن عليّ بن عيسى ، وأبا الحسن الايادي الكاتب ، يقولان : إنّهما سمعا][1] عبيد الله بن سليمان[2] ، يقول :

كنت بحضرة أبي[3] ، في ديوان الخراج بسرّ من رأى ، وهو يتولّاه – إذ ذاك – إذ دخل علينا أحمد بن خالد الصريفيني الكاتب[4] ، فقام له أبي قائماً في مجلسه ، وأقعده في صدره ، وتشاغل به ، ولم ينظر في عمل حتّى نهض ، ثمّ قام معه ، وأمر غلمانه بالخروج بين يديه .

فاستعظمت أنا ، وكلّ من في الدّيوان ذلك ، لأنّ رسم أصحاب الدواوين ، صغارهم وكبارهم ، أن لا يقوموا في الدّيوان لأحد من خلق الله عزّ وجلّ ، ممّن يدخل إليهم .

---

١ الزيادة من غ ، والإيادي : نسبة إلى إياد بن نزار بن معدّ بن عدنان (اللباب ١ / ٧٧) .

٢ أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي ، وزير المعتمد والمعتضد .

٣ أبو أيّوب سليمان بن وهب الحارثي ، وزير المهتدي والمعتمد .

٤ أبو الوزير أحمد بن خالد الصريفيني : نسبته إلى صريفين ، على ما ورد في اللباب ٢ / ٥٤ ، وإلى صريفون ، على ما ورد في معجم البلدان ٣ / ٣٨٤ ، وجاء في المعجم وفي المفترق صقعاً ٢٨٢ : أنّ الاسم يطلق على ثلاثة مواضع الأوّل : قرية قرب عكبرا ، والثاني : قرية تحت واسط ، والثالث : قرية من قرى الكوفة ، كان أحمد بن خالد يكتب للمعتصم (الطبري ٩ / ١٧) وصادره الواثق (الطبري ٩ / ١٢٥ والكامل ٧ / ١٠ وتجارب الأمم ٦ / ٥٢٨) وكان ممن أشار بتولية محمّد بن الواثق ، لما توفي والده (الطبري ٩ / ١٥٤ والكامل لابن الأثير ٧ / ٣٣ وتجارب الأمم ٦ / ٥٣٥) فحقدها عليه المتوكّل وصادره وصادر أخاه وكاتبه (الطبري ٩ / ١٦٢ والكامل لابن الأثير ٧ / ٣٩) ثم ولّي خراج مصر (الولاة والقضاة للكنديّ ص ٢٠٠ سطر ١٦) .

وتبيّن ذلك أبي في وجهي ، فقال لي : يا بنيّ ، إذا خلونا ، فسلني عن السّبب فيما عملته مع هذا الرّجل .

قال : وكان أبي يأكل في الدّيوان ، وينام فيه ، ويعمل عشيّاً .

فلمّا جلسنا نأكل ، لم أذكّره ، إلى أن رأيت الطعام قد كاد ينقضي ، فقال لي : يا بنيّ شغلك الطعام عن إذكاري بما قلت لك أن تذكّرني به ؟ .

فقلت : لا ، ولكن أردت أن يكون ذلك على خلوة .

فقال : يا بنيّ ، هذا وقت خلوة ، ثمّ قال : أليس قد أنكرت ، أنت والحاضرون ، قيامي لأحمد بن خالد ، في دخوله وخروجه ، وما عاملته به ؟ .

فقلت : بلى .

قال : كان هذا يتقلّد مصر [5] ، فصرفته عنها [6] ، وقد كانت [١٠٨ غ] طالت مدّته فيها ، فتتبّعته ، فوطئت آثار رجل لم أجد أجمل منه آثاراً ، ولا أعفّ عن أموال السلطان والرعيّة ، ولا رأيت رعيّة لعامل أشكر من رعيّته له .

وكان الحسين الخادم المعروف بعرق الموت صاحب البريد بمصر [7] ، من أصدق النّاس له ، وكان مع هذا من أبغض النّاس ، وأشدّهم اضطراباً في أخلاقه ، فلم أتعلّق عليه بحجّة .

ووجدته قد أخّر رفع الحساب لسنة متقدّمة ولسنته الّتي هو فيها ، ولم يستتمّها لصرفي له عنها ، ولم ينفذه إلى الدّيوان ، فسمته أن يحطّ من الدّخل ، وأن يزيد في النّفقات والأرزاق ، ويكسر من البقايا ، في كلّ سنة مائة ألف دينار ،

---

٥ راجع كتاب الولاة والقضاة للكنديّ ص ٢٠٠ سطر ١٦ .

٦ راجع كتاب الولاة والقضاة للكنديّ ص ٢٠٣ سطر ١٤ و١٥ وص ٥٠٨ سطر ٢ و٣ .

٧ حسين الخادم : الطواشي ، المعروف بعرق الموت ، كان على بريد مصر أيّام المتوكّل (كتاب الولاة والقضاة للكنديّ ٢٠٨ و٤٦٢) ثم عاد إلى بغداد ، واستقرّ في خدمة المعتمد (الطبري ٩ / ٤٧٥ والكامل ٨ / ٢٣٨) .

لآخذها لنفسي ، فامتنع من ذلك ، فأغلظت له ، وتوعّدته [٧٨ ظ] ونزلت معه إلى مائة ألف واحدة للسّنتين ، وحلفت بأيمان مؤكّدة[٨] ، أنّي لا أقنع منه بأقلّ منها .

فأقام على امتناعه ، وقال : أنا لا أخون لنفسي ، فكيف أخون لغيري ، وأزيل ما قام به جاهي من العفاف ؟

فقيّدته وحبسته ، فلم يجب ، وأقام مقيّداً في الحبس شهوراً .

وكتب عرق الموت ، صاحب البريد ، إلى المتوكّل يضرّب عليّ[٩] ويحلف أنّ أموال مصر لا تفي بنفقتي ومؤونتي ، ويصف أحمد بن خالد ، ويذكر ميل الرّعية إليه ، وعفّته .

فبينا أنا ذات يوم على المائدة آكل ، إذ وردت عليّ رقعة أحمد بن خالد ، يسألني استدعاءه لمهمّ يلقيه إليّ ، فلم أشكّ أنّه قد غرض[١٠] بالقيد والحبس ، وقد عزم على الاستجابة لمرادي .

فلمّا غسلت يدي دعوته ، فاستخلاني ، فأخليته ، فقال : أمّا آن لك يا سيّدي أن ترقّ لي ممّا أنا فيه ، من غير ذنب أذنبته إليك ، ولا جرم ، ولا قديم ذحل[١١] ، ولا عداوة .

---

٨ في غ : بأيمان مغلظة .

٩ كان الحسين الخادم طواشياً ، وكان سليمان بن وهب ، من أصل نصراني ، وكانا يتباغضان ، فزار سليمان بن وهب ، الحسين الخادم مرّة ، وطلب ماء ، فلما شرب ، أمر الغلام بان يحضر له عود خلال يخلّل به أسنانه ، يعرّض بالحسين الخادم ، أنّ الطواشيّ إذا شاخ ، تنسّك ، وأخذ يبري أعواد الخلال ، وشعر الحسين بالغمزة ، فقال للغلام : أحضر عودين من أعواد الخلال ، وصنع باصبعه اشارة الصليب ، يعرض بسليمان انّه نصراني من عائلة نصارى ، وانّه انّما يتظاهر بالإسلام تقاة .

١٠ غَرِض ، بكسر الراء : ضجر وملّ .

١١ الذحل : الثأر ، العداوة والحقد .

فقلت : أنت اخترتَ لنفسك هذا ، ولو أجبتني إلى ما قد سمعتَ يميني عليه ، لتخلّصت ، فاستجب لما أريد منك .

فأخذ يستعطفني ، فجاءني ضدّ ما قدّرته فيه ، وغاظني ، فشتمته ، وقلت : هذا الأمر المهمّ الّذي ذكرتَ في رقعتك أنّك تريد أن تلقيه إليّ هو أن تستعطفني ، وتسخر منّي[١٢] ، وتخدعني .

فقال : يا سيّدي ، فليس عندك الآن غير هذا ؟

فقلت : لا .

فقال : إذا كان ليس غير هذا ، فاقرأ يا سيّدي هذا ،

وأخرج إليّ كتاباً لطيفاً مختوماً في ربع قرطاس ، ففضضته [٧٩ م] ، فإذا هو بخطّ المتوكّل الّذي أعرفه ، إليّ ، بالانصراف ، وتسليم ما أتولّاه إلى أحمد بن خالد ، والخروج إليه مما يلزمني ، ورفع الحساب إليه ، والامتثال لأمره .

فورد عليّ ذلك أقبح مورد ، لقرب عهد الرّجل بشتمي له ، وأنّه في الحال تحت مكارهي وحديدي ، فأمسكت مبهوتاً .

ولم ألبث أن دخل أمير البلد في أصحابه وغلمانه ، فوكّل بداري ، وجميع ما أملكه ، وبأصحابي ، وغلماني ، وجهابذتي ، وكتّابي ، وجعلت أزحف من الصّدر ، حتّى صرت بين يدي أحمد بن خالد وهو في قيوده .

فدعا أمير البلد بحدّاد ، ففكّ قيوده ، [فمددت رجليّ ، ليوضع فيهما القيد ، فقال لي : يا أبا أيّوب ، ضمّ أقدامك][١٣] ووثب قائماً ، وقال لي : يا أبا أيّوب : أنت قريب عهد بعمالة هذا البلد ، ولا منزل لك فيه ، ولا صديق ، ومعك حرم وحاشية كبيرة ، وليس تسعك إلّا هذه الدّار – وكانت دار العمالة –

---

١٢ في المستجاد : وتستجير بي ص ٣٨ .

١٣ الزيادة من كتاب المستجاد ص ٣٨ .

وأنا أجد عدّة مواضع ، وليس لي كبير حاشية ، ومن نكبة خرجتُ ، فأقم بمكانك .

وخرج ، وصرف التوكيل [14] عنّي ، وعن الدّار ، وأخذ كتّابي وأسبابي إليه .

فلمّا انصرف ، قلتُ لغلماني : هذا الّذي نراه في النوم ، انظروا من وكّل بنا ؟

فقالوا : ما وكّل بنا أحدٌ .

فعجبت من ذلك عجباً شديداً . وما صلّيت العصر حتّى عاد إليّ جميع من حمله معه من المتصرّفين والكتّاب والجهابذة ، وقالوا : أخذ خطوطنا برفع الحساب ، وأمرنا بالملازمة ، وأطلقنا ، فازداد عجبي .

فلمّا كان من الغد ، باكرني مسلّماً ، ورحت إليه في عشيّة ذلك اليوم [١٠٩ غ] مسلّماً عليه .

فأقمت على ذلك ثلاثين يوماً ، يغدو إليّ ، وأروح إليه ، وربما غدوت أنا ، وراح هوَ [15] ، وهداياه وألطافه تأتيني في كلّ يوم من الفاكهة ، والثلج ، والحيوان ، والحلوى .

فلمّا كان بعد ثلاثين يوماً ، جاءني ، فقال لي : قد عشقتَ مصر يا أبا أيّوب ، والله ما هي طيّبة الهواء . ولا عذبة الماء ، وإنّما تطيب بالولاية والاكتساب ، ولو دخلتَ إلى سرّ من رأى ، لما أقمت إلّا شهراً حتّى تتقلّد أجلّ الأعمال .

فقلت له : والله ، ما أقمتُ إلّا توقّعاً لأمرك في الخروج .

فقال : أعطني خطّ كاتبك ، بأنّ عليه القيام بالحساب ، واخرج في حفظ الله ، فأحضرت كاتبي ، وأخذ خطّه كما أراد ، وتسلّمه ، وقال : اخرج في أيّ وقتٍ شئت .

---

١٤ التوكيل : مصطلح عبّاسيّ ، يراد به حجز الحريّة ، فيقال : وكّلَ به ، إذا نصب عليه حارساً يحول بينه وبين الفرار .

١٥ في غ : وأقمت ثلاثين يوماً إن سبقني إلى المجيء ، وإلاّ رحت إليه ، وإن راح ، وإلاّ باكرته .

فخرجت من غدٍ ، فخرج [٧٩ ظ] هو وأمير البلد وخاصّته[١٦] ، ووجوه أهله ، فشيّعوني إلى ظاهر البلد ، وقال لي : تقيم في أوّل منزلٍ على خمسة فراسخ ، إلى أن أزيح علّة[١٧] قائد يصحبك إلى الرّملة ، فإنّ الطّريق فاسد .

فاستوحشت من ذلك ، وقلت : هذا إنّما غرّني حتّى أخرج كلّ ما أملكه ، فيتمكّن منه في ظاهر البلد ، فيقبضه ، ثمّ يردّني إلى الحبس والتوكيل والمطالبة ، ويحتجّ عليّ بكتاب يذكر أنّه ورد عليه ثانياً .

فخرجت ، وأقمت بالمرحلة الّتي أمر بها ، مستبسلاً ، متوقّعاً للشرّ ، إلى أن رأيت أوائل عسكر مقبل من مصر .

فقلتُ : لعلّه القائد الّذي يريد أن يصحبني ، أو لعلّه الّذي يريد أن يقبض عليّ به ، فأمرت غلماني بمعرفة الخبر .

فقالوا : قد جاء أحمد بن خالد العامل بنفسه .

فلم أشكّ إلّا أنّ البلاء قد ورد بوروده ، فخرجت من مضربي ، فلقيته وسلّمت عليه ، فلمّا جلس ، قال : أخلونا ، فلم أشكّ أنّه للقبض عليّ ، فطار عقلي ، فقام من كان عندي ، ولم يبق غيري وغيره .

فقال : أعلمُ أنّ أيّامك لم تطل بمصر ، ولا حظيتَ بكبير فائدة ، وذلك الباب الّذي سألتنيه في ولايتك فلم أستجب إليه ، إنّما أخّرت الإذن لك في الانصراف من أوّل الأمر إلى الآن ، لأنّي تشاغلت بالفراغ لك منه ، وقد حططتُ من الارتفاع[١٨] ، وزدتُ في النّفقات ، في كلّ سنة خمسة عشر ألف دينار ، تكون للسنتين ثلاثين ألف دينار ، وهو يقرب ولا يظهر [٨٠ م] ،

---

١٦ في غ ، وفي المستجاد ص ٤٠ : وقاضيه .

١٧ إزاحة العلّة : مصطلح عبّاسيّ ، يعني القيام بجميع ما يحتاج إليه من يراد إزاحة علّته ، فالجيش مثلاً ، يعتبر مزاح العلّة ، إذا كان أفراده قد أعطوا أرزاقهم ، وسدّت نفقاتهم ، وعرضت دوابّهم وبغالهم .

١٨ الارتفاع : الوارد .

ويكون أيسر ممّا أردته منّي ذلك الوقت ، وقد تشاغلت به حتّى جمعته لك ، وهذا المال على البغال قد جئتك به ، فتقدّم إلى من يتسلّمه .

فتقدّمت بقبضه ، وقبّلت يده ، وقلت : والله ، قد فعلتَ يا سيّدي ما لم تفعله البرامكة[19] ، فأنكر ذلك ، وتقبّض منه ، وقبّل يدي .

وقال : ها هنا شيء آخر أريد أن تقبله .

فقلت : وما هو ؟

قال : خمسة آلاف دينار[20] قد استحققتها من أرزاقي ، [فامتنعتُ من ذلك ، وقلت : فيما تفضّلت به كفاية .

فحلف بالطلاق ، أنّي أقبلها منه][21] ، فقبلتها .

ثمّ قال : وها هنا ألطاف من هدايا مصر ، أحببت أن أصحبك إيّاها ، فإنّك تمضي إلى كتّاب الدواوين ورؤساء الحضرة ، فيقولون لك : وليت مصر ، فأين نصيبنا من هداياها ؟ ولم تطل أيّامك ، فتعدّ لهم ذلك ، وقد جمعت لك منه ما يشتمل عليه هذا الثبت .

وأخرج اليّ درجاً فيه ثبت جامع لكلّ شيء في الدّنيا حسنٍ طريفٍ ، جليل القدر ، من ثياب دبيقيّ ، وقصب ، وخدم ، وبغال ، ودواب ، وحمير ، وفرش ، وطيب ، وجوهر ، حتّى أقلام ومداد ، ما يكون قيمته مالاً كثيراً .

فأمرت بتسلّمه ، وزدت في شكره .

فقال لي : يا سيّدي ، أنا [١١٠ غ] مغرى بحبّ الفَرْشِ[22] ، وقد استعمل

---

١٩ البرامكة : راجع حاشية القصّة ٣٠٠ من الكتاب .

٢٠ في غ : خمسة عشر ألف دينار .

٢١ الزيادة من غ ، ومن المستجاد ص ٤١ .

٢٢ في م : أنا مغرم بحب الفرش .

لي فرش بيت أرمنيّ[٢٣] ، وهو عشر مصلّيات بمخادّها ، ومساندها ، ومساورها ، ومطارحها ، وبسطها ، وهو مذهب ، بطرز مذهبة ، قد قام عليّ بخمسة آلاف دينار ، على شدّة احتياطي ، وقد أهديته لك ، فإن أهديته للوزير عَبْدَكَ ، وإن أهديته للخليفة ملكته به ، وإن أبقيته لنفسك وتجمّلت به ، كان أحبّ إليّ .

قال : وحمله ، فما رأيت مثله قط ، ولا سمحت نفسي بإهدائه إلى أحد ،

---

٢٣ الفَرْش : مصطلح يطلق على البُسُط والطنافس ، وتسمّى اليوم ببغداد زوالي ، مفردها زوليّة ، محرّفة عن : زلّيّة ، فصيحة ، ويبدو من هذه القصّة ، ومن القصّة ٨ / ١٧ من نشوار المحاضرة للتنوخيّ ، أنّ الفرش الأرمني – إذ ذاك – كان أعلى أنواع الفرش التي يرغب فيها الناس ، أمّا الآن ، فإنّ المرغوب فيه هو الفرش الايراني ، وأغلاه ثمناً ، وأدقّه صنعاً : الأصبهانيّ ، والنائيني ، ويليه الكرمانيّ ، وأرخصها ثمناً : التبريزيّ ، وكان الفرش الكامل للبيت ، يشتمل على عدّة من الطنافس متماثلة في اللّون والنقش ، مختلفة في المساحة ، فالصدر ، وهي أكبرها مساحة ، تفرش في وسط القاعة ، وتسمّى الآن ببغداد : أورطة ، ويفرش على جانبي الصدر : النخّان ، المفرد : نخ ، سجّادة مستطيلة ، قليلة العرض ، اسمها الآن ببغداد : يان ، وجمعها : يانات ، وإنّما سميت نخّاً ، تشبيهاً لها بنخي الطائر ، أي عظمي جناحه ، وأذكر استطراداً ، أنّ القاهر محمّد بن المعتضد ، لما خلع وسمل ، ثم خلع من بعده المتّقي إبراهيم بن المقتدر ، وسمل ، كتب القاهر إلى الخليفة المطيع يتنبّأ له بالخلع والسمل ، قال :

صرتُ وإبراهيم نخّي عمى   لا بدّ للنخّين من صدر
ما دام توزون له إمرة   مطاعة فالميل في الجمر

والمخادّ : وما يزال هذا اسمها ببغداد ، هي الوسائد ، وإنّما سميت مخدّة ، لأنّ الإنسان يضع عليها خدّه عند النوم ، والمساند : وسائد خاصة يستند إليها الجالس ، والمساور : وسائد مرتفعة توضع وراء ظهر الإنسان ، بينه وبين الحائط ، يتّكئ عليها ، راجع ما كتبه عنها أحمد تيمور في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٢ / ١١ ، والمطارح : بسط صغيرة تطرح تحت الإنسان يجلس عليها ، ولا يكون فرش البيت كاملاً إلاّ إذا كانت في ضمنه ستائر مماثلة لبقية القطع في اللّون والنقش ، ومصلّيات : وهي قطع صغيرة للصلاة .

ولا استعماله ، وما ابتذلت منه شيئاً غير هذا الصّدر ومسنده ومساوره ، يوم إعذارك[٢٤] ، أفتلومني على أن أقوم لهذا الرّجل ، يا بنيّ ؟

فقلت : لا والله يا أبتِ ، ولا على ما هو أكثر من القيام ، لو كان مستطاعاً .

فكان أبي بعد ذلك ، إذا صَرَفَ رجلاً ، عامله بكلّ جميل ، ويقول : علّمنا أحمد بن خالد ، حسن الصّرف ، أحسن الله جزاءه[٢٥] .

---

٢٤ الأصل في الإعذار أنّه طعام يتخذ لسرور حادث ، قال الشاعر :

كـلّ الطعـام تشتهـي ربيعـة ... الخـرس والإعـذار والنقيعة

والخرس : طعام يصنع عند ولادة الوليد ، والنقيعة : طعام يتّخذ للقادم من السفر ، ثم أصبح الإعذار خاصاً بالاحتفال بختان الصبيّ .

٢٥ وردت القصّة في كتاب المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخيّ ص ٣٥ – ٤٢ .

١٦٦

الخليفة المعتضدّ يتخبّر على وزيره

[حدّثنا أبو عليّ الحسن بن محمّد بن عليّ بن موسى الكاتب ، الّذي كان زوج ابنة أبي محمّد المهلّبي ، وخليفته على الوزارة ، وكان جدّه محدّثاً[1] ، قال :][2] حدّثني شيوخ الكتّاب :

أنّ القاسم بن عبيد الله الوزير ، لما انفرد بالوزارة بعد موت أبيه[3] ، كان يحبّ الشرب ، واللّعب ، ويخاف أن يتّصل ذلك بالمعتضد ، فيستنقصه ، وينسبه إلى الصبيانيّة ، والتهوّك[4] في اللّذات ، والتشاغل عن الأعمال ، وكان لا يشرب إلّا في الأحايين ، على أخفى وأستر ما يمكنه .

وأنّه خلا يوماً مع جواريه ، ولبس من ثيابهنّ المصبغات ، وأحضر [٨٠ ظ] فواكه كثيرة ، وشرب ، ولعب ، من نصف النّهار إلى نصف اللّيل ، ونام بقيّة ليلته ، وبكر إلى المعتضد على رسمه للخدمة ، [فما أنكر شيئاً .

وبكر في اليوم الثاني][2] ، فحين وقعت عين المعتضد عليه ، قال له : يا قاسم ، ما كان عليك لو دعوتنا إلى خلوتك ، وألبستنا معك من ثيابك المصبّغات .

قال : فقبّل الأرض ، وورّى عن الصّدق ، وأظهر الشكر على هذا البسط ، وخرج وقد كاد أن يتلف غمّاً لوقوف المعتضد على هذا السرّ ، وكيف رقي إليه ، وأنّه إذا لم يخف عليه هذا القدر من أمره ، فكيف تخفى عليه مرافقه[5] ، فجاء إلى داره كئيباً .

---

١ أبو القاسم عليّ بن موسى بن محمّد بن النضر الكاتب الانباريّ : ترجم له الخطيب في تاريخه ١١٣/١٢ .

٢ الزيادة من غ .

٣ كان انفراد القاسم بوزارة المعتضد ، بعد موت أبيه عبيد الله ، في السنة ٢٨٨ .

٤ التهوّك : التهوّر والوقوع في الشيء بلا مبالاة ولا رويّة .

٥ المرفق : الرشوة .

وكان له في داره صاحب خبر [6] جلد يرفع إليه الأمور ، فأحضره ، وعرّفه ما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : ابحث لي عمّن أخرج هذا الخبر ، فإن فعلتَ ، زدتُ في رزقك وأجزتك بكذا وكذا [٦٢ ر] ، وإن لم تخرجه ، نفيتك إلى عمان ، وحلف له على الأمرين .

فخرج صاحب الخبر من حضرته متحيّراً كئيباً ، لا يدري ما يعمل في يومه ذلك ، مفكّراً كيف يجتهد ويحتال ، فما وقع له رأي يعمل عليه .

قال صاحب الخبر : فلمّا كان من الغد ، بكرت إلى دار القاسم ، زيادة [٨١ م] بكور على ما جرى به رسمي ، لفرط قلقي وسهري تلك اللّيلة ، ومحبّتي للبحث [7] .

فجئت ، ولم يُفتح باب دار القاسم بعد ، فجلست ، فإذا برجلٍ زَمِنٍ يزحف ، في ثياب المكدّين [8] ، ومعه مخلاة ، كما تكون مع المكدّين .

فلمّا جاء إلى الباب ، جلس إلى أن فتح ، فسابقني إلى الدّخول ، فولع به [9] البوّابون ، وقالوا له : [أيّ شيء] [10] خبرك يا فلان ؟ ، وصفعوه [11] ، ومازحوه ، ومازحهم ، وطايبهم [12] ، وشتموه ، وشتمهم ، وجلس في الدّهليز .

---

٦ صاحب الخبر : راجع حاشية القصّة ٣٥٥ .

٧ في م : وحيلتي للبحث .

٨ المكدّي ، السائل ، والكدية : الاستعطاء ، ما تزال الكلمة مستعملة ببغداد ، والعامة ببغداد يلفظونها : الجدية ، بالجيم ، وبالكاف الفارسية أيضاً ، ويسمون المكدّي : مجدّي بالجيم ، وبكاف فارسية أيضاً .

٩ ولع : عبث .

١٠ أي شيء : اختصرها البغداديون أوّلاً إلى : أيش ، ثم أقاموا مقامها أحد حروفها ، وهو الشين ، فالبغدادي يقول : شلونك ؟ تفصيلها : أيش لونك ، للسؤال عن الحال ، ويقول : شتريد ؟ تفصيلها : أيش تريد .

١١ راجع بحث الصفع والمصافعة في حاشية القصّة ٣٠٤ من هذا الكتاب .

١٢ المطايبة : الممازحة .

فقال : [١١١ غ] الوزير يركب اليوم ؟

قالوا : نعم ، السّاعة يركب .

قال : وأيّ وقت نام البارحة ؟

قالوا : وقت كذا وكذا .

فلمّا رأيته يسأل عن هذا ، خمّنت عليه أنّه صاحب خبر ، فأصغيت إليه ، ولم أُرِهِ أنّي حافل بأمره وهو يسأل ، إلى أن لم يُبْقِ شيئاً يجوز أن يعلمه البوّابون ، عمّن وصل إلى الوزير ، ومن لم يصل ، ومتى خرجوا ، إلّا سألهم عنه ، وحدّثوه هم ، أحاديث أخرُ ، على سبيل الفضول .

ثمّ زحف فدخل إلى حيث أصحاب الستور ، فأخذ معهم في مثل ذلك ، وأخذوا معه في مثله .

ثمّ زحف فدخل إلى دار العامّة .

فقلت لأصحاب الستور : من هذا ؟

فقالوا : رجل زَمِنٌ[١٣] فقير أبله طيّب ، يدخل الدّار يتصدّق ويتطايب ، فيهب له الغلمان والمتصرّفون .

فتبعته إلى أن دخل المطبخ ، فسأل عمّا أكل الوزير ، ومن كان معه على المائدة ، وكلّ واحد يخبره بشيء ، ثمّ خرج يزحف ، حتّى دخل حجرة الشّراب ، فلم يزل يبحث عن كلّ شيء ، فيحدّث به ، ثمّ خرج إلى خزانة الكسوة ، فكانت صورته كذلك ، ثمّ جاء إلى مجلس الكتّاب في الدّيوان ، فتصدّق ، وأقبل يسمع ما يجري ، ويسأل الصّبيّ بعد الصّبيّ ، والحَدَث بعد الحَدَث ، عن الشيء بعد الشيء ، ويستخبر الخبر ، في كلّ موضع من تلك المواضع ، ويستقيه ، ويخلط الجدّ بالمزح والتطايب بكلامه ، والأخبار تنجرّ إليه ، وتتساقط

---

١٣ الزَمِن : المصاب بعاهة تعطّله عن العمل .

عليه ، والقطع والزّلات[14] تجيئه ، وهو يملأ المخلاة ، فلمّا فرغ من هذا ، أقبل راجعاً يريد الباب .

[إلى هنا باتّفاق الروايتين ، ثمّ قال أحدهما في حديثه][15]

فلمّا بلغ الباب ، قبضت عليه ، وأدخلته بيتاً ، وأقفلت عليه ، وجلست على بابه ، فلمّا خلا الوزير أعلمته به ، فقال : أحضرني الرّجل .

وقال الآخر : فلمّا بلغ الباب تبعته ، فخرج حتّى جاء إلى موضع من الخلد[16] ، فدخل إليه ، فوقفتُ أنتظره ، فإذا هو بعد ساعة ، قد خرج شاباً بثياب حسان ، ماشياً ، بغير قلبة[17] ، فتبعته حتّى جاء إلى دار بقرب دار الخادم الموكّل بحفظ دار ابن طاهر ، فدخلها .

فسألت عنها ، فقالوا : هذه دار فلان الهاشمي ، رجل متجمّل .

فرصدته إلى وقت المغرب ، فجاء خادم من دار ابن طاهر ، فدقّ الباب ، فكلّمه من خوخة[18] له ، ففتح له ورمي إليه برقعة لطيفة ، فأخذها الخادم وانصرف .

فجئت ، فطلبت من الوزير غلماناً ، فسلّم إليّ ما طلبت ، فبكرت في السّحر إلى [٨١ ظ] الدّار الّتي في الخلد ، فإذا بالرّجل قد جاء بزيّه الّذي

---

١٤ الزلّة : ما يزلّه الإنسان من الطعام ليقدّمه لآخر .

١٥ الزيادة من غ .

١٦ الخلد : قال ياقوت في معجمه ٢ / ٢٥٩ : إنّه قصر بناه المنصور على شاطئ دجلة ، حلّ محلّه البيمارستان العضدي اليوم ، أقول : يعني أنّ موقعه هو في المنطقة حول رأس جسر الصرافيّة من الجانب الغربي .

١٧ القلبة : الأصل فيها : أنّها الداء الذي يتقلّب منه صاحبه على فراشه ، ثم أصبحت تطلق على العاهة التي تزمن صاحبها . وفي م : بغير علّة .

١٨ الخوخة : الباب الصغير في الباب الكبير ، وقد أدركت الخانات ببغداد ، وفي باب كلّ واحد منها خوخة تفتح وتردّ بدلاً من الباب الكبير الذي يصعب فتحه وردّه في كلّ حين ، ولكنّي لم أبصر خوخة في باب إحدى دور السكنى ، لأنّ أبواب الدور لم تكن في أيّامنا من الضخامة ، ما بلغته أبواب الخانات .

دخل به داره بقرب دار ابن طاهر ، فكبسته في الموضع ، فإذا هو قد نزع تلك الثياب ، ولبس ثياب المكدّين الّتي رأيتها عليه أوّلاً .

فحملته ، وغطّيت وجهه ، وكتمت أمره ، حتّى أدخلته دار القاسم ، ودخلت إليه ، فقصصت عليه الخبر .

[اتّفقت الآن الروايتان] [١٥]

فلمّا فرغ القاسم من شغله ، استدعاه ، فقال له : اصدقني عن أمرك ، أو لا ترى ضوء الدّنيا ، ولا تخرج من هذه الحجرة – والله – أبداً .

قال : وتؤمّنني ؟

قال : أنت آمن ، فنهض لا قلبة به .

فتحيّر القاسم ، وقال له : خبرك ؟

فقال : أنا فلان الهاشمي ، وأنا رجل متجمّل ، وأنا أتخبّر عليك للمعتضد ، منذ كذا وكذا ، وأنزل في درب يعقوب [١٩] ، بقرب دار ابن طاهر ، ويجري عليّ المعتضد في كل شهر خمسين ديناراً ، فأخرج كلّ يوم من بيتي ، بالزيّ الّذي لا ينكره جيراني [٨٢ م ١١٢ غ] فأدخلَ داراً في الخلد ، بيدي منها بيت بأجرة ، فيظنّ أهلها أنّي منهم ، ولا ينكرون تغيير الزيّ .

فأخرج [٦٣ ر] من هناك بهذه الثّياب ، وأتزامن من الموضع وألبس لحية فوق لحيتي ، مخالفة للون لحيتي ، حتّى إذا لقيني في الطريق – بالاتّفاق – بعض من يعرفني ، أنكرني .

فأمشي زحفاً من الخلد إلى دارك ، فأعمل جميع ما حكاه صاحب خبرك ، وأستقي أخبارك من غلمانك ، وهم لا يعرفون غرضي فيخرجون إليّ من الأسرار – بالاسترسال – ما لو بذل لهم فيه الأموال ما خرجوا به .

ثمّ أخرج فأجيء إلى موضعي من الخلد ، فأغيّر ثيابي ، وأعطي ذلك الّذي

١٩ سمّي هذا الدرب : درب يعقوب ، لأنّ دار يعقوب بن المهديّ كانت فيه .

اجتمع لي في المخلاة للمكدّين ، وألبس ثيابي الّتي يعرفني بها جيراني ، وأعود إلى منزلي ، فآكل ، وأشرب ، وألعب ، بقيّة يومي .

فإذا كان المغرب جاءني خادم من خدم دار ابن طاهر ، مندوب لهذا ، فأرمي إليه من روزنة لي[20] ، رقعة فيها خبر ذلك اليوم ، ولا أفتح له بابي .

[فإذا كان بعد تسعة وعشرين يوماً ، جاءني الخادم ، فأنزل إليه ، فأعطيه رقعة ذلك اليوم ، ويعطيني جاري ذلك الشّهر][2] .

ولولا أنّي لم أر صاحب خبرك ، ولا فطنت له ، لما تمّ عليّ هذا ، ولو كنت لحظته لحظة واحدة ، ما خفي عليّ أنّه صاحب خبر ، ولكنتُ أرجع من الموضع الّذي أراه فيه ، فلا يعرف خبري ، وبعد ذلك ، فإنّما تمّ عليّ هذا ، لأنّ أجلي قد حضر ، فاللهَ ، اللهَ ، في دمي .

فقال له : اصدقني عما رفعته إلى المعتضد عنّي ، فحدّثه بأشياء رفعها ، منها خبر الثّياب المصبّغة .

قال : فحبسه القاسم أيّاماً ، وأخفى أمره ، وأنفذني إلى منزله ، وقال : راع أمرهم ، وأنظر ما يجري .

فمضيت إلى داره الّتي وصفها بدرب يعقوب ، فجلست إلى المغرب ، فجاء الخادم ، فصاح به .

فقالت له الجارية : ما رجع اليوم ، وهذه لم تكن عادته قط ، وقد – والله – [أشفقنا أن يكون قد حدث عليه حادث لا نعرفه][25] ، وقامت قيامتنا ، فانصرف الخادم ، وانصرفت .

وعدت أيضاً المغرب من الغد ، وجاء الخادم ، فقالوا له : قد – والله – أيسنا منه ، ولا نشكّ في أنّه قد هلك ، والمأتم قد أقيم عليه في منزل أبيه وعمومته .

---

٢٠ الروزنة : فارسية : روزن ، بمعنى كوّة أو منفذ ، والبغداديون الآن يسمّونها : رازونة ، ويريدون بها تجويفاً في الحائط غير نافذ توضع فيه الحاجيّات .

فانصرف الخادم ، وجئت إلى القاسم بالخبر .

فلمّا كان من الغد ، ركب القاسم إلى المعتضد ، فحين رآه استدناه ، وسارّه ، وقال له : يا قاسم ، بحياتي ، أطلق الهاشمي المتزامن ، وأحسن إليه ، وأنت آمن بعدها أن أنصب عليك صاحب خبر ، ووالله لئن حدثت به حادثة ، لا عرفتُ في دمه غيرك .

فقبّل الأرض ، وتلجلج ، وانصرف ، فعاد إلى منزله ، وحمد الله إذ لم يعجل عليه بسوء ، وأخبرنا الخبر ، وجاء بالهاشميّ ، فخلع عليه ، ووصله بمال له قدر ، وصرفه .

وانقطعت أخباره عن المعتضد[21] .

---

٢١ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخيّ بالرقم ٣ / ١٧٤ .

١٦٧

الوزير عبيد الله بن سليمان

[حدّثني أبو القاسم علي بن شهران ، المتكلّم ، القاصّ ، من أهالي عسكر مكرم ، بها ، قال : أخبرني أبو الحسين الحصيبي[١] ، ابن بنت ابن المدبّر ، ببغداد ، قال :][٢] قال لي أبو عبد الله محمّد بن داود [٨٢ ظ] بن الجرّاح :

جلس عبيد الله بن سليمان ، يوماً ، للمظالم ، في دار المعتضد ، وهو وزير ، فتقدّم إليه عمر بن محمّد بن عبد الملك الزيّات ، يتظلّم من أحمد بن إسرائيل [١١٣ غ] بسبب الضيعة المعروفة بتاصيت[٣] ، فنظر في أمره ، وقال له : أنت عمر بن محمّد ؟

قال : نعم ..

قال : وأين كنت ؟ ، فقصّ عليه أمره وخبره .

[فقال له : أنت ابن سكران[٤] ؟

فقال : نعم .][٢]

قال : فلمّا كان عشيّة يومنا ذلك ، خلا ، وكنت أنا وابناه بين يديه ، فتحدّث ، وقال : سبحان الله ، ما أعجب ما كنتَ فيه اليوم ، فلم نسأله عن ذلك إجلالاً له .

---

١ أبو الحسين عبد الواحد بن محمّد الحصيبي : ترجمته في حاشية القصّة ٨٢ من الكتاب .

٢ كذا ورد في غ ، وفي م ، وظ : حدّثني عليّ بن شيراز عن الحصيبي ، وفي ر : وحكى محمّد بن الجرّاح عن أبيه .

٣ ورد الاسم في م : تاصيت ، وفي غ : ناصفت ، وفي ظ : بلا نقط ، ولم يرد في ر ، ولم أعثر في المراجع المتوفرة لديّ على ضيعة بهذا الاسم .

٤ سكران : اسم والدته .

فقال : قال لي أبو أيّوب رحمه الله[5] إنّه كان في أيّام الواثق ، في تلك الملازمة [والبلاء][6] والضرب [ولبس الصوف][6] والقيد ، وإنّه حمل إلى محمّد ابن عبد الملك الزيّات ليناظره [٨٣ م] ويردّه إلى محبسه .

فوضع بين يديه على تلك الحال ، فجعل يناظره ، والحسن بن وهب[7] ، كاتبه حينئذ ، فربّما تكلّم بالكلمة يرقّقه بها عليه ، وربّما أمسك ، ومحمّد دائب في الغلظة على أبي أيّوب ، والتشفّي منه ، إذ مرّ بعض الخدم بصبيّ يحمله ، مزيّن ، مخضوب [وعليه لبوس مثله من أولاد الملوك[6]] .

فقال محمّد للخادم : هاته ، فقرّبه إليه ، فقبّله ، وترشّفه ، وضمّه إليه ، وجعل يلاعبه ، فحانت منه التفاتة إلى أبي أيّوب ، فإذا دمعته قد سبقته ، وهو يمسحها بالجبّة الصوف الّتي كانت عليه .

فقال له محمّد : ما الّذي أبكاك ؟

فقال : خير ، أصلحك الله .

فقال : والله ، لا تبرح ، أو تخبرني بالأمر على حقيقته .

فلمّا رأى ذلك أبو علي الحسن بن وهب ، قال له : أنا أصدقك ، إنّه لما رأى عمر ، متّعك الله به ، وجعلنا جميعاً فداه ، ذكر ابناً له في مثل سنّه .

قال : وما اسمه ؟

قال : عبيد الله .

[قال : وكانا ولدا في شهر واحد][6] .

فالتفت إليه كالهازئ ، فقال له : أتراه يقدّر أن يكون ابنه هذا وزيراً .

---

٥ أبو أيّوب سليمان بن وهب ، والد عبيد الله بن سليمان : ترجمته في حاشية القصّة ٦٦ من هذا الكتاب .

٦ الزيادة من غ وم .

٧ أبو عليّ الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الحارثي ، شقيق أبي أيّوب سليمان بن وهب : ترجمته في حاشية القصّة ٦٦ من هذا الكتاب .

قال الحسن : فلمّا أمر بحمله إلى محبسه ، التفت إليّ ، وقال : لولا أنّ هذا الأمر من أمور السلطان الّذي لا سبيل إلى التقصير في مثله ، لما سؤتك فيه ، ولو أعانني على نفسه لخلّصته .

فقال له الحسن : والله ، ما رأيته منذ حبس ، فإن رأيت أن تأمر بالعدول به إلى بعض المجالس ، والإذن في القيام إليه ، والخلوة به ، لأشير عليه بامتثال أمرك .

فقال : افعل .

فقمت إلى أبي أيّوب ، وتعانقنا ، وبكينا طويلاً .

فقال لي : قبل كلّ شيء، رأيت أعجب من بغيه عليّ ، وقوله بالتطانز [8] والهزء : أتراه يقدّر أنّ ابنه هذا يكون وزيراً ، فكيف يأمن أن يكون هذا ؟ والله إنّي لأرجو أن يبلغ الله ابني الوزارة ، ويتقدّم إليه عمر متظلّماً .

فلمّا كان اليوم ، تقدّم إليّ عمر متظلّماً ، وما كنت رأيته قبل ذلك ، ولا عرفت له خبراً .

[ووقع إليّ هذا الخبر ، من وجه آخر ، فحدّثني به أبو الحسن أحمد بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول التنوخي ، قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن الفتح المعروف بالمطوّق ، مناولةً ، من كتابه : كتاب مناقب الوزراء ، ومحاسن أخبارهم ، قال :

حدّثني أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن عمر بن حفص الكاتب ، عن أبيه ، أبي القاسم عبد الله ، أو عن أبي القاسم ميمون بن إبراهيم بن يزيد – الشكّ من المطوّق – قال :] [9]

كنّا في مجلس أبي القاسم عبيد الله بن سليمان ، وهو وزير ، في يوم من

---

٨ التطانز : السخرية .

٩ الزيادة من غ ، وفي بقيّة النسخ : وفي رواية أخرى .

أيّام جلوسه للمظالم ، فوقعت بيده قصّة ، فقرأها ، وتوقّف ساعة كالمفكّر ، ثمّ قال : عمر بن محمّد بن عبد الملك ، فأدخل إليه .

فقال : أنت عمر ؟

قال : نعم ، أعزّ الله الوزير ، أنا عمر بن محمّد بن عبد الملك .

فتوقّف [١١٤ غ] أيضاً ساعة ، ثمّ قام إلى خلوته ، ولم يطل ، وعاد إلى موضعه ، فوقّع له بجارٍ ، ونزل ، وصلة ، ولم يزل مفكّراً ، إلى أن تقوّض النّاس ، وخلا المجلس ممّن يحتشم .

فقال لنا : وقفتم على خبر هذا الرّجل ؟

قلنا : وقفنا على ما كان من أمر الوزير ببرّه ، ولم نقف على السّبب .

فقال : أخبركم بحديثه ، حدّثني أبو أيّوب رحمه الله ، قال : كنت في يد محمّد بن عبد الملك الزيّات ، يطالبني ، وأنا منكوب ، وكان يحضرني في كلّ يوم ، بغير سبب ، ولا مطالبة ، إلّا ليكيدني ، وأنا في قيودي ، وعليّ جبّة صوف ، وكان أخي الحسن يكتب بين يديه ، ولم يكن يتهيّأ له شيء في أمري ، إلّا أنّه كان إذا رآني مقبلاً استقبلني [٦٤ ر] فإذا رجعت إلى موضعي ، شيّعني ، إذ أقبل في يوم من الأيّام خادم لمحمد ، ومعه ابن له صغير ، فوثب كلّ من في المجلس ، إلى الصبيّ ، يقبلونه ، ويدعون له سوايَ ، فإنّي كنت مشغولاً بنفسي ، فلم أتحرّك ، وأخذ الصبيّ ، وضمّه إليه [٨٣ ظ] وقال لي : يا سليمان لِمَ لَمْ تفعل بهذا الصبيّ ، ما فعله من في المجلس ؟

فقلت : شغلني ما أنا فيه .

فقال : لا ، ولكنّك [لم تطق ذلك][١٠] عداوة لأبيه وله ، وكأنّي بك ، وقد ذكرت عبيد الله ، وأمّلت فيه الآمال ، والله ، لا رأيت شيئاً مما تؤمّله فيه ،

---

١٠ الزيادة من م وغ .

وأسرف بعد ذلك في الإسماع ، فعلمت أنّه قد بغى ، ووثقت بجميل عادة الله تعالى ، وأنّه سيبلغني [ما آمله فيك][١٠] عناداً لبغيه [٨٤ م] .

قال : ولم تمض إلّا مدّة يسيرة ، حتّى سخط المتوكّل على محمّد بن عبد الملك ، وقلّدني مناظرته ، وإحصاء متاعه ، فوافيت داره ، فرأيت ذلك الخادم بعينه ، ومعه ذلك الصبيّ يبكي .

[فقلت : ما خبر هذا الصبيّ يبكي ؟][١٠] .

فقيل : قد منع من كلّ ماله ، وأدخل في الإحصاء .

فقلت : لا بأس عليه ، وسلّمت إليه جميع ما كان باسمه .

فينبغي ، يا بنيّ ، إن تهيّأت لك حال ، ورأيت الصبيّ عمر بن محمّد بن عبد الملك ، أن تحسن إليه ، وأن تقابل نعمة الله فيه وفيك ، بما يجب لها .

فلمّا رأيته هذا الوقت ، ذكرتُ ما قاله أبي ، فامتثلتُ ما أشار به ، وأنا أتقدّم بعد الّذي فعلت به ، إلى أبي الحسين[١١] بتصريفه .

وكانت لعمر حركة قويت بها حاله عند أبي الحسين ، إلى أن استخلفه في دار أبي النجم بدر ، وبين يديه .

[حدّثني أبو الحسين عليّ بن هشام بن عبد الله الكاتب ، قال : حدّثني أبو عليّ بن مقلة ، قال : حدّثني محمّد بن سعيد الديناري .

قال أبو الحسين ، وحدّثني أبو عبدالله زنجي ، قال : حدّثني أبو العبّاس ابن الفرات ، قال :][١٢] .

وحدّثني أبو عبد الله الباقطاني ، قالوا كلّهم :

كنّا بحضرة عبيد الله بن سليمان ، أوّل وزارته للمعتضد ، وقد حضر رجل رثّ الهيأة ، بثياب غلاظ ، فعرض عليه رقعة ، وكان جالساً للمظالم ، فقرأها

١١ يريد بأبي الحسين ولده القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب .

١٢ الزيادة من غ ، وفي م : ووقع لي هذا الخبر من وجه آخر على خلاف ذلك .

قراءة متأمّل لها ، مفكّراً ، متعجّباً ، ثمّ قال : نعم ، وكرامة – ثلاث مرّات – أفعلُ ما قال أبي ، لا ما قال أبوك ، وكرّر هذا القول ثلاث مرّات .

ثمّ قال له : عد إليّ وقت العصر ، لأنظر في أمرك [١١٥ غ] .

وقال لبدر العدامي حاجبه[١٣] : إذا حضر ، فأوصله إليّ .

[ثمّ قال : إذا خلونا ، فذكّروني خبر هذا ، لأحدّثكم بحديث عجيب ، وأتمّ المجلس .

ثمّ قام ، واستراح ، ودعانا للطعام ، فلمّا حضرنا ، وأكلنا أكثر الأكل ، قال : ما أراكم أذكرتموني [حديث] صاحب الرقعة ؟

فقلنا : أنسينا .][١٤]

قال : حدّثني أبي ، قال : كنت في محبس محمّد بن عبد الملك ، في أيّام الواثق ، لمّا صادرني عن كتابة إيتاخ ، على أربعمائة ألف دينار ، وقد أدّيت منها [مائتي ألف ونيفاً وأربعين ألفاً][١٥] فأحضرني يوماً ، وطالبني بالباقي ، وجدّ بي ، وأرهقني ، ولم يرض منّي إلى أن أجبت إلى أن اؤدّي خمسين ألف دينار ، قاطعة للمصادرة ، على أن يطلق ضياعي .

قال : ونحن في ذلك ، ولم يأخذ خطّي بعد ، إذ خرج إليه خادم من دار الحرم برقعة ، فقرأها ، ونهض ، وكان بحضرته أخي أبو عليّ الحسن بن وهب ، وهو غالب على أمره ، إلّا أنّه يخافه أن يكلمه في أمري .

فلمّا قام الوزير ، رمى إليّ أخي برقعة لطيفة ، فوقعتْ في حجري ، فإذا فيها : جاءني الخبر الساعة من دارك ، أن قد رزقت ابناً ، خلقاً سوياً ، وهو جسم بغير اسم ، فما تحبّ أن يسمّى ويكنى ؟

---

١٣ كذا ورد في غ ، وفي م : بدر القدامي ، وفي بقيّة النسخ : وقال لحاجبه .

١٤ الزيادة من م ، وفي بقية النسخ : فلما خلونا ، قال : ألا أحدّثكم بحديث عجيب .

١٥ كذا ورد في غ ، وم ، وفي بقيّة النسخ : وقد أدّيت ثلثيها .

فقلت : عبيد الله ، أبو القاسم .

فكتب بذلك في الحال إلى منزلي .

قال : وتداخلني سرور بذلك ، وقوّة نفس ، وحدّثت نفسي ، بأنّك تعيش ، وتبلغ ، وأنتفع بك .

قال : وعاد محمّد إلى مجلسه ، وأعاد خطابي ، فلم أستجب له ، إلى ما كنت أجبت إليه ، وأخذت أدافع .

فقال لي : يا أبا أيّوب ، ما الّذي ورد عليك بعدي ؟ أرى عينيك ووجهك ، بخلاف ما فارقتك عليه منذ ساعة .

فقلت : ما ورد عليّ شيء .

فقال : والله ، لئن لم تصدقني ، لأفعلنّ بك ، ولأصنعنّ .

[فقلت : ما عندي ما أصدق عنه .

فأقبل على أخي ، فقال له : أخبرني ما شأنه ؟ فخافه أخي][16] فَصَدَقَهُ عن الصورة ، فسكن .

ثمّ قال : أتعرف [٦٥ ر] لأيّ شيء قمت أنا ؟.

قلت : لا .

قال : كوتبت بأنّ ولداً ذكراً سوياً قد ولد لي ، فدخلت ، ورأيته ، وسمّيته باسم أبي ، وكنيته بأبي مروان .

قال سليمان : فقمت إليه ، فهنّأته ، وقبّلت يديه ، ورجليه ، وقلت : أيّها الوزير ، هذا يوم مبارك ، وقد رزقنا الله [٨٥ م] جميعاً ، ولدين ، فارحمني ، وارع لي حقّ سالف خدمتي لك ، واجعل ابني موسوماً بخدمة ابنك ، يسلم معه

---

١٦ الزيادة من غ ، ور ، وم .

في المكتب ، يتعلّم معه ، وينشوان في دولتك [17] ، فيكون كاتباً له ، فحملته الكزازة[18] ، والقسوة التي فيه ، على أن قال : يا أبا أيّوب ، أعليّ تجوز[19] ولي تستفزّ[20] وتخاتل ؟ قد حدّثتك نفسك ، أنّ ابنك هذا سيبلغ المبالغ ، ويؤهّل للوزارة[21] ، ورجوت فيّ [٨٤ ظ] نوائب الزمان ، وقلتَ : أرجو أن يحتاج ابنه إلى ابني ، حتّى يطلب منه الإحسان والفضل ، وأنا استحلفك بالله ، وأحرّج عليك ، إن بلغ ابنك هذه المنزلة ، إلاّ وصّيته ، إن جاءه ابني لشيء من هذا ، أن لا يحسن إليه .

---

١٧ ينشوان : لغة بغدادية في ينشآن ، وقد درج البغداديون ، منذ القديم ، وما زالوا إلى الآن ، على حذف الهمزة إذا كانت في آخر الكلمة ، وإبدالها بالواو أو الياء ، إذا كانت في وسطها ، والمثال على القسم الأوّل ، وهو الحذف ، أنّهم يقولون : الببغا ، والقبا ، والثرا ، والحبا ، والدعا ، والسما ، والهوا ، والرجا ، بدلاً من : الببغاء ، والقباء ، والثراء ، والحباء ، والدعاء ، والسماء ، والهواء ، والرجاء ، ويقول : جا ، بدلاً من : جاء ، قال الشاعر (العقد الفريد ٤ / ٣٤٤) :

عشية جـا أهـل العراق كأنّـهم　　سحـاب خريـف صفّقته الجنـائب

والمثال على القسم الثاني : أي الإبدال ، أنّهم يقولون : رياسة ، بدلاً من : رئاسة ، وجيت ، بدلاً من : جئت ، ووطيت ، بدلاً من : وطئت ، وشايب ، بدلاً من : شائب ، وذيب ، بدلاً من : ذئب ، وبير ، بدلاً من : بئر ، وحايم ، وقايم ، ونايم ، وصايم ، بدلاً من : حائم ، وقائم ، ونائم ، وصائم ، ويقولون : جناين ، ومداين ، وضغاين ، بدلاً من : جنائن ، ومدائن ، وضغائن ، ويقولون : حسن النشوة ، بدلاً من : حسن النشأة ، ولياقوت رحمه الله ، تعليل أورده في شرح لفظة المدائن ، في معجم البلدان ٤ / ٤٤٥ ، ذكر فيه أنّ الكلمة إذا أريد بها جمع المدن ، فهي مهموزة ، وإذا أخذت من دان يدين ، لا تهمز ، وليس الأمر كذلك .

١٨ الكزّ : المتقبّض اليابس .

١٩ الجواز : المرور والعبور ، واستعملها هنا اصطلاحاً ، يريد أنّه لا تجوز عليه الحيلة ، ولا يمكن أن يخادع ، وقد تغيّر التعبير البغدادي الآن ، فهو يقول لمن يريد أن يخادعه : هذا الكلام ما يعبر عليّ .

٢٠ الاستفزاز : الإزعاج والإثارة .

٢١ في غ : وتؤمّل له الوزارة .

قال : فأعظمت هذا الخطاب ، وتنصّلت ، واعتذرت ، ووقع في قلبي ، في الحال ، أنّ هذا غاية البغي ، وأنّ الله – سبحانه وتعالى – سيحوج ابنه إلى ابني ، ويتحقّق ما قاله ، فما مضت مديدة ، حتّى فرّج الله عنّي .

ثمّ قال لي : يا بنيّ ، إن رفعك الزمان ، ووضع ابنه ، حتّى يحتاج إليك ، فأحسن إليه .

قال : وضرب الدهر ضربه ، فما عرفت لأبي مروان خبراً ، حتّى رأيته اليوم [فكان ما شاهدتم ، ثمّ أمر بطلب أبي مروان ، فأحضر ، فوهب له مالاً][22] ، وخلع عليه ، وحمله ، وقلّده ديوان البريد والخرائط .

قال أبو الحسن : فما زال يتقلّده منذ ذلك الوقت ، إلى آخر وزارة ابن الفرات الثالثة ، فإنّه مات فيها ، وقد تقلّده ثلاثين سنة أو أكثر .

وكان يكتب إلى [١١٦ غ] عبيد الله ، أوّل ما كاتبه ، بعد تقليده الديوان ، عبد الوزير وخادمه ، عبد الملك بن محمد ، فأراد عبيد الله ان يتكرّم عليه ، فقال له : أنت ابن وزير ، وما أحبّ أن تتعبّد لي ، فاكتب اسمك فقط على الكتب .

فقال : لا تسمح نفسي بذلك ، ولكن أكتب : عبد الملك بن محمّد ، عبد الوزير وخادمه[23] .

فقال : افعل ، فكتب ذلك ، فصارت عادة له يكتب بها إلى جميع الوزراء من بعده ، إلى أن مات في وزارة ابن الفرات الثالثة ، فصار كالمترتّب عليهم بما عامله به من ذلك عبيد الله ، وغلب عليه أن عرف بأبي مروان الخرائطيّ ، ونسي نسبه إلى ابن الزيّات ، إلّا من كان يعرفه من الكتّاب وغيرهم ، [أخبرني بذلك جماعة من الشيوخ][24] .

---

٢٢ الزيادة من غ وم .

٢٣ في م : عبد الملك بن محمّد ، خادم الوزير .

٢٤ الزيادة من غ .

١٦٨

أسد كالح وكبش ناطح وكلب نابح

وجدت في بعض الكتب ، بغير أسانيد : أنّ عبيد الله بن زياد[١] ، لما بنى داره البيضاء بالبصرة ، بعد قتل الحسين عليه السلام[٢] ، صوّر على بابها رؤساً مقطّعة ، وصوّر في دهليزها ، أسداً ، وكبشاً ، وكلباً ، وقال : أسدٌ كالح ، وكبشٌ ناطح ، وكلبٌ نابح .

فمرّ بالباب أعرابيّ ، فرأى ذلك ، فقال : أما إنّ صاحبها لا يسكنها إلّا ليلة واحدة لا تتمّ .

فرفع الخبر إلى ابن زياد ، فأمر بالأعرابي ، فضرب ، وحبس .

فما أمسى حتّى قدم رسول ابن الزبير ، إلى قيس بن السكون[٣] ، ووجوه أهل البصرة ، في أخذ البيعة له ، ودعا النّاس إلى طاعته ، فأجابوه ، وراسل بعضهم بعضاً في الوثوب عليه من ليلتهم ، فأنذره قوم كانت له صنائع عندهم ، فهرب من داره في ليلته تلك ، واستجار بالأزد ، فأجاروه ، ووقعت الحرب المشهورة بينهم

---

١ عبيد الله بن زياد بن أبيه : أنظر ترجمته في آخر القصّة .

٢ لما أدخل رأس الحسين عليه السلام على عبيد الله بن زياد ، جعل ينكت بالخيزرانة ثنايا الحسين ، وعنده زيد بن أرقم صاحب رسول الله صلوات الله عليه ، فقال له : مه ، إرفع قضيبك عن هذه الثنايا ، فلقد رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يلثمها ، ثم خنقته العبرة ، فبكى ، فقال له ابن زياد : ممّ تبكي ؟ أبكى الله عينك ، لولا أنّك شيخ قد خرفت لضربت عنقك (الأخبار الطوال ٢٥٩ ، ٢٦٠) .

٣ في غ وم : قيس بن السكن ، ولم أعثر على شخص اسمه قيس بن السكن ، أو ابن السكون ، بين أهل البصرة في ذلك الحين ، وأحسب أنّ المقصود قيس بن الهيثم السلمي (أنساب الأشراف ٣ / ٥٧ ، ١٠٤ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ١٥٧ ، ١٦٠) إذ انّ قيس بن السكن بن قيس الأنصاري ، قتل في السنة ١٣ هـ في وقعة الجسر عند فتح العراق (ابن الأثير ٢ / ٤٣٨ - ٤٤٠) .

وبين بني تميم بسببه ، حتّى أخرجوه ، فألحقوه بالشام[٤] ، وكسر الحبس ، فخرج الأعرابيّ .

ولم يعد ابن زياد إلى داره ، وقتل في وقعة الخازر[٥] .

---

٤ راجع تفصيل ذلك في الطبري ٥ / ٥٠٤ – ٥٢٣ .

٥ الخازر : قال ياقوت في معجمه ٢ / ٣٨٨ : الخازر نهر بين الزاب الأعلى والموصل ، وكانت عنده وقعة بين عبيد الله بن زياد وإبراهيم بن مالك الأشتر النخعي ، ويومئذ قتل ابن زياد الفاسق وذلك سنة ٦٦ للهجرة ، وقال أيضاً في معجمه في مادة : زاب ٢ / ٩٠٣ : وعلى الزاب الأعلى كان مقتل عبيد الله ابن زياد بن أبيه ، راجع في الأخبار الطوال ٢٩٦ ما مدح به إبراهيم بن الأشتر بعد انتصاره في هذه المعركـة .

عبيد الله بن زياد

عبيد الله بن زياد (٢٨ – ٦٧) : والي العراقين لمعاوية بن أبي سفيان ، ولولده يزيد من بعده ، وكانت أمّه مرجانة جارية ولدته على فراش زياد ، ثمّ تركها لمولى له أعجميّ ، اسمه شيرويه الأسواري ، فنشأ عبيد الله في بيت الأسواري ، فشبّ يرتضخ لكنة فارسيّة (البيان والتبيين ١ / ٥٣ و٥٤ و٢ / ١٦٧) وكان الحسن البصري يسمّيه : الشاب المترف الفاسق ، وقال فيه : ما رأينا شرًّا من ابن زياد (أنساب الأشراف ٥ / ٨٣ و٨٦) ، وقال الأعمش فيه : كان مملوءاً شرًّا ونغلاً (أنساب الأشراف ٥ / ٨٣) ، وكان شديد القسوة في معاملة النّاس ، يتلذّذ بتعذيب ضحاياه بيده ، جيء إليه بسيّد من سادات العراق ، فأدناه منه ، ثمّ ضرب وجهه بقضيب كان في يده ، حتى كسر أنفه ، وشقّ حاجبيه ، ونثر لحم وجنته ، وكسر القضيب على وجهه ورأسه (مروج الذهب ٢ / ٤٤) وغضب على رجل ، تمثّل بآية من القرآن ، فأمر أن يبنى عليه ركن من أركـان قصره (المحـاسن والمساوئ ٢ / ١٦٥) ، وكان يقتل النساء في مجلسه ، ويتشفّى بمشاهدتهن يعذّبن ، وتقطع أطرافهنّ (بلاغات النساء ١٣٤ وأنساب الأشراف ٥ / ٨٩) ، فعاش مكروهاً عند أهل العراق (الإمـامة والسياسة ٢ / ١٦ سطر ١٣ ، ومروج الذهب ٢ / ٤٣) مهيناً عند أهل الحجاز

(الأغاني ٢٧٢/١٨ و٢٨٢) ، وشرّ ما صنع قتله الإمام الشهيد الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، في كربلاء ، ولمّا مات يزيد بن معاوية ، أغرى بعض البصريين أن يبايعوه ، ثم جبن عن مواجهة الناس ، فاستتر ، ثمّ هرب إلى الشام ، وعاد إلى العراق صحبة جيش ، فحاربه إبراهيم بن مالك الأشتر ، قائد جيش المختار بن أبي عبيد الثقفي ، رأس المطالبين بثأر الحسين ، فسقط قتيلاً في المعركة ، فقال فيه الشاعر : (معجم البلدان ٢ / ٩٠٣)

إنّ الذي عاش ختّاراً بذمته ... ومات عبداً ، قتيل الله بالزاب
أقول لما أتاني ثمّ مصرعه ... لابن الخبيثة وابن الكودن الكابي
العبد للعبد لا أصل ولا ورق ... ألوت به ذات أظفار وأنياب
ما شقّ جيب ولا ناحتك نائحة ... ولا بكتك جياد عند أسلاب
إنّ المنايا إذا حاولن طاغية ... ولجن من دون أستار وأبواب

وكان عبيد الله بن زياد من الأكلة ، كان يأكل جدياً ، أو عَناقاً يتخيّر له في كلّ يوم ، فيأتي عليه ، وأكل مرّة عشر بطّات وزبيلاً من عنب ، ثمّ عاد فأكل عشر بطّات ، وزبيلاً من عنب ، وجدياً (أنساب الأشراف ٥ / ٨٦) وكان يأكل بعد الشبع أربع جرادق أصبهانية ، وجبنةً ، ورطلاً عسلاً (معجم الأدباء ٦ / ٩٥) ، قال عبيد الله ، لقيس بن عبّاد : ما تقول فيّ ، وفي الحسين ؟ قال : اعفني ، عافاك الله ، قال : لا بدّ أن تقول ، قال : يجيء أبوه يوم القيامة ، فيشفع له ، ويجيء أبوك ، فيشفع لك ، فقال عبيد الله : قد علمت غشّك ، وخبثك ، لأضعنّ يوماً أكثرك شعراً بالأرض (العقد الفريد ٢ / ١٧٥) ، راجع ترجمة عبيد الله المفصّلة في أنساب الأشراف ٣ / ٧٧ - ١٢٣ ، وراجع كذلك صبح الأعشى ١ / ٤١٤ و٤٢٥ و٤٥٥ والأغاني ١٨ / ٢٠٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ومعجم الأدباء ٢ / ٩٠٣ ورسائل الجاحظ ص ١٨ .

١٦٩

القرمطي يبعث رسولاً إلى المعتضد

[حدّثني القاضي أبو الحسن محمّد بن عبد الواحد الهاشمي ، قال : سمعت][١] العبّاس بن عمرو الغنوي[٢] ، يقول :

لما أسرني أبو سعيد الجنّابي القرمطي[٣] ، وكسر العسكر الّذي كان أنفذه المعتضد معي لقتاله[٤] ، وحصلت في يده أسيراً ، أيست من الحياة .

فإنّي يوماً على تلك الصورة ، إذ جاءني رسوله ، فأخذ قيودي ، وغيّر

---

١ الزيادة من غ وم .

٢ العباس بن عمرو الغنوي : جاء في وفيات الأعيان ٤ / ٣٥٠ انّه كان يتولى اليمامة والبحرين ، وسيّره المعتضد لحرب القرامطة في أوّل أمرهم ، فقاتلوه ، وكسروه ، وأسروه ، ثم أطلقوه ، فرجع إلى المعتضد ، ويتضح من القصّة ٥ / ١٣١ من نشوار المحاضرة أنّه ولّي إمارة ديار ربيعة ، وذكر ابن خلّكان في وفيات الأعيان ٥ / ٢٦٢ انّه توفّي سنة ٣٥٠ وهو خطأ ، والصحيح انّه توفّي سنة ٣٠٥ كما ورد في الأعلام ٤ / ٣٧ ، قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : ما ينقضي عجبي من ثلاثة أشياء : إفلات عباس بن عمرو ، من القرمطي ، وهلاك كلّ أصحابه ، ووقوع الصفّار ، وإفلات كلّ أصحابه ، وولاية أبي الحسن ، وأنا متعطّل (البصائر والذخائر ١ / ٢٥) يريد بأبي الحسن ولده محمّد ، استخلفه مؤنس على الشرطة ببغداد (الأغاني ١٠ / ٢٨٥) .

٣ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنّابي القرمطيّ : كبير القرامطة ، ومعلن مذهبهم ، كان دقّاقاً ، من أهل جنّابة بفارس ، ونفي منها ، وأقام يتاجر بالبحرين ، ودعا إلى نحلته ، فعظم أمره ، وحاربه الخليفة ، فظفر الحسن ، واضطرّ المقتدر إلى مصافاته ، واستولى على هجر ، والأحساء ، والقطيف ، وسائر بلاد البحرين ، وكان شجاعاً ، داهية ، قتله خادم له صقلبيّ بالحمّام ، في السنة ٣٠١ (الأعلام ٢ / ١٩٩) .

٤ قال صاحب وفيات الأعيان ٤ / ٣٥٠ : من العجائب أنّ العباس بن عمرو الغنوي ، توجّه لحرب القرامطة على رأس عشرة آلاف ، فقتل الجميع ، وسلم وحده ، وعمرو بن الليث الصفّار ، توجّه لحرب إسماعيل الساماني على رأس خمسين ألفاً ، فأخذ وحده ، ونجا الباقون .

ثيابي ، وأدخلني إليه ، فسلّمت ، وجلست .

فقال لي : أتدري لم استدعيتك ؟

قلت : لا .

قال : أنت رجل عربيّ ، ومن المحال أن أستودعك أمانة فتخفرها [٨٦ م] ، ولا سيّما مع منّي عليك بنفسك .

فقلت : هو ذاك .

فقال : إنّي فكّرت ، فإذا لا طائل في قتلك ، وأنا في نفسي رسالة إلى المعتضد ، لا يجوز أن يؤدّيها غيرك ، فرأيت إطلاقك ، وتحميلك إيّاها ، فإن حلفتَ لي أنّك تؤدّيها ، سيّرتك إليه .

فحلفت له .

فقال : تقول له : يا هذا لِمَ تخرق هيبتك ، وتقتل رجالك ، وتطمع أعداءك في نفسك ، وتتعبها في طلبي ، وإنفاذ الجيوش إليّ ، وإنّما أنا رجل مقيم في فلاة ، لا زرع فيها ولا ضرع ، ولا غلّة ، ولا بلد ، وقد رضيت لنفسي بخشونة العيش ، والأمن على المهجة ، والعزّ بأطراف الرماح ، وما اغتصبتك بلداً كان في يدك ، ولا أزلت سلطانك عن عمل جليل ، ومع هذا ، فوالله لو أنفذت إليّ جيشك [٨٥ ظ] كلّه ، ما جاز أن تظفر بي ، ولا تنالني ، لأنّي رجل نشأت في هذا القشف[٥] ، واعتدته أنا ورجالي ، ولا مشقّة علينا فيه ، ونحن في أوطاننا مستريحون ، وأنت تنفذ جيشك من الخيوش والثلج[٦] ، والريحان والندّ ، فيجيئون من المسافة [١١٧ غ] البعيدة ، والطريق الشاسع[٧] ، وقد قتلهم السفر قبل قتالنا ، وإنّما غرضهم أن يبلوا عذراً في مواقفتنا ساعة ، ثمّ يهربون ، وإن ثبتوا فإنّ ما يلحقهم

---

٥ القشف : ضد التنعّم .

٦ يريد بالخيوش والثلج : عيشة الترف والتنعّم ، راجع بحث الخيش في حاشية القصّة ١٤٣ .

٧ في غ : الطريق الشاق .

من وعثاء السفر وشدّة الجهد ، أكبر أعواننا عليهم ، [فما هو إلّا أن أحقق عليهم[8]][9] حتّى ينهزمون ، وإن استراحوا ، فأقاموا ، وكانوا عدداً لا قِبَلَ لنا به ، فيهزمونا ، لا يقدر جيشك على أكثر من هذا ، فأنهزْم عنهم مقدار عشرين فرسخاً ، وأجول في الصحراء شهراً ، ثمّ أكبسهم على غرّة ، فأقتلهم ، وإن لم يَستوِ لي هذا ، وكانوا متحرّزين ، فما يمكنهم الطواف خلفي في البراري والصحاري ، ثم لا يحملهم البلد في المقام ، ولا الزاد ، إن كانوا كثيرين ، فإن انصرف الجمهور منهم ، وبقي الأقلّ ، فهم قتلى سيوفي ، في أوّل يوم ينصرف الجيش ، ويبقى من يتخلّف ، هذا إن سلموا من وباء هذا البلد ، ورداءة مائه وهوائه الّذي لا طاقة لهم به ، لأنّهم نشأوا في ضدّه ، وربوا في غيره ، ولا عادة لأجسامهم بالصبر عليه ، ففكّر في هذا ، وانظر ، هل يفي تعبك ، وتغريرك بجيشك وعسكرك ، وإنفاقك الأموال ، وتجهيزك الرجال ، وتكلّفك هذه الأخطار ، وتحمّلك هذه المشاقّ ، بطلبي ، وأنا مع هذا خالي الذرع منها ، سليم النفس والأصحاب من جميعها ، وهيبتك تنخرق في الأطراف عند ملوكها ، كلّما جرى عليك من هذا شيء ، ثمّ لا تظفر من بلدي بطائل ، ولا تصل منه إلى مال ولا حال ، فإن اخترتَ بعد هذا محاربتي ، فاستخر الله عزّ وجلّ وأنفذ من شئت ، وإن أمسكت ، فذاك إليك .

قال : ثمّ جهّزني ، وأنفذني مع عشرة من أصحابه إلى الكوفة ، فسرت منها إلى الحضرة .

ودخلت على المعتضد ، فتعجّب من سلامتي ، وقال : ما خبرك ؟

فقلت : شيء أذكره سرًّا لأمير المؤمنين .

---

٨ حقّق الأمر : أكّده وأوجبه ، وحقّ العقدة : شدّها ، والحقّة : الداهية .

٩ الزيادة من غ .

فتشوّف إليه ، وخلا بي ، فقصصت عليه القصّة بأسرها ، فرأيته يتمعّط[10] في جلده غيظاً ، حتّى ظننت أنّه سيسير إليه بنفسه .

وخرجت من بين يديه ، فما رأيته ذكره بعد ذلك بحرف[11] .

---

١٠ معط الريش : نتفه ، والذئب الأمعط : الذي سقط شعره ، وتمعّط في جلده : كناية عن شدّة الغيظ والانزعاج .

١١ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة برقم ٤ / ٦٢ ج ٤ ص ١٣٠ .

١٧٠

كفى بالأجل حارساً

حدّثني أبو محمّد يحيى بن محمّد بن سليمان بن فهد الأزدي الموصلي ، قال : حدّثني بعض المواصلة[١] ، من ثقات أهل الموصل :

أنّ فاطمة بنت أحمد بن عليّ الهزارمرديّ الكرديّ[٢] ، زوجة ناصر الدولة[٣] ، أمّ أبي تغلب ابنه[٤] ، اتّهمت عاملاً[٥] كان لها ، يقال له ابن أبي قبيصة ، من أهل الموصل ، بخيانة في مالها ، فقبضت عليه ، وحبسته في [٦٦ ر] قلعتها .

ثمّ رأت أن تقتله ، [فكتبت إلى المتوكّل بالقلعة ، بقتله][٦] ، فورد عليه الكتاب ، وكان لا يحسن أن يقرأ ولا أن يكتب ، وليس عنده من يقرأ ويكتب ، إلّا ابن أبي قبيصة ، فدفع الموكّل به الكتاب إليه [٨٧ م] وقال له : اقرأه عليّ .

---

١ المواصلة : إذا نسب البغداديون الآن أحداً إلى الموصل ، قالوا : موصلاوي ، والجمع : مواصلة ، وربما قالوا : مصالوة .

٢ فاطمة بنت أحمد بن علي الهزارمردي الكرديّ : زوجة ناصر الدولة ، وأمّ أولاده أبي تغلب ، وأبي البركات ، وجميلة ، وكانت مالكة أمر ناصر الدولة (الكامل ٨ / ٥٩٣ وتجارب الأمم ٢ / ٢٥٥) مسموعة الكلمة عنده (القصّة ٣ / ١١ من نشوار المحاضرة) ولمّا ساءت أخلاق ناصر الدولة ، تطابقت مع أولادها عليه ، وغلبوه على أمره ، ولم تكن له بهم طاقة ، فأخذ يدبّر في القبض عليهم ، فأحسّوا به ، فقبضوا عليه واعتقلوه سنة ٣٥٨ ، فعاش معتقلاً شهوراً ومات (تجارب الأمم ٢ / ٢٥٥) .

٣ ناصر الدولة أبو محمّد الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبيّ : ترجمته في حاشية القصّة ١٩٦ من هذا الكتاب .

٤ عدّة الدولة أبو تغلب ، فضل الله الغضنفر بن الحسن ناصر الدولة : ترجمته في حاشية القصّة ١٩٦ من هذا الكتاب .

٥ في غ : غلاماً .

٦ الزيادة من غ .

فلمّا رأى فيه الأمر بقتله . قرأ الكتاب بأسره ، إلّا حديث القتل ، وردّ الكتاب عليه .

قال ابن أبي قبيصة : ففكّرت ، وقلت أنا مقتول ، ولا آمن أن يرد كتاب آخر في هذا المعنى ، ويتّفق حضور من يقرأ ويكتب غيري فينفذ فيّ الأمر ، وسبيلي أن أحتال بحيلة ، فإن تمّت سلمتُ ، وإن لم تتمّ ، فليس يلحقني أكثر من القتل الّذي أنا حاصل فيه .

قال : فتأمّلت القلعة ، فإذا فيها موضع يمكنني أن أطرح نفسي منه إلى أسفلها ، إلّا أنّ بينه وبين الأرض أكثر من ثلاثة آلاف ذراع ، وفيه صخر لا يجوز أن يسلم معه من يقع عليه .

قال : فلم أجسر ، ثمّ ولّد لي الفكر أن تأمّلت الثّلج قد سقط عدّة ليال ، وقد غطّى [١١٨ غ] تلك الصخور ، وصار فوقها منه أمر عظيم ، يجوز إن سقطت عليه وكان في [٨٦ ظ] أجلي تأخير ، أن تنكسر يدي أو رجلي وأسلم .

قال : وكنت مقيّداً ، فقمت لمّا نام النّاس ، وطرحت نفسي من الموضع ، قائماً على رجلي ، فحين حصلت في الهواء ، ندمت وأقبلت أستغفر الله ، وأتشهّد ، وأغمضت عيني حتّى لا أرى كيف أموت ، وجمعت رجلي بعض الجمع لأنّي كنت سمعت قديماً أنّ من اتّفق له أن يسقط قائماً من مكان عالٍ ، إذا جمع رجليه ، ثمّ أرسلهما إذا بقي بينه وبين الأرض ذراع أو أكثر قليلاً ، فإنّه يسلم ، وتنكسر حدّة السقطة ، ويصير كأنّه بمنزلة من سقط من ذراعين .

قال : ففعلت ذلك ، فلمّا سقطتُ إلى الأرض ، ذهب عنّي أمري ، وزال عقلي ، ثمّ ثاب إليّ عقلي ، فلم أجد ما كان ينبغي أن يلحقني من ألم السقطة من ذلك المكان ، فأقبلت أجسّ أعضائي شيئاً شيئاً ، فأجدها سالمة ، وقمت وقعدت ، وحرّكت يدي ورجلي ، فوجدت ذلك سليماً كلّه ، فحمدت الله تعالى على هذه الحال .

وأخذت صخرة ، وكان الحديد الّذي في رجلي قد صار كالزّجاج لشدّة البرد ، قال : فضربته ضرباً شديداً ، فانكسر ، وطنّ الجبل حتّى ظننت أن سيسمعه من في القلعة لعظمه ، فيتنبّهون على صوته ، فسلّم الله عزّ وجلّ من هذا أيضاً ، وقطعت تكّتي ، فشددت ببعضها القيد على ساقي ، وقمت أمشي في الثّلج .

فمشيت طويلاً ، ثمّ خفت أن يرى أثري من غدٍ في الثلج على المحجّة[7] ، فيطلبوني ، ويتبعوني ، فلا أفوتهم ، فعدلت عن المحجّة ، إلى نهر يقال له : الخابور[8] ، فلمّا صرت على شاطئه ، نزلت في الماء إلى ركبتي ، وأقبلت أمشي [كذلك فرسخاً ، حتّى انقطع أثري ، وخفي مكان رجلي ، ثمّ خرجت لما][6] كادت أطرافي تسقط من البرد ، فمشيت على شاطئه ، ثمّ عدت أمشي فيه ، وربّما حصلت في موضع لا أقدر على المشي فيه ، لأنّه يكون جرفاً ، فأسبح .

فأمشي على ذلك أربع فراسخ ، حتّى حصلت في خيم فيها قوم ، فأنكروني ، وهمّوا بي ، فإذا هم أكراد ، فقصصت عليهم قصّتي ، واستجرت بهم ، فرحموني [وغطّوني ، وأوقدوا بين يديّ ناراً ، وأطعموني ، وستروني][6] ، وانتهى الطلب من غدٍ إليهم ، فما أعطوا خبري أحداً .

---

٧ المحجّة : جادّة الطريق ، أي وسطه .

٨ الخابور : نهران ، أحدهما يصبّ في الفرات ، ذكرته أخت الوليد بن طريف الشيباني ، في رثائها أخاها ، قالت :

فيا شجر الخابور ما لك مورقاً كأنّك لم تجزع على ابن طريف

والثاني ، أحد روافد دجلة ، ويسمّى خابور الحسنية ، من أعمال الموصل ، وإيّاه عنى عديّ بن زيد ، بقوله :

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ـلة تجبى إليه والخابور

والثاني ، هو المقصود في هذه القصّة ، راجع معجم البلدان ٢ / ٢٨٤ و٣٨٣ و٣٨٤ .

فلمّا انقطع الطلب ، سيّروني[9] ، فدخلت الموصل مستتراً .

وكان ناصر الدولة ببغداد – إذ ذاك – فانحدرت إليه ، فأخبرته بخبري كلّه ، فعصمني من زوجته ، وأحسن إليّ ، وصرّفني .

---

٩ التسيار : مصطلح بغداديّ ، بمعنى البذرقة ، وسيّره : أوصله إلى مأمنه .

١٧١

يرتجع من مال مصادرته مائة ألف دينار

حدّثني أبو عليّ بن أبي عبد الله الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصّاص الجوهري[١] ، قال : سمعت أبي[٢] يحدّث ، قال :

لما نكبنيَ المقتدر ، وأخذ منّي تلك الأموال العظيمة[٣] ، أصبحت يوماً في الحبس آيس ما كنت من الفرج .

فأتاني خادم ، فقال : البشري .

فقلت : ما الخبر ؟

قال : قم ، فقد أطلقت .

فقمت معه ، فاجتاز بي في بعض الطرق [٦٧ ر] في دار الخلافة ، يريد إخراجي إلى دار السيّدة ، لتكون هي الّتي تطلقني ، [٨٨ م] لأنّها هي الّتي

---

١ أبو علي بن أبي عبد الله الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصّاص الجوهري : ذكره المحسن التنوخيّ في كتابه نشوار المحاضرة ، وقال : إنّه اجتمع به ببغداد في سنة نيف وخمسين وثلثمائة فرآه شيخاً طيّباً حسن المحاضرة ، وإنّه سأله عن الحكايات التي تنسب إلى والده ، وتلقّى ردّه ، وأثبته ، راجع القصّة ١ / ٩ من كتاب نشوار المحاضرة .

٢ أبو عبد الله الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصّاص الجوهريّ : كان جوهرياً بمصر ، واتّصل بخمارويه بن أحمد بن طولون ، أمير مصر ، ثمّ توسّط في زواج قطر الندى ابنة خمارويه ، بالمعتضد ، ثم أقام ببغداد ، وتوفّي بها سنة ٣١٥ ، وكان عظيم الغنى ، واسع الثروة ، يتّهم بالتغفيل ، ولكنّ ولده نفى عنه هذه التهمة ، وأورد له قصّة (القصّة ١ / ٩ من كتاب نشوار المحاضرة) تدلّ على ذكاء ونباهة ، راجع القصص ١ / ٧ و٨ و٩ و١٠ و١١ ، والقصص ٢ / ١٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ من كتاب نشوار المحاضرة .

٣ من قائل إنّها ستة آلاف ألف دينار (القصّة ١ / ٧ من نشوار المحاضرة للتنوخيّ) ومن قائل إنّها عشرة آلاف ألف دينار (الوزراء ٢٤٥) ، والرجل تاجر ، لا دخل لـه في السياسة ، وكان ذنبه أن خصماً سياسياً للخليفة ، وهو ابن المعتزّ التجأ إليه فآواه (تجارب الأمم ١ / ٧ والتكملة ٥) .

شفعت فيّ ، فوقعت عيني في جوازي على أعدال خيش[4] لي أعرفها ، وكان مبلغها مائة عدل .

فقلت للخادم : أليس هذا من الخيش الّذي حمل من داري ؟

قال : بلى .

فتأمّلته ، فإذا هو بشدّه وعلاماته ، وكانت هذه الأعدال قد حملت إليّ من مصر ، وفي كلّ عدل منها ألف دينار ، من مال كان لي بمصر ، كتبت بحمله ، فخافوا عليه من الطريق ، فجعلوه في أعدال الخيش ، لأنّها مما لا يكاد يحمله [١١٩ غ] اللصوص ، لو وقعوا عليه ، فلا يفطنون لما فيه ، فوصلَتْ سالمة ، ولاستغنائي عن المال ، لم أخرجه من الأعدال ، وتركته بحاله في بيت من داري ، واقفلت عليه ، وتوخّيت أيضاً بذلك ستر حديثه ، فتركته شهوراً على حاله لأنقله في وقت آخر كما أريد .

وكبستُ ، فأخذ الخيش في جملة ما أخذ من داري ، ولخسّته عندهم تهاونوا به ، ولم يعرف أحد ما فيه ، فطرح في تلك الدار .

فلمّا رأيته بشدّه ، طمعت في خلاصه ، والحيلة في ارتجاعه [٨٧ ظ] فسكتُّ .

فلمّا كان بعد أيّام من خروجي ، راسلت السيّدة ، ورقّقتها ، وشكوت حالي إليها ، وسألتها أن تدفع إليّ ذلك الخيش ، لأنّه لا قدر له عندهم ، وأنا أنتفع بثمنه .

قال : فاستحمقتني ، وقالت : أيّ شيء قدر الخيش ؟ ردّوه عليه ، فسلّم إليّ بأسره .

ففتحته ، وأخذت منه المائة ألف دينار ، ما ضاع لي منها دينار واحد ، وأخذت من الخيش ما أحتاج إليه ، وبعت باقيه بجملة وافرة .

فقلت في نفسي : قد بقيت لي بقيّة إقبال جيّدة .

---

٤ الخيش : نسيج من القماش الخشن ، وهو ما نسمّيه اليوم بالجنفاص ، راجع حاشية القصّة ١٤٣ من هذا الكتاب .

١٧٢

قد ينتفع الإنسان في نكبته بالرجل الصغير

حدّثني عليّ بن هشام ، قال : سمعت حامد بن العبّاس[١] ، يقول : ربّما انتفع الإنسان في نكبته بالرجل الصغير ، أكثر من منفعته بالكبير ، فمن ذلك : أنّ إسماعيل بن بلبل[٢] ، لمّا حبسني ، جعلني في يد بوّاب كان يخدمه قديماً .

قال : وكان رجلاً حرّاً ، فأحسنت إليه ، وبررته ، وكنت أعتمد على عناية أبي العباس بن الفرات[٣] بي ، وكان ذلك البوّاب ، لقديم خدمته لإسماعيل ، يدخل إلى مجالسه الخاصّة ، ويقف بين يديه ، ولا ينكر عليه ذلك ، لسالف خدمته[٤] .

فصار إليّ في بعض الليالي ، فقال : قد حرد الوزير على ابن الفرات بسببك ،

---

١ أبو محمّد حامد بن العباس : من كبار العمّال في الدولة العباسية ، ولي فارس للمعتضد (القصّة رقم ٨ / ٥٣ من كتاب نشوار المحاضرة) وولي واسط للمقتدر (القصّة ٤ / ٧٨ من نشوار المحاضرة) ثم ولّي وزارة المقتدر في السنة ٣٠٦ ، ثم عزله ، وتسلّمه المحسّن بن الفرات ، فبعث به إلى واسط ، فمات فيها سنة ٣١١ (الأعلام ٢ / ١٦٦) .

٢ أبو الصقر إسماعيل بن بلبل الشيباني : من كبار الكتّاب في الدولة العبّاسيّة ، استوزره الموفّق لأخيه المعتمد ، وبلغ من الوزارة مبلغاً عظيماً ، وجمع له السيف والقلم ، ومدحه الشعراء كالبحتريّ وابن الروميّ ، قتله المعتضد لما ولّي الخلافة واستصفى أمواله (الفخري ٢٥٢) أنظر أخباره في كتاب نشوار المحاضرة ١ / ٧٦ ، ١٣٧ ، و ٢ / ١٦٧ و ٣ / ٦٥ .

٣ أبو العباس أحمد بن محمّد بن الفرات : من أكتب أهل زمانه ، ومن أوفرهم أدباً ، وهو من ممدوحي البحتريّ ، كان يلي ديوان الخراج في أيّام المعتضد ، ويخلفه عليه أخوه أبو الحسن عليّ بن محمّد بن الفرات الذي وزّر أخيراً للمقتدر (القصّة ٥ / ٣٣ من كتاب نشوار المحاضرة ، والوزراء ١٨٤) وكان حكيماً (القصّة ٥ / ٣٣ من كتاب نشوار المحاضرة) إلاّ أنّه كان حادّ الطبع (القصّة ٨ / ٣٥ من كتاب نشوار المحاضرة) ، توفّي سنة ٢٩١ (الأعلام ١ / ١٩٦) .

٤ في غ وم : لسالف صحبته .

وقال له : ما يكسر المال على حامد غيرك ، ولا بدّ من الجدّ في مطالبته بباقي مصادرته ، وسيدعوك الوزير في غدٍ إلى حضرته ويهدّدك .

فشغل ذلك قلبي ، فقلت له : هل عندك من رأي ؟

قال : نعم ، تكتب رقعة إلى رجل من معامليك تعرف شحّه وضيق نفسه ، تلتمس منه لعيالك ألف درهم ، يقرضك إيّاها ، وتلتمس منه أن يجيبك على ظهر رقعتك ، لترجع إليك ، فإنّه لشحّه ، يردّك بعذر ، وتحتفظ بالرقعة ، فإذا طالبك الوزير أخرجتها له على غير مواطأة ، وقلتَ له : قد أفضت حالي إلى هذا ، فلعلّ ذلك ينفعك .

قال : ففعلت ما قاله ، وجاءني الجواب بالرّد كما خمّنّا ، فشددت الرقعة معي . فلمّا كان من الغد ، أخرجني الوزير ، وطالبني ، فأخرجت الرّقعة ، وأقرأته إيّاها ، ورقّقته ، وتكلّمت بما أمكن ، فاستحيا ، وكان ذلك سبب خفّة أمري ، وزوال محنتي .

فلمّا تقلّدت في أيّام عبيد الله بن سليمان ما تقلّدت ، سألت عن البوّاب ، فاجتذبته إلى خدمتي ، وكنت أجري عليه خمسين ديناراً في كلّ شهر ، وهو باقٍ إلى الآن[٥] .

---

٥ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخيّ برقم ٨ / ٢٣ .

١٧٣

أبو العتاهية يحبس لامتناعه عن قول الشعر

أخبرني أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصبهاني ، قال : حدّثني عمّي الحسن ابن محمّد ، قال : حدّثنا محمّد بن القاسم بن مهرويه ، قال : حدّثني محمّد ابن أبي العتاهية[١] ، قال حدّثني أبي[٢] ، قال :

لمّا امتنعتُ من قول الشعر ، وتركته ، أمر المهدي بحبسي في سجن الجرائم ، فأخرجت من بين يديه إلى الحبس .

فلمّا أدخلته [٦٨ ر] دهشت ، وذهل عقلي ، ورأيت منظراً هالني .

فرميت [٨٩ م] بطرفي أطلب موضعاً آوي فيه ، أو رجلاً آنس بمجالسته ، فإذا أنا بكهلٍ حسن السمت نظيف الثوب ، تبين عليه سيماء الخير ، فقصدته ، فجلست إليه من غير أن أسلّم عليه ، أو أسأله عن شيء [١٢٠ غ] من أمره ، لما أنا فيه من الجزع والحيرة .

فمكثت كذلك مليًّا ، وأنا مطرق مفكّر في حالي ، فأنشد الرجل :

تعوّدت مسّ الضرّ حتى ألفته ... وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وصيّرني يأسي من النّاس واثقاً ... بحسن صنيع الله من حيث لا أدري

قال : فاستحسنت البيتين ، وتبرّكت بهما ، وثاب إليّ عقلي ، فأقبلت على الرجل ، فقلت له : تفضّل ، أعزّك الله ، بإعادة هذين البيتين .

---

١ أبو عبد الله محمّد (الملقّب عتاهية) بن أبي إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد الملقّب بأبي العتاهية : شاعر ابن شاعر ، حذا حذو أبيه أبي العتاهية في القول في الزهد ، ترجم له الخطيب في تاريخه ٢ / ٣٥ .

٢ أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد ، الملقّب بأبي العتاهية (١٣٠ - ٢١١) : شاعر مكثر ، سريع الخاطر ، من مقدّمي المولدين ، ولد في عين التمر ، وامتهن بيع الجرار ، ثمّ اتّصل بالخلفاء ، وعلت مكانته ، وتعشّق جارية اسمها عتبة ، وأكثر أشعاره في الزهديات (الأعلام ١ / ٣١٩) .

فقال لي : ويحك يا إسماعيل – ولم يكنّني – ما أسوأ أدبك ، وأقلّ عقلك[3] ومروءتك ، دخلتَ ، فلم تسلّم عليّ تسليم [٨٨ ظ] المسلم على المسلم ، ولا توجّعت لي توجّع المبتلى للمبتلى ، ولا سألتني مسألة الوارد على المقيم ، حتّى إذا سمعت منّي بيتين من الشعر الّذي لم يجعل الله فيك فضلاً[4] ولا أدباً ، ولا جعل لك معاشاً غيره ، لم تتذكّر ما سلف منك فتتلافاه ، ولا اعتذرت ممّا قدّمته ، وفرّطت فيه من الحق ، حتّى استنشدتني مبتدئاً ، كأنّ بيننا أنساً قديماً ، أو معرفة سالفة ، أو صحبة تبسط المنقبض .

فقلت له : تعذرني متفضّلاً ، فإنّ دون ما أنا فيه ما يدهش .

فقال : وفي أيّ شيء أنت ؟ أنت إنّما تركت قول الشعر الّذي كان به قوام جاهك عندهم ، وسببك إليهم ، فحبسوك حتّى تقوله ، وأنت لا بد أن تقوله ، فتطلق ، وأنا يدعى بي الساعة ، فأطالب بإحضار عيسى بن زيد[5] ، وهو ابن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، فإن دللتُ عليه ، لقيت الله عزّ وجل بدمه ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، خصمي فيه ، وإن لم أفعل ، قُتلتُ ، فأنا أولى بالدهش والحيرة منك ، وأنت ترى احتسابي وصبري .

فقلت : يكفيك الله عزّ وجلّ ، وأطرقت خجلاً منه .

فقال لي : لا أجمع عليك التوبيخ والمنع ، اسمع البيتين واحفظهما ، فأعادهما عليّ مراراً حتّى حفظتهما .

---

٣ في غ : وأقل معرفتك .

٤ في غ وم : خيراً .

٥ أبو يحيى عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب : ثائر ، من كبار الطالبيّين ، ولد ونشأ بالمدينة ، وصحب النفس الزكيّة محمّد بن عبد الله بن الحسن ، واشترك معه في الثورة على المنصور ، وأوصى محمّد بأن يكون عيسى خلفاً لأخيه إبراهيم ، ولما قتل محمّد وإبراهيم ، عاش بقيّة حياته متوارياً ، وطلبه المهديّ العَباسيّ فلم يقدر عليه ، توفّي سنة ١٦٨ (الأعلام ٥ / ٢٨٦) .

ثمّ دعي به وبي ، فلمّا قمنا ، قلت له : من أنت أعزّك الله ؟

قال : أنا حاضر ، صاحب عيسى بن زيد .

فأدخلنا على المهدي ، فلمّا وقفنا بين يديه ، قال له : أين عيسى بن زيد ؟

قال : ما يدريني أين عيسى بن زيد ، طلبتَهُ ، وأخفتَهُ ، فهرب منك في البلاد ، وأخذتني ، فحبستني ، فمن أين أقف على موضعِ هاربٍ منك وأنا محبوس ؟

قال له : فأين كان متوارياً ، ومتى آخر عهدك به ، وعند من لقيته ؟

قال : ما لقيته منذ توارى ، ولا أعرف عنه خبراً .

قال : والله ، لتدلّني عليه ، أو لأضربنّ عنقك السّاعة .

فقال : اصنع ما بدا لك ، أنا أدلّك على ابن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، لتقتله ، وألقى الله عزّ وجلّ ، ورسوله ، وهما مطالبان لي بدمه ؟ ، والله لو كان بين جلدي ، وثوبي ، ما كشفت عنه .

فقال : اضربوا عنقه .

فقدّم ، فضربت عنقه من ساعته .

ثمّ دعاني ، فقال : أتقول الشّعر ، أو ألحقك به ؟

فقلت : بل أقول الشّعر .

قال : أطلقوه [٦] .

قال محمّد بن القاسم بن مهرويه : والبيتان اللّذان سمعهما أبو العتاهية ، من حاضر ، هما في شعره الآن .

---

٦ وردت القصّة في الأغاني ٤ / ٩٢ – ٩٣ ، وفيه : أنّ الذي حبس أبا العتاهية ، هو هارون الرشيد ، والصحيح أنّه المهديّ ، كما ورد في هذا الكتاب ، إذ انّ عيسى بن زيد توفّي في السنة ١٦٨ قبل أن يستخلف الرشيد .

قال القاضي أبو علي[7] : وأنشدني بعض أصحابنا ، بيتاً آخر ، زيادة :

إذا أنا لم أقنع[8] من الدّهر بالّذي تكرّهت منه طال عتبي على الدّهر

[ووجد على مسطرة علي بن أحمد[9] ، رحمه الله تعالى ، بيت رابع لهذا ، وهو : [٦٩ ر]

ووسّع صدري للأذى كثرة الأذى وقد كنت أحياناً يضيق به صدري][10]

٧ القاضي أبو علي المحسّن بن أبي القاسم التنوخيّ ، مؤلّف الكتاب .

٨ في ظ : أرضى ، والتصحيح من م ، ر .

٩ عليّ بن أحمد الخراساني ، حاجب معزّ الدولة (القصّة ٣ / ٧ من نشوار المحاضرة) مدحه المتنبّي بقصيدته التي مطلعها :

حشاشة نفسٍ ودّعت يوم ودّعوا فلم أدر أيّ الظاعنين أشيّع

(ديوان المتنبّي ، شرح الواحدي ٤٢) .

١٠ الزيادة من ر ، راجع مقاتل الطالبيين ٤٢٥ - ٤٢٨ .

١٧٤

الفيض بن أبي صالح ومروءته

وجدت في كتاب أعطانيه أبو الحسين عبد العزيز بن إبراهيم ، ابن حاجب النعمان[١] ، وهو يومئذ كاتب الوزير المهلّبي ، على ديوان السواد[٢] ، وذكر انّه نسخه من كتاب أعطاه إيّاه [١٢١ غ] أبو الحسين عبد الواحد بن محمّد الخصيبي ، وكان فيه إصلاحات بخطّ أبي الحسين بن ما بنداد : قال أبو الحسن عليّ بن الحسين ابن عبد الأعلى [٩٠ م] الإسكافي[٣] :

كان داود ، كاتب أمّ جعفر[٤] ، قد حبس وكيلاً لها ، وجب لها عليه في حسابه مائتا ألف درهم ، فكتب الرجل إلى عيسى بن فلان ، وإلى سهل بن الصباح ، وكانا صديقين له ، يسألهما الركوب إلى داود في أمره ، فركبا إليه .

فلقيهما الفيض بن أبي صالح[٥] ، فسألهما عن خبرهما ، فأخبراه ، فقال لهما : أتحبّان أن أكون معكما .

---

١ أبو الحسين عبد العزيز بن إبراهيم : ترجمته في حاشية القصّة ٤٧٤ من هذا الكتاب .

٢ راجع القصّة ١ / ٢٨ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخيّ .

٣ أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عبد الأعلى الإسكافي الكاتب : من الكتّاب المعروفين في دولة بني العبّاس ، وكان قويّ الصلة بالحسن بن سهل ، كثير الرواية عنه ، روى كثيراً من أخبار المأمون (تاريخ بغداد لابن طيفور ١١٥ – ١١٨) ثم كتب لبغا الكبير (القصّة ١٩٠ من هذا الكتاب) ، والإسكافي : نسبة إلى إسكاف بني الجنيد ، ناحية ببغداد على صوب النهروان (اللباب ١ / ٤٥) .

٤ أمة العزيز بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العبّاسيّة : كنيتها أمّ جعفر ، ولقبها زبيدة ، لقّبها به جدّها المنصور ، لبياضها ، ونعومتها ، تزوّج بها هارون الرشيد سنة ١٦٥ ، وولدت له محمّداً الأمين سنة ١٧٠ ، كانت وافرة الغنى ، ولها خيرات ومبرّات ، توفّيت سنة ٢١٦ (الأعلام ٣ / ٧٣) وقال عنها الجاحظ : كانت زبيدة من أعقل الناس ، وأفصح الناس (الموشّح ٥٣٨) .

٥ أبو جعفر الفيض بن أبي صالح : من أهل نيسابور ، كان أهله نصارى أسلموا ، وتربّى الفضل في الدّولة العبّاسية ، وتأدّب على عبد الله بن المقفّع ، وبرع ، وكان سخيّاً ، مفضالاً ، جواداً ، عزيز النفس ،

قالا : نعم .

فصاروا إلى داود ، فكلّموه في إطلاق الرجل ، فقال : أكتب إلى أمّ جعفر ، فكتب إليها ، يعلمها خبر القوم وحضورهم ، ومسألتهم إطلاق الوكيل .

فوقّعت في الرّقعة أن يعرّفهم ما وجب لها عليه من المال ، ويعلمهم أنّه لا سبيل إلى إطلاقه دون أداء المال .

قال : فأقرأهم التوقيع ، فقال عيسى وسهل بن الصّبّاح : قد قضينا حقّ الرّجل ، وقد أبت أمّ جعفر أن تطلقه إلّا بالمال ، فقوموا ننصرف .

فقال لهما الفيض بن أبي صالح : كأنّا انّما جئنا لنؤكّد حبس الرّجل .

قالا له : [٨٩ ظ] فماذا نصنع ؟

قال : نؤدّي المال عنه .

قال : ثمّ أخذ الدواة ، فكتب إلى وكيله في حمل المال عن الرّجل كتاباً دفعه إلى داود كاتب أمّ جعفر ، وقال : قد أزحنا علّتك في المال ، فادفع إلينا صاحبنا .

قال : لا سبيل إلى ذلك ، حتّى أعرّفها الخبر .

قال : فكتب إليها بالخبر ، فوقّعت في رقعته : أنا أولى بهذه المكرمة من الفيض بن أبي صالح ، فاردد عليه كتابه بالمال ، وادفع إليه الرّجل ، وقل له لا يعاود مثل ما كان منه .

قال : ولم يكن الفيض يعرف الرّجل ، وإنّما ساعد عيسى وسهلاً على الكلام في أمره[٦] .

كبير الهمّة ، شديد الكبر والتيه ، ولّاه المهديّ وزارته لما قبض على يعقوب بن داود ، ومات المهديّ وهو وزيره ، فلما ولّي الهادي لم يستوزره ، وبقي الفيض إلى أيّام الرشيد ، وتوفّي سنة ١٧٣ (وفيات الأعيان ٧ / ٢٦ والفخري ١٨٧ – ١٨٨) .

٦ وردت هذه القصّة في الفخري ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

١٧٥

كيف تخلّص أعشى همدان من أسر الديلم

[أخبرني أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصبهاني ، قال : أخبرني الحسن ابن عليّ ، قال : حدّثنا الحسن بن عليل العنزيّ ، عن محمّد بن معاوية الأسدي ، عن ابن كناسة .

وحدّثني مسعود بن بشر ، عن أبي عبيدة ، والأصمعي .

ووافق روايتهم الهيثم بن عديّ[١] ، عن حمّاد الراوية[٢] ، قال :][٣]

كان أعشى همدان ، أبو المصبح[٤] ، ممّن أغزاه الحجّاج بلد الديلم[٥] ، ونواحي دستبى[٦] ، فأسر ، فلم يزل أسيراً في أيدي الدّيْلم مدّة .

ثمّ إنّ بنتاً للعلج الّذي كان أسره ، رأته ، فهويته ، فصارت إليه ليلاً ، وأمكنته من نفسها ، فأصبح ، وقد واقعها ثماني مرّات .

---

١ أبو عبد الرحمن الهيثم بن عديّ بن عبد الرحمن الثعلي الطائي البحتري الكوفيّ (١١٤ – ٢٠٧) : مؤرّخ ، أديب ، نسّابة ، جالس المنصور ، والمهديّ ، والهادي ، والرشيد ، وروى عنهم ، وتوفّي بفم الصلح عند الحسن بن سهل (الأعلام ٩ / ١١٤) .

٢ أبو القاسم حمّاد بن سابور بن المبارك ، الملقّب بالراوية (٩٥ – ١٥٥) : من أعلم الناس بأيّام العرب ، وأشعارها ، وأخبارها ، وأنسابها ، ولغاتها ، كان مقدّماً عند بني أميّة ، وجفي في أيّام بني العبّاس (الأعلام ٢ / ٣٠١) .

٣ كذا وردت في ظ وغ ، وفي م ورد بدلاً عنها : روي عن حمّاد الراوية ، وفي ر : حكى أبو عبيدة عن الأصمعي ، وفي هـ : روى أبو الفرج بالإسناد .

٤ أبو المصبح عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث بن نظام بن جشم الهمداني ، المعروف بأعشى همدان : شاعر اليمن بالكوفة وفارسهم ، وكان من الفقهاء القرّاء ، انحاز إلى عبد الرحمن بن الأشعث ، لمّا خرج على الحجّاج ، ونصره بسيفه ولسانه ، قتله الحجّاج سنة ٨٣ (الأعلام ٤ / ٨٤) .

٥ الديلم : قوم من العجم ، مقامهم بناحية جرجان .

٦ دستبى : منطقة تشتمل على ما يزيد على مائتي قرية بين الريّ وهمذان (معجم البلدان ٢ / ٥٧٣) .

فقالت له الديلميّة : يا معشر المسلمين ، هكذا تفعلون بنسائكم ؟

فقال لها : هكذا نفعل كلّنا بنسائنا .

فقالت له : بهذا العمل نصرتم ، أفرأيتَ إن خلّصتك ، أن تصطفيني لنفسك ؟

فقال لها : نعم ، وعاهدها .

فلمّا كان الليل ، حلّت قيوده ، وأخذت به طريقاً تعرفه ، حتّى خلّصته .

فقال شاعر من أسراء المسلمين :

ومن كان يفديه من الأسر ماله   فهمدان تفديها الغداة أيورها

وقال الأعشى ، يذكر ما لحقه من أسر الديلم له :

[لمن الظعائن سيرهنّ تزحّف[1]   عوم السفين إذا تقاعس مجذف

وذكر أبو الفرج الأصبهاني القصيدة ، وهي طويلة ، اخترتُ منها ما تعلّق بالفرج بعد الشدّة ، وهو قوله :][7]

أصبحت رهناً للعداة مكبّلاً   أمسي وأصبح في الأداهم أرسف [٩١م]

ولقد أراني قبل ذلك ناعماً   جذلان آبى أن أضام وآنف [١٢٢غ]

واستنكرت ساقي الوثاق وساعدي   وأنا امرؤ بادي الأشاجع[8] أعجف[9]

وأصابني قوم وكنت أصيبهم   فالآن أصبر للزمان وأعرف

وإذا تصبك من الحوادث نكبة   فاصبر لها فلعلّها تتكشّف

[ويروى : فكلّ مصيبة ستكشّف][10].

---

٧ الزيادة من غ ، وكذلك ورد الشطر في الأغاني ط. بولاق ٥ / ١٤٨ .

٨ الأشاجع : عروق ظاهر الكف .

٩ الأعجف : الهزيل .

١٠ الزيادة من غ .

١٧٦

يحتال للخلاص من حبس نجاح بن سلمة

وذكر ابن عبدوس في أخبار الوزراء :

أنّ نجاح بن سلمة ، حبس إبراهيم بن المدبّر[١] مكايدة لأخيه[٢] ، وذلك في أيّام المتوكّل .

فلمّا طال حبس إبراهيم ، ولم يجد حيلة في الخلاص ، عمل أبياتاً ، وأنفذها إلى المسدود الطنبوريّ[٣] ، وسأله أن يعمل فيها لحناً ، ويغنّي بها المتوكّل ، فإذا سأل عن قائلها ، عرّفه أنّها له .

ففعل المسدود ذلك ، وسأله المتوكّل ، فقال : لعبدك إبراهيم بن المدبّر ، فذكره ، وأمر بإطلاقه .

والأبيات هي :

بأبي من بات عندي ... طارقاً من غير وعد
بات يشكو ألم الشو ... ق وأشكو فرط وجدي
وتجنّى فبكى فانـ ... ـهلّ درٌّ فوق ورد
فيدٌ تحت يدٍ طو ... راً وخدٌّ فوق خدّ

---

١ أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن عبيد الله بن المدبّر الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ١٥٥ .

٢ أبو الحسن أحمد بن محمّد بن عبيد الله بن المدبّر الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ٨٢ .

٣ أبو علي الحسن الطنبوري المغنّي : كان أبوه قصّاباً ، ولقّب بالمسدود ، لأنّه كان مسدود فرد منخر ، ومفتوح الآخر ، وكان يقول : لو كان منخري الآخر مفتوحاً لأذهلت بغنائي أهل الحلوم والآداب (الأغاني ٨ / ٣٦٨) ، راجع قصّته مع الواثق في الهفوات النادرة ص ١٨ .

١٧٧

يهب أحد أتباعه خمسة آلاف ألف درهم

وذكر أيضاً أنّ إسحاق بن سعد ، قال : حدّثني أبو عبد الله محمّد بن عيسى المروروذي صاحب يحيى بن خاقان[1] ، [عنه] ، قال :

كان المأمون ألزمني خمسة آلاف ألف درهم ، فأعلمته أنّي لا أملك إلّا سبعمائة ألف درهم ، وحلفت له على ذلك ، بأيمان مغلّظة ، اجتهدت فيها ، فلم يقبل منّي ، وحبسني عند أحمد بن هشام[2] ، وكان بيني وبينه شرّ قد اشتهر وعُرِفَ ، وكان يتقلّد الحرس .

فقال أحمد للموكّلين بي : احفظوه ، واحذروا أن يسمّ نفسه .

ففطن المأمون لمراده ، فقال : لا يأكل يحيى بن خاقان ، ولا يشرب [٩٠ ظ] إلّا ما يؤتى به من منزله .

قال : فأقمت على ذلك [مدّة ، فوجّه إليّ الحسن بن سهل بألف ألف درهم ،][3] ، ووجّه إليّ فرج الرخجيّ بألف ألف درهم ، ووجّه إليّ حُمَيد الطوسيّ

---

١ يحيى بن خاقان الخراساني : مولى الأزد ، أخو الفتح بن خاقان ، وزير المتوكّل (الملح والنوادر ٣٣٢) وأخوهما الثالث عبد الرحمن بن خاقان وكان يلي البصرة للمتوكّل (البصائر والذخائر م ١ ص ٣٥٩) . ووالد عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي وزّر للمتوكّل ، كان يحيى من مشايخ كتّاب الدّولة العبّاسيّة (الديارات ١٥٤ ، ١٥٥) ولاّه المتوكّل ديوان الخراج في السنة ٢٣٤ على قول صاحب الديارات ١٥٥ ، وفي السنة ٢٣٣ على قول الطبري ٩ / ١٦٢ ، عزل به الفضل بن مروان ، وتوفّي يحيى في السنة ٢٤٠ (البصائر والذخائر م ١ ص ٣٥٩) .

٢ أحمد بن هشام المروزي : هو وأخوه علي ، من أوائل القوّاد الذين قاموا بدعوة المأمون ، وحاربوا في جيشه ، ولما فتح طاهر بن الحسين قائد المأمون بغداد ، جعل أحمد على شرطته (الطبري ٨ / ٣٩١) ثم أصبح على شرطة المأمون لما قدم بغداد (تاريخ بغداد لابن طيفور ٥٥) راجع في تاريخ بغداد ٥٥ و٥٦ قصّة له مع المأمون في أمر رفع الظلامة عن مظلوم .

٣ الزيادة من م .

بألف ألف درهم ، وأضفت ذلك إلى ما كان عندي ، واضطربت حتّى جمعت خمسة آلاف ألف درهم .

فلمّا اجتمعَتْ ، كتبتُ إلى المأمون بحضور المال الّذي ألزمني إيّاه ، فأمر بإحضاري ، فدخلت إليه وبين يديه أحمد بن أبي خالد ، وعمرو بن مسعدة ، وعلي بن هشام[٤] .

فلمّا رآني ، قال لي : أولم تخبرني وتحلف لي أنّك لا تملك إلّا سبعمائة ألف درهم ، فمن أين لك هذا المال ؟

فصدقته عن أمره ، وقصصت القصّة عليه .

فأطرق طويلاً ، ثمّ قال لي : قد وهبته لك .

فقال له الحضور : أتهب له خمسة آلاف ألف ، وليس في بيت المال درهم واحد ، وأنت محتاج إلى ما دون ذلك بكثير ؟ فلو أخذته منه قرضاً ، فإذا جاءك مال رددته عليه .

فقال لهم : أنا على المال أقدر من يحيى ، وقد وهبته له .

فرددت إلى القوم ما كانوا حملوه ، وتخلّصت .

---

٤ علي بن هشام المروزيّ : من أوائل القوّاد الذين قاموا بدعوة المأمون . ولما فتح طاهر بن الحسين بغداد وقتل الأمين ، نصبه والياً عليها (الطبري ٨ / ٥٤٣) وكان أثيراً عند المأمون جدّاً (تاريخ بغداد ٥٧ . ١١٩) وفي السنة ٢١٦ ولّاه المأمون بلاد الجبل وأذربيجان وأرمينية . فظلم وجار . فبعث إليه القائد عجيف ليحضره ، فهمّ أن يبطش بعجيف ، ولم يقدر ، فأحضره المأمون وقتله (الطبري ٨ / ٦٢٧) وعلّق في رأسه كتاباً ذكر فيه سابقته وحسن بلائه ، ثم ذكر السبب الذي أدّى إلى قتله . وهو كتاب جدير بالمطالعة . أنظره في الطبري ٨ / ٦٢٧ وفي تاريخ بغداد لابن طيفور ص ١٤٦ .

١٧٨

يتنازل لأحد أتباعه عن عشرة آلاف ألف درهم

قال محمّد بن عبدوس في كتابه « أخبار الوزراء »[١] :

ذكر الفضل بن مروان[٢] ، أنّ محمّد بن يزداد[٣] سعى إلى المأمون بعمرو بن بهنوى[٤] .

فقال له المأمون : يا فضل ، خذ عمراً إليك ، وقيّده ، وضيّق عليه ، ليصدق عما صار إليه من مال الفيء ، فقد اختان مالاً عظيماً ، وطالبه به .

فقلت [٩٢ م] : نعم ، وأمرت بإحضار عمرو ، فأُحضر ، فأخليت له حجرة في داري [١٢٣ غ] ، وأقمت له ما يصلحه ، وتشاغلت عنه [٧٠ ر] بأمور السلطان ، في يومي وفي الغد .

فلمّا كان في اليوم الثالث ، أرسل إليّ عمرو يسألني الدخول عليه ، فدخلت ، فأخرج إليّ رقعة ، قد أثبت فيها كلّ ما يملكه من الدور ، والضياع ، والعقار ، والأموال ، والفرش ، والكسوة ، والجوهر ، والقماش ، والكراع[٥] ، وما يجوز

---

١ في غ : كتاب الوزراء .

٢ الفضل بن مروان (١٧٠ - ٢٥٠) : كان من صغار الكتّاب في الدواوين أيّام الرشيد . وتعطّل لما وقعت الفتنة بين الأمين والمأمون . ثم اتّصل بالمعتصم فاستكتبه . وخلطه بخدمة المأمون فولّاه ديوان الخراج إضافة إلى كتبة أخيه . ولما استخلف المعتصم تمكّن منه تمكّناً تاماً ، واستوزره . ثم صادره وعزله ، وظلّ يتنقّل في الخدمات حتى مات في أيّام المستعين . راجع الفخري ٢٣٢ والقصّة ٨ / ١٣ و٨ / ١٤ من كتاب نشوار المحاضرة للتنوخيّ .

٣ محمّد بن يزداد بن سويد ، وزير المأمون : ترجمته في حاشية القصّة ١٣٩ من الكتاب .

٤ في ظ : عمرو بن صهنوي . وفي م ور وغ : عمرو بن بهنوي . وفي كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخيّ في القصّة ١ / ٦٨ : عمرو بن نهيوي .

٥ الكراع : هو مستدق الساق من البقر والغنم . ثم أطلق على الدواب من الخيل والبغال والحمير (المنجد) .

بيعه من الرّقيق ، وكان قيمة ذلك عشرون ألف ألف درهم ، وسألني أن أوصل رقعته إلى المأمون ، وأعلمه أنّ عمراً قد جعله من ذلك كلّه في حلّ وسعة .

فقلت له : مهلاً ، فإنّ أمير المؤمنين أكبر قدراً من أن يسلبك مالك كلّه ، ونعمتك عن آخرها .

فقال عمرو : إنّه لكما وصفت ، في كرمه ، ولكنّ السّاعي لا ينام عنّي ولا عنك ، وقد بلغني ما أمرت به في أمري من الغلظة ، وما عاملتني بضدّ ذلك ، وقد طبتُ نفساً بأن أشتري عدل أمير المؤمنين في أمري ، ورضاه عنّي ، بجميع مالي .

فلم أزل أنزله ، حتّى وافقته على عشرة آلاف ألف درهم ، وقلت له : هذا شطر مالك ، وهو صالح للفريقين ، وأخذت خطّه بالتزام ذلك صلحاً عن جميع ما جرى على يده .

وصرت إلى المأمون فوجدت محمّد بن يزداد وقد سبقني إليه وهو يكلّمه ، فلمّا رآني قطع الكلام وخرج .

فقال لي المأمون : يا فضل .

قلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : ما هذه الجرأة منك علينا ؟.

قلت : يا أمير المؤمنين ، أنا عبد طاعتك وغرسك[٦] .

فقال : أمرتك بالتضييق على النبطيّ عمرو بن بهنوى ، فقابلتَ أمري بالضدّ ، ووسّعت عليه ، وأقمت له الأنزال .

فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إنّ عمراً يطالب بأموال عظيمة ، ولم آمن أن أجعل محبسه في بعض الدواوين فيبذل مالاً يُرْغَبُ في مثله ، فيتخلّص ، فجعلت محبسه في داري ، وأشرفت على طعامه وشرابه ، لأحرس لك نفسه ،

---

٦ في م : غرس يدك .

فإنّ كثيراً من النّاس خانوا السلطان ، وتمتّعوا بالأموال ، ثمّ طولبوا بها ، فاحتيل عليهم ، أن يتلفوا ، ويفوز بالأموال غيرهم .

قال الفضل : وإنّما أردت بذلك تسكين غضب المأمون عليّ ، ولم أعرض الرقعة عليه ، ولا أعلمته ما جرى بيني وبين عمرو ، لأنّني لم آمن سورته[7] في ذلك الوقت ، لاشتداد غضبه .

فقال لي : سلّم عمراً إلى محمّد بن يزداد ، [٩١ ظ] قال : فوجّهت من ساعتي ، من سلّم عمراً إلى محمّد بن يزداد ، فلم يزل يعذّبه بأنواع العذاب ، ليبذل له شيئاً ، فلم يفعل .

فلمّا رأى أصحابه وعمّاله ، ما قد ناله ، جمعوا له بينهم ثلاثة آلاف ألف درهم ، وسألوا عمراً أن يبذلها لمحمّد بن يزداد ، فبذلها ، فصار محمّد إلى المأمون متبجّحاً[8] بها ، فأوصل الخطّ بها إلى المأمون ، وأنا واقف .

فقال المأمون : يا فضل ، ألم أعلمك ، أنّ غيرك أقوم بأمورنا منك ، وأطوع لما نأمره به ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أرجو أن أكون في حال استبطاء أمير المؤمنين أعزّه الله ، أبلغ في طاعته من غيري .

فقال المأمون : هذه رقعة [٩٣ م] عمرو بن بهنوى بثلاثة آلاف ألف درهم .

فقلت ، وما اجترأت عليه قطّ ، جرأتي عليه في ذلك اليوم ، فإنّي خرجت إلى إضبارة كانت مع غلامي ، فأخذت الرقعة منها مسرعاً ، وقلتُ : والله ، لأعلمنّ أمير المؤمنين ، أنّي مع رفقي ، أبلغ في حياطة أمواله من غيري مع غلظته ، وأريته رقعة عمرو الّتي كان كتبها لي ، وحدّثته بحديثه عن آخره .

---

٧ السورة : الحدّة .

٨ تبجّح وتباجح : افتخر وتباهى .

فلمّا تبيّن المأمون الخطّين ، وعلم أنّهما جميعاً خطّ عمرو ، قال : ما أدري أيّكما أكرم ، عمرو حين شكر برّك ، وطاب نفساً بالخروج عن ملكه بهذا السبب ، أم أنت ، ومحافظتك على أهل النّعم ، وسترك عليه في ذلك الوقت ، [١٢٤ غ] ، والله ، لا كنتما يا نبطيّان ، أكرم منّي [٧١ ر] .

ودفع الرّقعة الّتي أخذها محمّد بن يزداد من عمرو إليّ ، وأمرني بتخريقها ، وتخريق الأوْلة[٩] ، وأنفذ من سلّم عَمْراً من محبسه إليّ ، وأمرني بإطلاقه .

فخرجت من بين يديه ، وفعلت ذلك من وقتي .

---

٩ الأوْلة : تعبير بغدادي ، بمعنى الأولى ، راجع حاشية القصّة ٤ من هذا الكتاب .

١٧٩

أبو عمر القاضي يشيب في ليلة واحدة

حدّث أبو الحسين عبد الله بن أحمد بن الحارث بن عيّاش الحرزي البغدادي[١] ، وكان خليفة أبي رحمه الله على القضاء بسوق الأهواز ، المشهور الّذي كان صاهر أبا عمر القاضي[٢] ، قال : حدّثني القاضي أبو عمر رحمه الله ، قال :

لما جرى في أمر ابن المعتز ما جرى ، حبست وما في لحيتي طاقة بيضاء ،

---

١ أبو الحسين عبد الله بن أحمد بن الحارث بن عيّاش الحرزي البغدادي : ذكره القاضي التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة ، فقال : الجوهري ، بدل الحرزي ، والمعنى واحد ، وكان خليفة القاضي أبي القاسم التنوخيّ على سوق الأهواز ، ثم صاهر أبا عمر القاضي ، ونقل عنه التنوخيّ قصصاً متنوعّة ، عن أشخاص متباينين مختلفين ، من وزراء ، وولاة ، وكتّاب ، وقضاة ، وتجار ، وصوفيّة ، وندماء ، ومنجمّين ، وزرّاقين ، ومغنّين ، حتى المخنّثين ، راجع القصص ١ / ٦ و٧ و١٥ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٣١ و٣٢ و٦٣ و٨٣ و١٢٣ و١٢٦ و١٢٧ و١٣٣ و١٨٩ و٢ / ٣٤ و٤٩ و٦١ و٦٣ و٦٦ و٩٤ و٩٥ و٩٦ و١١٧ و١١٨ و١١٩ و١٢٤ و١٦٥ و١٦٦ و١٦٧ و١٦٨ و١٦٩ و١٧٠ و٤ / ٨٣ و١٠١ من كتاب نشوار المحاضرة .

٢ أبو عمر محمّد بن يوسف الأزدي القاضي (٢٤٣ — ٣٢٠) : ترجم له التنوخيّ في كتاب نشوار المحاضرة ، وأثنى عليه ثناءاً بالغاً ، راجع القصّة ٥ / ١٠١ في كتاب النشوار ، وممّا قال فيه : إذا بالغنا في وصفه كنّا إلى التقصير فيما نذكره أقرب ، وكان مضرب المثل في العقل ، والحلم ، إضافة إلى ما انضاف إلى ذلك من الجلالة والرياسة ، ولّي قضاء مدينة المنصور والأعمال المتّصلة بها في السنة ٢٨٤ وجلس في جامع المدينة ، ثم استخلفه أبوه على القضاء بالجانب الشرقي ، ثم صرف هو وأبوه عن القضاء لاشتراكه في السنة ٢٩٦ في مبايعة ابن المعتزّ وخلع المقتدر ، وكاد أن يقتل لولا أن تداركه الوزير ابن الفرات ، راجع أخبار أبي عمر في كتاب نشوار المحاضرة في القصص ١ / ١٠ و١٨ و٢٢ و٣٣ و٨٢ و١٢٥ و١٢٦ و١٢٧ و١٣٨ و١٣٩ و٢ / ٢٢ و٢٣ و٣٦ و٣٧ و٣٨ و٢١٠ و٣ / ٤٠ و٦٤ و٤ / ٨٦ و٥ / ١٠١ و١٠٢ ، وأنا آخذ عليه أنّه كتب بإحلال دم الحلاّج ، مع أنّ محضر محاكمته المثبت في القصّة ٧ / ٥١ من كتاب نشوار المحاضرة ، لم يظهر منه أنّه ارتكب ذنباً يستوجب العقوبة ، فضلاً عن القتـل .

وحبس معي أبو المثنى القاضي[3]، ومحمّد بن داود الجرّاح[4] في دار واحدة ، في ثلاثة أبيات متلاصقة ، وكان بيتي في الوسط .

وكنّا آيسين من الحياة ، فكنت ، إذا جنّنا الليل ، حدّثت أبا المثنّى تارة ، ومحمّد بن داود تارة ، وحدّثاني من وراء الأبواب ، ويوصي كلّ منّا إلى صاحبه ، ونحن نتوقّع القتل ساعة بساعة .

فلمّا كان ذات ليلة ، وقد غلّقت الأبواب ، ونام الموكّلون بنا ، ونحن نتحدّث في بيوتنا ، إذ حَسَسْنا بصوت الأقفال تفتح ، فارتعنا ، ورجع كلّ واحد منّا إلى صدر بيته .

فما شعرنا إلّا وقد فتح الباب عن محمّد بن داود ، فأخرج ، وأضجع ليذبح ، فقال : يا قوم ، ذبحاً كما تذبح الشّاة ، أين المصادرات ، أين أنتم عن أموالي أفتدي بها نفسي ؟ عليّ كذا وكذا .

قال : فما التفتوا إلى كلامه ، وذبحوه ، وأنا أراه من شقّ الباب ، وقد أضاء الصّحن ، وصار كأنّه نهار من كثرة الشموع ، واحتزّوا رأسه ، وأخرجوه معهم ، وجرّوا جثّته ، فطرحَتْ في بئر الدّار ، وغلّقت الأبواب ، وانصرفوا .

---

٣ أبو المثنى أحمد بن يعقوب القاضي : اشترك في السنة ٢٩٦ في خلع المقتدر ، وبايع ابن المعتز بالخلافة ، ولما فشلت المؤامرة ، اعتقل ، وأرادوه أن يقرّ على نفسه بأنّه أخطأ ، فأبى ، وأدّى إصراره إلى قتله رحمه الله ، قال عنه صاحب شذرات الذهب ٢/٢٢٤ إنّه أحد من قام في خلع المقتدر تديّناً ، وذبح صبراً ، وهو أوّل قاضٍ قتل صبراً في الإسلام (لطائف المعارف ٢٣) .

٤ أبو عبد الله محمّد بن داود بن الجرّاح الكاتب : عمّ الوزير علي بن عيسى بن الجرّاح ، قال عنه صاحب شذرات الذهب ٢ / ٢٢٥ : كان أوحد أهل زمانه في معرفة أيّام الناس ، وكان صديقاً لابن المعتزّ ، وتزعّم المؤامرة التي قامت لاستخلافه وخلع المقتدر ، واستوزره ابن المعتزّ ، فلما فشلت المؤامرة ، اعتقل وقتل ، راجع الأعلام ٦ / ٣٥٥ ، وتجارب الأمم ١ / ٥ و٦ و٩ و١٠ وكتاب الوزراء للصابي ٢٩ – ٣١ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ – ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

قال : فأيقنت بالقتل ، وأقبلت على الصّلاة ، والدّعاء ، والبكاء .

فما مضت إلاّ ساعات يسيرة ، حتّى سمعت أصوات الأقفال تفتح ، فعاودني الجزع ، وإذا هم قد جاؤوا إلى بيت أبي المثنّى القاضي [٩٤ م] ، ففتحوه ، وأخرجوه ، وقالوا له : يقول لك أمير المؤمنين ، يا عدوّ الله ، يا فاسق ، بم استحللت نكث بيعتي ، وخلع طاعتي ؟

فقال : لأنّي علمت ، أنّه لا يصلح للإمامة .

فقالوا له : إنّ أمير المؤمنين ، قد أمرنا باستتابتك من هذا الكفر ، فإن تُبْتَ رددناك إلى محبسك ، وإلّا قتلناك .

فقال : أعوذ بالله من الكفر ، ما أتيتُ ما يوجب الكفر .

قال : وأخذ يتهوّس معهم بهذا الكلام وشبهه ، ولا يرجع عنه .

فلمّا أيسوا منه ، مضى [٩٢ ظ] بعضهم وعاد ، فظننت أنّه يستثبت في الاستئذان ، قال : ثمّ أضجعوه ، فذبحوه ، وأنا أراه ، وحملوا رأسه ، وطرحوا جثّته في البئر .

قال : فذهب عليّ أمري ، وأقبلت على البكاء ، والدّعاء ، والتضرّع إلى الله جلّ وعزّ .

فلمّا كان وجه السَّحر[٥] ، وقد سمعت صوت الدبادب[٦] ، وإذا صوت

---

٥ السَّحَر : آخر الليل ، قبيل الصبح (المنجد) ، وهو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر (لسان العرب) ، وفي فقه اللّغة ٣٢٦ : السَّحَر ، ثم الفجر ، ثم الصبح ، ثم الصباح ، ثم يأتي النهار ، وأوّله الشروق ، ثم البكور ، أقول : قال متمّم بن نويره ، يرثي أخاه مالكاً :

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ ... فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسراً ، يندبنه ... بالصبح ، قبل تبلّج الأسحار

فهو في البيت الأوّل ، ذكر النهار ، وجعله في البيت الثاني ، يشمل الصبح والسحر ، كما جعل الصبح قبل السحر ، مما لا يتّفق والتسلسل المدوّن في المعاجم ، وفي فقه اللّغة ، وتعليل ذلك ، ما ورد في

الأقفال ، فقلت : لم يبق غيري ، وأنا مقتول ، فاستسلمت ، وفتحوا الأبواب عنّي ، وأقاموني إلى الصّحن ، وقالوا : يقول لك أمير المؤمنين ، يا فاعل ، يا صانع ، ما حملك على نكث بيعتي ؟ .

فقلت : الخطأ ، وشقوة الجدّ ، وأنا تائب إلى الله عزّ وجلّ من هذا الذنب .

قال : وأقبلت أتكلّم بهذا وشبهه ، فمضى بعضهم ، وعاد فقال : أجب ، ثمّ أسرّ إليّ ، فقال : لا بأس عليك ، فقد تكلّم فيك الوزير – يعنون ابن الفرات – وأنت مسلّم إليه ، فسكنت قليلاً ، [وجاؤوني بخفّي ، وطيلساني ، وعمامتي ، فلبست ذلك][7] ، وأخرجت ، فجيء بي إلى الدّار الّتي كانت برسم ابن الفرات [١٢٥ غ] في دار الخليفة[8] ، فلمّا رآني ، أقبل [٧٢ ر] يخاطبني بعظم جنايتي وخطأي ، وأنا أقرّ بذلك ، وأستقيل ، وأتنصّل .

لسان العرب ، في مادة : صبح ، بأنّ العرب ، إذا قربت من المكان الذي تريده ، تقول : قد بلغناه ، وإذا قرّبت للساري ، طلوع الصبح ، وإن كان غير طالع ، تقول : أصبحنا ، ويقال : أصبح القوم ، أي دنا وقت دخولهم في الصباح ، وها هنا فائدة أخرى ، وهي قوله : تجد النساء حواسراً يندبنه ، أي أنّهنّ يندبنه وقد كشفن عن رؤوسهنّ ، وهذا لا يكون إلاّ عند الفجيعة بعزيز ، وما زال هذا التقليد سارياً عند البغداديّات ولكنّه آخذ في الانحسار ، فإنّ المرأة البغداديّة ، إذا فجعت بعزيز ، ناحت عليه قائمة ، ولطمت ، وهي مكشوفة الرأس ، وإذا كانت فاجعتها به عظيمة ، ناحت عليه قائمة ، وقد كشفت عن رأسها وثدييها ، وهذا عندهنّ نهاية في إظهار الحزن ، وكان من تقاليد النساء العربيّات ، أنّ المرأة إذا ندبت زوجها ، وهي قائمة ، فإنّها لا تتزوج بعده أبداً (نهاية الأرب ٤ / ٢٧٨) .

٦ الدبادب : طبول صغار ، كانت تضرب على أبواب الخلفاء والولاة في أوقات الصلاة ، وسميت بالدبادب ، لأنّها حكاية صوتها عند الضرب : دب ، دب (لسان العرب) ، والدبداب : الطبل ، والدرداب : صوت الطبل ، والدبدبة : كل صوت أشبه صوت وقع الحافر على الأرض الصلبة (لسان العرب) .

٧ الزيادة من غ وم .

٨ للوزارة في أيّام المقتدر ، داران ، الدار الأولى ، هي دار الوزارة ، بالمخرّم (العلوازية) ، بالجانب الشرقي من بغداد ، بين باب الطاق (الصرافية) والزاهر (القلعة) وكانت لسليمان بن وهب ، فأخذها

ثمّ قال لي : قد وهب لي أمير المؤمنين ذنبك ، وابتعت منه جرمك بمائة ألف دينار ، ألزمتك إيّاها .

فقلت : أيّها الوزير ، ما رأيت بعضها قطّ مجتمعاً .

فغمزني بأن أسكت ، وجذبني قوم من وجوه الكتّاب ، كانوا ورائي ، فسكّتوني ، فعلمت أنّ الوزير ابن الفرات ، أراد تخليصي ، وحقن دمي .

فقلت : عليّ كلّ ما يأمر الوزير أعزّه الله .

فقال : احملوه إلى داري .

قال : فأخذت ، وحملت إلى داره ، فقرّر أمري على مائة ألف دينار ، على أن أؤدّي منها النصف عاجلاً ، ويصير النّصف في حكم الباطل على رسم المصادرات .

فلمّا صرت في دار ابن الفرات ، وسّع عليّ في المطعم ، والمشرب ، والملبس ، وأدخلت الحمّام ، ورفّهتُ ، وأكرمتُ .

فرأيت ، لما خرجت من الحمّام ، وجهي في المرآة ، فإذا طاقات شعر قد ابيضّت في مقدّم لحيتي ، فإذا أنا قد شبت في تلك الليلة الواحدة .

الوزير ابن الفرات ، في زمن وزارته للمقتدر ، وعمّرها ، وأنفق عليها ثلثمائة ألف دينار ، واتّخذها داراً للوزارة ، وبقيت كذلك من بعده ، حتى باعها القاهر ، ثمّ صارت أيّام البويهيّين داراً للمملكة ، واقتطع القائد سبكتكين ، حاجب معز الدولة ، جزءاً منها ، واقتطع القائد الديلميّ لشكرورز ، جزءاً آخر منها ، ثم إنّ عضد الدولة هدم ما فيها من أبنية ، وعمّر فيها داراً ، وأنشأ بستاناً أجرى إليه الماء من نهر الخالص ، وكان مجموع ما أنفقه على الدار والبستان عشرة آلاف ألف درهم (الوزراء ٦٣ ، ١٩٩ ، ٣٣٥ ، ٣٦٨ والقصّة ٤ / ١٢٩ من النشوار) وكانت مساحة دار الوزارة مائة ألف وثلاثة وسبعون ألف وثلثمائة وستة وأربعون ذراعاً (الوزراء ٢٩) ، وكان للوزير دار ثانية ، في دار الخلافة ، يقيم فيها ، عندما يحضر إلى دار الخلافة ، ليكون قريباً من الخليفة يتلقّى أوامره ، وهذه الدار الثانية هي التي استقبل فيها الوزير ابن الفرات ، رسول ملك الروم في السنة ٣٠٥ ، راجع المنتظم ج ٦ ص ١٤٤ سطر ١ و٢ .

قال : وأدّيت من المال نيّفاً وثلاثين ألف دينار[9] ، ثمّ نظر لي ابن الفرات بالباقي وصرفني إلى منزلي ، وتخلّص دمي .

وأقمت في بيتي سنين[10] ، وبابي مسدود ، لا أرى أحداً ، إلّا في الشاذّ ، وتوفّرت على دراسة الفقه ، والنّظر في العلم ، إلى أن منّ الله بالفرج ، فكشف ما بي ، وأخرجت من بيتي إلى ولاية الأعمال . [٩٥ م]

---

٩ في غ : ثلاثة وثلاثين ألف دينار ، وفي تجارب الأمم ١ / ١٤ : إنّه أدّى من المال تسعين ألف دينار .

١٠ أقام أبو عمر في داره إلى السنة ٣٠١ ، فإنّ الوزير علي بن عيسى تقلّد في تلك السنة وزارة المقتدر . وكلّم المقتدر بشأنه ، فرضي عنه ، وقلّده القضاء ، راجع القصّة ١٠١/٥ من كتاب نشوار المحاضرة .

١٨٠

قضى ليلته معلّقاً في بادهنج

ويشبه هذا الحديث ، ويقاربه ، وإن لم يكن في الحقيقة من باب من خرج من حبس ، إلّا أنّه من أخبار الفرج في الجملة ، ما حدّثني به أبو عليّ الحسن بن محمّد بن عليّ بن موسى الأنباري الكاتب[١] ، صهر أبي محمّد المهلّبي الوزير ، قال : سمعت دلويه[٢] ، كاتب صافي الحرمي[٣] ، يتحدّث ، قال :

كان في دار المقتدر بالله ، عريف على بعض الفرّاشين ، يخدمني وصافياً إذا أقمنا في دار الخليفة ، ففقدته في الدّار ، وظننته عليلاً ، فلمّا كان بعد شهور ، رأيته في بعض الطرق ، بزيّ التجّار ، وقد شاب .

فقلت : فلان ؟

قال : نعم ، عبدك يا سيّدي .

فقلت : ما هذا الشّيب في هذه الشهور اليسيرة ، وما هذا الزيّ ؟ وأين كنت ؟ فلجلج .

فقلت لغلماني : احملوه إلى داري ، وقلت : حدّثني حديثك .

---

١ أبو علي الحسن بن محمّد الأنباري الكاتب : كان يكتب لأبي يوسف البريدي ، ثم التحق بخدمة معزّ الدولة ، وتحقّق بالوزير أبي محمّد المهلّبي ، وتزوّج ابنته ، واستخلفه المهلّبي بالحضرة لما بارحها إلى البصرة ، راجع تجارب الأمم ٢ / ١٢٤ والقصّة ١ / ٢٩ و٢ / ١٩٢ من كتاب نشوار المحاضرة .

٢ أبو محمّد عبد الله بن علي بن دلويه : كان يكتب لصافي الحرميّ الخادم ، (القصّة ١ / ١٥٥ من كتاب نشوار المحاضرة) ، ثم كتب لنصر القشوري الحاجب (وزراء ٣٤١ والقصّة ٤ / ١٠ من كتاب نشوار المحاضرة) ، ثم كتب لسلامة المؤتمن حاجب القاهر (القصّة ٣ / ١٠٧ من كتاب نشوار المحاضرة) .

٣ صافي الحرميّ الخادم : مولى المعتضد ، كان في أيّام المعتضد صاحب الدولة كلّها ، وإليه أمر دار الخليفة ، واستمر على وجاهته في أيّام المقتدر (وزراء ٣٢٥) ، للاستدلال على مقدار علاقته بالخليفة راجع القصّة ١ / ١٥٥ من كتاب نشوار المحاضرة ، توفي صافي سنة ٢٩٨ (المنتظم ٦ / ١٠٨) .

فقال : على أنّ لي الأمان والكتمان .

فقلت : نعم .

فقال : كان الرّسم الّذي تعرفه على كلّ عريف في الدّار من الفرّاشين ، أن يدخل يوماً من الأيّام ، هو ومن معه في عرافته ، إلى دور الحرم ، لرشّ الخيوش الّتي فيها .

فبلغت النّوبة إليّ ، في يوم كنت فيه مخموراً ، فدخلتُ ، ومعي رجالي ، إلى دار فلانة – وذكر حظيّة جليلة من حظايا المقتدر بالله – لرشّ الخيش .

فلعظم ما كنت فيه من الخُمار ، ما رششت قربتي ، ولم أخرج بخروج الرّجال ، وقلت لهم : امضوا ، فهاتوا قربكم لإتمام الرشّ ، فإذا رششتموها فأنبهوني ، فإنّي نائم هنا .

ودخلت خلف الخيش ، إلى باب بادهنج [4] تخرج منه ريح طيّبة ، فنمت ،

---

٤ البادهنج : جاء في شفاء الغليل ٤١ انه معرب بادخون أو بادگير ، فارسيّة ، تعني المنفذ الذي يجيء منه الريح ، قال أبو الحسن الأنصاري :

ونفحة بادهنج أسكرتنا وجدت لرَوْحها برد النعيم
صفا جري الهوا فيه رقيقاً فسميناه راووق النسيم

أقول : ويستعمل البادهنج أو البادگير في أيّام الصيف ، حيث يلتجئ البغداديّون للتخلّص من الحر إلى غرف تتّخذ تحت مستوى أرض الدار ، في موضع ينفذ إليه الضوء ، ولا تصل إليه الشمس ، تسمى السراديب ، مفردها سرداب ، فارسيّة ، بمعنى الماء البارد (شفاء الغليل ١٠٥) ويجهّز السرداب بالبادهنج أو البادگير ، وهو منفذ في الحائط يمتدّ من أعلاه إلى أسفله ، عرضه متر ، وعمقه بحيث ينفذ فيه بدن الإنسان ، في راحة ويسر ، ويبنى له في أعلاه فم واسع يستقبل الهواء ويجرّه إلى أسفل فينفذ إلى السرداب بارداً عذباً ، وربما ساقوا الهواء إلى بئر في السرداب ، فيمرّ بها ، ثم يساق إلى أقنية تتخلّل ساحة السرداب فينفذ من منافذ فيها ، ويسمّيه البغداديون « زنبور » ، راجع في مطالع البدور ١ / ٤٥ – ٤٩ ما قاله الشعراء في البادهنج .

وغلب عليّ النّوم ، إلى أن جاء الفرّاشون ، وفرغوا من رشّ الخيش ، وخرجوا ، ولم ينبّهوني [٩٣ ظ] .

وتمادى بي النّوم ، فما انتبهت إلّا بحركة في الخيش ، فقمت ، فإذا أنا قد امسيت ، وإذا صوت نساء في الخيش ، فعلمت أنّي مقتول إن أحسّ بي ، وتحيّرت فلم أدر ما أعمل ، فدخلت البادهنج ، [وكان ضيّقاً ، فجعلت رجليّ على حائطي البادهنج][5] وتسلّقت فيه ، ووقفت معلّقاً ، أترقّب أن يفطن لي ، فأقتل .

وإذا بنسوة فرّاشات يكنسن الخيش ، فلمّا فرغن من ذلك فرشنه[6] ، وعبيّ فيه مجلس الشّراب .

ولم يكن بأسرع من أن جاء المقتدر بالله ، وعدّة جواري ، فجلس وجلسن [٧٣ ر] ، وأخذ الجواري في الغناء ، وأنا أسمع ذلك كلّه ، وروحي تكاد تخرج ، فإذا أعييت ، نزلت فجلست في أرض البادهنج ، فإذا استرحتُ ، وخفت أن يفطن بي ، عدت فتسلّقت ، إلى أن مضت قطعة من [١٢٦ غ] اللّيل ، ثمّ عنّ للمقتدر أن جذب إليه حظيّته الّتي هي صاحبة تلك الدّار ، فانصرف باقي الجواري ، وخلا الموضع ، فواقع المقتدر بالله الجارية ، وأنا أسمع حركتهما وكلامهما ، ثمّ ناما في مكانهما ، ولا سبيل لي إلى النّوم لحظة واحدة ، لما أقاسي من الخوف .

ففكّرت في أن أخرج وأصعد إلى بعض السطوح ، ثمّ علمت أنّي إن فعلت ذلك ، تعجّلت القتل ، ولم يجز أن أنجو .

فلم تزل حالي تلك إلى أن انتبه المقتدر بالله في السّحر ، وخرج من الموضع .

---

٥ لا توجد في ظ ، ولا في غ .

٦ في غ : رشّنه .

فلمّا كان من غدٍ نصف النّهار ، جاء عريف آخر من الفرّاشين ، ومعه رجاله ، فرشّوا الخيش ، فخرجت فاختلطت بهم .

فقالوا : أيش تعمل هاهنا ؟

فأومأت إليهم بالسّكوت ، وقلت : اللهَ ، اللهَ ، في دمي ، فإنّ حديثي طويل ، فتذمّموا أن يفضحوني .

وقال بعضهم : ما بال لحيتك قد شابت ؟

فقلت : لا أعلم ، وأخذت ماء من [٩٦ م] قربة بعضهم ، فرطّبت به قربتي ، وخرجت بخروجهم .

فلمّا صرت في موضع من دار الخليفة ، وقعت مغشياً عليّ ، وركبتني حمّى عظيمة وذهب عقلي ، [فحملني الفرّاشون إلى منزلي ، وأنا لا أعقل][7] ، فأقمت مبرسماً مدّة طويلة[8] .

وقد كنت عاهدت الله تعالى ، وأنا في البادهنج ، إن هو خلّصني ، أن لا أخدم أحداً أبداً ، ولا أشرب النّبيذ ، وأقلعت عن أشياء تبت منها .

فلمّا تفضّل الله تعالى بالعافية ، وفيت بالنّذر ، وبعت أشياء كانت لي ، وضممتها إلى دراهم كانت عندي ، ولزمت دكّاناً لحميّ أتعلّم فيه التّجارة معه ، وأتّجر ، وتركت الدّار ، فما عدت إليها إلى الآن ، ولا أعود أبداً إلى خدمة الناس ، ولا أنقض ما تبت منه .

قال : ورأيت لحيته وقد كثر فيها الشّيب .

---

٧ الزيادة من غ وم .

٨ الاسم الصحيح للمرض : السرسام ، قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا ، في كتابه القانون ٢ / ٤٤ : ومن الناس ، ممن لا يعرف اللغات ، يحسب أنّ البرسام إسم لهذا الورم ، وأنّ السرسام أخفّ منه ، وليس ذلك بشيء ، فإنّ البرسام يعني ورم الصدر ، والسرسام يعني ورم الرأس ، ووصف الشيخ الرئيس أعراض السرسام ، بأنّها حمّى لازمة يابسة ، وهذيان ، وكراهة للكلام ، واختلاط العقل ، وعبث الأطراف ، ونفس مضطرب غير منتظم ، راجع التفصيل في كتاب القانون ج٢ ص ٤٤ – ٥٤ .

١٨١

ابن الفرات يصفح عمّن أساء إليه

حدّثني أبو الحسين عليّ بن هشام[١] ، قال :

كان أبو الحسن بن الفرات ، لما ولي الوزارة الأولى[٢] ، وجد سليمان بن الحسن[٣] يتقلّد مجلس المقابلة في ديوان الخاصّة[٤] ، من قبل علي بن عيسى ، والديوان كلّه - إذ ذاك - إلى عليّ بن عيسى ، فقلّد أبو الحسن بن الفرات ، سليمانَ ، الدّيوان بأسره فأقام يتقلّده نحو سنتين .

فقام ليلة في دار ابن الفرات يصلّي المغرب ، فسقطت من كمّه رقعة ، فرآها بعض من حضر[٥] ، فأخذها ، ولم يفطن لها سليمان ، وقرأها ، فوجدها سعاية ، بخطّه ، بابن الفرات وأسبابه ، إلى المقتدر بالله ، وسعياً لابن عبد الحميد ، كاتب السيّدة[٦] ، في الوزارة ، فتقرّب بها إلى ابن الفرات ، فقبض على سليمان في الوقت ، وأنفذه في زورق مطبق إلى واسط ، فحبسه بها ، وصادره ، وعذّبه ، فكان في العذاب دهراً ، وأيس منه ،

فبلغ ابن الفرات ، أنّ أمّ سليمان بن الحسن قد ماتت ببغداد ، وأنّها كانت

---

١ أبو الحسين علي بن هشام بن عبد الله الكاتب ، المعروف بابن أبي قيراط .

٢ ولي أبو الحسن عليّ بن محمّد بن الفرات ، وزارته الأولى للمقتدر في السنة ٢٩٦ .

٣ أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد بن الجرّاح .

٤ في ظ : ديوان الخلافة ، والتصحيح من م وغ .

٥ في تجارب الأمم ١ / ٥٥ إنّه الصقر بن محمّد الكاتب ، وقد كان يصلّي إلى جنبه ، فأخذها وأقبل بها مبادراً إلى الوزير من وقته ، وكذلك ورد في كتاب الوزراء ٣٣ .

٦ أبو الحسن أحمد بن محمّد بن عبد الحميد : كاتب السيّدة أمّ المقتدر ، قال عنه التنوخيّ في كتاب نشوار المحاضرة ، القصّة ١ / ١٢٨ ، إنّه كان شيخاً صالحاً من شيوخ الكتّاب ، وكان يكتب للسيّدة أمّ المقتدر ، وكان أثيراً عندها ، مقبول الكلمة ، ذا رأي في سياسة الدّولة ، يستشيره الوزراء (وزراء ١١١ ، ١١٢) ، راجع تجارب الأمم ١ / ١٥ .

تتمنّى رؤيته قبل موتها ، فاغتمّ لذلك ، وتذكّر المودّة بينه وبين أبيه الحسن ابن مَخْلَد ، فبدأ ، وكتب إليه بخطّه كتاباً أقرأنيه سليمان بن الحسن بعد سنين كثيرة من تلك الحال ، فحفظته ، ونسخته :

بسم الله الرّحمن الرّحيم ، ميّزت – أكرمك الله – بين حقّك وجرمك ، فوجدت الحقّ يوفي على الجرم ، وتذكّرت من سالف [٩٤ ظ] حرمتك ، في المنازل الّتي فيها ربيت ، وبين أهلها غذيت ، ما ثناني إليك ، وعطفني عليك ، وأعادني لك إلى أفضل ما عهدت ، وأجمل ما ألفت ، فثق – أكرمك الله – بذلك ، وأسكن إليه ، وعوّل في صلاح ما اختلّ من أمرك عليه ، وأعلم أنّي أراعي فيك ، حقوق أبيك ، الّتي تقوم بتوكيد السبب ، مقام اللّحمة والنّسب ، وتسهّل ما عظم من جنايتك ، وتقلّل ما كثر من إساءتك ، ولن أدع مراعاتها [١٢٧ غ] ، والمحافظة عليها بمشيئة الله تعالى ، وقد قلّدتك أعمال دستميسان لسنة ثمان وتسعين ومائتين ، وبقايا ما قبلها ، وكتبت إلى أحمد بن محمّد بن حبش[٧] ، بحمل عشرة آلاف درهم إليك ، فتقلّد هذه الأعمال ، وأثّر فيها أثراً جميلاً يبين عن كفايتك ويؤدّي إلى ما أبغيه من زيادتك ، إن شاء الله تعالى[٨] .

---

٧ في ظ : أحمد بن محمّد بن حسن ، وفي م : أحمد بن محمّد بن حسين ، وفي مخطوطة المتحف البريطاني للجزء الثامن من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي : أحمد بن محمّد ابن حس ، بلا نقط ، وفي كتاب الوزراء للصابي ص ١١٨ أحمد بن محمّد بن حبش ، وفي نسخة هـ : أحمد بن محمّد بن جيش .

٨ وردت هذه القصّة في نشوار المحاضرة ٨٢/٨ ، ونقلها عن النشوار صاحب كتاب تجارب الأمم ١٥/١ وكتاب الوزراء ١١٧ و١١٨ ، والظاهر أنّ جميل الوزير أبي الحسن بن الفرات ، لم يلاق في سليمان ابن الحسن ، طبيعة طيّبة تحفظ الجميل ، فقد ظلّ على عداوته لـه ، حتى بعد وفاته ، فقد ذكر مفلح الأسود خادم المقتدر (كتاب الوزراء ٧٥ ورسوم دار الخلافة ٣٨) : أنّ سليمان بن الحسن لما وزّر للمقتدر ، كان يكثر من ذكر أبي الحسن بن الفرات ، والطعن عليه ، فلما كان في بعض الأيّام ، عاود سليمان ذكر ابن الفرات ، والوقيعة فيه ، فقال له المقتدر :

قال أبو الحسين : أحمد بن حبش هذا ، كان وكيل ابن الفرات في ضياعه بواسط [9] .

أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكم   من اللوم أو سدّوا المكان الذي سدّوا

فامتقع وجه سليمان وما عاد بعدها إلى ذكره .

9 أحسب أنّ أحمد بن محمّد بن حبش ، هذا ، هو أخو أبي الحسن علي بن محمّد بن عبد الله الكاتب البغداديّ ، المعروف بابن حبش ، أبوه محمّد بن حبش ، ابن خالة الوزير أبي الحسن بن الفرات (اللباب ١ / ٢٧٥ والأنساب للسمعاني ١٥٥) .

١٨٢

أراد أن يسير بسيرة الحجّاج فقتلوه

وجدت في بعض الكتب :

أنّ عمر بن عبد العزيز[١] ، ولّى محمّد بن يزيد ، مولى الأنصار[٢] [٩٧ م] ، إفريقية[٣] ، فكان حسن السّيرة فيها ، فلمّا مات عمر بن عبد العزيز ، وولي يزيد بن عبد الملك الأمر ، صرفه ، وولّى يزيد ابن أبي مسلم كاتب الحجّاج ابن يوسف .

فلمّا ورد يزيد إفريقية ، حبس محمّد بن يزيد ، وتسلّط عليه[٤] ، وطالبه بأموال لم تكن عنده .

---

١ أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأمويّ ، الخليفة الصالح ، والملك العادل : ترجمته في حاشية القصّة ١٠٥ من هذا الكتاب .

٢ محمّد بن يزيد ، مولى الأنصار : كان يكتب لعبد الملك بن مروان في السنة ٨٥ ، وكان غالباً على أمره ، وكان أشار عليه بأن يعهد لسليمان بعد الوليد ، فحقدها عليه الوليد ، وتركه عاطلاً لما ولّي ، حتى إذا حكم سليمان ولّاه إفريقية ، وأقره الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، ولما ولّي الحكم يزيد بن عبد الملك ، عمد إلى جميع إصلاحات عمر فأبطلها ، وكان من جملة ذلك أن عزل محمّد بن يزيد عن إفريقية ، وولّى عليها يزيد بن أبي مسلم ، كاتب الحجّاج الثقفي ، فأراد يزيد أن يسير في أهل إفريقية بسيرة الحجّاج في العراق ، فقتله أهلها ، وأعادوا محمّد بن يزيد ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك إنّنا لم نخلع يداً من طاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله ، ولا المسلمون ، فأقرّ يزيد تولية محمّد ، مضطرّاً ، ولكنّه عزله بعد مدّة قصيرة (الأعلام ٨ / ١٤ والطبري ٦ / ٤١٤ و٦١٧) .

٣ إفريقية : حدّها عند الجغرافيين العرب ، من طرابلس الغرب ، من جهة برقة شرقاً ، إلى طنجة غرباً ، وعرضها من البحر إلى الرمال التي في بلاد السودان ، راجع ما كتبه ياقوت عنها في معجم البلدان ١ / ٣٢٤ .

٤ في م : انبسط عليه .

ثمّ إنّ يزيد بن أبي مسلم أجمع أن يصنع بأهل إفريقيه ، مثل ما صنع الحجّاج بن يوسف بأهل العراق ، في ردّه من منّ الله عليه بالإسلام ، إلى بلده ورستاقه ، وأخذهم بالخراج[5] ، فبلغ ذلك أهل إفريقية ، فتراسلوا في قتله ، وتساعوا فيه سرًّا حتّى تمّ لهم أمرهم ، فوثبوا عليه وهو يصلّي ، فقتلوه وقد سجد ، وجاؤوا إلى حبسه ، فأخرجوا محمّد بن يزيد ، فردّوه إلى الإمارة ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك : إنّا لم نخلع يداً من طاعة ، ولكنّ يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله عزّ وجلّ ، ولا المسلمون ، من كيت وكيت ، فقتلناه ، وولّينا محمّد بن يزيد ، ووصفوا جميل سيْرته .

فكتب إليهم يزيد : إنّي لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم ، وقد أمّرت محمّداً عليكم[6] .

وقد مضى هذا الخبر بروايات غير هذه الرواية ، وسياقة غير هذه السّياقة ، فيما تقدّم من هذا الكتاب[7] .

---

٥ راجع التفصيل عن سياسة الحجّاج المخرّبة في آخر القصّة .

٦ راجع الطبري ٦ / ٦١٧ .

٧ راجع القصّة ١٠٥ من هذا الكتاب .

سياسة الحجّاج المخرّبة

تشير الفقرة (٥) إلى لون من ألوان السياسة المخرّبة التي اتّبعها الحجّاج خلال مدّة حكمه ، تلك السياسة الّتي كانت من أهم الأسباب الّتي أدّت إلى سقوط دولة بني مروان (السيادة العربية ، فان فلوتن ٤٤) وخرّبت العراق تخريباً تاماً .

فقد فرض على أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ، ممن كان أصله من السواد ، من أهل الذمّة فأسلم ، بالعراق ، أن ردّهم إلى قراهم ورساتيقهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم على كفرهم (وفيات الأعيان ٦ / ٣١١) إذ انّ هؤلاء لمّا أسلموا ، كتب عمّال الحجّاج إليه ، بأنّ الخراج قد انكسر ، وأنّ أهل الذمّة قد أسلموا ، ولحقوا بالأمصار ، فأمر باخراج أهل القرى إلى قراهم ، وأن تؤخذ منهم الجزية ، على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفّار (ابن الأثير ٤ / ٤٦٤ و٥ / ١٠١) .

فاجتمع إلى ابن الأشعث ، أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، والقرّاء ، وأهل الثغور ، والمسالح ، وتضافروا على حرب الحجّاج (ابن الأثير ٤ / ٤٦٩) وكان من جملتهم كتيبة تضمّ حملة القرآن ، وتسمّى كتيبة القرّاء (ابن الأثير ٤ / ٤٧٢) .

ولمّا ثار أهل العراق على الحجّاج ، واحتشدوا لحربه ، استنجد بعبد الملك ، فأمدّه بجند من أهل الشام (بلاغات النساء ١٢٥) فأنزلهم في بيوت أهل الكوفة ، وهو أول من أنزل الجند في بيوت الناس (ابن الأثير ٤ / ٤٨٢) .

ولمّا قتل ابن الأشعث ، قال الحجّاج : الآن فرغت لأهل السواد ، فعمد إلى رؤسائهم ، وأهل بيوتاتهم من الدهاقين ، فقتلهم صبراً ، وجعل كلّما قتل من الدهاقين رجلاً ، أخذ أمواله ، وأضرّ بمن بقي منهم إضراراً شديداً ، فخربت الأرض (أدب الكتاب للصولي ٢ / ٢٢٠) .

وانبثقت في زمن الحجّاج ، بثوق ، أغرقت الأراضي ، فلم يعن الحجّاج بسدّها ، مضارّة للدهاقين ، لأنّه كان اتّهمهم بممالأة ابن الأشعث حين خرج عليه (فتوح البلدان ٢٩١) .

وكانت عاقبة هذه السياسة الخرقاء ، أنّ جباية سواد العراق ، وكانت على عهد الخليفة عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم ، نزلت في عهد الحجّاج إلى ثمانية عشر ألف ألف درهم فقط ، ثم ارتفعت في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم (أحسن التقاسيم للمقدسي ١٣٣) فقال

عمر بن عبد العزيز : لعن الله الحجّاج ، فإنّه ما كان يصلح للدنيا ، ولا للآخرة ، فإنّ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، جبى العراق ، بالعدل والنصفة ، مائة ألف ألف ، وثمانية وعشرين ألف ألف درهم ، وجباه الحجّاج مع عسفه وجبروته ثمانية عشر ألف ألف درهم فقط ، قال عمر : وها أنا قد رجع إليّ على خرابه ، فجبيته مائة ألف ألف درهم وأربعة وعشرين ألف ألف درهم ، بالعدل والنصفة (معجم البلدان ٣ / ١٧٨) .

وممّا يدلّ على عقلية الحجّاج الفاسدة ، انّه لما خرب السواد من جراء إفراطه في الظلم وفي سوء الجباية ، تخيّل أنّ الانقطاع عن الزراعة ، إنّما كان لقلّة الماشية التي تعين الفلاّحين على حرث الأرض ، فأصدر أمره بتحريم ذبح البقر ، فقال الشاعر : [الأغاني ١٦ / ٣٧٨]

شكونـا إليـه خراب السـواد .فحرّم فينـا لحـوم البقر
فكنّـا كمن قال من قبلنـا أريهـا السهـا وتريني القمـر

وقد سمّى الناس سليمان بن عبد الملك ، مفتاح الخير ، لأنّه أذهب عنهم سنّة الحجاج ، وأخلى السجون ، وأطلق الأسرى (وفيات الأعيان ٢ / ٤٢٠) ، ولما تولّى يزيد بن المهلّب العراق ، نظر في نفسه ، وقال : إنّ العراق قد أخربها الحجّاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى أخذت الناس بالخراج ، وعذّبتهم عليه ، صرت مثل الحجّاج ، أدخل على الناس الخراب ، وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عافاهم الله منها ، (وفيات الأعيان ٦ / ٢٩٦ و٢٩٧) ، ولما خرج يزيد بن المهلّب ، بالعراق ، بايعه الناس ، على كتاب الله ، وسنّة نبيه ، وأن لا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجّاج (وفيات الأعيان ٦ / ٣٠٤) .

وليس الحجّاج هو الملوم وحده على سياسته المخرّبة ، فإنّ عبد الملك بن مروان الذي سلّطه على العراق ، هو الملوم الأوّل على ذلك ، فالحجّاج سيئة من سيّئات عبد الملك (واسطة السلوك ٢٠٩) ، ويحقّ لعبد الملك أن يحذر من الله تعالى لأنّ من يكن الحجّاج بعض سيّئاته ، يعلم أي شيء يقدم عليه (ابن الأثير ٤ / ٥٢١) .

وقد كان عبد الملك مطّلعاً تمام الاطّلاع على سياسة الحجاج المخرّبة ، وقد كتب إليه مرّة يقول : إنّ رأيك الذي يسوّل لك أنّ الناس عبيد العصا ، هو الذي أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أحرجت العامّة بعنف السياسة ، كانوا أوشك وثوباً عليك عند الفرصة ، ثمّ لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ، ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، وقد ولّي العراق قبلك ساسة ، وهم يومئذ أحمى أنوفاً ، وأقرب من عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم (العقد الفريد ٥ / ٤٥) .

وظلّت سيرة الحجّاج في الظلم والعسف ، تدور مع التاريخ ، ويتذاكرها الناس خلفاً عن سلف ، حتى حيكت حولها الروايات ، ورتّبت بشأنها القصص ، فذكروا أنّ أعرابياً سأله الحجّاج : كيف سيرة أميركم الحجّاج ؟ فقال : غشوم ظلوم ، لا حيّاه الله ، ولا بيّاه ، فقال له : لو شكوتموه إلى أمير المؤمنين ، فقال الأعرابي : هو أظلم منه وأغشم ، عليه لعنة الله (الملح والنوادر للحصري ١٥) .

وذكروا أنّ رجلاً رأى في منامه الحجّاج بن يوسف ، فقال له : ما حالك ؟ فقال : ما أنت وذاك ، لا أمّ لك ، فقال : سفيه في الدنيا ، سفيه في الآخرة (المحاسن والمساوئ ٢ / ١٤) .

راجع ترجمة الحجّاج في حاشية القصّة ٦٧ من هذا الكتاب ، وبحثاً عن ساديّته في حاشية القصّة ١٤٩ من الكتاب ، وراجع بقية أخبار الحجّاج في الطبري ٦ / ٢٠٢ و٣٢٠ و٣٨٠ – ٣٨٨ و٤٨١ و٤٨٢ و٤٨٨ و٨ / ٦٩ وابن الأثير ١ / ٤٨١ و٤ / ٣٥٩ و٤٣٤ و٤٦٢ و٥٠٤ و٥ / ٣٧ و٥١ والأغاني ٦ / ٦٧ و٦٨ و١٤٥ و١٩٢ ، ٢٠١ و٢٠٦ و٢٤٦ و٨ / ٧٥ والعقد الفريد ٢ / ١٧٤ و١٧٥ و٣٢٤ و٣٥٤ و٣ / ٤٧٧ و٤ / ١١٩ و٥ / ٣٧ و٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ والعيون والحدائق ١٩ والبيان والتبيين ١ / ٢١ و٢٢ ، ١٩٣ و٢ / ٢٩ ، ٨٤ وشذرات الذهب ١ / ١٠٦ – ١٠٨ ومروج الذهب ٢ / ١١٢ ، ١٩٤ ، ولطائف المعارف ١٤١ والإمامة والسياسة ٢ / ٤٧ و٤٨ وتاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ والامتاع والمؤانسة ٣ / ١٧٨ و١٨٢ والمحاسن والمساوئ ١ / ١٠٠ ، ٢٢٠ والمعارف لابن قتيبة ٥٤٨ والفهرست ٢٠٢ وتاريخ الخلفاء ١٧٩ .

١٨٣

فتنة تثور ببغداد فتفرج عن بريء محبوس

حدّثني البهلول بن محمّد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التّنوخي[١]، قال: حدّثني أبو عليّ، الوكيل على أبواب القضاة ببغداد[٢]، ويعرف بالناقد،

---

١ أبو القاسم البهلول بن محمّد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخيّ الأنباري (٣٣١ - ٣٨٠): ترجم له الخطيب في تاريخه ٧ / ١١٠.

٢ وكيل الدعاوى، أو وكيل الحكم، أو الوكيل على أبواب القضاة: هو من نسمّيه اليوم: المحامي، وأحسب أنّ هذه الحرفة، بدأت مزاولتها في أيّام العبّاسيّين، إذ عمد قوم إلى الاحتراف بها، والحضور أمام القضاة، وكالة عن متخاصمين لم تكن المعرفة بأحكام الشريعة متيسّرة لهم، أو لم تكن أعمالهم، وأشغالهم، تيسّر لهم الحضور أمام القاضي في كلّ حين.

والظاهر أنّ هذه الحرفة لم تكن من الأهمية، بالمكان الذي هي فيه الآن، وأنّ محترفيها، أو جلّهم، لم يكن تصرّفهم باعثاً على احترامهم، قال الشاعر:

ما وكلاء الحكم إن خاصموا ... إلاّ شياطين، أولو باس
قوم غدا شرّهم فاضلاً ... عنهم، فباعوه على الناس

ولم يورد التنوخيّ، فيما تيسّر لنا من نشواره، عن وكلاء الدعاوي، إلاّ خبراً واحداً، أورده في القصّة ٣ / ١٤٣ عن وكيل دعاوي، وكلّه قوم، وضمنوا له أجراً، فلمّا أنجز عمله، حبسوا عنه بعض أجره، فعرقل لهم سير القضيّة، حتى استوفى منهم أجره، وزيادة، وهذه القصّة، تدلّ على أنّ التنوخيّ، وهو عريق في القضاء، لم يكن ينظر إلى وكيل الدعاوي نظرة احترام.

ومما يروى عن قاض أندلسي، أنّ وكيلاً في دعوى ترافع أمامه، وشرح مظلمة موكّله، وبكى، فنظر القاضي في صك الوكالة، وقال للوكيل ساخراً: أرى أنّ موكلك، لم يخولّك في صك الوكالة، أن تبكي نيابة عنه، وذكر التوحيدي في البصائر والذخائر م ٣ ق ١ ص ٧٧: أنّ إسماعيل القاضي اطّلع على خلّة أحد الوكلاء على بابه، فأمر غلامه بأن يخرج له عشرين درهماً في كلّ شهر.

وقال صاحب كتاب معيد النعم ومبيد النقم، في وكلاء دار القاضي، ص ٤٧: مدحهم قوم، فقالوا: هم أناس نصبوا أنفسهم لخلاص حقوق الخلق، وذمّهم آخرون، فقالوا: هم أناس، فضل عليهم الفضول، فباعوه لغيرهم، والحقّ عندنا، أنّ من أراد منهم وجه الله تعالى، محمود،

قال :

كنت أقيم خبر المحبسين[3] في المطبق بمدينة السّلام ، في أيّام المقتدر بالله ، فرأيت في المطبق[4] رجلاً مغلولاً[5] ، على ظهره لبنة من حديد ، فيها ستّون رطلاً ، فسألته عن قصّته ، فقال : أنا والله مظلوم .

فقلت له : كيف كان أمرك ؟

قال : كنت ليلة من الليالي ، في دعوة صديق لي بسوق يحيى[6] ، فخرجت من عنده مغلّساً ، وفي الوقت فضل وأنا لا أعلم ، فلمّا صرت في قطعة من الشارع ، فإذا مشاعل الطائف[7] ، فرهبته ، ولم أدر ما أعمل ، فرأيت شريجة[8] مشوّشة ،

وإن تناول أجرته . ومن أراد الخصام . وإبطال الحقوق . مذموم . ومن حقّهم التفهيم عن الموكّل . ومعرفة الواقعة . والحقّ . في أيّ الطرفين . فلا يتوكّل على المحقّ معتذراً بأنّه وكيل . ولا يبدي من الحجّة . إلاّ ما يعرفه حقّاً . أو يقوله الموكّل . وهو يجهل الحال . فيعتمد عليه . فإن علمه باطلاً . وأدلى به . فهو في جهنّم .

٣ يختار صاحب خبر المحبسين ، من الأخيار ، ويعهد إليه أن يدخل الحبوس ، ويتفقّد أحوال المحبوسين ، ويرفع خبرهم إلى الوزير ، من أجل رفع الظلامات عن المظلومين منهم ، راجع الملح والنوادر للحصري ١٣٤ و ١٣٥ .

٤ المطبق : الطبق : الغطاء ، وأمّ طبق : الداهية ، وبنت طبق : الحيّة ، والمطبق : السجن تحت الأرض ، سمّي بذلك لأنّه يطبّق على المسجون فيحول بينه وبين رؤية الضوء ويتركه في ظلام دامس وعزلة موحشة . ويعدّ للمساجين السياسيّين ، ويكون عادة شديد الظلمة ، سيء التهوية ، لا ينفذ إليه النور ، ومن مكث فيه زمناً ، انطفأ بصره . وقد وصف يعقوب بن داود ، وزير المهديّ ، المطبق الذي حبسه فيه المهديّ ، بأنّه بئر بنيت عليها قبّة ، لا يصعد منه ولا ينزل إليه ، وكان يدلى إليه في كلّ يوم رغيف وكوز ماء ، وكان من الظلمة بحيث لا يفرّق فيه بين الليل والنهار ، بدليل أنّه كان يؤذن بأوقات الصلاة ، وقد بقي فيه ثلاث عشرة سنة ، فلما أريد إخراجه أدلي إليه حبل شدّ بـه وسطه ، ثم أخرجوه ، وإذا به قد عمي لطول المدّة التي قضاها في الظلمة ، راجع القصّة ١/٢٠٤ من هذا الكتاب .

٥ الغلّ ، وجمعه أغلال : طوق من الحديد يوضع في اليد أو العنق ، راجع القصّة ١٦١ من هذا الكتاب .

٦ سوق يحيى : محلّة ببغداد ، في الجانب الشرقي ، على دجلة ، راجع حاشية القصّة ٢٤٥ من هذا الكتاب .

٧ الطائف : العسس .

٨ الشريجة : جديلة من القصب تجعل على أبواب الدكاكين .

ففتحتها ، ودخلت ، ورددتها كما كانت ، وقمت في الدّكان ، ليجوز الطّائف وأخرج .

وبلغ الطّائف الموضع ، فرأى الشريجة مشوّشة ، فقال : فتّشوا هذه الدّكان .

فدخلت الرجّالة بمشعل[9] ، رأيت في ضوئه رجلاً في أرض الدكّان مذبوحاً ، على صدره سكّين ، فجزعت .

فرأى الرّجالة ذلك الرّجل ، ورأوني قائماً ، فلم يشكّوا في أنّي القاتل .

فأخذني صاحب الشرطة فحبسني ، ثمّ عُرِضْتُ فضربت ضرباً شديداً ، وعوقبت أصنافاً من العقوبات ، وأنا أنكر ، وعندهم أنّي أتجلّد ، وهم يزيدونني .

فاجتمع أهلي ، وكانت لهم شعب[10] بأسباب السلطان ، فتكلّموا فيّ واستشهدوا خلقاً كثيراً [٩٥ ظ] على سيرتي ، فبعد شدائد ألوان ، أعفيت من القتل ، ونقلت [٧٤ ر] إلى المطبق وثقلّت بهذا الحديد ، وتركت على هذه الصورة ، منذ ستّ عشرة سنة [٩٨ م] .

قال : فاستعظمت محنته ، وبهتّ من حديثه ، فقال : ما لك ، والله ما آيس مع هذا من فضل الله عزّ وجلّ ، فإنّ من ساعة إلى ساعة فرجاً .

قال : فوالله ، ما خرج كلامه[11] من فيه ، حتّى ارتفعت ضجّةٌ عظيمةٌ ، وكسر الحبس ، ووصلت العامّة إلى المطبق [١٢٨ غ] ومطاميره[11] وأخرجوا كـلّ من هناك ، وخرج الرّجل في جملتهم .

وانصرفت وأنا أريد منزلي ، وإذا نازوك قد قُتِلَ ، والفتنة قد ثارت[12] ، وفرّج الله عن الرّجل ، وعن جميع أهل الحبوس .

---

٩ المشعل : راجع حاشية القصّة ١٧ من هذا الكتاب .

١٠ كذا ورد في م وغ ، والمراد بها : الصلة ، يقال : شعب إلى القوم : نزع إليهم .

١١ المطمورة : حفيرة تتّخذ في باطن الأرض ، ضيّقة الفوهة ، واسعة الأسفل ، كانت تتّخذ لحفظ الحبوب ، ثم اتّخذ ما يشبهها على شكل حجر مظلمة تحت الأرض ، يوصل إليها دهليز مظلم لا ينفذ إليه النور .

١٢ كان ذلك في السنة ٣١٧ ، راجع تجارب الأمم ١ / ١٩٦ .

١٨٤

الصدفة تنجي عامل كوثى من القتل

وبلغني عن رجل من أهل كوثى[١] ، قال :

كان يتقلّد بلدنا رجل عامل من قبل أبي الحسن بن الفرات ، في بعض وزاراته ، فافتتح الخراج واشتدّ في المطالبة .

وكان في أطراف البلد قوم من العرب قد زرعوا من الأرض ما لا يتجاسر الأكرة[٢] على زراعته ، وكان العمّال يسامحونهم ببعض ما يجب عليهم من الخراج .

فطالبهم هذا العامل بالخراج على التمام أسوة بالأكرة ، وأحضر أحدهم فحقّق عليه المطالبة ، وهو ممتنع ، فأمر بصفعه ، فصفع حتّى أدّى الخراج ، وانصرف ، فشكا إلى بني عمّه ، فتوافقوا على كبس العامل ليلاً ، وقتله ، وراسلوا في ذلك غيرهم من العرب ، واتّعدوا لليلة بعينها .

فلمّا كان اليوم الّذي تليه تلك اللّيلة ، ورد إلى النّاحية عامل آخر ، صارفاً للأوّل ، فقبض عليه ، وصفعه ، وضربه بالمقارع ، وأخذ خطّه بمال ، وقيّده ، وأمر بأن يحمل إلى قرية أخرى على فراسخ من البلد ، فحبس فيها ، ووكّل به عشرة من الرّجّالة ، وسيّره مرّة ماشياً ، ومرّة على حمار من حمير الشّوك ، فكاد ممّا لحقه أن يتلف ، وحصل في تلك القرية .

وكان له غلام قد ربّاه ، وهو خصيص به ، عارف بجميع أموره ، فهرب عند ورود الصارف ، فلمّا كان من الغد ، لم يشعر المصروف المحبوس إلّا بغلامه الّذي ربّاه قد دخل عليه ، وكان مجيئه إليه أشدّ عليه من جميع ما لحقه إشفاقاً

---

١ كوثى : موضع بسواد العراق في أرض بابل (معجم البلدان ٤ / ٣١٧) .

٢ الأكرة (بفتحتين) . جمع أكّار (بالفتح وتشديد الكاف) : الزرّاع . قاله أحمد تيمور .

على الغلام ، وعلى نفسه مما يعرفه الغلام ، أن يكون قد دلّ عليه .

فقال له : ويحك ، وقعتَ في أيديهم ؟

فقال له الغلام : من هم ؟ هات رجلك حتّى أكسر قيودك ، وتقوم فتدخل بغداد .

فقال له : وأين الرّجالة الموكّلون بي ؟

فقال : يا مولاي قد فرّج الله عزّ وجلّ عنك ، وهربت الرجّالة[3] .

قال : فما السّبب ؟

قال : إنّ الأعراب الّذين كنت صفعت منهم واحداً ، وطالبتهم بالخراج ، كبسوا البارحة دار العمالة ، وعندهم أنّك أنت العامل ، وكانوا قد عملوا على قتلك ، ولم يكن عندهم خبر صرفك ، ولا خبر ورود هذا العامل ، فقتلوه على أنّه أنت ، وقد هرب أصحابه ، وأهل البلد كافّة ، فقم حتّى نمشي إلى بغداد ، لا يبلغهم خبر كونك هنا ، فيقصدوك ، ويقتلوك .

فكسر القيد ، وقام هو وغلامه ، يمشيان على غير جادّة ، إلى أن بعدا ، ودخلا قرية ، واستأجرا منها ما ركبا إلى بغداد .

ولقي المصروف الوزير ، وشنع على المقتول ، وقال : قد أفسد الناحية ، وأثار فتنة مع العرب ، فأقرّه الوزير [٩٩ م] على النّاحية ، وضمّ إليه جيشاً .

فعاد إلى كوثى ، وتحصّن بالجيش ، وساس أمره مع العرب ، إلى أن صالحهم ، وحطّ لهم من الخراج عمّا كان طالبهم به ، وأجرى أمرهم على رسومهم ، وسكنوا إليه وسكن إليهم ، وزال خوفه واستقام له أمر عمله [٧٥ ر] .

---

٣ الرجّالة ، ومفردها : الراجل : من الجند ، ويستخدمون في جباية الضرائب ، وتنفيذ أوامر المستحثّين والمستخرجين في استحصال الديون الأميرية ، راجع القصّة ١ / ١٢٠ من كتاب نشوار المحاضرة ، وقد ورد فيها : يخرج المستخرج فيبثّ الفرسان والرجّالة والمستحثّين ... الخ .

١٨٥

الأمين يغاضب عمّه إبراهيم بن المهدي

ثمّ يرضى عنه

[أخبرني أبو الفرج الأموي ، المعروف بالأصبهاني ، قال : أخبرني عمّي الحسن بن محمّد ، قال : أنبأنا عبد الله بن أبي سعد ، قال : حدّثني][1] هبة الله ابن إبراهيم بن المهدي[2] ، عن أبيه ، قال :

غضب عليّ الأمين في بعض [٩٦ ظ] هناته ، فسلّمني إلى كوثر الخادم[3] ، فحبسني في سرداب ، وأغلقه عليّ ، فمكثت فيه ليلتي .

فلمّا أصبحت ، إذا أنا بشيخ قد خرج عليّ من زاوية السرداب ، فدفع إليّ وسطاً[4] ، فأكلت ، ثمّ أخرج إليّ قنينة شراب ، فشربت ، وقال غنّ لي : [١٢٩ غ]

---

١ الزيادة من غ . وفي بقيّة النسخ : وروي عن إبراهيم بن المهديّ .

٢ أبو القاسم هبة الله بن إبراهيم بن المهديّ العباسيّ : شاعر . موسيقي . من أهل بغداد . أسود اللون . جالس الخلفاء . توفّي سنة ٢٧٥ (الأعلام ٩ / ٥٦) .

٣ كوثر الخادم : كان خادم الأمين الخاص . وكان أثيراً لديه . وعندما خرج الأمين مستسلماً إلى هرثمة ابن أعين القائد ، كان كوثر يمشي وراءه حاملاً شارة الخلافة ، خاتم النبيّ صلوات الله عليه ، وبرده ، وسيفه ، وقضيبه ، فاعتقله أصحاب طاهر بن الحسين (مروج الذهب ٢ / ٣٢٦ والطبري ٨ / ٤٩١) . ولا يدرى له خبر بعد ذلك .

٤ الوسط : لون من الطعام الناشف ، شديد الشبه بما يسمّى اليوم الساندويج ، وكيفيّة صنعه : أن يبسط رغيف من الخبز ، وتنشر عليه طبقة من لحم الدجاج ، ثم تسطر عليه سطور من اللّوز والجوز ، والزيتون ، والجبن ، والنعنع ، والطرخون ، ثم تفرش فوقها قطع مدوّرة من البيض المسلوق ، ويغطّى ذلك برغيف آخر من الخبز ، ثم يشطر ذلك إلى شطائر . أنظر وصف الوسط لابن الروميّ في مروج الذهب ٢ / ٥٩٠ .

لي مـدّة لا بـدّ أبلغهـا   فإذا انقضت أيّامها متُّ
لو ساورتـني الأسدِ ضاريـة   لغلبتهـا مـا لم يجـي الوقت

فغنّيته ، وسمعني كوثر ، فصار إلى محمّد الأمين ، فقال له : قد جنّ عمّك ، هو جالس يغنّي بكيت وكيت .

فأمر بإحضاري ، فحضرت ، وأخبرته بالقصّة ، فرضي عنّي ، وأمر ليَ بسبعمائة ألف درهم[٥] .

---

٥ وردت هذه القصّة في الأغاني ١٠/١٠٤ . وكان محمد الأمين مولعاً بغناء عمّه إبراهيم ، وكان يوالي صلاته ، وقد غنّاه مرّة ، فوصله بثلثمائة ألف درهم ، فقال له إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم ، فقال له : هل هي إلاّ خراج بعض الكور (الأغاني ١٠/١٣٨) .

١٨٦

يتخلّصون من المحنة بأيسر الأسباب

[أخبرني محمّد بن الحسن بن المظفّر ، قال : أنبأنا أبو عمر محمّد بن عبد الواحد ، قال : أخبرني][١] النوري الصوفيّ[٢] ، قال :

لما كانت المحنة ، ورميت أنا وجماعة من الصوفيّة بالكفر ، أُخِذنا ، فأودعنا المطبق أيّاماً ، ثمّ عرضنا على [ابن] الشّاه ، وكان الوالي[٣] ، وأغري بسفك دمائنا ، فعمل على ذلك ، وأخرجنا للمسائلة ، وترديد العذاب ، وإمراره علينا قبل القتل ، وكنّا تعاقدنا أن لا نتكلّم حتّى يكفينا صاحب الأمر .

فقال للرّقام[٤] : أنت القائل : إنّ قولي بسم الله ، لجّة من نور ؟

قال : فسكت ، على العقد .

وحضر من ذوي الأقدار والمنزلة مَن استعطف ابن الشّاه علينا ، وأشار عليه بالتوقّف في أمرنا ، والزيادة في استيضاح ما قُرِفنا به .

فقال ابن الشّاه للرّقام : أنت صوفيّ ، ولعلّك تأوّلت قولك « بسم الله » نوراً ، وقولك « الحمد لله » ، بعد فراغك ، نوراً .

فصاح الرّقام صيحة عظيمة : لحنتَ أيّها الأمير .

قال النّوري : فوالله لقد أضحكني على ما بي .

---

١ الزيادة من غ .

٢ أبو الحسن أحمد بن محمّد الصوفي المعروف بالنوري : ذكره صاحب اللباب ٣ / ٢٤٢ وقال إنّه لقّب بالنوري لحسن وجهه .

٣ محمّد بن غانم . المعروف بابن الشاه . كانت إليه ولاية الشرطة في الجانب الشرقيّ من بغداد في السنة ٢٧٨ . ولّاه إيّاها أبو العبّاس المعتضد أنابه عن مولاه بدر الذي جعل إليه ولاية الشرطة ببغداد كلّها

٤ الرقّام : بفتح الراء والقاف المشدّدة . النسبة إلى رقم الثياب (اللباب ١ / ٤٧٣) .

فقال له الأمير : قد صرتَ تنظر في النحو بعدي ، حتّى صرت تعرف اللّحن من الصواب ؟.

فقال له : حاشاك أيّها الأمير من اللّحن الّذي هو الخطأ ، وإنّما عنيت بقولي لحنتَ ، أي فطنتَ ° ، بمعنى الصوفيّة .

فقال ابن الشّاه : في الدنيا أحد يرمي مثل هذا وأضرابه بالزندقة ؟ وأمر بتخلية سبيلنا .

فتخلّصنا ممّا كنّا فيه ، وممّا نحاذره ، وكفينا بأضعف الأسباب وأيسرها .

° لحنتَ : فهمتَ .

١٨٧

عبد الله بن طاهر يطلق الطوسي من حبسه

حبس عبد الله بن طاهر ، محمّد بن أسلم الطوسيّ ، فكتب إليه بعض إخوانه يعزّيه عن مكانه .

فأجابه : كتبت إليّ تعزّيني ، وإنّما كان يجب أن تهنّيني ، أريتُ العجائب ، وعرضت عليّ المصائب ، إنّي رأيت الله تعالى يتحبّب إلى من يؤذيه ، فكيف من يؤذى فيه ، إنّي نزلت بيتاً سقطت فيه عنّي فروض وحقوق ، منها الجمعة ، والأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، وعيادة المريض ، وقضاء حقوق الإخوان ، وما نزلت بيتاً خيراً لي في ديني منه .

فأخبر بذلك ابن طاهر ، فقال : نحن في حاجة إلى ابن أسلم ، أطلقوه . فأفرج عنه[1] .

---

١ الحبس لون من ألوان العذاب ، ولذلك كانت الشكوى منه عامّة ، ومن أظهر من المحبوسين تجلّداً ، فليس ذلك لأنّه لم يتألّم ، لكنّه تظاهر بخلاف ما يعاني ، ومن هذا اللون قصيدة علي بن الجهم التي مطلعها [المحاسن والأضداد ٢٨] :

قالوا : حبستَ فقلت : ليس بضائري ... حبسي وأيّ مهنّد لا يغمد

وقد نقض علي ابن الجهم ، قصيدته هذه ، عاصم بن محمد الكاتب ، بقصيدته التي مطلعها [المحاسن والأضداد ٢٩] :

قالوا : حبستَ ، فقلت : خطبٌ أنكد ... أنحى عليّ به الزمان المرصد

وما أحسن قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر لما حبس [المحاسن والأضداد ٣٠] :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا
إذا دخل السجّان يوماً لحاجة ... عجبنا ، وقلنا : جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا . فجلّ حديثنا ... إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فإن حسنت كانت بطيئاً مجيئها ... وإن قبحت لم تنتظر وأتت سعيا

١٨٨

المأمون يغضب على فرج الرخّجيّ

ثمّ يرضى عنه ، ويقلّده فارس والأهواز

وكان [١٠٠ م] المأمون قد غضب على فرج الرخّجيّ[١] ، فكلّمه عبد الله بن طاهر ، ومسرور الخادم[٢] ، في إطلاقه .[٤]

قال فرج : فبتّ ليلتي ، فأتاني آتٍ في منامي ، فقال لي :

لّما أتى فرجاً من ربّه فرج جئنا إلى فرجٍ نبغي به الفرجا

فلما كان من الغد ، لم أشعر إلّا واللواء قد عقد لي على ولاية فارس والأهواز ، وأطلق لي خمسمائة ألف درهم معونة .

فإذا أبو الينبغي الشاعر على الباب ، وقد كتب هذا البيت في رقعة .

فقلت له : متى قلته ؟

قال لي : البارحة ، [في الوقت الّذي رضي عنك فيه][٣] .

فأمرت له بعشرة آلاف درهم .

---

١ أبو الفضل فرج بن زياد الرخجيّ : ترجمته في حاشية القصّة ١٢٩ من الكتاب .

٢ أبو هاشم مسرور الخادم ، الملقّب مسرور الكبير : كان يخدم المهديّ وكان يرافقه في سفرته التي مات فيها بماسبذان سنة ١٦٩ ، ثم خدم الرشيد ، وكان يرافقه في سفرته التي مات فيها بطوس سنة ١٩٣ ، وكان أثيراً عند الرشيد ، موضع سرّه ، ومنفّذ أمره ، وهو الذي قتل جعفر البرمكيّ بأمره ، ولما اعتقل البرامكة أمر الرشيد أن يجعل عليهم حفظة من قبل مسرور ، وكان الرشيد يتّهمه بأنّه عين للمأمون عليه ، كما كان يتّهم بختيشوع بأنّه عين الأمين ، واستمرّت حرمته أيّام المأمون والمعتصم ، ومات في أيّامه (الطبري ٨ / ١٦٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٥٣٢ ، و٩ / ٧ والكامل ٦ / ١٧٨ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤، ٣٠٧ ، ٤٤٣) .

٣ الزيادة من غ وم .

١٨٩

محبوس يتحدّث عن هلاك الحجّاج

[قال عمارة بن عقبة ، من آل سلمى بن المهير ، حدّثني ملازم بن حرام الحنفي ، عن عمّه][1] ملازم بن قريب[2] الحنفي ، قال :

كنت في حبس الحجّاج بسبب الحروريّة[3] ، فحبس معنا رجل ، فأقام حيناً لا نسمعه يتكلّم بكلمة .

حتّى كان اليوم الّذي مات الحجاج في الليلة الّتي تليه ، أقبل غرابٌ في عشيّة [٩٧ ظ] ذلك اليوم ، فوقع على حائط السجن ، فنعق .

فقال [١٣٠ غ] له الرّجل : ومن يقدر على ما تقدر عليه يا غراب ؟

ثمّ نعق الثانية ، فقال : مثلك من بشّر بخير ، يا غراب .

ونعق الثالثة ، فقال له : من فيك إلى السّماء يا غراب .

فقلنا له : ما سمعناك تكلّمت منذ حبست إلى السّاعة ، فما دعاك إلى ما قلت ؟

فقال : إنّه نعق الأولى ، فقال : وقعتُ على سترة[4] الحجّاج .

---

١ الزيادة من غ .

٢ في غ : حريب ، وفي م : حريز .

٣ الحرورية : راجع حاشية القصّة ١٠٨ من الكتاب .

٤ السترة : الستر ، في اللغة : الغطاء ، وسترة السطح وجمعها سُتَر ، بضم السين وفتح التاء : ما يبنى حوله ليستر من فيه عن الجيران ، والبغداديّون ينامون ليلاً في سطوحهم ، ويقيمون سترة عالية بعض الشيء من الطابوق ، لتحجز بين أهل كلّ سطح وبين جيرانهم ، وهم الآن يسمّون السترة : تيغه ، فارسية ، بمعنى القمّة ، أو الحافة ، وتصفّ فيها الطوابيق واحدة فوق الأخرى على حافاتها الرقيقة ، فتكون السترة ، رقيقة ، سهلة القلع ، وبالنظر لسهولة قلعها ، فقد كانت تتّخذ سلاحاً للمستقرّ في السطح ، يرمي به الماشي في الطريق ، (راجع القصّة ٣٠٧ من هذا الكتاب ، وصلة الطبري ٦٩ و٨١ والتكملة ١٢٥ وكتاب الاعتبار لأسامة ٢٢) ، وأذكر أنّ آخر مرّة استعمل فيه رمي طابوق السترة ،

فقلت : ومن يقدر على ما تقدر عليه ؟

ثمّ قال في الثانية : إنّ الحجّاج وَجعٌ .

فقلت : مثلك من بشّر بخير .

ثمّ نعق الثالثة ، فقال : اللّيلة يموت الحجّاج .

فقلت : من فيك إلى السّماء .

ثمّ قال : إن انبلج الصّبح قبل أن أخرج ، فليس عليّ بأس ، وإن دعيتُ قبل الصّبح ، فستضربُ عنقي ، ثمّ تلبثون ثلاثاً لا يدخل عليكم أحد ، ثمّ يستدعى بكم في اليوم الرّابع فتطالبون بالكفلاء ٥ ، فمن وجد له كفيلاً ، خلّي سبيله ، ومن لم يوجد له كفيل ، فله ويل طويل .

فلمّا دخل اللّيل سمعنا الصّراخ على الحجّاج ، وأخذ [٧٦ ر] الرّجل قبل الصّبح فضربت عنقه ، ثمّ لم يدخل علينا أحد ثلاثة أيّام .

فلمّا كان في اليوم الرّابع استدعينا ، فطلب منّا الكفلاء ، حتّى صار الأمر إليّ ، فلم يكن لي كفيل .

فمكثت طويلاً حتّى خفت أن أردّ إلى الحبس ، فتقدّم رجل فضمنني .

فقلت له : من أنت يا عبد الله ، حتّى أشكرك .

فقال : اذهب ، فلست بمسؤول عنك أبداً .

فانطلقت .

كان قبل نيّف وأربعين سنة ، فإنّ اثنين من أهالي بغداد ، هما الحاج شاكر والسيّد عزيز ، قتلا في محلّة باب الشيخ شخصاً اسمه أحمد الشنّان وكانا قد خطّطا لإفلاتهما ، وعيّنا الأزقّة التي يمرّان فيها ، ولكنّهما صادفا في أوّل زقاق لَجَئَا إليه ، تلاميذ مدرسة قد انتشروا فيه ، فَلَجَئَا إلى زقاق آخر ، فلحق بهما مطاردون كان عددهم يزيد كلما امتدّت المطاردة ، وعندما وصلا إلى محلّة بني سعيد تلقّاهم الطابوق من السطوح ، فانكسر ساق أحدهما وعقر ، وجاءت الثاني ضربة صائبة على أنفه فكسرته ، فاستسلما ، وجرت محاكمتهما أمام المحكمة الكبرى ببغداد ، وهي محكمة الجنايات ، في السنة ١٩٣٢ وكنت إذ ذاك كاتب الضبط فيها بعد تخرّجي من كليّة الحقوق ببغداد ، وحكم عليهما بالإعدام ، وأعدما شنقاً في الموضع الذي ارتكبا فيه جريمة القتل .

٥ في غ : فيهتف على رؤوسكم بالكفالة .

١٩٠

يحسن إلى كاتب بغا الكبير على غير معرفة منه له

وقال عليّ بن الحسين بن عبد الأعلى الإسكافي[١] :

كنت أكتب لبغا الكبير[٢] ، فصرفني ، ونكبني ، وأخذ مالي وضياعي ، وحبسني بعد ذلك ، وتهدّدني ، ونالني منه كلّ مكروه .

فإنّي لفي حبسه ، إذ سمعت حركة ، فسألت عنها ، فقيل لي : قد وافى إسحاق بن إبراهيم الطاهري ، صاحب الشرطة .

فقلت : إنّما حضر لعقوبتي ، فطارت نفسي جزعاً .

فلم ألبث أن دعيتُ ، فحملت إليه في قيودي ، وعليّ ثياب في نهاية الوسخ ، فأدخلت عليه كالميت لما بي ولعظيم الخوف ، فلمّا وقعت عين إسحاق عليّ ، تبسّم ، فسكَنَتْ نفسي .

فقال لي بغا : إنّ أخي أبا العبّاس – يعني عبد الله بن طاهر – كتب إليّ يشفع في أمرك ، وقد شفّعته ، وأزلت عنك المطالبة ، ورضيت عنك ، ورددت عليك ضياعك ، فانصرف [١٠١ م] إلى منزلك .

فبكيت بكاء شديداً ، لعظم ما ورد على قلبي من السرور ، ففكّت قيودي ، وغيّرت حالي ، وانصرفتُ .

فبتّ ليلتي[٣] ، وبكرت في السَّحَر إلى إسحاق لأشكره ، وأسأله عمّا أوجب

---

١ أبو الحسن علي بن الحسين بن عبد الأعلى الإسكافي : ترجمته في حاشية القصّة ١٧٤ من الكتاب .

٢ أبو موسى بغا : القائد التركي المعروف بالكبير ، من موالي المعتصم ، وأحد قوّاده الكبار ، شارك في معارك بابك الخرميّ ، وظفر في جميعها ، وهو الذي اعتقل الإفشين لما غضب عليه المعتصم ، واشترك في قتل المتوكّل ، توفّي سنة ٢٤٨ (العيون والحدائق ٣٨٥ ، تجارب الأمم ٦ / ٤٧٤ ، ٥٢٣ ، ٥٣٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣) .

٣ في غ وم : فبتّ في بيتي .

ما جرى ، لأنّه شيء ما طمعت فيه ، ولا كانت لي وسيلة إلى أبي العبّاس ولا إسحاق ، فلقيته ، وشكرته ، ودعوت له ولأبي العبّاس ، وسألته عن سبب ذلك .

فقال : ورد عليّ كتاب الأمير أبي العبّاس يقول : قد كانت كتب أبي موسى بغا ترد عليّ بمخاطبات توجب الأنس والخلطة ، وتلزم الشكر والمنّة ، ثمّ تغيّرت ، فبحثت عن السبب ، فعلمت أنّ ذلك الكاتب صُرِف ، وأنّه منكوب ، وحَقّ لمن أحسن عشرتنا ، ووكّد المحبة بيننا وبين إخواننا ، حتّى بان لنا موقعه ، وعرفنا موضعه لمّا صرف ، أن نرعى حقّه ، فصر – أبقاك الله – إلى أخي أبي موسى ، وسله في أمر كاتبه المصروف ، عنّي ، واستصفحه عمّا في نفسه منه ، واستطلقه ، وسله ردّه إلى كتبته ، وإن كان ما يطالبه به ممّا لا ينزل عنه ، فأدّه عنه من مالنا ، كائناً ما كان .

فلقيته ، ففعل ما رأيت ، وأنا أعاود الخطاب في استكتابك ، وقد أمر لك الأمير بكذا وكذا ، من المال ، فخذه .

فأخذته ، وشكرته ، ودعوت للأميرين ، وانصرفت .

فما مضت إلّا أيام ، حتّى ردّني إسحاق إلى كتابة بغا بشفاعة أبي العباس ، ورجعت حالي ونعمتي[٤] .

٤ في غ : وتأثّلت حالي معه .

١٩١

كيف تخلّص عمر بن هبيرة من السجن

[حدّثني عليّ بن أبي الطّيب ، قال : حدّثنا ابن الجرّاح ، قال : حدّثنا ابن أبي الدنيا ، قال : حدّثني سليمان بن أبي شيخ[١] ، قال :][٢] حدّثنا سليمان ابن زياد[٣] ، قال :

كان عمر بن هبيرة ، والياً على العراق[٤] ، ولّاه يزيد بن عبد الملك[٥] ، فلمّا مات يزيد بن عبد الملك [١٣١ غ] ، واستخلف هشام ، قال [٩٨ ظ] عمر بن هبيرة : سيولّي هشام العراق ، أحد الرّجلين ، سعيداً الحرشيّ[٦] ،

---

١ أبو أيّوب سليمان بن أبي شيخ منصور بن سليمان الواسطي (١٥١ – ٢٤٦) : ترجم له الخطيب في تاريخه ٩ / ٥٠ و ٥١ .

٢ الزيادة من غ .

٣ في غ : سليمان بن أبي زياد .

٤ أبو المثنّى عمر بن هبيرة بن سعد بن عديّ الفزاري : بدويّ ، أمّي ، داهية ، شجاع ، ولّاه يزيد بن عبد الملك العراق وخراسان ، وكانت عمالته ستمائة ألف درهم ، وعزله هشام بخالد القسري ، فحبسه ، وفرّ عمر من السجن ، والتجأ إلى مسلمة بن عبد الملك ، فأمن (الأعلام ٥ / ٢٣٠) وكان أمّياً ، إلا أنّه كان يتظاهر بقراءة الكتب الواردة عليه ، فاذا خلا أمر إحدى جواريه بالتوقيع عليها ، راجع في البصائر والذخائر م ٢ ق ١ ص ١٢٣ كيف احتال كتّابه فكشفوا أمره .

٥ في الأغاني ١٥ / ١٢٨ : غلبت حبابة على يزيد ، وتبنّى بها عمر بن هبيرة ، فعلت منزلته ، حتى كان يدخل على يزيد في أي وقت شاء ، وكان مسلمة بن عبد الملك على العراق ، فعملت حبابة لابن هبيرة في ولاية العراق ، حتّى وليها .

٦ أبو يحيي سعيد بن عمرو بن الأسود الحرشيّ : من قوّاد الدولة الأمويّة ، اشترك في محاربة ابن الأشعث (الطبري ٦ / ٣٦١) وفي محاربة الخوارج (الطبري ٦ / ٥٧٧) ثم ولّاه عمر بن هبيرة خراسان (الطبري ٦ / ٦١٩) ثمّ عزله (الطبري ٧ / ١٥) فانحاز إلى جانب العبّاسيّين ، واشترك في محاربة المقنّع الخراساني ، وقتله (الطبري ٨ / ١٣٥ و ١٤٤) وخدم المهديّ (الطبري ٨ / ١٦٧) والرشيد (الطبري ٨ / ٣١٦) .

أو خالد بن عبد الله القسريّ[7] ، فإنْ ولّى ابن النصرانيّة[8] ، خالداً ، فهو البلاء .

فولّى هشام خالداً العراق ، فدخل واسطاً ، وقد أذن عمر بالصلاة ، وقد تهيّأ ، واعتمّ ، وبيده المرآة يسوّي عمامته ، إذ قيل له : هذا خالد قد دخل .

فقال عمر : هكذا تقوم الساعة ، تأتي بغتة .

فتقدّم خالد ، وأخذ عمر بن هبيرة ، فقيّده ، وألبسه مدرعة صوف ، فقال له : يا خالد ، بئس ما سننت على أهل العراق ، أما تخاف أن تصرف فتبتلى بمثل هذا[9] ؟

فلمّا طال حبسه ، جاء مواليه ، واكتروا داراً بجانب الحبس ، ثمّ نقبوا منها سرباً إلى الحبس ، واكتروا داراً إلى جانب سور المدينة ، مدينة واسط ، فلمّا جاءت اللّيلة الّتي أرادوا أن يخرجوه فيها من الحبس ، وقد أفضى النقب إلى الحبس ، فأخرج في السرب ، ثمّ خرج من الدّار يمشي ، حتّى بلغ الدّار الّتي إلى جانب السور ، وقد نقب في السّور نقب إلى خارج المدينة ، وقد هيّأت له خيل ، فركب وسار ، وعلم به بعد ما أصبحوا ، وقد كان أظهر علّة قبل ذلك ليمسكوا عن تفقّده في كلّ وقت .

فأتبعه خالد ، سعيدَ الحرشي ، فلحقه ، وبينه وبين الفرات شيء يسير ، فتعصّب له [١٠٢ م] وتركه[10] .

---

٧ أبو الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري (٦٦ – ١٢٦) : أمير العراقين ، وأحد خطباء العرب وأجوادهم ، ولي مكة للوليد بن عبد الملك ، ثم ولي العراقين لهشام ، واستمرّت ولايته ١٥ سنة ، وعزله بيوسف بن عمر الثقفي فاعتقله يوسف ، وعذبه ، وقتله (الأعلام ٢ / ٣٣٨) .

٨ كانت أمّ خالد نصرانية ، قال الفرزدق :

ألا قطع الرحمن ظهر مطيّة ... أتتنا تهادى من دمشق بخالد
وكيف يؤمّ المسلمين وأمّه ... تدين بأنّ الله ليس بواحد

٩ ولي يوسف بن عمر الثقفي ، تعذيب خالد بن عبد الله القسري ، وقتله ، راجع الطبري ٧/٢٦٠ .

١٠ جيء بابن هبيرة ، إلى خالد القسري ، مغلولاً ، مقيّداً ، في مدرعة ، فلما صار بين يدي خالد ألقته الرجال إلى الأرض ، فأمر به إلى الحبس ، ففرّ إلى مسلمة ، بالشام ، فأجاره ، واستوهبه من

فقال الفرزدق[11] في ذلك :

ولمّا رأيتَ الأرض قد سدّ ظهرها ولم يبق إلّا بطنها لك مخرجاً
دعوت الذي ناداه يونس بعدما ثوى في ثلاثٍ مظلماتٍ ففرّجا[12]
خرجت ولم يمنن عليك سفاهة[13] سوى زائد التقريب من آل أعوجا
فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلة[14]
وما سار سارٍ مثلها حين أدلجا[15]

[قال سليمان بن أبي شيخ : فحدّثني ابن أبي خيرة[16] ، عن أبي الحبحاب ،

هشام ، فوهبه له ، فلما قدم خالد الشام ، وجد ابن هبيرة عند هشام ، فقال له : أبقتَ إباق العبد ، فأجابه : حين نمتَ نوم الأمة (العقد الفريد ٢ / ١٨٥ والبصائر والذخائر ٤ / ٢١٦ و٢١٧) .

١١ أبو فراس همّام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارميّ ، الشهير بالفرزدق : شاعر بصريّ نبيل ، عزيز الجانب ، كان أبوه من الأشراف الأجواد ، وكذلك جدّه ، توفّي ببادية البصرة سنة ١١٠ وقد قارب المائة (الأعلام ٩ / ٩٦) .

١٢ المظلمات الثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت .

١٣ في غ وم : طلاقة .

١٤ في غ : قد سرت سيرة .

١٥ ولي عمر بن هبيرة الفزاري ، العراقين ، ليزيد بن عبد الملك (الأغاني ١٥ / ١٢٨) فهجاه الفرزدق ، فقال : [الأغاني ٢١ / ٣١١ وأدب الكتاب ١١٣]

أمير المؤمنين وأنت عفٌّ كريم لست بالطّبع الحريص
أولّيت العراق ورافديه فزاريّاً أحذّ يد القميص
ولم يك قبلها راعي مخاضٍ ليأمنه على وركي قلوص
تفيهق بالعراق أبو المثنّى وعلّم أهله أكل الخبيص

فسجنه ، وشفع له ، أبو نخيلة الشاعر ، وهو دعيّ ، فأطلقه عمر ، فلما خرج من السجن سأل عمّن شفع فيه ، فأخبر ، فعاد إلى الحبس ، وقال : لا أريمه ولو متّ ، أأخرج بشفاعة دعيّ ؟ والله لا أخرج هكذا ولو من النار ، فأخبر ابن هبيرة بذلك ، فضحك ، ودعا به فأطلقه ، وقال : وهبتك لنفسك ، فحفظ الفرزدق لابن هبيرة هذا الجميل ، فلما عزل وحبس ، مدحه ، وعرّض بأمّ خالد القسري الذي خلفه على العراقين ، وكانت نصرانية فقال : [العيون والحدائق ٨٣]

قال : حدّثني][17] خازم ، مولى ابن هبيرة ، قال :

كنت مع عمر بن هبيرة حين هرب من السّجن ، فسرنا حتّى بلغنا دمشق ، بعد العتمة ، فأتى مسلمة بن عبد الملك ، فأجاره ، وأنزله معه في بيته ، وصلّى مسلمة خلف هشام الصّبح .

فلمّا دخل هشام داره ، استأذن عليه مسلمة ، فأذن له ، فدخل .

فقال له هشام : يا أبا سعيد ، أظنّ ابن هبيرة قد طرقك الليلة .

قال : أجل يا أمير المؤمنين ، وقد أجرته ، فهبه لي .

قال : قد وهبته لك[18] .

لقد حبس القسريّ في سجن واسط ... فتى شيظميّاً لا ينهنهه الزجر

فتى لم تورّكه الإماء ولم يكن ... غذاء له لحم الخنازير والخمر

فقال ابن هبيرة : ما رأيت أشرف من الفرزدق ، هجاني أميراً ، ومدحني أسيراً (الأعلام ٥ / ٢٣١) .

١٦ سعيد بن أبي خيرة : ترجم له صاحب الخلاصة ١١٧ .

١٧ الزيادة من غ .

١٨ ورد الخبر في مخطوطة (د) ص ١٦٢ و١٦٣ .

١٩٢

كيف تخلّص قيسبة بن كلثوم من أسره

[أخبرني أبو الفرج القرشي ، المعروف بالأصبهاني ، قال :][١] ذكر ابن الكلبيّ عن أبيه ، قال :

خرج قيسبة بن كلثوم السكوني ، وكان ملكاً ، يريد الحجّ ، وكانت العرب تحجّ في الجاهليّة ، فلا يعرض بعضها لبعض .

فمرّ ببني عامر بن عقيل ، فوثبوا عليه ، وأسروه ، وأخذوا ماله ، وكلّ ما كان معه ، وألقوه في القدّ[٢] ، فمكث فيه ثلاث سنين ، وشاع في اليمن[٣] ، أنّ الجنّ استطارته .

فبينما هو في يوم شديد البرد ، في بيت عجوز منهم ، آيس من الفرج ،

---

١ الزيادة من غ .

٢ جاء في الأغاني ١٣ / ٤ : القدّ سير يقدّ من جلد غير مدبوغ ، يتّخذ منه السوط ويقيّد به الأسير .

٣ اليمن : قال ياقوت رحمه الله في معجم البلدان ٤ / ١٠٣٤ : حدود اليمن ما بين عمان إلى نجران ، ثم تلتوي على بحر العرب إلى عدن ، إلى الشحر ، وقال : إنّما سميت اليمن لتيامنهم إليها ، يريد لأنّها عن يمين الحجازي ، أقول : إنّ اليد اليمين ، إنّما سميت يميناً ، لأنّها في جهة اليمن ، وقد كانت بلاد اليمن ، بالنسبة للحجازي ، بلاد اليُمْنِ والخير والبركة ، ولذلك سمّاها : اليمن السعيدة ، وقال عمر بن أبي ربيعة :

بالله قولي لـه في غـير معتبـة ... مـاذا أردت بطـول المكث في اليمـن
إن كنت حـاولت دنياً أو ظفـرت بهـا ... فمـا أخذت بتـرك الحـجّ من ثمـن

وبعكس ذلك كانت بلاد الشام ، بالنسبة للحجازي ، فهي بعيدة المنتجع ، تحول بينه وبينها جبال وصحاري ، ومفاوز ومهالك ، فسمّى الأول : اليمن ، من اليُمْن ، وسمّى الثانية : شآماً ، من الشؤم ، وسمّى اليد اليمنى : اليمين ، نسبة لليمن ، وكره أن يسمى اليد الأخرى شؤماً ، فسماها يساراً ، كما سمّي اللديغ سليماً ، والأعمى بصيراً ، والمهلكة مفازة .

إذ قال لها : أتأذنين لي أن آتي الأكمة ، فأتشرّق عليها[٤] ؟ فقد أضرّ بي البرد .

فقالت له : نعم ، وكانت عليه جبّة حَبَرَة[٥] ، لم يترك عليه غيرها .

فمشى في قيوده حتّى صعد الأكمة ، ثمّ أقبل يضرب ببصره نحو اليمن ، وتغشاه عبرة ، فبكى ، ثمّ رفع طرفه إلى السماء ، فقال : اللّهم فاطر السّماء ، فرّج لي ممّا أصبحت فيه .

فبينما هو كذلك ، إذ عرض له راكب [١٣٢ غ] يسير ، فأشار إليه أن أقبل ، فأقبل عليه الراكب ، فقال له : ما حاجتك ؟

قال : أين تريد ؟

قال : أريد اليمن .

قال : ومن أنت ؟

قال : أبو الطمحان القيني[٦] ، فاستعبر قيسبة .

فقال أبو الطمحان : من أنت ؟ فإنّي أرى عليك سيما الخير ولباس الملوك ، وأنت بدار ليس فيها ملك .

فقال : أنا قيسبة بن كلثوم السكوني ، خرجت عام كذا وكذا حاجّاً ، فوثب عليّ أهل هذا الحي ، وصنعوا بي ما ترى وكشف له عن أغلاله وقيوده ، فاستعبر [٩٩ ظ] له أبو الطمحان .

فقال له قيسبة : هل لك في مائة ناقة حمراء ؟

قال : ما أحوجني إلى ذلك .

---

٤ التشرّق : القعود في المشرقة ، وهي موضع الشمس في الشتاء .

٥ الحَبَرَة : ضرب من برود اليمن ، كما أنّ الملاءات السوداء التي تلبسها النساء تسمى : حبرة ، وثمّة نوع من القماش يشبه الحرير ، يسميه أصحاب البزّ في بغداد : حَبَر .

٦ أبو الطمحان حنظلة بن شرقي القيني : شاعر من قضاعة ، فارس ، معمّر ، عاش في الجاهلية ، وأدرك الإسلام ، فأسلم ، وهو صاحب البيت المشهور : (الأعلام ٢ / ٣٢٢)

أضاءت لهم أحسابهم ووجوهم   دجى الليل حتّى نظّم الجزع ثاقبه

قال : أنخ ، فأناخ .

ثمّ قال : أمعك سكّين ؟

قال : نعم .

قال : ارفع لي عن رحلك ، فرفع له عن رحله ، حتّى بدا خشب مؤخّر الرحل .

فكتب عليه بالمسند[7] ، وليس يكتب به غير أهل اليمن :

بلّغَنْ كندة الملوك جميعاً — حيث سارت بالأكرمين الجمال

أن ردوا الخيل بالخميس[8] عجالاً — واصدروا عنه والروايا ثقال

هزئت جارتي وقالت عجيباً — إذ رأتني في جيدي الأغلال

إن تريني عاري العظام أسيراً — قد براني تضعضع واختلال

فلقد أقدم الكتيبة بالسيـ — ـفِ عليّ السلاح والسربال

وكتب تحت الشعر إلى أخيه ، أن يدفع لأبي الطمحان مائة ناقة حمراء ، ثمّ قال له : أقرئ هذا قومي ، فإنّهم سيعطونك مائة ناقة حمراء .

فخرج تسير به ناقته ، حتّى أتى حضرموت[9] فتشاغل بما ورد له ، ونسي أمر قيسبة ، حتّى فرغ من [١٠٣ م] حوائجه .

ثمّ سمع نسوة من عجائز اليمن ، يتذاكرن قيسبة ، ويبكين ، فذكر أمره ، فأتى أخاه الجون بن مالك ، [وهو أخوه لأبيه وأمّه][10] ، فقال له : يا هذا ، أنا أدلّك على قيسبة ، وقد جعل لي مائة ناقة حمراء .

فقال : هي لك .

---

٧ المسند : الخطّ الحميري .

٨ إذا أراد الرجل سفراً بعيداً ، أورد إبله الخِمْس ، راجع لسان العرب مادة خمس .

٩ حضرموت : كلمة مركّبة من اسمين ، مثل سرمن‌رأى ، ورامهرمز ، وهي ناحية واسعة شرقي عدن ، راجع معجم البلدان ٢ / ٤٨٤ .

١٠ الزيادة من غ ، وم ، ومن الأغاني ١٣/ ٦ .

فكشف له عن الرّحل ، فلمّا قرأه الجون بن مالك ، أمر له بمائة ناقة حمراء .

ثمّ أتى قيس بن معدي كرب الكندي[11] ، [أبا الأشعث بن قيس][12] ، فقال له : يا هذا إنّ أخي في بني عامر بن عقيل أسيراً ، فسر معي بقومك لنخلّصه .

فقال له قيس : تسيرُ تحت لوائي ، حتّى أطلب ثأرك وأنجدك ، وإلّا فامض راشداً .

فقال له الجون : مسّ السّماء أيسر من ذلك ، وأهون عليّ ممّا جئت به .

فضجّت السكون ثمّ فاءوا ، ورجعوا ، وقالوا له : وما عليك من هذا ؟ هو ابن عمّك ، ويطلب لك بثأرك ، فأنعم له بذلك .

وسار قيس ، وسار معه الجون تحت لوائه ، وكندة والسّكون معه ، [فهو أوّل يوم اجتمعت فيه السّكون وكندة لقيس][1] وبه أدرك الشّرف ، فسار حتّى أوقع ببني عامر بن عقيل ، فقتل منهم مقتلةً عظيمةً ، واستنقذ قيسبة ، فقال في ذلك سلامة بن صبيح الكندي[13] :

لا تشتمونـا إذ جلبنـا لكـم ... ألفي كميت كلّهـا سلهبه[14]
نحن أبلنـا الخيـل في أرضكم ... حتّى ثأرنـا منكـم قيسبـه
واعترضت من دونها مذحـجٌ ... فصادفـوا من خيلنـا مشغبه[15]

---

١١ أبو الأشعث قيس بن معدى كرب بن معاوية بن جبلة الكندي : كان صاحب مرباع حضرموت ، مات قتيلاً في إحدى المعارك (الأعلام ٦ / ٦٠) .

١٢ الزيادة من غ وم ، ومن الأغاني ٦/١٣ ، وهو أبو محمّد الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي (٢٣ ق – ٤٠ هـ) : رئيس كندة في الجاهلية والإسلام ، كانت إقامته في حضرموت ، ووفد على النبي فأسلم ، ثم امتنع عن بيعة أبي بكر ، وحارب الجيش الإسلامي فأسره ، ومنّ عليه أبو بكر فأطلقه وزوّجه أخته أمّ فروة ، فأقام بالمدينة ، ثم بالعراق ، ومات بالكوفة (الأعلام ١ / ٣٣٤) .

١٣ في غ : مسلمة بن صبيح الكندي .

١٤ السلهب : الطويل العظام .

١٥ وردت القصّة في الأغاني ١٣ / ٣ – ٦ .

١٩٣

جاءه الفرج من حيث لم يحتسب

حدّثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق [الكاتب ، إبن يعقوب بن إسحاق بن البهلول التنوخي][١] قال :

كنت ، وأنا حدث ، أتعلّم في ديوان زمام السواد ، بين يدي كاتب فيه ، يقال [١٣٣ غ] له أبو الحسن عليّ بن الفتح ، ويعرف بالمطوّق[٢] ، عاش إلى بعد سنة عشرين وثلثمائة ، وأخرج إلينا كتاباً قد عمله في أخبار الوزراء ، منذ وفاة عبيد الله بن خاقان ، إلى آخر أيّام القاهر بالله ، أو بعدها[٣] — [الشكّ من أبي الحسن أحمد بن يوسف][١] — وسمّاه : كتاب مناقب الوزراء ومحاسن أخبارهم[٤] ، فقرأ علينا بعضه ، وأخبر نا بالباقي مناولة .

[قال مؤلّف هذا الكتاب : وأعطاني أبو الحسن أحمد بن يوسف ، هذا الكتاب ، مناولة][٥] ، فوجدت فيه : أنّ القاسم بن عبيد الله اعتقل أبا العبّاس أحمد بن محمّد بن بسطام[٦] في داره [أيّاماً ، لأشياء كانت في نفسه عليه ،

---

١ الزيادة من غ .

٢ أبو الحسن علي بن الفتح المعروف بالمطوّق : ترجم له ابن النديم في الفهرست ص ١٤٣ .

٣ في الفهرست ١٤٣ : إنّه وصل به كتاب محمّد بن داود الجرّاح وعمله إلى أيّام أبي القاسم الكلوذاني ، أقول : تقلّد أبو القاسم عبيد الله بن محمّد الكلوذاني وزارة المقتدر في ٥ رجب سنة ٣١٩ (تجارب الأمم ١ / ٢١٢) وكانت مدة وزارته شهرين وثلاثة أيّام (تجارب الأمم ١ / ٢١٩) .

٤ سماه صاحب الفهرست ص ١٤٣ : كتاب الوزراء .

٥ الزيادة من غ ، وم .

٦ أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن بسطام : صهر حامد بن العبّاس وزير المقتدر ، ضمن واسط في أيّام المعتضد ، وعجز عن سداد بدل الضمان ، فحبسه المعتضد ، ثم أطلقه وأعاده إلى عمله ، راجع القصّة في كتاب الوزراء ٩٦ ، وكان في السنة ٢٩٣ عاملاً على الشام ، وكان عظيم الرياسة ، يقوم عن يمينه وشماله مائة حاجب (القضاة للكندي ٥٢٤ و٥٢٥) ، وفي السنة ٢٩٦ قلّده الوزير أبو الحسن بن

وأراد أن يوقع به][9] فلم يزل ابن بسطام ، يداريه ، ويلطف به ، إلى أن أطلقه ، وقلّده آمد[7] ، وما يتّصل بها من الأعمال ، وأخرجه إليها ، وفي نفسه ما فيها ، ثمّ ندم على ذلك ، فوجّه إليه في آخر أيّام وزارته بقائد يقال له علي بن حبش ، ابن أخي قوصرة[8] ، ووكّله به ، فكان يأمر وينهى في عمله ، وهو موكّل به في داره ، خائف على نفسه ، لما ظهر من إقدام القاسم على القتل[9] .

قال ابن بسطام : فأنا أخوفَ ما كنت على حالي ونفسي ، وليس عندي خبر ، حتّى ورد عليّ كتاب عنوانه : لأبي العباس أطال الله بقاءه ، من العبّاس بن الحسن[10] .

الفرات ، مصر ، ثم صادره المحسّن بن الفرات على ثلثمائة ألف دينار ، فأخرجه من نعمته (الوزراء ١٢ و٤٩) ، وهو أحد من هجاهم ابن بسام بقصيدته الشهيرة التي هجا فيها جميع رجال الدولة ، وخصّه فيها ببيت واحد [مروج الذهب ٢ / ٥٤٢]

وأحول بسطـام ظـلّ المشير ... وكـان يحـوك بزربـاطيه

وزرباطيه : وما زال هذا اسمها ، من أعمال بادرايا ، واسم بادرايا الآن في العراق : بدره .

٧ آمد : من أعمال ديار بكر (معجم البلدان ٢ / ٦٣٧) .

٨ قوصرة : لقب لمصعب بن ابراهيم مولى الهادي (تجارب الأمم ٦ / ٥١٤) .

٩ اشتهر القاسم بن عبيد الله بضراوته على القتل ، فقد قتل بدراً غلام المعتضد (المنتظم ٦ / ٣٤ ومروج الذهب ٢ / ٥٢٨ – ٥٣٠) ، وقتل عبد الواحد بن الموفّق ، عمّ المكتفي (مروج الذهب ٢ / ٥٣١ و٥٣٢) وقتل ابن الرومي الشاعر (مروج الذهب ٢ / ٥٣٢) ، وقتل أناساً كثيرين غيرهم ، مثل محمّد بن غالب الأصبهاني صاحب ديوان الرسائل ، ومحمّد بن بشار ، وابن منارة النصراني ، أحدرهم إلى البصرة ، وأمر بإغراقهم في الطريق ، فأغرقوا ، (مروج الذهب ٢ / ٢٥٨) ، فقال في ذلك علي بن بسام مشيراً إلى أصله النصرانيّ ، فإنّ آل وهب أصلهم نصارى (الفخري ٢٤٧) :

عذرناك في قتلك المسلمين ... وقلنا عداوة أهل الملل

فهذا المناريّ ما ذنبه ؟ ... ودينكما واحد لم يزل

وكان يتفنّن في تعذيب أسراه قبل قتلهم ، راجع المنتظم ٦ / ٤٣ .

١٠ أبو أحمد العبّاس بن الحسن بن أيّوب الجرجرائي (٢٤٧ – ٢٩٦) : من وزراء الدولة العبّاسيّة ،

فلمّا رأيت العنوان ناقص الدّعاء ، علمت أنّ القاسم بن عبيد الله قد مات ، وأنّ العبّاس بن الحسن قد تقلّد الوزارة[11] ، فلم أتمالك نفسي فرحاً وسروراً بالسلامة في نفسي ، وزوال الخوف عنّي .

وقرأت الكتاب ، فإذا هو بصحّة الخبر ، ويأمرني بالخروج إلى مصر ، وتقلّد الأمانة على الحسين بن أحمد المادرائي[12] .

قال علي بن الفتح : فخرج ابن بسطام [١٠٠ ظ] إلى مصر ، ولم يزل يتقلّد الأمانة على الحسين بن أحمد إلى أن تقلّد علي بن محمّد بن الفرات الوزارة ، فقلّده مصر وأعمالها ، قال : فلم يزل بها إلى أن مات .

وزّر للمكتفي وللمقتدر ، كان أديباً بليغاً ، وزّر للمكتفي خلفاً للقاسم بن عبيد الله ، وبترشيح منه ، ولما مات المكتفي قام بالبيعة للمقتدر ، قتله الحسين بن حمدان في مؤامرة ابن المعتز (الأعلام ٤ / ٣٢) .

١١ لما كان العباس بن الحسن صاحب ديوان ، كان يخاطب ابن بسطام بدعاء أكثر ، فلما نقص الدعاء ، علم أنّ العباس قد ارتفعت مرتبته ، واستنتج أنّ الوزير القاسم مات ، وأنّ العباس قد وزّر ، ولما فتح الكتاب تأيّدت له صحّة ظنونه ، راجع في كتاب الوزراء للصابي ص ١٧٢ - ١٧٨ التقليد المتّبع في مراسلات الوزير مع الأمراء والعمّال ورجال الدولة .

١٢ أبو علي الحسين بن أحمد بن رستم المادرائي ، الملقّب بأبي زنبور : من نبلاء الكتّاب في عصر ابن طولون ، قلّده المكتفي خراج مصر سنة ٢٩٢ ، وأقرّه المقتدر ، ثم سخط عليه ، فأحضره إلى بغداد ، وصادره ، ثم أعاده إلى مصر ، فمات بدمشق سنة ٣١٤ (الأعلام ٢ / ٢٤٨) .

١٩٤

العلويّ الصوفيّ يحتال للخلاص من سجن المعتصم

[حدّثنا أبو محمّد عبد الرحمن الورّاق المعروف بالصيرفيّ[١] ، ابن أبي العبّاس محمّد بن أحمد الأثرم[٢] ، المقرئ البغدادي ، بالبصرة ، في المحرّم سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، بكتاب المبيّضة ، لأبي العبّاس أحمد بن عبد الله بن عمّار ، في خبر العلويّ الصوفيّ[٣] ، الخارج بالجوزجان[٤] ، على المعتصم ، وهو محمّد بن القاسم بن عليّ بن عمر بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب [١٠٤ م] رضي الله عنهم أجمعين ، وكان عبد الله بن طاهر حاربه ، وأسره ، وبعث به إلى المعتصم ، وهو ببغداد[٥] ، قال : حدّثنا أبو العبّاس بن عمّار ، قال : حدّثنا أبو الحسن النوفلي ، وهو عليّ بن محمّد بن سليمان بن عبد الله بن الحارث بن نوفل][٦] قال :

---

١ أبو محمّد عبد الرحمن بن أبي العباس محمّد بن أحمد بن حمّاد ، المعروف بالصيرفي : ترجم له الخطيب في تاريخه ١٠ / ٢٩٧ .

٢ أبو العبّاس محمّد بن أحمد بن حمّاد المعروف بابن الأثرم ، أستاذ القاضي التنوخيّ ، مؤلّف هذا الكتاب : ترجمته في حاشية القصّة ٢٧ من الكتاب .

٣ العلوي الصوفيّ : أبو جعفر محمّد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، عالم ، فقيه ، زاهد ، طالبيّ ، ثائر ، من أهل الكوفة ، لقّب بالصوفيّ ، لإدمانه لبس ثياب الصوف الأبيض ، خرج أيّام المعتصم بالطالقان ، واستفحل أمره ، فحاربه عبد الله بن طاهر ، وأسره ، وبعث به مقيّداً إلى بغداد ، فحبسه ، وفرّ من الحبس (الأعلام ٧ / ٢٢٥) .

٤ الذي في كتب التاريخ (العيون والحدائق ٣٨٢ ، وتجارب الأمم ٦ / ٤٧١) أنّ العلويّ الصوفيّ ظهر بالطالقان ، وهي مدينة بخراسان بين مرو الروذ وبلخ (معجم البلدان ٣ / ٤٩١) ، والظاهر أنّها جزء من الجوزجان التي وصفها ياقوت ، بأنّها كورة واسعة بخراسان بين مرو الروز وبلخ (معجم البلدان ٢ / ١٤٩) .

٥ كان ذلك في السنة ٢١٩ (العيون والحدائق ٣٨٢ وتجارب الأمم ٦ / ٤٧١) .

٦ ما بين القوسين من غ وم ، وفي ظ : لما حارب عبدالله بن طاهر محمّد بن القاسم الصوفيّ العلـويّ ، أسره ، وحمله إلى المعتصم ، فبنى له حبساً في بستان موسى .. الخ .

حدّثت أنّ المعتصم أمر أن يبنى حبسٍ في بستان موسى ، كان القيّم به مسرور مولى الرّشيد .

قال : وكنت أرى أعلى هذا البناء من دجلة إذا ركبتها ، إذ كان كالبئر العظيمة ، قد حفرَتْ إلى الماء ، أو قريب منه ، ثمّ بني فيها بناءٌ على هيأة المنارة ، مجوّف من باطنه ، وهو من داخله مدرّج ، قد حفر فيه ، في مواضع من التدريج ، مستراحات ، وبني في كلّ مستراح شبيهاً بالبيت ، يجلس فيه رجلٌ واحدٌ ، كأنّه على مقداره ، يكون مكبوباً على وجهه ، لا يمكنه أن يجلس فيه ، ولا يمدّ رجليه[7] ، فلمّا قدم محمّد ، حبس في بيت في أسفل ذلك الحبس ، فلمّا استقرّ فيه أصابه من الجهد لضيقه ، وظلمته ، ومن البرد أمر عظيم ، لنداوة الموضع ورطوبته ، فكاد أن يتلف من ساعته .

فتكلّم بكلام دقيق سمعه من كان في أعالي البئر ممّن وكّل بالموضع ، فقال : إن كان أمير المؤمنين يريد قتلي ، فالسّاعة أموت ، وإن لم يكن يريد قتلي فقد أشفيت عليه .

فأخبر المعتصم بذلك ، فقال : ما أريد [١٣٤ غ] قتله ، وأمر بإخراجه .

فأخرج وقد زال عقله ، وأغمي عليه ، فطرح في الشّمس ، وطرحت عليه اللّحف ، وأمر بحبسه في بيتٍ كان قد بني في البستان ، فوقه غرفة ، وكان في

---

٧ الحَجْرُ في الحبوس الضيّقة ، من جملة العذاب الذي كان الناس يعذّبون به ، وقد أسلفنا وصف حبس الحجّاج في حاشية القصّة ٦٧ من هذا الكتاب ، كما وصفنا كيفيّة معاملة المنصور لآل الحسن في سجنه ، في القصّة ٣١٨ من هذا الكتاب ، وفي القصّة ٢٠٤ من الكتاب ، إنّ مطبق المهديّ ، كان من الظلمة بحيث أنّ وزيره يعقوب بن داود عمي وهو فيه ، وحبس الرشيد أبا العتاهية في بيت سعته خمسة أشبار في مثلها (الأغاني ٤ / ٦٤) وحبس المعتصم الإفشين ، في بناء كالمنارة ، في وسطها مقدار مجلس رجل واحد (العيون والحدائق ٤٠٥) ، وحبس المتوكّل وزيره ابن الزيات في تنور من الخشب فيه مسامير من حديد تمنعه من الجلوس (الطبري ٩ / ١٥٩) ، راجع بحث « المطبق » وبحث « المطمورة » في حاشية القصّة ١٨٣ من هذا الكتاب ، وبحث « العذاب » في حاشية القصّة ٣٥٨ من هذا الكتاب .

البيت خلاء إلى الغرفة التي فوقه ، وفي الغرفة أيضاً خلاء آخر إلى سطحها ، فلم يزل محبوساً فيه حتّى تهيّأ له الخروج في ليلة الفطر سنة تسع عشرة ومائتين .

قال : فحدّثني علي بن الحسين بن عمر بن علي بن الحسين ، وهو ابن عمّ أبيه ، قال : أصبحت يوم الفطر ، وأنا أتهيّأ للرّكوب إلى المصلّى ، فأنا أشدّ منطقتي في وسطي ، وقد لبست ثيابي أبادر الركوب إلى المصلّى . فما راعني إلّا محمّد بن القاسم ، قد دخل إلى منزلي ، فملأني رعباً وذعراً .

وقلت له : كيف تخلّصت ؟.

فقال : أنا أدبّر أمري في التخلّص منذ حبست ، ووصف لي الخلاء الّذي كان في البيت الّذي حبس فيه إلى الغرفة الّتي فوقه ، والخلاء الّذي كان في الغرفة إلى سطحها .

قال : وأدخل معي يوم حبست ، لِبْدٌ[8] ، فكان وطائي وفراشي[9] .

قال : وكنتُ أرى بغرش[10] ، وهي قرية من قرى خراسان ، حبالاً تعمل من لبود ، وتضفر كما يفعل بالسيور ، [فتجيء أحكم شيء ، فسوّلت لي نفسي أن أعمل من اللبد الّذي تحتي حبلاً][11] وكان على باب البيت ، قوم موكّلون بي يحفظونني لا يدخل عليّ أحدٌ منهم ، إنّما يكلّموني من خلف الباب ويناولوني من تحته ما أتقوّتُ به .

فقلت لهم : إنّ أظفاري قد طالت جدًّا ، وقداحتجت إلى مقراض ، فجاءني رجل يميل إلى مذهب الزيديّة ، بمقراض أحد جانبيه منقوش كأنّه مبرد[12] .

---

٨ اللبد : الصوف المتلبّد ، والبغداديون يسمونه : چبنه ، بالجيم المثلثة .

٩ كذا ورد في جميع النسخ ، والوطاء والفراش بمعنى واحد ، وأحسب أنّ الصحيح : غطائي وفراشي .

١٠ غرش : وتسمّى غرج ، وغرشستان ، وغرجستان ، والغور ، ناحية واسعة كثيرة القرى ، تقع بين غزنة وكابل وهراة وبلخ (معجم البلدان ٣ / ٧٨٥ و٧٨٦) .

١١ الزيادة من غ وم .

١٢ في م : نقش المسحل ، وفي غ : كأنّه مسحل ، والمسحل : آلة النحت .

وقلت لهم : إنّ في هذا البيت فاراً[13] قد آذوني ، ويقذرونني إذا قربوا منّي ، فاقطعوا لي جَريدة من النخل أطردهم بها .

فقطعوا لي من بعض نخل البستان ، جريدة ، فرموا بها إليّ ، وكنت لا أزال أضرب بها في البيت ، أريهم أنّي أطرد الفار ، وأسمعهم صوتها أيّاماً ، ثمّ قشرت الخوص عنها ، وقطعتها على مقدار ما ظننت أنّه يعترض في ذلك [١٠٥ م] الخلاء إذا رميتُ بها ، فضممتُ ما قطعته منها بعضَهُ إلى بعض ، وقصصت اللبد ، وفتلت منه حبلاً ، على ما كنت أرى يعمل بغرش ، ثمّ شددت ما قطعته من الجريدة في رأس الحبل ، ثمّ رميت به في الكوّة ، وعالجته مراراً حتّى اعترض فيها ، ثمّ اعتمدت عليها وصعدت إلى الغرفة ، ومن الغرفة إلى السطح ، ففعلت ذلك مراراً ، في أيّام كثيرة ، وتمكّنت من الحركة لأنّي بردت[14] بجانب المقراض إحدى حلقتي القيد ، ولم يمكنني أن أبرد[15] الأخرى ، فكنت إذا أردت الحركة ، شددت القيد مع ساقي ، وأتحرّك ، وقد صرت مطلقاً .

فلمّا كان في هذه اللّيلة وقد شغل النّاس بالعيد وانصرف من كان على الباب من الموكّلين ، فلم أحسّ منهم أحداً إلّا شيخاً واحداً كنت أسمع كلامه وحركته ، وأطّلع فأراه .

فصعدت بين العشائين[16] إلى الغرفة ، ومن الغرفة إلى السطح ، فأشرفتُ ، [١٠١ ظ] فإذا المعتصم يفطر والنّاس بين يديه ، والشموع تزهر ، فرجعت .

فلمّا كان في جوف اللّيل صعدت والنّاس نيام ، ونزلت إلى البستان ، فإذا فيه قائد ومعه جماعة ، فصاح بي بعضهم : من أنت ؟

---

١٣ الفار : اسم جمع ، واحدته : فارة .

١٤ في غ وم : سحلت .

١٥ في غ وم : أسحل .

١٦ في غ وم : بين المغرب والعشاء .

قلت : مدينيّ من أصحاب الحمّام ، وكان في البستان منهم جماعة يشرفون على أمر الحمّام .

فقال لي : الى أين تخرج السّاعة ، إطرح نفسك حتّى تصبح ، وتفتح الأبواب ، فطرحت نفسي بينهم ، حتّى فتح باب البستان في الغَلَس ، وقد تحرّك النّاس . فصرت إلى دجلة لأعبر ، فوجدت الشيخ الّذي كان بقي من الموكّلين بي يريد العبور ، فنزلت لأعبر ، فطلب منّي الملّاح قطعة[17] ، فقلت له : ما معي شيء ، أنا رجل غريب ضعيف الحال .

فقال لي الشيخ : اعبر ، فأنا أعطيه عنك ، وأعطاه [١٣٥ غ] الشيخ عنّي قطعة ، وعبرت حتّى جئتك .

قال علي بن الحسين : فقلت له : والله ، ما منزلي لك بموضع ، فاخرج عنّي من ساعتك ، ولا تقم فيه لحظة ، وركبت إلى المصلّى .

فصار إلى منزل رجل من الشّيعة ، فأخفاه[18] .

---

١٧ في غ وم : فطلب منّي الملّاح أجرته ، كما أخذ من الناس .

١٨ وردت القصّة باختصار في مقاتل الطالبيّين ٥٨٥ – ٥٨٨ .

١٩٥

حسن سيرته كانت سبب اعتقاله

[وحدّثنا أبو محمّد الأثرم ، في كتاب المبيّضة ، قال : حدّثنا أبو العبّاس ابن عمّار[١] ، قال : حدّثني هاشم بن أحمد بن الأشهب البغوي ، قال : حدّثني أبو عبدالله جعفر بن محمّد بن إسماعيل ، قال : حدّثني أبو إسحاق إبراهيم ابن رباح الجوهري ، قال : حدّثني المفضل بن حمّاد الكوفيّ ، من أصحاب الحسن بن صالح بن حيّ ، بوفاة عيسى بن زيد بن عليّ ، بالكوفة ، وكيف ستر ذلك عن المهديّ ، فذكر حديثاً طويلاً ، قال فيه :][٢]

لما تواترت الأخبار على الرشيد ، بحسن طريقة أحمد بن عيسى بن زيد[٣] ، وميل النّاس إليه ، أمر بحمله ، فحمل إلى بغداد ، ومعه القاسم بن عليّ بن عمر [بن عليّ بن الحسين بن عليّ رضي الله عنهم ، وهو والد محمّد بن القاسم الصّوفي الخارج بخراسان في أيّام المعتصم][٤] ، فحبسا عند الفضل بن الرّبيع ، فكانا في حبسه في داره الشارعة على دجلة ، قرب رأس الجسر ، بمشرعة الصّخر .

وكان حسن الصنيع إليهما ، يؤتيان بمائدة كمائدته الّتي توضع بين يديه ، ويواصلان من الحلوى ، والفاكهة ، والثّلج في الصّيف ، بمثل ما يكون على

---

١ أبو العبّاس أحمد بن عبيد الله بن محمّد بن عمّار الثقفي : كاتب ، مؤرّخ ، أديب ، كوفيّ ، له تآليف عدّة ، منها كتاب المبيّضة ، توفّي سنة ٣١٤ (تاريخ بغداد للخطيب ٤ / ٢٥٢) .

٢ الزيادة من غ .

٣ أبو عبد الله أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (١٥٧ - ٢٤٧) : من زعماء الزيدية في أيّام العباسيّين ، نشأ بالمدينة ، فاضلاً ، عالماً ، محدّثاً ، واتّهمه الرشيد بأنّه يريد الخروج عليه ، فأحضره إلى بغداد ، وسجنه ، ففرّ من السجن ، واختفى ، ومات وهو مستتر (الأعلام ١ / ١٨٢) .

٤ الزيادة من م .

مائدته ، فإذا أكلا ، رفعت من بين أيديهما ، ووضعت بين أيدي الموكّلين بهما .

فأكلا يوماً من الأيّام ، ورفعت المائدة فجعلت بين يدي الموكّلين بهما ، فأكلوا ، وأكثروا ، ودخل وقت القائلة فناموا [١٠٦ م] ، فخرج أحمد بن عيسى إلى حبّ[٥] في ناحية الدهليز ، فرأى القوم نياماً ، فغرف من الحبّ ، [بالكوز[٦] الّذي معه][٧] ، ثمّ رجع ، فقال للقاسم : يا هذا اعلم أنّي قد رأيت فرصة بيّنة ، وهؤلاء نيام ، والباب غير مقفل ، [لم يحكموا – كما كانوا يفعلون – إغلاقه ، فاخرج بنا][٧] .

فقال له القاسم : أنشدك الله ، فإنّك تعلم ، أنّا في عافية من كثير ممّا فيه أهل الحبوس ، والفضل محسن إلينا[٨] .

فقال له أحمد : دعني منك ، واعلم أنّ العلامة بيني وبينك ، أن أغرف من الحبّ ، فإن تحرّك القوم رجعت إليك ، وكانت علّتي ظاهرة بسبب الكوز ، وإن لم يتحرّكوا ، فأنا – والله – خارج ، وتاركك بموضعك ، واعلم أنّك لا تسلم بعدي .

ثمّ خرج ، فغرف من الحبّ بالكوز ، ثمّ طرحه من قامته ، [قال : وكان أطول منّي ومنك][٩] ، فما تحرّك أحد منهم ، ثمّ انثنى عليّ ، وقال : قد رأيتَ ما استظهرتُ به لك ولنفسي ، وأنا – والله – خارج ، ثمّ مضى ، واتّبعه القاسم ، ففتحا الباب ، وخرجا ، فقالا : لا نجتمع في طريق ، ولكن موعدنا ، موضع كذا .

---

٥ الحبّ ، وجمعه حباب : خابية من الفخّار ، تستعمل في بغداد راووقاً للماء .

٦ الكوز : راجع التفصيل في آخر القصّة .

٧ الزيادة من غ وم .

٨ في غ : وهذا الرجل – يعني الفضل – بنا برّ ، ولنا متعهّد .

٩ الزيادة من غ .

فلمّا جازا العتبة بخمسين ذراعاً ، لقيهما غلام للفضل بن الرّبيع ، مدنيّ ، أعرف بهما من أنفسهما ، فبهت الغلام[10] لما رآهما ، فأومأ إليه أحمد ، بكمّه ، كالآمر بغضب : تنحّ ، فما ملك الغلام نفسه أن تنحّى ، ثمّ كان عزمه أن يستقيم في طريقه ذاك ، [فلمّا بلي من الغلام بما بلي ، عدل عن تلك الطريق ، وسار في طريق أُخرى للاستظهار على الغلام][11] ، وأسرع حتّى نجا ... وذكر بقيّة الحديث[12] .

١٠ في غ وم : بعل الغلام ، وبعل : تحيّر فلم يدر ما يصنع .
١١ كذا في غ ، وفي ظ : فأسرعا حتى تجاوزا .
١٢ وردت القصّة في مقاتل الطالبيّين ٦٢٠ – ٦٢٢ .

الكــوز

إناء من الفخّار ، شائع الاستعمال في بغداد ، يشبه الإبريق ، إلاّ أنّه من دون البلبلة ، أي القناة الصغيرة التي يصبّ منها الماء ، وتسمّيه العامّة : تُنْكه ، بالكاف الفارسية ، معرّبة عن الفارسية : تنك ، أي الكوز ، والفخّار الذي يجهّز لتصفية الماء وشربه ببغداد ، على أشكال مختلفة ، فالزير ، ويسمونه الحبّ ، وهي فصيحة ، يصبّ فيه الماء الكدر ، فيقطر الماء الصافي من أسفله إلى إناء من الفخّار ، يسمّونه : بوّاقة ، تلفظ القاف كافاً فارسية على طريقة البغداديين ، والكلمة فصيحة ، من باق : أي سرق ، كأنّها تسرق الماء من الحبّ ، نقطة نقطة ، فإذا امتلأت البوّاقة ، صبّ ماؤها في الجرّة ليبرد ، ومنها إلى الكوز حيث يكون معدّاً للشرب ، فإمّا أن يشرب من الكوز ، أو يصبّ في كأس يسمّى شربة (الغيث المسجم في شرح لامية العجم ٢ / ٢٦١) ، أو حُبّانة ، يختلف اسمه باختلاف شكله ، وصانعو الفخّار يجتهدون في اختيار التراب المناسب لصنعه ، ويغالون فيه ، إذ ليس كلّ تراب صالحاً ليكون فخّاراً جيّداً ، فان وجدوا التراب المناسب ، سلّطوا عليه الماء ، وأجادوا مرسه بأيديهم ، كيلا يبقى فيه أيّ أثر للمواد المالحة ، حتى أنّ بعضهم كان يرمي بخاتمه في الطين ، ويطلب من عمّاله أن يبحثوا عنه ، وأن يعيدوه إليه ، فيكلّفهم هذا البحث ، أن يمرسوا بأصابعهم كلّ حفنة من الطين ، فإذا تمّ تنظيفه ، وتخميره ، صنع على مختلف الأشكال ، وأودع في موقد يشوى فيه ، وهذا الموقد يسمّيه البغداديون : الكورة ، فصيحة وهو اسم المحجرة من الطين ، فإذا تمّ شيّه ، أصبح صالحاً للاستعمال ، واستعمال الكوز ، إذا كان جيّد الطين ، حسن الصنع ، من طيّبات الدنيا ، وخاصّة إذا رشّ عليه ، قبل استعماله ، قطرات من ماء الورد ، فإنّ شرب الماء في الكوز ، يكسبه طعماً لذيذاً ، لا يقدّره إلاّ من ذاقه ، ومما يبعث على الأسف انّ استعمال الكوز ، يكاد أن ينقرض ، لشيوع الكهرباء والثلاّجات ، قال أبو إسحاق الصابي يتشوّق إلى شرب ماء الكوز ببغداد (معجم البلدان ١ / ٦٤٨) :

لهف ، نفس علـى المقام ببغدا ... د وشربي من مـاء كوز بثلـج
نحن بالبـصرة الذميمة نسقى ... شرّ سقيـا من مائها الأترجّـي
أصفرٌ منـكرٌ ثقيـلٌ غليـظٌ ... خـاثر مثـل حقنـة القولنـج
كيف نـرضى بشربـه وبـخيرٍ ... منه في كُنْـفِ أرضنا نستنجي

١٩٦

محمد الحمداني يحل محلّ أخيه في إمارة الموصل

ومن طريف ما شاهدناه في هذا الباب : أنّ أبا تغلب ، فضل الله ، عدّة الدولة[١] ، بن ناصر الدولة أبي محمّد ، استوحش من أخيه محمّد[٢] ، بعد موت أبيهما ، فقبض عليه ، واستصفى ماله ، [وقبض عقاره وضياعه][٣] ، ونعمته ،

---

١ أبو تغلب ، فضل الله ، الغضنفر ، عدّة الدولة ، ابن أبي محمّد الحسن ، ناصر الدولة ، بن عبد الله الحمدانيّ ، التغلبيّ ، أمير الموصل : استولى على الإمارة من أبيه ، وحارب عضد الدولة ، فخسر المعركة ، وفرّ إلى الشام ، ثمّ إلى فلسطين ، حيث أسر وقتل في السنة ٣٦٩ (الأعلام ٥ / ٣١٢) ، أقول : كانت سياسة أبي تغلب خرقاء ، فقد اتّفق مع أمّه ومع بعض إخوانه فاعتقلوا أباهم ، وحبسوه في إحدى القلاع ، فانتشر النظام الذي كان يجمع الإخوة (تجارب الأمم ٢ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٨٥) ، وكان أخوه حمدان أمير الرحبة ، مبايناً له ، وكان شجاعاً ، فملك الرقّة ، وسار إلى نصيبين ، وطالب بالإفراج عن أبيه ، فحاربه أبو تغلب ثم صالحه (٢ / ٢٥٤ و٢٥٥) وبعد الصلح ، أنفذ أخاه أبا البركات فطرد حمدان من الرحبة (٢ / ٢٨٩) واشتبكا فقتل حمدان أبا البركات (٢ / ٢٩١) ثم اتّجه أبو تغلب نحو أخيه أبي الفوارس محمّد صاحب نصيبين ، فخدعه ، واعتقله ، فأوحش بقيّة الإخوة (٢ / ٢٩١) ثم اتّفق مع بختيار ، وحاربا عضد الدولة ، فانكسرا ، وقتل بختيار ، وفرّ أبو تغلب إلى حيث أسر وقتل (٢/ ٣٨١ و ٣٨٣ و ٤٠١) .

٢ أبو الفوارس محمّد بن ناصر الدولة : أمير حمدانيّ شجاع ، كان أسيراً عند الروم سنة ٣٥٤ فأطلق مقابل أمير روميّ أطلقه سيف الدولة (تجارب الأمم ٢ / ٢١٣ ، ٢٢٠) وكان في السنة ٣٦٠ يتولّى نصيبين ، فاتّهمه أخوه أبو تغلب ، وخدعه ، واعتقله بقلعة أردمشت ، وضيّق عليه ، وأثقله بالحديد (تجارب الأمم ٢ / ٢٩١) وظلّ معتقلاً ثماني سنوات ، حتى أطلقه عضد الدولة ، وولاّه ما كان يليه أخوه أبو تغلب ، على ما هو مشروح في هذه القصّة .

٣ الزيادة من غ وم .

وثقّله بالحديد ، وأنفذه إلى القلعة المعروفة بأردمشت[4] ، وهي مشهورة حصينة ، من أعمال الموصل ، فحبسه بها في مطمورة ، ووكّل بحفظه عجوزاً يثق بها ، جلدة ضابطة ، يقال لها : نازبانو[5] [١٣٦ غ] وأمرها أن لا توصل إليه أحداً ، ولا تعرّفه خبراً ، وأن تخفي موضعه عن جميع شحنة القلعة وحَفَظَتها ، ففعلت ذلك .

فأقام على حاله تلك نحو ثمان سنين .

ثمّ اتّفق أن انحدر أبو تغلب معاوناً لعزّ الدولة أبي منصور بختيار[6] بن

---

٤ قلعة أردمشت : قال ياقوت في معجمه ١ / ١٩٩ : إنّها قلعة حصينة قرب جزيرة ابن عمر في شرقيّ دجلة الموصل ، على جبل الجودي ، وتحتها دير الزعفران ، فتحها المعتضد وخرّبها ، فأعاد أبو تغلب الحمدانيّ بناءها ، واتّخذها مدّخراً لنفائسه ، ومعتقلاً لخصومه ، ورتّب فيها أحد أقارب أمّه فاطمة الكرديه اسمه صالح بن بانويه ، وضمّ إليه أحد مماليكه المخلصين واسمه طاشتم ، وقد فتح عضد الدولة هذه القلعة سنة ٣٦٨ ، راجع تفصيل ذلك في تجارب الأمم ٢ / ٣٩٢ و٣٩٣ .

٥ نازبانو : كذا ورد في غ ، وفي ظ : نازبونا ، وفي م : بازبانو ، والاسم فارسي من كلمتين ، ناز : فخر ، وبانو : السيدة الجليلة ، فيكون الاسم بالعربية : فخر النساء .

٦ أبو منصور بختيار عزّ الدولة بن أبي أحمد الحسين معزّ الدولة بن بويه الديلميّ : (٣٣١ – ٣٦٧) : تولّى الحكم في العراق بعد وفاة أبيه في السنة ٣٥٦ ، وكان سيّء التدبير ، فأفسد عليه جنده ، وطمع فيه أعداؤه (تجارب الأمم ٢ / ٣٣٤) وكان لا يفي بعهد ، أنفذ حاجبه في مهمّة ، وفي غيابه صادره (تجارب الأمم ٢ / ٢٥٩) ، والتجأ إليه حمدان الحمدانيّ ، فعاهده على حمايته (٢ / ٣٧٨) ثم أسلمه إلى خصمه (٢ / ٣٧٩) ، وكان لا يعرف الكتمان ، ولا يضبط لسانه ، ولو جرّ ذلك عليه ذهاب النفس والملك (٢ / ٢٦٢) وقضى عمره منصرفاً إلى اللهو واللعب ومعاشرة المساخر (٢ / ٢٣٤) وكان لهجاً بلعب النرد ، فقال فيه أبو الحسن محمّد بن غسّان بن عبد الجبار بن أحمد الداري الصيدلانيّ ، الطبيب ، البصري (تاريخ الحكماء ٤٠٢) :

يسوس الممالك رأي الملك ... ويحفظها السيّد المحتنك
فيا عضد الدولة أنهض لها ... فقد ضيّعت بين شيش ويك

وقال فيه لما خرج إلى الأهواز :

أقام على الأهواز سبعين ليلة ... يدبّر أمر الملك حتى تدمّرا
يدبّر أمراً كان أوّله عمى ... وأوسطه بلوى وآخره خرا

راجع الامتاع والمؤانسة ٣ / ١٥٤ و ١٥٩ .

معزّ الدولة أبي الحسين ، ومعهما العساكر ، يقصدان بغداد لمحاربة عضد الدّولة ، وتاج الملّة أبي شجاع[7] ، وخرج للقائهما ، فكانت بينهم الواقعة العظيمة بقصر الجصّ[8] ، وقتل فيها عزّ الدولة [١٠٢ ظ] بختيار ، وانهزم أبو تغلب ، فدخل الموصل ، وخاف من تخلّص أخيه محمّد ، فكتب إلى غلام له ، كانت القلعة مسلّمة إليه يقال له : طاشتم[9] ، أن يمكّن صالح بن بانويه[10] ، رئيس الأكراد ، – وكان كالشريك لطاشتم في حفظ القلعة – من أخيه محمّد بن ناصر الدّولة ، ليمضي فيه ما أمره به ، وكتب إلى صالح ، يأمره بقتل محمّد ، فمكّن طاشتم صالحاً منه .

فلمّا أراد الدّخول على محمّد ، ليقتله ، منعت نازبانو من ذلك ، وقالت : لا أمكّن منه ، إلّا بكتاب يرد عليّ [١٠٧ م] من أبي تغلب .

وشارف عضد الدولة الموصل[11] ، وأجفل عنها أبو تغلب ، وكردته العساكر[12] ،

---

٧ أبو شجاع فناخسرو عضد الدولة بن أبي علي الحسن ركن الدولة : ترجمته في حاشية القصّة ٣١ من الكتاب .

٨ قصر الجصّ : قصر عظيم ، قرب سامراء ، فوق الهاروني ، بناه المعتصم للنزهة ، وعنده قتل بختيار ابن معزّ الدولة ، قتله عضد الدولة ابن عمّه (معجم البلدان ٤ / ١١٠) لزيادة التفصيل راجع تجارب الأمم ٢ / ٣٧٧ – ٣٨٢ .

٩ في ظ : طاشتمر ، وفي م : طاسيم ، وفي غ وتجارب الأمم : طاشتم ، وطاشتم هذا من مماليك عدّة الدولة أبي تغلب الحمدانيّ ، وكان عاقلاً ، أميناً ، ديّناً ، أناط به سيّده حفظ قلعة أردمشت شريكاً لصالح بن بانويه ، فلما حاصرهما جيش عضد الدولة ، سلّمها ابن بانويه إليهم ، وقبض على طاشتم ، وتسلّمه عضد الدولة ، فبعث به إلى أبي تغلب ، فقتله (تجارب الأمم ٣ / ٣٩٢ – ٣٩٥) .

١٠ في ظ : صالح بن بانويه ، وفي غ : صالح بن بابويه ، وفي م : صالح بن مانويه ، وفي تجارب الأمم : صالح بن بادويه ، وصالح بن بانويه هذا ، كرديّ ، من أقارب فاطمة بنت أحمد الكرديّة أمّ أبي تغلب (تجارب الأمم ٢ / ٣٩٢) .

١١ في م : ودخل عضد الدولة إلى الموصل .

١٢ كردته العساكر : طردته .

فاشتدّ عليه الطلب ، وورد عليه كتاب من القلعة بما قالت نازبانو ، فإلى أن يجيب عنه ، أحاط عساكر عضد الدولة بالقلعة ، ونازلوها ، فانقطع ما بين أبي تغلب وبينها ، فلم يصل إليها كتاب ، وفتحها عضد الدولة بعد شهور ، بأن واطأه صالح ، بالقبض على طاشتم ، وكتب إليه يعرّفه بما عمله ، ويستأمره فيما يعمله .

وكان لمحمّد خصيّ أسود مملوك ، يلي أمر داره ، اسمه ناصح ، وكان بعد القبض على محمّد ، قد وقع إلى عضد الدولة ، وهو بفارس ، فصار من وجوه خدمه ، [وحضر معه وقعة قصر الجصّ][13] ، فلمّا ورد خبر فتح القلعة ، أذكره ناصح بوعد كان له عليه في إطلاق مولاه محمّد ، إذا فتح القلعة ، فكتب بأن يطلب محمّد في القلعة ، فإن وجد حيًّا ، أطلق ، وأنفذ به إليه مكرّماً .

فحين دخل صالح ، ومعه من صعد إلى القلعة من أصحاب عضد الدولة ، إلى محمّد في محبسه ، جزع جزعاً شديداً ، ولم يشكّ أنّهم يريدون قتله ، بأمر أبي تغلب ، فأخذ يتضرّع ، ويقول : ما يدعو أخي إلى قتلي .

فقال له صالح : لا خوف عليك إنّما أمرنا الملك أن نطلقك ، وتمضي إليه مكرّماً ، فقد ملك هذه البلاد .

فقال : أغلب ملك الرّوم على هذه النواحي ، وفتح القلعة ؟

قالوا : لا ، ولكن الملك عضد الدولة .

قال : الّذي كان بشيراز ؟

قالوا : نعم ، وقد جاء إلى بغداد .

قال : وأين بختيار ؟

قالوا : قتل .

قال : وأبو تغلب ؟

---

[13] الزيادة من غ .

قالوا : انهزم ودخل إلى بلاد الرّوم .

قال : وأين عضد الدولة ؟

قالوا : بالموصل ، وهوذا نحملك إليه مكرّماً .

فسجد حينئذ ، وبكى بكاءً شديداً ، ثمّ حمد الله ، فأرادوا فكّ قيوده فقال : لا أمكّن من ذلك ، إلّا أن يشاهد حالي الملك .

فحمل إلى الموصل إلى عضد الدولة ، فرأيته وقد أصعد به مقيّداً من المعبر الّذي عبر فيه في دجلة ، إلى دار أبي تغلب الّتي نزل بها عضد الدولة بالموصل ، وكنت أنا – إذ ذاك[14] – أتقلّدها له وجميع ما فتحه ممّا كان في يد أبي تغلب مضافاً إلى حلوان[15] ، وقطعة من طريق خراسان[16] ، فرأيت محمّداً يمشي في قيوده ، حتّى دخل إليه فقبّل الأرض بين يدي عضد الدولة ، ودعا له ، وشكره ، فأخرج إلى حجرة من الدّار ، فأُخذ حديده[17] ، وحمل على فرس فاره بمركب ذهب ، وقيّد بين يديه خمس دواب بمراكب فضّة [مذهبة][18] ، وخمس بجلالها ، وثلاثون بغلاً محمّلة مالاً صامتاً[19] ، ومن صنوف الثياب الفاخرة ،

---

١٤ في السنة ٣٦٧ .

١٥ حلوان : بضم الحاء ، اسم لأماكن عدّة ، منها حلوان العراق ، وهي آخر حدود السواد مما يلي الجبال ، وكانت رابع مدينة عراقية في السعة والعمران ، بعد بغداد ، والبصرة ، وواسط ، (مراصد الاطلاع ١ / ٤١٨) أقول : هي الآن بليدة اسمها كرند ، في داخل حدود إيران .

١٦ طريق خراسان : أنظر التفصيل في آخر القصّة .

١٧ يعني : كسرت قيوده .

١٨ الزيادة من م .

١٩ في ظ : مصمتاً ، والتصحيح من م وغ ، والمال الصامت : الذهب والفضّة ، وإنّما سمّي صامتاً ، لأنّ الأموال الأخرى من الخيل والإبل والبقر والغنم ، تصهل ، وترغو ، وتخور ، وتثغو ، وقد حدّثونا عن قائمقام في قضاء الهندية في العهد العثماني ، جاء إليه أعرابيّ بعشرين كبشاً رشوة ، فانقض عليه بالسوط ، وهو يصيح : لا أريد برطيلاً (رشوة) يصيح : ماع ، يريد أنّه يريد مالاً صامتاً يودعه الكيس .

والفرش السري ، والطّيب ، والآلات المرتفعة القدر ، ونقل إلى دار قد فرّغت له ، وفرشت بفرش حسن ، وملئت بما [١٣٧ غ] يحتاج إليه من الصّفر ، والآلات ، والعلوفات ، والحيوان ، والحلوى ، وأطعمة نقلت إليه من المطبخ ، وأنبذة ، وغير ذلك .

ثمّ أقطعه بعد أيّام ، إقطاعاً بثلثمائة ألف درهم ، وولّاه إمارة بلده وأعماله ، وجميع ما كان يتولّاه أبو تغلب[٢٠] .

٢٠ نقلها صاحب حلّ العقال باختصار ص ٤٧ .

طريق خراسان

طريق خراسان ، هو المحجّة ، أو الطريق السلطانيّ بين الحضرة بغداد ، وبين خراسان ، ومن جملة أعماله : البندنيجين ، وبراز الروز (الوزراء ١٨٧) وبعقوبا (ابن الأثير ١١ / ٢١٥) ، فالبندنبجين : بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل ، من أعمال بغداد ، أصلها وندنيكان ، وعرّبت ، فأصبحت بندنيجين (معجم البلدان ١ / ٧٤٥) أقول : وقد خفّف الاسم المعرّب ، فأصبح الآن : مندلي ، وهي بلدة على حدود العراق الشرقيّة ، وقد وليّت القضاء بها في السنة ١٩٣٤ ، وأهلها طيّبون ، وهم خليط من الأكراد ، والتركمان ، والعرب ، وأرضها عظيمة الخصب ، تكثر فيها الأرطاب والحمضيات ، تمرها من أفخر تمور العراق ، لا سيّما المسمّى الميرحاج ، وأزرق الأزرق ، وبرتقالها لا مثيل له ، رقيق القشرة ، قويّ العطر ، كثير الماء ، قليل النوى ، لذيذ الطعم جدّاً ، وتكثر فيها الزنابير ، لكثرة التمور ، وفيها الجرّار المشهور ، وهو نوع من العقارب ، أصفر اللّون ، سمّي بالجرّار ، لأنّه يجرّ ذنبه على الأرض وراءه ، ويقال انّ لدغته قتّالة ، ويوجد منه في الأهواز (المسالك والممالك للأصطخري ٦٤) ويوجد منه أيضاً في شهرزور (نهاية الأرب ١٠ / ١٤٨) ، والجرّار كثير في مندلي ، وقد كلّفت خادمي ، مرّة ، أن يحضر لي جرّاراً لأراه ، فقال : هل تريده ذكراً أو أنثى ، يريد أنّه متوفّر إلى درجة أنّ له أن يختار وينتقي ما يريد منها ، أما براز الروز ، فقد ذكر ياقوت في معجمه ١ / ٥٣٤ أنّها من طساسيج السواد ببغداد ، من الجانب الشرقي من أستان شاه قباذ ، وكان للمعتضد به أبنية جليلة ، أقول : اسمها الآن : بلدروز ، وهي ناحية تابعة لمندلي ، أرضها عظيمة الخصوبة ، وقد زرتها أكثر من مرّة ، عندما كنت قاضياً في مندلي ، لأنّها تابعة لها ، وكانت في العهد العثماني من الأملاك السنيّة ، أي من أملاك السلطان عبد الحميد العثمانيّ ، إختارها لخصوبة أرضها ، وتنازل عنها لمتموّل يونانيّ ، فأقام بها قصراً ، ونصب لإدارتها موظّفين عدّة ، يقومون بزراعتها ، واستيفاء ارتفاعها ، وموقع براز الروز ، من أطيب المواقع ، وهواؤها عذب لطيف رائق .

١٩٧

أسره الرّوم في أيّام معاوية وأطلقوه في أيّام عبد الملك

[روى حميد ، كاتب إبراهيم بن المهدي ، أنّ إبراهيم حدّثه ، أنّ مخلداً الطبري ، كاتب المهدي على ديوان السرّ ، حدّثه [١٣٨ غ]، أنّ سالماً مولى هشام بن عبد الملك ، وكاتبه على ديوان الرسائل ، أخبره ، أنّه كان في ديوان عبد الملك يتعلّم كما يتعلّم الأحداث في الدواوين][1] ، إذ ورد كتاب صاحب بريد الثغور الشاميّة ، على عبد الملك ، يخبره فيه أنّ خيلاً من الرّوم تراءت للمسلمين ، فنفروا إليها ، ثمّ عادوا ومعهم رجل كان قد أسر في أيّام معاوية بن أبي سفيان ، فذكر أنّ الرّوم لما تواقفوا مع المسلمين ، أخبروهم أنّهم لم يأتوا لحربٍ ، وإنّما جاؤوا بهذا المسلم ليسلّموه إلى المسلمين ، لأنّ عظيم الرّوم أمرهم بذلك .

وذكر صاحب البريد ، أنّ النافرين ذكروا ، أنّهم سألوا المسلم عمّا قال الرّوم ، فوافق قوله قولهم ، وذكر أنّ [١٠٣ ظ] الرّوم قد أحسنوا إليه ، فانصرفوا عنهم ، وإنّي سألته عن سبب مخرجه ، فذكر أنّه لا يخبر بذلك أحداً دون أمير المؤمنين .

فأمر عبد الملك بإشخاص المسلم إليه ، فأشخص إلى دمشق .

فلمّا دخل على عبد الملك ، قال له : من أنت ؟

قال : قتات بن رزين اللّخمي [٧٧ ر] .

[قال مؤلّف هذا الكتاب : كذا كان في الأصل الّذي نقلت منه : قتات ، وأظنّه خطأ ، لأن المشهور قباث بن رزين اللّخمي[2] ، وقد روى الحديث عن

---

١ الزيادة من غ .

٢ أبو هاشم قباث بن رزين اللخميّ : من جلّة المصريّين ، مات سنة ١٥٦ .

علي بن رباح اللّخمي ، عن عقبة بن عامر الجهني ، أو لعلّه غيره والله أعلم .

رجع الحديث :][1] أسكن فسطاط مصر في الموضع المعروف بالحمراء ، أسرتُ في زمن معاوية ، وطاغية الرّوم – إذ ذاك – توما بن مرزوق .

فقال له عبد الملك : فكيف كان فعله بكم ؟

قال : لم أجد أحداً أشدّ عداوة للإسلام وأهله منه ، إلّا أنّه كان حليماً ، فكان المسلمون في أيّامه أحسن أحوالاً منهم في أيّام غيره ، إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه ليون ، فقال – في أوّل ما ملك – إنّ الأسرى إذا طال أسرهم في بلدٍ، أنسوا به ، ولو كان على غاية الرداءة ، وليس شيء أنكأ لقلوبهم من نقلهم من بلد إلى بلد ، فأمر باثني عشر قِدْحاً[3] ، فكتب على رأس كلّ قدح اسم بطريق[4] من بطارقة البلدان[5] ، ويضرب بالقداح في كلّ سنة أربع مرات ، فمن خرج اسمه في القِدْح الأوّل ، حوّل إليه المسلمون ، فاحتبسهم عنده شهراً ، ثمّ إلى الثاني ، ثمّ إلى الثّالث ، ثمّ تعاد القداح بعد ذلك .

فكنّا لا نصير عند أحد من البطارقة ، إلّا قال لنا : احمدوا الله حيث لم يبتلكم ببطريق البرجان[6] ، فكنّا نرتاعُ لذكره ، ونحمد ربّنا إذ لم يبتلنا به ، فمكثنا على ذلك سنين .

ثمّ ضربت القداح ، فخرج الأوّل والثاني لبطريقين ، والثالث لبطريق البرجان ، فمرّ بنا في الشهرين غمّ كبير ، نترقّب المكروه .

ثمّ انقضى الشهران ، فحملنا إليه ، فرأينا على بابه من الجمع خلاف ما كنّا نعاين ، ورأينا من زبانيته من الغلظة خلاف ما كنّا نرى ، ثمّ وصلنا إليه ،

---

٣ القِدْح : سهم الميسر .

٤ البطريق ، وجمعه بطارق ، وبطارقة ، وبطاريق : القائد من قوّاد الروم .

٥ في غ : فكتب في رأس كلّ واحد منها اسم بطريق من البطارقة الاثني عشر .

٦ البرجان : بلد من نواحي الخزر (مراصد الاطلاع ١ / ١٧٨)

فتبيّن لنا من فظاظته وغلظته ، ما أيقنّا معه بالهلكة ، ثمّ دعا بالحدّادين ، فأمر بتقييد المسلمين بأمثال[7] ما كان يقيّدهم به غيره ، فلم يزل الحديد يعمل في رجل واحد واحد ، حتّى صار الحدّاد إليّ ، فنظرت إلى وجه البطريق فرأيته قد نظر إليّ نظراً بخلاف العين الّتي كان ينظر بها إلى غيري ، ثمّ كلّمني بلسان عربيّ ، فسألني عن اسمي ونسبي ومسكني ، بمثل ما سألني عنه أمير المؤمنين ، فصدقته عمّا سألني عنه .

ثمّ قال لي : كيف حفظك لكتابكم ؟ فأعلمته أنّي حافظ .

قال : اقرأ آل عمران ، فقرأت منها خمسين آية .

فقال [١٣٩ غ] : إنّك لقارئ فصيح ، ثمّ سألني عن روايتي للشّعر ، فأعلمته أنّي راوية .

فاستنشدني لجماعة من الشعراء ، فقال : إنّك لحسن الرواية .

ثمّ قال لخليفته : إنّي قد وَمِقْتُ[8] هذا الرّجل ، فلا تحدّده .

ثمّ قال : وليس من الإنصاف أن أسوءه في أصحابه ففكّ الحديد عن جماعتهم ، وأحسن مثواهم ، ولا تقصّر في قراهم .

ثمّ دعا صاحب مطبخه ، فقال له : لست أطعم طعاماً ، ما دام هذا العربيّ عندي ، إلّا معه ، فاحذر أن تدخل مطبخي ما لا يحلّ للمسلمين أكله ، وأن تجعل الخمر في شيء من طبيخك ، ثمّ دعا بمائدته ، واستدناني حتّى قعدت إلى جانبه[9] .

فقلت له : فدتك نفسي وبأبي أنت ، أحبّ أن تخبرني من أيّ العرب أنت ؟

---

٧ بأمثال : بأضعاف .

٨ ومقت : أحببت ، والمقة : المحبّة .

٩ في غ : قعدت بلزقه .

فضحك وقال : لست أعرف لمسألتك جواباً ، لأنّي لست عربيًّا فأجيبك على سؤالك .

فقلت له : مع هذه الفصاحة بالعربية ؟

فقال : إن كان العلم باللّسان ينقل الإنسان من جنسه إلى جنس من حفظ لسانه ، فأنت إذاً روميّ ، فإنّ فصاحتك بلسان الرّوم ، ليست بدون فصاحتي بلسان العرب ، فعلى قياس قولك ينبغي أن تكون روميّاً ، وأكون أنا عربياً .

فصدّقت قوله ، وأقمت عنده خمس عشرة ليلة ، لم أكن منذ خلقت ، في نعمة ، أكبر منها .

فلمّا كانت ليلة ست عشرة ، فكّرت [١٠٤ ظ] أنّ الشّهر قد مضى نصفه ، وأن اللّيالي تقرّبني من الانتقال إلى غيره ، فبتّ مغموماً .

وصار رسوله إليّ ، في اليوم السادس عشر ، يدعوني إلى طعامه ، فلمّا حضر الطعام بين أيدينا ، رأى أكلي مقصّراً عمّا كان يعهد [٧٨ ر] ، فضحك ، ثمّ قال لي : أحسبك يا عربيّ ، لما مضى نصف الشّهر ، فكّرت في أنّ الأيّام تقرّبك من الانتقال عنّي إلى غيري ممّن لا يعاملك بمثل معاملتي ، ولا يكون عيشك معه مثل عيشك معي ، فسهرت ، واعتراك لذلك غمّ غيّر طعامك ، فأعلمته أنّه قد صدق .

فقال : [ما أنا إن لم أحسن الاختيار لصديقي بحرّ ، و][1] قد أمّنك الله ممّا حذرت ، ولم ألبث في اليوم الّذي وصلت إليّ فيه ، حتّى سألت الملكَ ، فصيّرك عندي ، ما كنتَ في أرض الرّوم ، فلستَ تنقل عن يدي ، ولا تخرج منها إلّا إلى بلدك ، وأرجو أن يسبّب الله ذلك على يدي ، فطابت نفسي ، ولم أزل مقيماً عنده ، إلى أن انقضى الشّهر .

فلمّا انقضى ، ضرب بالقداح ، فخرج الأوّل ، والثّاني ، والثالث ، لبطارقة غير الّذي نحن عنده ، فحوّل أصحابي ، وبقيت وحدي .

وتغدّيت في ذلك اليوم مع البطريق ، وكان من عادتي أن أنصرف من عنده بعد غدائي إلى إخواني من المسلمين ، فنتحدّث ، ونأنس ، ونقرأ القرآن ، ونجمّع الصلوات[10] ، ونتذاكر الفرائض ، ويسمع بعضنا من بعض ما حفظ من العلم وغيره ، فانصرفت ذلك اليوم بعد غدائي إلى الموضع الّذي كنت أصير اليه وفيه المسلمون ، فلم أر فيه أحداً إلّا الكفرة ، فضاق صدري ضيقاً تمنّيت معه أنّي كنت مع أصحابي ، فبتّ بليلة صعبة لم أطعم فيها الغمض[11] ، وأصبحت أكسف خلق الله بالاً ، وأسوأهم حالاً .

وصار إليّ الرّسول في وقت الغداء ، فصرت إليه ، فتبيّن الغمّ في أسرّة وجهي ، ومددت يدي إلى الطعام ، فرأى مدّ يدي إليه ، خلاف مدّي الّذي كان يعرف ، فضحك ، ثمّ قال : أحسبك اغتممت لفراق أصحابك ؟

فأعلمته أنّه صدق ، وسألته : هل عنده حيلة في ردّهم إلى يده .

فقال : إنّ الملك لم ير أن ينقل أصحابك من يدي إلى يد غيري إلّا ليغمّهم بما يفعل ، ومن المحال أن يدع تدبيره في الاضرار بهم ، لميلي إليك ومحبّتي لك ، وليس عندي في هذا الباب حيلة ، فسألته أن يسأل الملك إخراجي عن يده ، وضمّي إلى أصحابي أكون معهم حيث كانوا .

فقال : ولا في هذا أيضاً حيلة ، لأنّي لا أستجيز أن أنقلك من سعة إلى ضيق ، ومن كرامة إلى هوان ، ومن نعمة إلى شقاء .

فلمّا قال [١٤٠ غ] ذلك ، تبيّن فيّ الانكسار وغلبة الغمّ ، فقال لي : بلغ بك الغمّ إلى النهاية ؟

فأخبرته : أنّه قد بلغ بي الغمّ ، أن اخترت الموت على الحياة ، لعلمي

---

١٠ يريد أنّهم يصلّون جماعة .

١١ في غ : فبتّ بليلة صعبة لم أطابق فيها بين أجفاني .

أنّه لا راحة لي بغيره .

فقال لي : إن كنتَ صادقاً ، فقد دنا فرجك .

فسألته عمّا دلّه على ذلك ، فقال لي : إنّي وقعت في نكبات أشدّ هولاً ممّا أنت فيه ، وكان عاقبتها الفرج .

وأعلمني أنّ بطرقة بلده لم تزل في آبائه يتوارثونها ، وأنّ عددهم كان كثيراً ، ولم يبق غير أبيه وعمّه ، وكانت البطرقة إلى عمّه دون أبيه ، فأبطأ على أبيه وعمّه الولد ، فبذلا للمتطبّبين ، الكثير من الأموال لعلاجهما بما يصلح الرّجال للنّساء ، إلى أن بطل العمّ ، ويئس من الانتشار ، فصرف بعض الأطبّاء عنايته إلى معالجة أبي البطريق ، فعلقت أمّه به .

فلمّا علم العمّ أنّه قد علقت أمّه به ، جمع عدّة من الحبالى ، من أَلْسِنَةٍ مختلفة ، منها العربي ، والرّومي ، والافرنجي ، والصقلابي ، والخزري ، وغير ذلك ، فوضعن في داره .

فلمّا وضعت البطريق أمّه ، أمر بتصيير أولئك النّساء كلّهن معه ، وتقدّم إلى كلّ واحدة منهنّ ، ألّا تكلّمه إلّا بلسانها .

فلم تستتم له أربع سنين ، حتّى تكلّم بكلّ الألسنة الّتي لأمّهاته اللّاتي أرضعنه .

ثمّ أمر بتصيير ملاعبيه ومؤدّبيه من جميع أجناس النّساء اللّواتي ربّينه ، فكانوا يعلّمونه الكتابة ، وقراءة كتبهم [١٠٥ ظ] فلم تمرّ عليه تسع سنين ، حتّى عرف ذلك كلّه .

ثمّ أمر عمّه أن يضمّ إليه جماعة من الفرسان يعلّمونه الثّقافة والمناولة[١٢] ،

---

١٢ في ر : المنازلة ، والثقافة والمناولة بمعنى واحد ، وهي الملاعبة بالسلاح .

وجميع ما يتعلّمه الفرسان ، وتقدّم بمنعه من سكنى المنازل ، وأمر أن ينزل في [٧٩ ر] المضارب ، وأن يمنع من أكل اللّحم إلّا ما يصيده طائر يحمله على يديه ، أو كلب يسعى بين يديه ، أو صيد بسهمه ، فكانت تلك حاله حتّى استوفى عشر سنين ، ثمّ مات عمّه ، وولي أبوه البطرقة بعد عمّه ، وأمره بالقدوم عليه ، فلمّا رآه ، ورأى فهمه ، وأدبه ، وشمائله ، اشتدّ عجبه به ، فسمح له بما لم تكن الملوك تسمح به لأولادها [١٣] ، وأعدّ له المضارب[١٤] والفساطيط[١٥] الدّيباج[١٦] ، وضمّ إليه جماعة كثيفة من الفرسان ، ووسّع على الجميع في كلّ ما يحتاجون إليه ، وردّه إلى سكنى المضارب ، وأخذه بالاستبعاد عن منازل أبيه .

قال البطريق : فلمّا تمّت لي خمس عشرة سنة ، ركبت يوماً لارتياد مكان أكون فيه ، فبصرت بغدير[١٧] ماء قدّرت طوله ألف ذراع وعرضه ما بين ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة ذراع ، فأمرت بضرب مضاربي عليه ، وتوجّهت إلى الصّيد ، فرزقت منه في ذلك اليوم ، ما لم أطمع في مثله كثرة ، ونزلت في بعض المضارب فأمرت الطبّاخين ، فطبخوا لي ما اشتهيت من الطعام ، ثمّ نصبت المائدة بين يدي .

فإنّي لأنظر إلى الطبيخ يغرف ، إذ سمعت ضجّة عظيمة ، فما فهمت خبرها حتّى رأيت رؤوس أصحابي تتساقط عن أبدانهم ، فتنحّيت عن مكاني

---

١٣ في غ : تتسمّح به لولاة عهودها .

١٤ المضارب ، مفردها مضرب : الخيمة العظيمة .

١٥ الفساطيط ، مفردها فسطاط : البيت من الشعر .

١٦ الديباج : الدبج ، النقش والتزيين ، فارسيّ معرّب (لسان العرب) ، والديباج : القماش الذي سداه ولحمته حرير (المنجد) ، وتتخذ من الديباج الثياب ، والستور ، كما تتّخذ منه البسط والفرش ، ومن خصائص سجستان ، الفرش الديباج (لطائف المعارف ٢١٣ ، ونهاية الأرب ١ / ٣٦٦) ، قال كوركيس عوّاد : الديباج ضرب من الثياب الفاخرة ، ملوّن ألواناً ، وهو المعروف عند العراقيّين اليوم بالقَنَويْز (الديارات ١٦١) .

١٧ الغدير : قطعة من الماء يتركها السيل .

الّذي كنت فيه ، وخلعت الثّياب الّتي كانت عليّ ، ولبست ثياب بعض عبيدي ، ثمّ ضربت ببصري يمنة ويسرة ، فلم أر حولي إلّا مقتولاً ، وإذا فاعل ذلك بأصحابي منسر[18] من مناسر البرجان .

ثمّ أسرت كما يؤسر العبيد ، واحتمل جميع ما كان معنا ، من مضرب وغيره ، وصاروا بي إلى ملك البرجان .

فلمّا رآني ، ولم يكن له ولد ذكر ، أمر بالتوسعة عليّ ، وأن أكون واقفاً عند رأسه ، وسمّاني ابنه .

وكان للملك بنت ، وكان بها مغرماً ، وكان قد علّمها الفروسيّة ، ومساورة[19] الفرسان ، ومساهمتهم[20] ومراكضتهم .

فقال – وأنا حاضر – لجماعة من بطارقته : من منكم يتوجّه إلى ملك الرّوم فيجيئني بكاتب من بلده ، ليعلّم ابنتي الكتابة .

فأعلمته [١٤١ غ] أنّ رسوله لا يأتيه بأكتب منّي .

فأمرني أن أكتب بين يديه ، فكتبتُ ، فاستحسن خطّي ، وقرنه بكتب كانت ترد عليه من والدي ، فرأى خطّي أجود منها ، فدفع إليّ ابنته ، وأمرني أن أعلّمها الكتابة ، فهويتها ، وهويتني .

فمكَثتْ معي حتّى استوفت ثلاث عشرة سنة[21] ، ثمّ عَدَتْ إليّ يوماً وهي باكية ، فقلت لها : ما يبكيك يا سيّدتي ؟

فقالت : دعني ، يحقّ لي البكاء ، فسألتها عن السبب .

فقالت : كنت جالسة بين يدي أبي وأمّي في هذه اللّيلة ، فغلبتني عيني ،

---

١٨ المنسر : ما بين الأربعين إلى السبعين (البصائر والذخائر م٣ ق١ ص ٨١).

١٩ المساورة : المواثبة ، وفي غ : مناولة الفرسان .

٢٠ المساهمة : المقارعة ، وفي غ : ومسابقتهم .

٢١ في غ : ست عشرة سنة .

فنمت ، فسمعت أبي يقول لأمّي : أرى ثديي ابنتك قد تفلّكا[22] ، وأرى هذا الرّوميّ قد غلظ كلامه[23] ، وليس ينبغي أن يجتمعا بعد هذا الوقت ، فإذا جلسَتْ غداً معه ، فابعثي إليهما من يفرّق بينهما ، حتّى لا يراها ، ولا تراه .

قال البطريق : ومن سنّة البرجان ، أن يكون الرّجل يخطب لابنته زوجاً ، حتّى يزوّجها ، ولا يخطب لها إلّا من تختاره البنت .

قال البطريق : فقلت لابنة الملك ، إذا سألك أبوك ، من تحبّين أن أخطب لك من الرّجال ، فقولي : لستُ أريد إلّا هذا الرّومي .

فغضبت ، وقالت : كيف يجوز أن أسأل أبي أن يزوجني بعبد ؟

قال : فقلت لها : ما جعلني الله عبداً ، وأنا ابن ملك ، وأبي ملك الرّوم .

[قال البطريق : وأهل البرجان ، يسمّون البطريق الرومي الّذي يتولّى حدّ برجان : ملك الرّوم .][1]

فسألتني : هل أخبرتها بحقّ ؟

فأعلمتها أنّه [١٠٦ ظ] حقّ .

فما انقضى كلامنا ، حتّى جاء رسول الملك ، ففرّقوا بيننا ، ولم يمض [٨٠ ر] بعد ذلك ، إلّا ثلاثة أيّام حتّى دعاني الملك ، فدخلتُ عليه ، فرأيت أمارات الشرّ مستحكمة في وجهه .

فقال لي : يا شقيّ ، ما حملك على الكذب في نسبك ؟ وأنا أحكم على من انتسب إلى غير أبيه بالقتل .

فقلت له : ما انتسبت إلى غير أبي .

فقال لي : أتقول إنّك ابن ملك الرّوم ؟

فأعلمته أنّي أقول ذلك ، ودعوته إلى الكشف عنه .

---

٢٢ فلك ثدي الجارية : استدار .

٢٣ في غ : وأرى خلق هذا الرومي قد غلظ .

فقال : لست أحتاج إلى كشف أمرك برسول أرسله ليعرف خبرك ، ولكن لي أشياء أمتحنك بها ، فأعرف صدقك من كذبك ، فدعوته إلى كشفها بما شاء .

فدعا بدابّة ، ولبد ، وسرج ، ولجام ، فأمرني بتناول الدّابة ، فأخذت الدّابة من يد السائس ، ثمّ أمرني بأخذ اللّبد ، فأخذته ، ثمّ أمرني بإلقائه على الدّابة ، فَفَعَلْتُ ما أمرني به ، ثمّ أمرني بتناول السرج ، فأخذته ، ثمّ أمرني بشدّ الحزام ، والثفر[24] ، واللبب[25] ، وأخذ اللّجام وإلجام الدابّة ، ففعلت ذلك ، ثمّ أمرني بركوب الدابّة ، فركبت ، وأمرني بالسّير فسرت ، وأمرني بالإقبال والإدبار ، ففعلت ، ثمّ أمرني بالنزول ، فنزلت .

فقال ، عند ذلك : أشهد أنّه ابن ملك الرّوم ، لأنّه أخذ الدابّة أخذ ملك ، وعمل سائر الأشياء مثلما تعمله الملوك ، فاشهدوا أنّي قد زوّجته ابنتي .

فلمّا قالوا شهدنا ، قال : لا تشهدوا .

فلمّا سمعت قوله : لا تشهدوا ، تخوّفت أن يأتي على نفسي .

ثمّ قال لي : لم أتوقّف عن الشّهادة رغبة عنك ، ولكنّا لنا شرط لا نقدر أن نخالفه ، ولم نأمن أن تضطرّ إليه ، فنحملك على شرطنا ، وهو ما لم نخبرك به ، ونوقفك عليه ، فنكون قد ظلمناك ، أو ندع لك سنّة بلدنا ، فنكون قد فارقنا سنّتنا ، إنّ سنّتنا يا روميّ ، أن لا نفرّق بين الزوجين إذا مات أحدهما ، فإن مات الرّجل قبل المرأة ، نوّمناها معه في نعشه ، وحملناهما معاً ، حتّى ننزلهما إلى بئر هي مأوى موتانا ، وجعلنا معهما طعاماً وشراباً لثلاثة أيّام ، ثمّ أنزلناهما إلى البئر ، فإذا صارا إلى قرارها سيّبنا الحبال عليهما ، وكذلك إن ماتت [١٤٢ غ] المرأة قبل الرّجل ، جعلناها في سريرها ، وجعلنا زوجها معها ، وصيّرناهما جميعاً في البئر ، فإن رضيت بهذه السنّة فبارك الله لك في زوجك ، وإن لم ترض

---

٢٤ الثفر : سير من الجلد في مؤخّر السرج ، ويسمى عند عامّة بغداد الآن : ثُفَر ، بضم الثاء وفتح الفاء .

٢٥ اللبب : ما يشدّ من سير السرج في صدر الدابّة ليمنع استئخار السرج .

أقلناك ، فلسنا نزوّجك ، ولا تستقيم لنا على خلاف سنّتنا[٢٦] ، فأحوجتني الصبابة بها ، أن قلت : قد رضيت بهذه السنّة .

فأمر بتجهيزها وتسليمها إليّ ، وجمع بيننا ، فأقمت معها أربعين يوماً ، لا نرى إلّا أنّا قد فزنا بملك الدنيا .

ثمّ اعتلّت علّة كانت معها غشية ، لم يشكّ كلّ من رآها إلّا أنّها قبضت ، فجهّزَتْ بأفخر ثيابها ، وجهّزتُ معها بمثل ذلك ، وحملنا على نعش واحد ، وركب الملك ، وأهل المملكة ، فشيّعونا حتّى وافوا بنا شفير البئر ، ثمّ شدّوا أسافل السرير بالحبال ، وجعلوا معنا في النعشِ طعاماً وشراباً لثلاثة أيّام ، ثمّ حطّونا حتّى صرنا إلى قرارة البئر .

ثمّ أرخيت علينا الحبال ، فسقط حبل منها على وجه الجارية ، فأزال الوجعُ ما كان بها من الغشي ، فانتبهت ، فلمّا انتبهَتْ ، رأيت أنّ الدنيا قد جمعت لي .

واستمرّت عيني على الظلمة ، فرأيت في الموضع الّذي أنا فيه ، من الخبز اليابس والخمر ماله دهر كثير ، فأخذنا نتغذّى به جميعاً .

وكنّا لا نعدم في يوم من الأيّام ، إلّا النادر[٢٧] ، سريراً يدلّى فيه زوجان ، أحدهما ميت ، والآخر حيّ ، فإن كان النّازل رجلاً حيّاً ، تولّيت أنا قتله ، لئلّا يكون مع زوجتي غيري ، وكذلك إن كانت الحيّة امرأة ، تولّت زوجتي قتلها ، لئلّا يكون مع زوجها غيرها .

فمكثنا في البئر على [٨١ ر] هذه الحال أكثر من سنة ، ثمّ دلّي في البئر دلو ، فعلمت أنّ مدلّي الدلو غير برجانيّ ، وأنّه [١٠٧ ظ] لا يدخل ذلك الموضع غير برجانيّ ، إلّا رومي ، ووقع لي أن أقدّم الجارية قبلي ، لتتخلّص ، ثمّ تعرّفهم حالي ، فيردّوا الدلو إليّ ، فأصعد .

---

٢٦ في غ : وان لم ترض ، فليست راضية بك ، ولا تستقيم ان تتزوّجها على خلاف سنّتنا .

٢٧ في غ : إلاّ الخطا .

فحملت بنت الملك فجعلتها في الدلو [بكسوتها ، وحليها ، وجواهرها ، واجتذب القوم الدلو][1] ، فخرجت إليهم الجارية .

فإذا القوم مماليك لأبي ، [ولم ينتبهوا للسؤال عنّي ، وهابتهم الجارية ، أن تقول لهم شيئاً][1] ، وقد كانوا رأوا ما فيه أمّي وأبي وما غلب عليهما من الحزن لفقدي ، فصاروا إليهما بالجارية ليتسلّون بها ، فسرّا بها ، وسكنا إليها .

واستمرّت الهبية[28] لهما بالجارية ، فحصلت شرّ محصل .

وقد كان لوالدي صديق ، له أدب وحكمة ، وعلم بالتصوير ، صوّر لهما صورتي في خشبة ، وزوّقها ، وجعلها في بيت ، وقال لأبويّ : إذا ذكرتما ابنكما ، واشتدّ غمّكما ، فادخلا فانظرا إلى هذه الصورة ، فانّكما ستبكيان بكاء كثيراً يعقبكما سلوة .

فلمّا صارت الجارية إلى أبويّ ، ورأتهما يدخلان ذلك البيت كثيراً ، ويخرجان ، وقد بكيا ، استقفتهما يوماً ، وهما داخلان ، فبصرت بالصّورة ، فلمّا رأتها لطمت وجهها ، ونتفت شعرها ، ومزّقت ثيابها .

فسألاها عن السبب فيما صنعت بنفسها ، فقالت : هذه صورة زوجي ، فسألاها عن اسمه ، واسم أبيه وأمّه ، فأسمتهم جميعاً .

فقالا لها : فأين زوجك ؟

قالت : في البئر الّتي أخرجت منها ، فركب أبي وأمّي في أكثر أهل البلد ، ومعهم الغلمان الّذين اخرجوا الجارية من البئر ، حتّى وافوا البئر ، فدلّوا الدلو ، وكنت قد سللت سيفي الّذي كان أنزل معي من غمده ، [وجعلت ذبابه[29] بين ثدييّ][1] لأتّكئ عليه ، فأخرجه من ظهري ، فأستريح من الدنيا ، لغلبة الغمّ عليّ ، فوثبت ، فقعدت [١٤٣ غ] في الدّلو ، واجتذبوني حتّى خرجت ،

---

٢٨ كذا في ظ ، وفي م وغ : الهيبة ، ولم أفهم معناها ، ولعلّ الجملة : واستمرّت هيبة الجارية لهما .

٢٩ ذباب السيف : طرفه الذي يضرب به .

فوجدت أبي ، وأمّي ، وامرأتي ، على شفير البئر ، وقد أحضروا لي الدّواب لأركب وأنصرف إلى بلادي ، وكان أبي قد صار ملك تلك البلاد ، فلم أطعهما ، وأعلمتهما أنّ الأصوب البعثة إلى أبي الجارية ، وأمّها ، حتّى يريا ابنتهما مثلما رأيتماني .

ففعلا ذلك ، ووجّها إلى أبي الجارية ، وهو صاحب البرجان ، فخرج في أهل مملكته ، حتّى عاينها ، وأقاموا عرساً جديداً ، وحدثت مهادنة بين الرّوم والبرجان جرت فيها أيمان مؤكّدة أن لا يعدو أحدهما على صاحبه ثلاثين سنة ، وصار القوم إلى بلادهم ، وصرنا إلى منازلنا .

قال : ومات أبي ، فورثت البطرقة عنه ، ورزقت من بنت ملك البرجان الولد ، وأنت يا عربي ، فإن كان الغمّ قد بلغ منك إلى ما ذكرت فقد جاءك الفرج .

فما انقضى كلام البطريق ، حتّى دخل عليه رسول ملك الرّوم يدعوه ، فمضى إليه ، ثمّ عاد إليّ ، فقال : يا عربيّ ، قد جاءك الفرج ، كنتُ عند الملك ، وقد جرى ذكر العرب ، ورمتهم البطارقة عن قوس واحدة ، فذكروا أنّهم لا عقول لهم ولا آداب ، وأنّ قهرهم الرّوم بالغلبة والاتّفاق ، لا بحسن التدبير .

فأعلمت الملك أنّ الامر بخلاف ما قالوا ، فإنّ للعرب آداباً ، وأذهاناً ، وتدبيراً جيّداً .

فقال لي الملك : أنت لمحبّتك لضيفك العربي تفرط في إعطاء العرب ما ليس لها ، وتصفها بما ليس فيها .

فقلت : إن رأى الملك أن يأذن في إحضار هذا العربي ، ليجمع بينه وبين هؤلاء المتكلّمين ، ليعرف فضيلته ، فأمرني بحملك إليه .

فقلت : بئس ما صنعت بي ، لأنّي أخاف إن غلبني أصحابه أن يستخفّ بي ، وإن غلبتهم أن يضطغن عليّ .

فقال : هذه صفة العامّة ، والملوك على خلافها ، وأنا أخبرك أنّك إن

غلبتهم جللت في عين الملك ، وكنت عنده بمكان يقضي لك فيه حاجة [٨٢ ر] ، وإن غلبوك سرّه غلبة أهل دينه لكْ ، فأوجب لك أيضا بذاك ذماماً[٣٠] ، وإنّ أقلّ ما يرى أن يقضي لك حاجة ، فإن غلبتَ أو غُلبتَ [١٠٨ ظ] فسله[٣١] إخراجك من بلده ، وردّك إلى بلادك ، فإنّه سوف يفعل ذلك .

قال قباث : فلمّا دخلت على الملك ، استدناني ، وقرّبني ، وأكرمني ، وقال لي : ناظر هؤلاء البطارقة .

فأعلمته ، أنّي لا أرضى لنفسي بمناظرتهم ، وأنّي لا أناظر إلّا البطريق الأكبر[٣٢] ، فأمر بإحضاره .

فلمّا دخل ، سلّمت عليه ، وقلت له : مرحباً أيّها الشّيخ الكبير القدر .

ثمّ قلت له : يا شيخ ، كيف أنت ؟

قال : في عافية .

قلت : فكيف أحوالك كلّها ؟

قال : كما تحبّ .

فقلت له : فكيف ابنك ؟

فتضاحكت البطارقة كلّها ، وقالوا : زعم البطريق [يعنون الّذي هو صديقي][١] أنّ هذا أديب ، وأنّ له عقلاً ، وهو لا يعلم بجهله ، أنّ الله تعالى قد صان هذا البطريق عن أن يكون له ابن .

فقلت : كأنّكم ترفعونه عن أن يكون له ابن ؟

قالوا : إي والله ، إنّا لنرفعه ، إذ كان الله رفعه عن ذلك .

فقلت : واعجباً ، أيجلّ عبد من عبيد الله ، أن يكون له ابن ، ولا يجلّ

---

٣٠ الذمام : الحرمة .

٣١ في ظ : فسألته ، والتصحيح من ر وغ .

٣٢ في غ : البطرك الأكبر .

الله تعالى ، وهو خالق الخلائق كلّها ، عن أن يكون له ابن .

قال : فنخر البطريق نخرةً أفزعتني ، ثمّ قال : أيّها الملك ، أخرج هذا السّاعة عن بلدك ، لا يفسد عليك أهله .

فدعا الملك بالفرسان ، فضمّني إليهم ، وأحضر لي دواب البريد ، وأمر بحملي عليها ، وتسليمي إلى من يلقانا في أرض الإسلام من المسلمين ، فسلّموني إلى من تسلّمني من أهل الثّغر .

ثمّ ذكر حديثاً لعبد الملك ، مع الرّجل ، لا يتعلّق بهذا الباب فأذكره ، [والله سبحانه وتعالى أعلم بالصّواب][33] [١٤٤ غ] .

---

٣٣ هذه القصّة سقطت من م .

١٩٨

استنقذ المذحجيّين من أسر بني مازن

وذكر القاضي [أبو الحسين في كتابه الفرج بعد الشدّة] [١]، قال:

بلغني أنّ عمرو بن معدي كرب [٢] الزَبيدي، قال: خرجت في خيل من بني زبيد، أريد غطفان، فبينما أنا أسير، وقد انفردت عن أصحابي، إذ سمعت صوت رجلٍ ينشد شعراً، فحفظت منه قوله:

أما من فتى لايخاف العطب ... يبلّغ عمرو بن معدي كرب

بأنّنا ننوّط في مازنٍ ... بأرجلنا اليوم نوط القرب

فإن هو لم يأتنا عاجلاً ... فيكشف عنّا ظلام الكرب [٣]

وإلّا استغثنا بعبد المدان ... وعبد المدان لها إن طلب

قال: فعلمت أنّه أسير في بني مازن بن صعصعة، فقلت لخيلي: قفوا حتّى آتيكم، فاقتحمت على القوم وحدي، فإذا هم يصطلون.

فقلت: أنا أبو ثور، أين أسرى بني مذحج؟.

فنادى [١٠٨ م] الأسرى من الرّجال، وبادر القوم إليّ يطلبوني، فلم أزل أقاتلهم وأقتل منهم حتّى استعفوني، وقالوا: إنّنا والله لنعلم، أنّك لم تأتنا وحدك [إلّا وأنت لا تبالي بنا] [٤]، فلك الأسرى فاكفف عنّا خيلك.

---

١ الزيادة من غ وم.

٢ أبو ثور عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزَبيدي: فارس اليمن، وفد على المدينة سنة ٩ فأسلم، ولما توفّي النبيّ ارتدّ، ثم عاد فأسلم، وشهد اليرموك، والقادسية، وكان أبياً، شجاعاً (الأعلام ٥ / ٢٦٠).

٣ هذا البيت لا يوجد في ظ، والإضافة من غ.

٤ الزيادة من غ.

فنزلت ، وأطلقت بعضهم ، وقلت : ليحلّ بعضكم بعضاً[٥] ، وليركب كلّ واحد منكم ما وجد من الخيل ، وأقبلَتْ خيل فركبوها .

فقلت للأسرى : هل علمتم بموضعي ، حين أنشدتم ما سمعتُ .

قالوا : لا والله ، وما أصبحنا يوماً ، منذ حبسنا ، آيس من الفرج من يومنا هذا[٦] ، فلذلك أقول :

ألم ترني إذ ضمّني البلدُ القفرُ ... سمعت نداءً يصدع القلب يا عمرو
أغثنا فإنّا عصبة مذحجيّةٌ ... نناط على وفر وليس لنا وفر
فقلت لخيلي أنطروني[٧] فإنّني ... سريع إليكم حين ينصدع الفجر
وأقحمت مهري حين صادفت غرّةً ... على الطفٍ حتّى قيل قد قتل المهر
فأنجيت أسرى مذحج من هوازن ... ولم ينجهم إلّا السكينة والصّبر
ونادوا جميعاً حلّ منا وثاقنا ... أخا البطش إنّ الأمر يحدّثه الأمر
وأبتُ بأسرى لم يكن بين قتلهم ... وبين طعاني ضارباً عنهم فِتْرْ
يزيد وعمر والحصين ومالكٌ ... ووهبٌ وسفيان وسابعهم وبر
[تكلّفنا يا عمرو ما ليس عندنا ... هوازن فانظر ماالّذي فعل الدّهر][٨]

قال مؤلّف هذا الكتاب : أنشدنا أبو الفرج الأصبهاني البيتين الأوّلين ، أوّلهما : ألم تر لمّا ضمّني البلد القفر . وفي الثّاني : نراد على وتر وليس لنا وفر ، قال : فيهما خفيف رمل بالوسطى لمحمّد بن الحارث بن بسخنّر [عن عمرو ، قال : وذكر أنّه لابن بانه وفيهما ثاني ثقيل عن ..][٩]

---

٥ في غ : ليحلّ مطلقكم موثقكم .

٦ في م : ما أصبحنا منذ أسرنا ، أشدّ يأساً ، ولا أتمّ إيقاناً منّا بالهلاك ، من هذا اليوم .

٧ في غ : أنطروني ، بالطاء المهملة ، وفي ر وم : أنظروني ، بالظاء المعجمة ، وكلاهما بمعنى واحد ، أي : انتظروني ، والبغداديون يقولون : أنطرني (بالطاء) بمعنى انتظرني .

٨ أضيف هذا البيت من م .

٩ وردت في غ ، ولم أفهمها . ولعل ترتيبها الصحيح كما يلي : وذكر أنّ فيهما ثقيل ثاني لعمرو بن بانه .

[أخبرني بهذا الخبر ، محمّد بن الحسن بن المظفّر [١٠٩ ظ] ، قال : أخبرني أبو القاسم الزينبي ، قال : أخبرنا أبو خليفة الجمحي[١٠] ، عن محمّد بن سلّام[١١] ، وذكر نحوه][١٢] .

---

١٠ أبو خليفة الفضل بن الحبّاب بن محمّد الجمحي : قاضي البصرة ، شاعر ، أديب ، كان مولعاً بالسجع ، جاء إلى بغداد على رأس وفد ، وكلّم الوزير ، فقال له : أحسبك أيّها الشيخ مؤدّباً ، فقال له : أيّها الوزير ، المؤدّبون أجلسوك هذا المجلس ، راجع أخباره في معجم الأدباء ٦ / ١٣٤ وفي مروج الذهب للمسعودي ٢ / ٥٠٠ و٥٠١ وفي نشوار المحاضرة للتنوخيّ القصص ٢ / ٩ و٢ / ١٠ و٣ / ٢٩ و٣ / ١٧٩ و٤ / ٧٤ .

١١ أبو عبد الله محمّد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي (١٥٠ – ٢٣٢) : إمام في الأدب من أهل البصرة ، مات ببغداد ، له عدّة مؤلفات (الأعلام ٧ / ١٦) .

١٢ لم ترد في غ .

الباب السادس[1]

من فارق شدّة إلى رخاء بعد بشرى منام
لم يشب صدق تأويله بكذب الأحلام

١٩٩

ما عرض المعتضد في أيّامه للعلويّين
ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً

أخبرنا أبو بكر محمّد بن يحيي الصولي ، قال : حدّثنا محمّد بن يحيي ابن أبي عبّاد الحسني[1] ، قال :

رأى المعتضد ، وهو في حبس أبيه ، كأنّ شيخاً جالساً على دجلة ، يمدّ يده إلى مائها فيصير في يده وتجفّ دجلة ، ثمّ يردّه من يده ، فتعود دجلة كما كانت .

قال : فسألت عنه ، فقيل لي : هذا عليّ بن أبي طالب عليه السّلام .

فقمت إليه ، وسلّمت عليه ، فقال لي : يا أحمد ، إنّ هذا الأمر صائر إليك ، فلا تتعرّض لولدي ، وصنهم ، ولا تؤذهم .

---

١ أبو جعفر محمّد بن يحيي بن أبي عبّاد جابر بن يزيد بن الصباح العسكري النديم ، المعروف بمحبرة : ترجم له ابن النديم في الفهرست ٦٦ وذكره ياقوت في معجم الأدباء ١ / ٥٧ ، وقالا : إنّه كان حسن الأدب ، نادم المعتضد ، وألّف له كتاب جامع المنطق ، ووصفه التنوخيّ بأنّه كان غاية في الظرف ، وكبر النفس ، وعظم النعمة ، راجع قصّته مع جحظة البرمكيّ في القصّة ٢٤٤ من هذا الكتاب .

فقلت : السّمع والطاعة لك يا أمير المؤمنين .

وحدّثني أبي رحمه الله بهذا الحديث ، على أتمّ من هذا ، بإسناد ذكره عن إبن حمدون النديم ، [قال : حدّثني أبو محمّد عبد الله بن أحمد بن حمدون[٢] ، أو قال : حدّثني من قال حدّثني أبو محمّد – أنا أشكّ – لأنّي لم أكتبه ، وإنّما حفظته في المذاكرة ، ولعلّ الألفاظ تزيد أو تنقص ، قال][٣] :

قال لي المعتضد بالله وهو خليفة : لمّا قدم أبي ، وهو عليل [العلّة الّتي مات فيها ، وأنا في حبسه[٤] ، ازداد خوفي على نفسي ، ولم أشكّ في أنّ إسماعيل بن بلبل ، سيحمله على قتلي ، أو يحتال بحيلة يسفك بها دمي ، إذا وجد أبي قد ثقل ، وأيس منه][٣] .

فنمت ليلة من تلك اللّيالي ، وأنا من الخوف على أمر عظيم ، وقد صلّيت صلاة كثيرة ودعوت الله عزّ وجلّ ، فرأيت في منامي كأنّني قد خرجت إلى شاطئ دجلة ، فرأيت رجلاً جالساً على الشاطئ ، يدخل يده في الماء ، فيقبض عليه ، فتقف دجلة ، ولا يخرج من تحت يده قطرة من الماء ، حتّى يجفّ ما تحت يده ، ويتزايد الماء فوق يده ويقف كالطود العظيم ، ثمّ يخرج يده من الماء فيجري ، يفعل ذلك مراراً ، فهالني ما رأيت .

فدنوت منه ، وسلّمت عليه ، وقلت له : من أنت يا عبد الله الصالح ؟

فقال : أنا عليّ بن أبي طالب .

---

٢ أبو محمّد عبد الله بن أحمد بن إبراهيم (حمدون) بن إسماعيل بن داود ، الملقّب بابن حمدون النديم : ترجمته في حاشية القصّة ٦٥ من الكتاب .

٣ الزيادة من غ .

٤ في السنة ٢٧٥ حبس الموفّق ابنه أبا العباس ، فشغب أصحابه ، وحملوا السلاح ، وركب غلمانه ، واضطربت بغداد ، فركب أبو أحمد ، حتى بلغ الرصافة ، وقال لأصحاب أبي العباس وغلمانه : ما شأنكم ؟ أترونكم أشفق على ولدي منّي ؟ هو ولدي ، واحتجت إلى تقويمه ، فانصرفوا (الطبري ١٠ / ١٥) .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ادع الله لي .

فقال : إنّ هذا الأمر صائر إليك ، فاعتضد بالله ، واحفظني في ولدي ، فانتبهت وكأنّي أسمع كلامه لسرعة المنام .

فوثقت بأنّني أتقلّد الخلافة ، وقويت نفسي ، وزال خوفي ، فقلت لغلام لم يكن معي في الحبس غيره ، إذا أصبحنا فامض فابتع لي خاتماً ، وانقش على فصّه أحمد المعتضد بالله ، [١٠٩ م] وجئني به .

فمضى ، وفعل ، وأتاني به ، فلبسته ، وقلت : إذا وليت الخلافة ، جعلت لقبي المعتضد بالله .

ثمّ أخذت أقطع ضيق صدري في الحبس ، بتصفّح أحوال الدنيا ، والفكر في تدبير عمارة الخراب منها ، ووجه فتح المنغلق ، وتعيين العمّال للنواحي ، والأمراء في البلاد .

ثمّ أخذت رقعة ، فكتبت ، بدر : الحاجب ، عبيد الله بن سليمان ؛ الوزير ، فلان : أمير البلد الفلاني[٥] ، فلان ؛ عامل البلد الفلاني[٦] ، فلان : للديوان الفلاني ، إلى أن أتيت على ما في نفسي من ذلك ، ثمّ دفعتها للغلام ، وقلت له : احتفظ بهذه ، فإنّ دمي ودمك مرتهنان بما فيها ، فحفظها .

فما مضى إلّا أيّام يسيرة ، حتّى لحقَتِ الموفّق غشية ، لم يشكّ الغلمان معها أنّه قد مات [٨٣ ر] ، فأخرجوني ، فأتوا بي إلى بيت فيه الموفّق ، فلمّا رأيته علمت أنّه غير ميت ، فجلست عنده ، وأخذت يده أقبّلها وأترشّفها ، فأفاق ، فلمّا رآني أفعل ذلك ، أظهر التقبّل لي ، وأومأ إلى الغلمان ، أن قد أحسنتم فيما فعلتم .

---

٥ الأمير : راجع حاشية القصّة ٧٣ من هذا الكتاب .

٦ العامل : راجع حاشية القصّة ٧٣ من هذا الكتاب .

ثمّ مات الموفّق في ليلته تلك ، ووليت مكانه[7] ، فابتدأت بتقرير الأمور ، على ما كنت قرّرته [١٤٥ غ] في الرّقعة ، ثمّ وليت الخلافة ، فأمضيت بقايا تلك التدبيرات كلّها .

[قال لي أبي : قال لي ابن حمدون : ما عرض المعتضد في أيّامه للعلويّين ، ولا آذاهم ، ولا قتل منهم أحداً][8] .

---

٧ توفي الأمير الموفق ، وهو ابن ٤٨ سنة وأشهراً ، وخلفه ولده المعتضد ، وهو ابن ست وثلاثين سنة ، فيكون الأب أسنّ من ولده بثلاث عشرة سنة ، ولما عاد الموفق إلى بغداد كان قد اشتد به وجع النقرس ، وأصيب بمرض الفيل ، ولم يكن قادراً على الركوب ، فاتّخذ له سرير عليه قبّة ، وكان يحمل سريرَه أربعون رجلاً ، يتناوب عليه عشرون عشرون ، ولما وافى النهراوان ، ركب الماء ، فسار في النهراوان ، ثم في ديالي ، ثم في دجلة إلى الزعفرانية ، حتى دخل داره ببغداد (الطبري ١٠/٢٠) .

٨ الزيادة من غ وم ، ونقل الخبر باختصار صاحب حلّ العقال ص ٤٧ .

٢٠٠

سليمان بن وهب يتفاءل بمنام رآه وهو محبوس

[حدّثني عليّ بن هشام بن عبد الله الكاتب ، قال : حدّثنا أبو الحسين عبد الواحد بن محمّد الخصيبي ، ابن بنت ابن المدبّر ، قال : حدّثني أبو الفضل ميمون بن هارون بن مخلد بن أبان الكاتب – قال علي بن هشام : وميمون هذا ، هو جد أبي الحسين بن ميمون الأفطس ، كاتب المتّقي في أيّام أبيه ، ووزيره لما استخلف[1] – قال :][2]

كانت بيني وبين أبي أيّوب سليمان بن وهب ، مودّة وكيدة ، فلمّا تسهّلت محنته بعد قتل إيتاخ ، صرت إليه وهو محبوس مقيّد ، إلّا أنّه مرفّه في الكسوة ، وكبر الدار ، والفرش ، وحسن الخدمة ، وقد صلحت حاله بالإضافة إلى ما كان عليه أوّل نكبته من الضرب والتضييق .

فحدّثني : أنّه رأى في ليلته تلك ، في منامه ، كأنّ قائلاً يقول له :

اصبر وربّ البيت لا يقتادها　　　أحد سواك وحظّك الموفور

قال : فصرت إلى أخيه أبي عليّ الحسن بن وهب ، فحدّثته بذلك ، فسرّ به ، وكان كالمستتر الممتنع عن لقاء السلطان ، فعمل شعراً ضمّنه البيت ، وسألني إيصاله إلى أخيه أبي أيّوب سليمان ، فأخذته ، وأدخلته إليه ، وهو :

الدّمع من عيني أخيك غزير　　　في ليله ونهاره محدور
بأبي وأمّي خطوك المقصور　　　أمقيّد، ومصفّد، وأسير؟ [١١٠ ظ]

---

١ أبو الحسين أحمد بن محمّد بن ميمون بن هارون بن مخلد بن أبان الكاتب .

٢ الزيادة من غ ، وفي م : قال علي بن هشام : كانت بيني ... الخ ، وفي ظ : رأى سليمان بن وهب وهو محبوس ، كأنّ قائلاً يقول له ... الخ .

وزادني غيره ، في غير هذه الرواية :

ماذا بقلب أخيك مذ فارقتـه   ليكاد من شوق إليك يطير
فكأنّمـا هـو قرحة مقروفـة[3]   منها البلابل والهموم تثور [١٤٦ غ]
فِكَرٌ يجول بها الضّمير كأنّمـا   يذكو بها حول الشغاف سعير
وجوى دخيلٌ ليس يعلم كنهه   ممّا يلاقيه أخ وعشير
فيظنّه أخدانه متسلّيـاً   والبثّ في أحشائه مستور

رجع إلى الرواية الأولى :

ما كنت أحسبني أعيش ومهجتي   تحت الخطوب تدور حيث تدور
قلقاً[4] ، فإنّك بالعزاء جدير   وعلى النوائب – منذ كنتَ – صبور
عثرات مثلك في الزّمان كثيرة   ولهنّ بعدُ مثابة وحبور
إن تمس في حَلَقِ الحديد فحشوها   منك السماحة والنّدى والخير
والفصل للشبهات رأيك ثاقبٌ   فيها يضيء سداده وينير

وزادني غيره أيضاً :

وتحمّل العبء الثقيل بثقله   منك المجرّب عزمه المخبور

رجع إلى الرواية الأولى :

فاصبر – وربِّ البيت – لا يقتادها   أحد سواك وحظّك الموفور

---

٣ القرف ، في اللغة : القشر ، وقوله : القرحة المقروفة ، لأنّ القرحة إذا قشرت أو مسّت بعنف ، آلمت ألماً شديداً ، والبغداديون الآن يسمّون القرحة : دنبلة ، تحريف : دمّل ، ويقولون عن القرحة المقروفة : الدنبلة الملجومة ، بالجيم المثلّثة الفارسيّة .

٤ كذا ورد في ر ، وفي م : وفي ظ : قلعا ، وفي غ : فلعاً ، والمقتضي أن يكون موضعها كلمة أخرى مثل : صبراً ، أو مهلاً ، إلاّ إذا اعتبرت الكلمة تابعة للبيت الذي قبله ، فتكون الجملة : ما كنت أحسبني أعيش قلقاً ، أو أنّ المقصود : كفى قلقاً ، أو حسبك قلقاً ، بإضمار كفى أو حسبك .

والله مرجـوّ لكربتنـا معـــاً وعلى الّذي نرجوه منه قدير[٥]

قالَ : فما مضت إلّا أيّام يسيرة ، حتّى أطلق سليمان بن وهب ، ثمّ انتهى بعد سنين إلى الوزارة .

[وذكر هذا الخبر محمّد بن عبدوس في كتابه : كتاب الوزراء ، على قريب من هذا ، إلّا أنّه أتى من الشعر ببيتين فقط .][٦]

---

٥ هذا البيت لم يرد في ظ ، ولا في م .

٦ الزيادة من غ .

٢٠١

لم يقصد النّهابة دار الحسن بن مخلد لأنّه كان متعطّلاً

[حدّثني عليّ بن هشام ، قال : حدّثني أبو الفرج محمّد بن جعفر بن حفص الكاتب[١] ، قال :][٢] حدّثني أبو القاسم عبيد الله بن سليمان ، قال :

كان أبو محمّد الحسن بن مَخْلَد ، أوّل من رفعني ، واستخلفني على ديوان الضياع ، فكنت أخلفه عليه ، إلى أن ولي شجاع بن القاسم الوزارة[٣] ، [١١٠ م] مع كتبة أوتامش[٤] في أيّام المستعين ، فاشتدّ جزع أبي محمّد منه .

---

١ أبو الفرج محمّد بن جعفر بن حفص الكاتب : من كتّاب الدولة العباسيّة ، كان متحقّقاً بأبي القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وزير المعتضد ، ولّاه أبو القاسم الخاقاني ديوان السواد في السنة ٣١٢ لما خلف أبا الحسن بن الفرات في وزارة المقتدر ، وقد أثنى ابن الفرات على كفاءته (تجارب الأمم ١ / ١٢٩ والوزراء ١٤٠) .

٢ الزيادة من غ .

٣ شجاع بن القاسم : كان كاتب القائد أبي موسى أوتامش التركي ، وكان المستعين قلّد أوتامش الوزارة ، ولكنّ كاتبه شجاع ، كان هو المتولّي لأمر الوزارة ، والقيّم بها (مروج الذهب ٢ / ٤٣٣) ، ووصف الحسن بن مخلد شجاع بأنّه : حمار ، ووصفه البحتريّ بأنّه جاهل (الطبري ٩ / ٣٥٣) ، وقال عنه الحصريّ في الملح والنوادر ص ١٧٢ إنّه أمّي لا يقرأ ولا يكتب ولا يفهم ، وإنّما علّم علامات يكتبها في التواقيع ، وروى عنه عجائب في كتاب الملح والنوادر ، راجع ذلك في الصفحة ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤ ، وراجع كذلك الهفوات النادرة ص ٢٦٨ ، قتل شجاع مع صاحبه أوتامش في السنة ٢٤٩ .

٤ أبو موسى أوتامش : من القوّاد الأتراك في الدولة العباسيّة ، كان غلام الواثق ، وانتصر للمنتصر في خصومته مع المتوكّل (مروج الذهب ٢ / ٤١٧) ولما استخلف المستعين استوزره (مروج الذهب ٢ / ٤٣٣) وجعل ابنه العبّاس في حجره (تجارب الأمم ٦ / ٥٦٦) وقدّمه على جميع الناس (تجارب الأمم ٦ / ٥٦٤) وأطلق يده في بيوت الأموال فاكتسحها ، فهاج عليه الجند ، فقتلوه وكاتبه شجاع ابن القاسم (تجارب الأمم ٦/٢٦٦ ، الطبري ٩/٢٦٣ ، الكامل ٧/١٢٣) .

فسألته عن سبب ذلك ، فقال : [٨٤ ر] هذا رجل حمار ، لا يغار على صناعته ، وهو مع هذا من أشدّ النّاس حيلة وشرًّا ، وهو يعرف كبر نفسي ، وصغر نفسه ، وقد بدأ بأبي جعفر أحمد بن إسرائيل ، فصرفه عن ديوان الخراج ، ونكبه ، ونفاه إلى أنطاكية[٥] ، ولست آمن أن يجعلني في أثره .

قال : فما مضى إلّا أسبوع ، حتّى ظهر إنّ أبا موسى عيسى بن فرخان شاه[٦] القنّائي الكاتب قد سعى مع شجاع في تقلّد ديوان الضياع ، ثمّ تقلّده صارفاً للحسن بن مخلد ، وخلع عليه ، فازداد جزع الحسن ، وأغلق بابه ، وقطع الركوب .

فبينما أنا عنده في بعض العشيّات ، إذ أتت رقعة من شجاع ، يستدعيه ، ويؤكّد عليه في البدار ، فارتاع ، ونهض ، وتعلّق قلبي به ، فقعدت أنتظر ، إلى أن عاد وهو مغموم مكروب .

فقلت : ما خبرك ؟

قال : قد فرغ شجاع من التدبير عليّ ، وذلك أنّه قد صحّ عندي بعد افتراقنا ، أنّ أوتامش قال البارحة لبعض خواصّه : قد ثقّلنا على شجاع ، وحمّلناه ما لا يطيق من كتبتي والوزارة ، وتركنا هذا الشيخ الحسن بن مخلد ، متعطّلاً ، ولا بدّ أن يفرج له شجاع عن كتبتي ، أو الوزارة ، لأقلّده أحدها ، فلمّا بلغ ذلك شجاعاً ، أنفذ إليّ في الوقت .

فلمّا لقيته السّاعة ، قال لي : يا أبا محمّد ، أنت شيخي ، ورئيسي ، وأنت اصطنعتني ، وأنا معترف بالحقّ لك ، وآخر ما لك عندي من الإنعام

---

٥ كذا ورد في جميع النسخ ، والذي في كتب التاريخ : أنّ الموالي في السنة ٢٤٨ غضبوا على أحمد بن الخصيب ، فاستصفي ماله ، ومال ولده ، ونفي إلى إقريطش (كريت) ، راجع تجارب الأمم ٦ / ٥٦٤ والطبري ٩ / ٢٥٩ والكامل ٧ / ١١٩ .

٦ أبو موسى عيسى بن فرخان شاه القنّائي الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ١٢٤ من الكتاب .

أن قلّدتني عمالة همذان[7] ، فانتقلت منها إلى هذه المرتبة ، والأمير يحذرك الحذر كلّه وقد أقام على أنّه لا بدّ من نكبتك وإفقارك ، فللحال الّتي بيننا ، ما أقمت على الامتناع عليه من هذا ، وسألته في أمرك ، وبعد أن جرت خطوب ، تقرّر أن لا تجاوره ، وتشخص إلى بغداد ، ورضّيته بذلك ، وصرفت عنك النكبة ، وقد أمرني بإخراجك من ساعتك ، وما زلت معه حتّى استنظرته لك ثلاثة أيّام ، أوّلها يومنا هذا ، فاعمل على هذا ، وأنّك تمضي إلى بلدِ الأمر والنّهي فيه إلى أبي العبّاس محمّد بن عبد الله بن طاهر[8] ، وهو صديقك ، ويخدمك النّاس كلّهم ، ولا تخدم أحداً ، وتقرب من ضيعتك .

فأظهرت له الشكر ، وضمنت له الخروج ، وأنا خائف منه أن يدعني حتّى أخرج آلتي وحرمي [١١١ ظ] ثمّ يقبض على ذلك كلّه ، وينكبني .

فقلت : الوجه أن تفرّق جميع مالك وحرمك والأمتعة والدوابّ ، وتودعه ثقاتك ، وإخوانك ، من وجوه قوّاد الأتراك وكتّابهم ، وتطرح الثّقل الّذي لا قيمة

---

٧ همذان : مدينة من أكبر مدن المنطقة المسمّاة : الجبل ، عذبة الماء ، طيّبة الهواء ، أرضها منبت الزعفران ، وشتاؤها مفرط البرد (مراصد الاطلاع ٣ / ١٤٦٥) أقول : مررت بهمذان في أحد أسفاري في السنة ١٩٥٥ ، وأبصرت فيها ، خارجها ، قبر الشيخ الرئيس ابن سينا رحمه الله ، ويسمّونه هناك : أبو علي ، وعلى القبر قبّة عظيمة ، نقش على دائرها من الداخل قصيدته المشهورة الّتي مطلعها :

هبطت إليـك من المحـلّ الأرفع ورقـاء ذات تعـزّز وتمنّـع

وحول القبّة ، بناء ضخم كثير الأبهاء والغرف ، مفروش بأفخر السجّاد الإيراني ، وقد بني مقابل الضريح ، فندق من الدرجة الأولى ، اسمه : فندق أبو علي .

٨ أبو العباس محمّد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين المصعبيّ (٢٠٩ - ٢٥٣) : أمير بغداد ، شجاع ، حازم ، من بيت مجد ورياسة ، ولّي إمارة بغداد في عهد المتوكّل العباسيّ ، واستمرّ على إمارتها حتى مات ، وكان فاضلاً ، أديباً (القصّة ٤ / ١٣٤ من نشوار المحاضرة للتنوخيّ) ، حليماً (الطبري ٩ / ٣٣٨) قال الخطيب البغداديّ : كان مألفاً لأهل العلم والأدب (الأعلام ٧ / ٩٤) .

له من خيش وستائر وأسرّة وآلة المطبخ في الزواريق ، وتُجْلِس في الحرّاقة[9] العجائز اللّواتي لا تفكّر فيهنّ ، ليظنّ أنّهنّ الحرم ، وتجتهد أن يكون خروجك ظاهراً ، ولا تكاشف بالاستتار ، بل على سبيل توقٍّ ومراوغة ، فإذا حصلتَ ببغداد ، دبّرت أمرك حينئذ بما ترى [١٤٧ غ] .

فقال : هذا رأي صحيح ، وأخذ يصلح أمره على هذا .

فلمّا كان في ليلة اليوم الثالث ، لم أنم أكثر اللّيل ، فكراً فيه ، وغمّاً بأمره ، ثمّ نمت لمّا غلبتني عيني ، فرأيت في السَّحَر كأنَّ قائلاً يقول لي : لا تغتمّ ، فقد ركب الأتراك من أصحاب وصيف وبغا ، إلى أوتَامش وكاتبه شجاع ، وقد هجموا عليهما ، وقتلوهما ، واسترحتم منهما .

فانتبهت مروّعاً ، ووجدت الوقت حين انفجار الصّبح ، فصلّيت ، وركبت إلى الحسن بن مخلد ، فدخلت إليه من باب له غامض ، لأنّه كان قد أغلق أبوابه [٨٥ ر] المعروفة ، فسألته عن خبره .

فقال : هذا آخر الأجل ، وقد خفت أن يعاجلني شجاع بالقبض عليّ ، وقد أغلقت أبوابي ، واستظهرت بغلمان يراعون رسله ، فإن جاؤوا ورأوا أمارات الشرّ منهم ، خرجت من هذا الباب الغامض[10] ، وأن يسألوا عن شجاع ،

---

٩ الحرّاقة ، وجمعها حرّاقات وحراريق : هي في الأصل سفن فيها مرامي نار ، يقذف بها العدو ، ثم أطلقت على سفن المعابر ، وكان المترفون يتفنّنون في بنائها على صور الحيوان والطير ، راجع معجم المراكب والسفن في الإسلام لحبيب زيات ، مجلة المشرق م ٤٣ .

١٠ كان رجال الدّولة من أمراء وقوّاد وكتّاب في تلك الأيّام ، يعيشون عيشة حذر وترقّب ، يتآمر بعضهم على بعض ، ويغتال بعضهم بعضاً ، وكان من جملة ما يقتضيه حذرهم ، أنّهم كانوا يتّخذون في دورهم أبواباً عدّة ، وبعضها غامض لا يعرف ، فكانوا ينفذون من الأبواب الغامضة ، إن دهمهم مداهم ، وقد كان لدار أبي جعفر محمّد بن يحيى بن شيرزاد أربعة عشر باباً ، إلى أربع عشرة سكة وشارعاً وزقاقاً نافذاً ، ومنها عدّة أبواب لا يعرف جيرانها أنّها تفضي إلى دار أبي جعفر ، وأكثرها عليه الأبواب الحديد (راجع القصّة ٣٧٨ من هذا الكتاب) .

فإن كان في داره [١١١م] قالوا لمن جاء يطلبني إنّه في دار الأمير ، وإن كان في دار الأمير ، قالوا للرّسل إنّه في دار شجاع ، مدافعة عنّي حتّى أهرب .

قال : فقصصت عليه الرؤيا ، فتضاحك ، وقال : ما ظننتك بهذه الغفلة ، نحن في اليقظة على ما ترى ، كيف يصحّ لنا خبرك في منامك ؟ هذا إنّما نمت وأنت تتمنّى خلاصي ، فرأيت ذلك في منامك .

فخرجت من عنده أريد داري ، فلقيني جماعة في الطريق ، فعرّفوني أنّ الأتراك قد ركبوا بالسّلاح ، فعدت إلى منزلي ، وأغلقت بابي ، ووصّيت عيالي بحفظ الدّار ، ثمّ عدت ، فدخلت إلى الحسن ، فأخبرته بالخبر ، فأمر بمراعاة الأمر .

فما زلنا نتعرّف الأخبار ، ساعة بساعة ، إلى أن جاء النّاس فعرّفونا أنّ الأتراك قتلوا شجاعاً ، ثمّ دخل رجل ، فقال : أنا رأيت السّاعة رأس أوتامش ، وصحّ الخبر بقتلهما جميعاً[11] .

ونهبت سامراء كلّها ، فما أفلت أحد من النّهب أحسن من إفلات الحسن ابن مخلد ، لأنّ ماله كلّه كان قد حصل عند القوّاد وكتّابهم ، فلم يضع منه شيء ، وكان متعطّلاً ، فلم يقصد النهّابة داره ، وما أمسينا إلّا في أتمّ سرور وفرحٍ ، لأنّه فرّج عنّا بما لم يكن في حسابنا .

---

١١ قتل أوتامش وكاتبه شجاع بن القاسم في يوم السبت ١٤ ربيع الآخر سنة ٢٤٩ .

٢٠٢

اتخذ من رؤيا ادّعى أنّه رآها

سبباً للتخلّص من حبس سيف الدولة .

حدّثني أبو الفرج المخزومي ، المعروف بالببغاء الشاعر ، قال :

كان بحلب بزّاز يعرف بأبي العبّاس بن الموصول[١] ، اعتقله سيف الدولة[٢] ، بخراج كان عليه ، مدّة ، وكان الرّجل حاذقاً بالتعبير للرؤيا .

فلمّا كان في بعض الأيّام ، كنت بحضرة سيف الدولة ، وقد وصلت إليه رقعة البزّاز ، يسأله فيها حضور مجلسه ، فأمر بإحضاره .

وقال : لأيّ شيء سألت الحضور ؟

فقال : لعلمي أنّه لا بدّ أن يطلقني الأمير سيف الدولة من الاعتقال ، في هذا اليوم .

قال : ومن أين علمت ذلك ؟

قال : إنّي رأيت البارحة في منامي ، في آخر اللّيل ، رجلاً قد سلّم إليّ مشطاً ، وقال لي : سرّح لحيتك ، ففعلت ذلك ، فتأوّلت التسريح ، سراحاً من شدّة واعتقال ، ولكون المنام في آخر اللّيل ، حكمت أنّ تأويله يصحّ

---

١ في ظ : الموصل ، وفي ر : الموصلي ، وفي م وغ وفي كتاب أخبار سيف الدولة ص ٣٦١ : الموصول .

٢ أبو الحسن علي سيف الدولة بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبيّ (٣٠٣ - ٣٥٦) : الأمير ، الشجاع ، المهذّب ، الأبيّ ، الجواد ، الأديب ، الشاعر ، درّة تاج الحمدانيين ، وواسطة عقدهم ، ممدوح المتنّبي ، لم يجتمع بباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ العلم ، ونجوم الدهر ، ملك حلب وما جاورها ، وأخباره ووقائعه مع الروم كثيرة ، وكان كثير العطايا مقرّباً لأهل الأدب (الأعلام ٥ / ١١٨) ، راجع بعض أخباره في القصص ١ / ١٥١ و٢ / ١٦٣ و٣ / ١٢٠ و ٣ / ١٢١ من كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي ، واقرأ ما كتب عنه الثعالبيّ في اليتيمة

سريعاً ، ووثقت بذلك ، فجعلت الطريق إليه مسألة الحضور ، لأستعطف الأمير .

فقال له : أحسنت التأويل ، والأمر على ما ذكرت ، وقد أطلقتك ، وسوّغتك خراجك في هذه السنة .

فخرج الرّجل يشكره ويدعو له[3] .

---

٣ منح الخليفة المتّقي ، الأمير أبا الحسن علي بن عبد الله بن حمدان لقب سيف الدولة ، وأمر بأن يكتب اسمه على الدنانير والدراهم ، وهذه فضيلة لم يسبقه إليها أحد ، ثم طوّقه بطوقين ، وسوّره بأربعة أسورة ذهباً (أخبار سيف الدولة ١٢ و ١٥) ، لزيادة التفصيل راجع كتاب نبذ تاريخية وأدبيّة جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني ، جمع الشيخ ماريوس كافار .

٢٠٣

خراساني يودع بدرة من المال لدى أبي حسّان

الزيادي فيسارع إلى إنفاقها .

[أخبرني القاضي أبو طالب محمّد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التّنوخي[١] ، فيما أجاز لي روايته عنه ، بعدما سمعته منه ، قال : حدّثنا محمّد بن خلف وكيع القاضي[٢] قال : حدّثني أبو سهل الرازي القاضي ، قال :][٣] حدّثنا أبو حسّان الزيادي القاضي[٤] ، قال :

جاءني رجلٌ من أهل خراسان فأودعني بدرة دراهم ، فأخذتها مضمونة ، وكنت مضيقاً ، فأسرعت في إنفاقها ، وكان قد عزم [١٤٨ غ] المودع [١١٢ ظ] على الحجّ ، ثمّ بدا له ، فعاد يطلبها ، فاغتممتُ ، وقلت له : تعود إليّ من غد .

---

١ أبو طالب محمّد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخيّ : ترجمته في حاشية القصّة ٨٣ من الكتاب .

٢ أبو بكر محمّد بن خلف بن حيّان الضبّي ، المعروف بوكيع القاضي .

٣ في ظ : حدّث أبو حسّان ، والزيادة من م وغ .

٤ أبو حسّان الحسن بن عثمان الزيادي القاضي : قال عنه التنوخيّ في كتابه نشوار المحاضرة ، إنّه كان من غلمان أبي يوسف القاضي ، وتقلّد القضاء قديماً ، ثم تعطّل ، وقال عنه الخطيب في تاريخه ٧ / ٣٥٧ : إنّه كان من خاصّة القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، ثم قال : إنّ المتوكّل عينه قاضياً في السنة ٢٤١ ، أي بعد وفاة ابن أبي دؤاد بسنة ، وهذا يعني أنّ أبا حسّان انقلب على تعاليم ابن أبي دؤاد ، ومما يستلفت النظر أنّ القصص التي يوردها أبو حسّان الزيادي ، تشتمل على الثناء عليه ، والإطراء لـه ، وهو المخبر بها وحده ، فإنّ هذه القصّة ، وتتلخّص في اهتمام النبيّ صلوات الله عليه ، بأبي حسّان ، وتشدّده على الخليفة في العناية به ، هي من روايته هو ، ولم يكتف أبو حسّان بذلك ، فادّعى من بعد ، أنّه رأى الله سبحانه وتعالى ، ولما طولب بالايضاح ، قال : إنّه رأى في منامه نوراً (تاريخ بغداد للخطيب ٧ / ٣٥٧) ومات أبو حسّان وهو قاضي الشرقية في السنة ٢٤٢ (الطبري ٩ / ٢٠٨) .

ثمّ فزعت إلى الله تعالى ، ودعوته ، وركبت بغلتي في الغَلَس ، وأنا لا أدري إلى أين أتوجّه ، وعبرت الجسر وأخذت نحو المخرِّم ، وما في نفسي أحد أقصده ، فاستقبلني رجلٌ راكب ، فقال : [٨٦ ر] إليك بعثت .

فقلت : من بعثك ؟

فقال : دينار بن عبد الله ، فأتيته وهو جالس .

فقال لي : ما حالك ؟

قلت : وما ذاك ؟

فقال : ما نمت اللّيلة[٥] إلّا أتاني آت ، فقال : أدرك أبا حسّان .

فحدّثته بحديثي ، فدعا بعشرين ألف درهم ، فدفعها إليّ ، فرجعتُ ، فصلّيت في مسجدي الغداة ، وجاء الرّجل ، فدفعت إليه ماله ، وأنفقت الباقي .

ووقع إليّ هذا الخبر ، من طريق آخر ، [فحدّثني طلحة بن محمّد بن جعفر الشاهد ، وقرأته بالإجازة عن طلحة ، قال : حدّثني أبو الحسين عبد الواحد بن محمّد الخصيبي ، قال : حدّثني أبو علي أحمد بن إسماعيل نطاحة ، قال : حدّثني أبو سهل الرازي القاضي ، قال :][٦] حدّثنا أبو حسّان الزيادي القاضي ، قال :

أضقت إضاقة بلغت بها إلى الغاية ، حتّى ألحّ عليّ الخبّاز ، والقصّاب ، والبقّال ، وسائر المعاملين ، ولم تبق لي حيلة .

فإنّي يوماً من الأيّام على تلك الحال ، مفكّراً في أمري ، كيف أعمل ، وكيف أحتال ، إذ دخل عليّ غلامي ، فقال : بالباب حاجّ يستأذن عليك .

فقلت : أدخله .

---

٥ في غ : فقال : ما نمت البارحة .

٦ الزيادة من غ .

فدخل عليّ رجل خراساني ، فسلّم ، وقال : أنت أبو حسّان ؟

قلت : نعم ، فما حاجتك ؟

قال : أنا رجل غريب ، أريد الحجّ ، ومعي جملة مالي ، وهو عشرة آلاف درهم ، وقد أحضرته في بدرة معي [١١٢ م] أسألك أن تقبضها وتدعها قِبَلَكَ ، إلى أن أقضي حجّي ، وأرجع ، فإنّي غريب ، وما أعرف أحداً في هذا البلد .

فقلت : هات البدرة .

فسلّمها إليّ ، وخرج بعد أن وزن ما فيها .

فلمّا خرج ، فتحتها على الفور[٧] ، وأحضرت المعاملين ، فقضيت جميع ديوني ، واتّسعت بالباقي ، وقلت : أضمنها في مالي إلى أن يعود من الحجّ .

[وإلى أن يجيء ، يأتي الله بفرج من عنده .

فكنت في يومي ذاك ، في سعة ،][٦] ، وأنا فرح ، لست أشكّ في خروج الخراساني .

فلمّا أصبحت من الغد ، دخل عليَّ الغلام ، فقال : الخراسانيّ الّذي أودعك البدرة ، بالباب .

فقلت : أدخله .

فدخل ، وقال : اعلم أنّي كنت عازماً على الحجّ ، ثمّ ورد عليّ خبر وفاة أبي ، وقد عزمت على الرّجوع إلى بلدي فتفضّل عليّ بإعادة البدرة الّتي أعطيتك أمس .

فورد عليّ أمر عظيم ، لم يرد عليّ مثله قط ، وتحيّرت ، ولم أدر بما أجيبه ، ثمّ فكّرت ، فقلت : ماذا أقول له ؟ إن جحدته ، قدّمني إلى القاضي ، واستحلفني

---

٧ في غ : فلما خرج ، فككت خاتمها على المكان .

فكانت الفضيحة في الدنيا والآخرة والهتك ، وإن دافعته ، صاح وهتكني .

فقلت له : نعم ، عافاك الله ، إنّ منزلي هذا ليس بالحريز ، ولمّا أخذت منك البدرة ، أنفذتها إلى موضع أحرز منه ، فتعود إليّ غداً ، لأسلّمها إليك .

فانصرفَ ، وبقيت متحيّراً ، لا أدري ما أعمل ، وعظم عليّ الأمر جدّاً ، فأدركني اللّيل ، وفكّرت في بكور الخراساني ، فلم يأخذني النوم ، ولا قدرت على الغمض .

فقمت إلى الغلام ، فقلت : أسرج البغلة .

فقال : يا مولاي ، هذا أوّل اللّيل ، إلى أين تمضي[8] ؟

فرجعت إلى فراشي ، فإذا النّوم ممتنع عليّ ، فلم أزل أقوم إلى الغلام ، وهو يردّني ، حتّى فعلت ذلك مرّات ، وأنا لا يأخذني القرار .

وطلع الفجر ، فأسرج الغلام البغلة ، فركبت ، وأنا لا أدري إلى أين أتوجّه ، فطرحت عنان البغلة ، وأقبلت أفكّر وهي تسير ، حتّى بلغت الجسر فعدلت بي إليه ، فتركتها ، فعبرت .

ثمّ قلتُ : إلى أين أعبر ، إلى أين أتوجّه ؟ ولكن إن رجعتُ ، رأيتُ الخراسانيّ على بابي ، ولكن أدعها تمضي حيث شاءت ، فمضت البغلة . [١٤٩ غ] فلمّا عبرت البغلةُ الجسرَ[9] ، أخذت بي يمنة ، ناحية دار المأمون ، [وتركتها ،

---

٨ في غ : فقال : يا مولاي ، هذه العتمة بعدُ ، وما مضى من الليل شيء ، فإلى أين تمضي ؟ .

٩ كان لبغداد جسران معقودان على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطّين ، تحفّ بها من جانبيها سلاسل حديد ، مربوطة في كلا الشطّين إلى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل (مهذّب رحلة ابن بطوطة ص ١٧١ و١٧٤ والمسالك والممالك ص ٥٩) فالأول : يصل بين مشرعة القطّانين في الجانب الغربي ، وبين المشرعة الواقعة بحضرة دار مؤنس في الجانب الشرقيّ ، وعليها السوق الذي يجمع أصناف التجارات والبياعات والصناعات على رأس الجسر مشرّقاً ذات اليمين وذات الشمال ، من أصناف التجارات والصناعات (الأعلاق النفيسة لابن رسته ٢٥٣) والثاني يقع عند باب الطاق في الجانب الشرقيّ ، يقابله في الجانب الغربي بيمارستان عضد الدولة (المنتظم ٧ / ١١٢ وأحسن التقاسيم للمقدسي ١٢٠) ،

ومرّت ، فلم أزل كذلك إلى أن قربت من دار المأمون ،][6] ، والدنيا بعد مظلمة .

فإذا فارس قد تلقّاني ، فنظر في وجهي ، ثمّ سار وتركني ، ثمّ رجع ، وقال : ألست أبا حسّان الزيادي ؟

فقلت : بلى .

قال : إليك بعثت .

فقلت : ما تريد ، رحمك الله ، ومن بعث بك ؟

فقال : الأمير الحسن بن سهل[10] .

فقلت : وما يريد منّي الحسن بن سهل ؟ ، [ثمّ قلت : امض بنا ، فمضى حتّى استأذن على الحسن بن سهل ،][11] فدخلت إليه .

ومحلّة باب الطاق التي تقع بين الرصافة ونهر المعلّى ، بنيت حول الطاق المنسوب إلى أسماء بنت المنصور ، وكان طاقاً عظيماً ، وعند هذا الطاق كان مجلس الشعراء أيّام الرشيد (معجم البلدان ١ / ٤٤٥ و٣/٤٨٩) وعلى مقربة من الجسر بباب الطاق ، كانت دار الجهشياري على دجلة بالجانب الشرقيّ ، في الموضع المعروف بـ (بين القصرين) أحدهما قصر عبد الله بن المهديّ ، والثاني قصر أسماء السالف ذكره ، أقطعه الأمير أبو أحمد الموفّق لصاحبه عليّ بن جهشيار (القصّة ١ / ١٨٦ من نشوار المحاضرة ومعجم البلدان ٣ / ٤٨٩) ، ويتّضح من الوصف السالف إيراده ، أنّ الجسر الذي بحذاء دار مؤنس ، قام مقامه الآن جسر المأمون ، والجسر الذي بحذاء دار أسماء في محلة باب الطاق ، قام مقامه جسر الصرّافية الحديد ، والجسر المذكور في القصّة هو الجسر الثاني منهما أي جسر باب الطاق .

١٠ أبو محمّد الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسيّ (١٦٦ - ٢٣٦) : وزير المأمون العباسيّ ، وأحد كبار القادة والولاة في عصره ، اشتهر بالذكاء المفرط ، والأدب ، والفصاحة ، وحسن التوقيعات ، والكرم ، وهو والد بوران زوجة المأمون ، وللشعراء فيه أماديح (الأعلام ٢ / ٢٠٧) ، قيل له وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله : ليس في السرف خير ، فقال : ليس في الخير سرف (وفيات الأعيان ٢ / ١٢١) ولما توفّي ، ووضع على سريره ، تعلّق به جماعة من غرمائه من التجّار ومنعوا من دفنه ، فتوسّط لهم من قطع أمرهم حتى دفن (الطبري ٩ / ١٨٥) .

١١ الزيادة من ر وغ .

فقال [٨٧ ر] : يا أبا حسّان ، ما خبرك ، وكيف حالك ، ولم انقطعت عنّا ؟

فقلت : لأسباب ، وذهبت [١١٣ ظ] لأعتذر عن التخلّف .

فقال : دع هذا عنك ، أنت في لوثة[١٢] ، وفي أمر ما هو ، فإنّي رأيتك في النّوم ، في تخليط كثير .

فشرحت له قصّتي ، من أوّلها إلى أن لقيني صاحبه ، ودخلت عليه .

فقال : لا يغمّك الله يا أبا حسّان ، هذه بدرة للخراسانيّ ، مكان بدرته ، وهذه بدرة أخرى تتّسع بها ، فإذا نفدت ، أعلمنا .

فرجعت من ساعتي ، فدفعت للخراساني بدرته ، واتّسعت بالباقي ، وفرّج الله عنّي ، فله الحمد .

[وحدّثني بهذا الحديث أيضاً ، أبو الفرج محمّد بن جعفر ، من ولد صالح صاحب المصلّى قال : حدّثنا أبو القاسم علي بن محمّد بن أبي حسّان الزيادي ، وكان محدّثاً ببغداد ، ثقة ، مشهوراً ، قال : حدّثني أبي ، عن أبيه ، قال :][١٣]

كنت وليت القضاء من قبل أبي يوسف القاضي رحمه الله ، ثمّ صرفتُ ، وتعطّلتُ ، وأضقت إضاقة شديدة ، وركبني دين فادح ، لخبّاز ، وبقّال ، وقصّاب ، وعطّار ، وبزّاز ، وغيرهم ، حتّى قطعوا معاملتي لكثرة مالهم عليّ ، وإياسهم من أن أقضيهم ، فتضاعفت إضاقتي ، واشتدّت حيرتي .

فإنّي يوماً بمسجدي ، قد صلّيت بأهله الغداة ، ثمّ انفتلت أدرّس أصحابي الفقه [١١٣ م] إذ جاءني رجل خراسانيّ ، وذكر الحديث على نحو ما ذكره

---

١٢ اللوثة : الاختلاط والتخبّط ، من التاث الأمر : أي اختلط والتبس .

١٣ الزيادة من م وغ .

طلحة ، إلّا أنّه لم يقل فيه جملة : فإلى .... .

وقال أبو الفرج في حديثه : فلمّا بلغت مربّعة الحرسي[14] ، استقبلني موكب فيه شموع ونفّاطات ، قد أضاء منه الطريق ، فصار كالنّهار ، فطلبت زقاقاً أستخفي فيه ، حتّى يجوز الموكب ، فلم أجد ، فإذا برجل من الموكب ، يقول : أبو حسّان والله ، فتأمّلته ، فإذا هو دينار بن عبد الله[15] ، فسلّمت عليه .

فقال : إليك جئت ، أرسل إليّ أمير المؤمنين السّاعة ، وأمرني أن أركب إليك بنفسي ، وأحضره إيّاك .

فمضيت معه ، حتّى أدخلني على المأمون .

فقال لي المأمون : [ما قصّتك ؟ فإنّي رأيتك في النوم البارحة ، والنّبي صلّى الله عليه وسلّم ، يأمرني بإغاثتك .

فحدّثته بحديثي .

فقال المأمون :][16] أعطوا أبا حسّان ثلاث بدر ، وولّاني الريّ[17] ، وأمرني بالخروج إليها .

قال : فعدت إلى بيتي وما طلع الفجر ، فلمّا كان وقت صلاتي في مسجدي ، خرجت ، وإذا بالخراساني ، فلمّا قضيت الصلاة ، أدخلته إلى البيت ، فأخرجت إليه البدر .

---

١٤ في ظ ، ر : مربعة الحرس ، وفي م : مربعة الجرسي ، وفي هـ : مربعة الجسر ، والصحيح : مربعة الحرسيّ ، على ما أثبتناه ، وهي محلّة في شرقي بغداد منسوبة للخرسيّ ، صاحب شرطة بغداد أيّام المنصور ، والحرسيّ : نسبة إلى خراسان يقال : خرسيّ ، وخراسيّ ، وخراساني (معجم البلدان ٤ / ٤٨٥) .

١٥ دينار بن عبد الله ، أحد قوّاد جيش المأمون : ترجمته في حاشية القصّة ٢٣٨ .

١٦ ساقطة من غ .

١٧ لم يل أبو حسّان الريّ ، وانما ولي الشرقية .

فلمّا رآها ، قال : ما هذا ؟

فقصصت عليه القصّة ، وأعطيته بدرة منها ، فأخذها وانصرف .

[وذكر محمّد بن عبدوس ، في كتاب الوزراء ، في أخبار دينار بن عبد الله : أنّ رسوله لقي أبا حسّان في الطريق ، فقال له : قسمت شيئاً على عيالنا ، فذكرت عيالك ، فأنفذت إليك عشرة آلاف درهم ، فأخذها ، ورجع من الطريق ، وباكره الخراسانيّ ، فأعطاه إيّاها كلّها ، لأنّه كان قد أنفق جميع مال الخراساني ، ثمّ عاد من غد إلى دينار ، فعرّفه ، وشكره ، وعرّفه الحديث .

فقال : فكأنّما قضينا الخراساني في ماله ، ثمّ أمر له بعشرة آلاف درهم أخرى ، ولم يذكر ابن عبدوس في خبره ذكر المنام .][18]

[وحدّثني أبي هذا الحديث في المذاكرة ، قال : حدّثني شيخ – ذكره أبي وأنسيته أنا ، [١٥٠ غ] عن أبي حسّان الزيادي ، بنحو ما ذكره محمّد بن جعفر في حديثه ، إلّا أنّه قال فيه : إنّ الخراسانيّ قال في حديثه لأبي حسّان : إن رجع الحجّاج ولم ترني قد رجعت إليك ، فاعلم أنّي هلكت ، والبدرة هبة منّي إليك ، وإن رجعت فهي لي ، ثمّ يتقارب لفظ الحديثين ، إلى أن لقيه في الجانب الشرقي قوم فلمّا رآهم تنحّى عن طريقهم ، فلمّا رأوه بطيلسان ، بادروا إليه ، وقالوا له : أتعرف منزل رجل يقال له أبو حسّان الزيادي ؟

فقال : أنا هو .

فقالوا له : أجب أمير المؤمنين ، وحمل][19] فأدخل إلى المأمون .

فقال له : من أنت ؟

---

١٨ الزيادة من م وغ .

١٩ في ظ ور : وروي في خبر آخر : أنّه لما دخل إلى المأمون ... الخ ، والزيادة من م وغ .

فقال : رجل من أصحاب أبي يوسف القاضي من الفقهاء وأصحاب الحديث .

قال : بأيّ شيء تكنّى ؟

فقال : بأبي حسّان .

فقال : بماذا تعرف ؟

فقال : بالزيادي ، ولست منهم ، وإنّما نزلت فيهم ، فنسبت إليهم .

فقال : قصّتك ، فشرحت له قصّتي .

فبكى بكاء شديداً ، وقال : ويحك ، ما تركني رسول الله أن أنام بسببك ، أتاني في أوّل اللّيل فقال : أغث أبا حسّان الزيادي ، فانتبهت ولم أعرفك ، واعتمدت السؤال عنك ، وأثبتّ اسمك ونسبك ونمت ، فأتاني ، فقال كمقالته ، فانتبهت منزعجاً ، ثمّ نمت ، فأتاني ، وقال : ويحك ، أغث أبا حسّان ، فما تجاسرت على النّوم ، وأنا ساهر ، وقد بثثتُ في طلبك ، ثمّ أعطاني عشرة آلاف درهم ، [وقال : هذه للخراسانيّ ، ثمّ أعطاني عشرة آلاف درهم أخرى ، وقال :][6] اتّسع بهذه ، وأصلح أمرك ، وعمّر دارك ، واشتر مركوباً سريّاً ، وثياباً حسنة ، [وعبداً يمشي بين يدي دابّتك][6] ، ثمّ أعطاني ثلاثين ألف درهم ، وقال : جهّز بها بناتك ، وزوّجهنّ ، فإذا كان يوم الموكب ، فصر إليّ ، حتّى أقلّدك عملاً جليلاً ، وأحسن إليك .

فخرجت والمال بين يديّ محمول ، حتّى أتيتُ مسجدي ، فصلّيت الغداة ، والتفتّ فإذا الخراساني بالباب ، فأدخلته إلى البيت ، وأخرجت بدرة [١١٤ م] فدفعتها إليه .

فقال : ليس هذه بدرتي ، أريد مالي بعينه .

فقصصت عليه قصّتي ، فبكى ، وقال : والله لو صدقتني في أوّل الأمر عن خبرك لما طالبتك ، وأمّا الآن ، فوالله لا دخل مالي شيء من مال هؤلاء ، وأنت في حلّ ، [٨٨ ر] وانصرف ،

فأصلحت أمري ، وبكّرت يوم الموكب إلى باب المأمون ، فدخلت ، وهو جالس جلوساً عامّاً .

فلمّا مثلت بين يديه استدناني ، ثمّ أخرج عهداً من تحت مصلّاه ، وقال : هذا عهدك على قضاء المدينة الشرقيّة من الجانب الغربي من مدينة السلام[٢٠] ، وقد أجريت عليك في كلّ شهر كذا وكذا ، فاتّق الله تدم عليك عناية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

فعجب النّاس من كلام المأمون وسألوني عن معناه ، فأخبرتهم الخبر ، فانتشر .

فما زال أبو حسّان قاضي الشرقية ، إلى آخر أيّام المأمون[٢١] .

---

٢٠ الشرقية : بالجانب الغربي من بغداد ، قيل لها الشرقية لأنّها شرقي مدينة المنصور ، لا لأنّها في الجانب الشرقيّ (معجم البلدان ٣ / ٢٧٩) .

٢١ وردت القصّة باختصار في كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخيّ برقم ٢ / ١٢٥ .

٢٠٤

حبسه المهدي وأطلقه الرّشيد

[أخبرني محمّد بن الحسن بن المظفّر ، قال : حدّثني أبو عمر محمّد ابن عبد الواحد ، قال : حدّثني بشر بن موسى الأسدي ، قال :][١] أخبرني بعض الهاشميّين ، قال :

حبس المهدي يعقوب بن داود[٢] [١١٤ ظ] وزيره ، فطال حبسه ، فرأى في منامه ، كأنّ قائلاً يقول له : قل : يا رفيق ، يا شفيق ، أنت ربّي الحقيق ، ادفع عنّي الضّيق ، إنّك على كلّ شيء قدير .

قال : فقلتها ، فما شعرت إلّا بالأبواب تفتح ، ثمّ أدخلت على الرّشيد[٣] ، فقال : أتاني الّذي أتاك ، فاحمد الله عزّ وجلّ .

وخلّى سبيلي .

[وقد روي هذا الخبر ، على خلاف هذا ، فحدّثنا عليّ بن أبي الطّيب ، قال : حدّثنا ابن الجرّاح ، قال : حدّثنا ابن أبي الدنيا ، قال : حدّثني خالد بن يزيد الأزدي .

وأخبرني محمّد بن الحسن بن المظفّر [١٥١ غ] ، قال : أنبأنا أبو بكر

---

١ الزيادة من غ .

٢ أبو عبد الله يعقوب بن داود بن عمر السلميّ : كان يكتب لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتيل باخمرى ، فلما خرج إبراهيم على المنصور ، وقتل ، اعتقل يعقوب ، وحبس ، ثم أطلق ، واتّصل بالمهديّ ، فحظي لديه ، فآخاه ، واستوزره ، فكثر حسّاده ، وتتابعت الوشايات به ، فعزله ، وحبسه ، وأطلقه الرشيد لما استخلف ، وخيّره في موضع إقامته ، فاختار مكّة ، وأقام بها حتى مات سنة ١٨٧ (الأعلام ٩ / ٢٥٨) .

٣ في ظ : على المهديّ ، والتصحيح من م وغ .

محمّد بن محمّد السرخسي ، قال : حدّثنا أبو عبد الله المقدمي القاضي[4] ، قال : حدّثنا أبو محمّد المعي ، قال : حدّثنا خالد بن يزيد ، [قال : حدّثنا عبد الله بن يعقوب بن داود ، قال : قال لي أبي :][5]

حبسني المهدي في بئر بنيت عليها قبّة ، فكنت فيها خمس عشرة سنة[6] ، حتّى مضى صدر من خلافة الرّشيد ، وكان يدلّى لي في كلّ يوم رغيف وكوز ماء ، وأوذن بأوقات الصلاة ، فلمّا كان رأس ثلاث عشرة سنة ، أتاني آتٍ في منامي ، فقال :

حنا على يوسفٍ ربٌّ فأخرجه ... من قعر جبٍّ وبئر حولها غمم

فحمدت الله تعالى ، وقلت : أتاني الفرج ، ثمّ مكثت حولاً لا أرى شيئاً ، فلمّا كان رأس الحول ، أتاني ذلك الآتي ، فقال :

عسى فرجٌ يأتي به الله إنّه ... له كلّ يوم في خليقته أمر

ثمّ أقمتُ حولاً لا أرى شيئاً ، ثمّ أتاني ذلك الآتي ، بعد الحول ، فقال :

عسى الكرب الّذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفكّ عانٍ ... ويأتي أهله النائي الغريب [١١٦ م]

---

٤ أحسبه أبا عبد الله محمّد بن أبي بكر بن عطاء بن مقدّم المقدّمي : نسبته إلى جدّه مقدم ، ذكره صاحب اللباب ٣ / ١٦٩ .

٥ الزيادة من غ .

٦ في الطبري ٨ / ١٥٤ : أنّ المهديّ غضب على يعقوب بن داود ، واعتقله في السنة ١٦٦ ، وفي الأعلام ٩ / ٢٥٩ أنّ الاعتقال حصل في السنة ١٦٧ وأنّ إطلاقه تمّ في السنة ١٧٥ ، وفي وفيات الأعيان ٧ / ٢٤ أنّ يعقوب قضى في الاعتقال بقيّة أيّام المهديّ ، وأيّام الهادي ، وخمس سنين وشهوراً من أيّام الرشيد .

[فلمّا أصبحت ، نوديت ، فظننت أنّي اؤذن بالصّلاة ، فدلّي إليّ حبل][7] وقيل لي : شدّ به وسطك ، ففعلت ، فأخرجوني ، فلمّا تأمّلت الضوء ، غشي بصري ، فأخذ من شعري ، وألبست ثياباً ، وأدخلت إلى مجلس ، فقيل لي : سلّم على أمير المؤمنين .

فقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين المهدي ، ورحمة الله وبركاته .

فقال : لست به .

فقلت : السّلام عليك يا أمير المؤمنين الهادي ، ورحمة الله وبركاته .

فقال : لست به .

فقلت : السّلام عليك يا أمير المؤمنين الرّشيد ، ورحمة الله وبركاته .

فقال : وعليك السّلام ، يا يعقوب بن داود ، والله ما شفع أحد فيك إليّ ، غير أنّي حملت اللّيلة صبيّة لي على عنقي ، فذكرت حملك إيّاي على عنقك ، فرثيت لك من المحلّ الّذي كنت فيه ، فأخرجتك ، ثمّ أكرمني ، وقرّب مجلسي .

ثمّ إنّ يحيى بن خالد تنكّر لي ، كأنّه خاف أن أغلب على الرّشيد دونه ، فخفته ، فاستأذنت في الحجّ ، فأذن لي .

فلم يزل مقيماً بمكّة ، حتّى مات بها[8] .

---

٧ في غ : والله لئن دخلت في أعمالهم ، بعد أن خلّصك الله منها ، ليرمينّك الله بصاعقة ، فما كان بأسرع من أن دلّي إليّ حبل ... الخ .

٨ ورد الخبر في مخطوطة (د) ص ١٦١ ، وورد في غ ، كما يلي : قيل لي سلّم على أمير المؤمنين ، فقلت : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقيل لي : ومن أمير المؤمنين ؟ ، فقلت : المهديّ ، فقيل لي : رحم الله المهديّ ، سلّم على أمير المؤمنين ، فقلت : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقيل لي : ومن أمير المؤمنين ؟ فقلت : أبو محمّد موسى الهادي ، فقيل لي : رحم الله الهادي ، سلّم على أمير المؤمنين ، فقلت : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقيل لي : ومن أمير المؤمنين ؟ فقلت : أبو جعفر هارون الرشيد ، فكلّمني الرشيد ، وقال : وعليك السلام ، يعزّ عليّ يا يعقوب ما نالك ، فجعلت المهديّ في حلٍّ ، وشكرته على تخليتي ، فقال :

[حدّثني أبي في المذاكرة بإسناد له ، وكان في الخبر : أنّ المهدي حبسه في بئر ، ووكل أمره إلى خادم له ، واستحلفه أن لا يخبر بخبره أحداً من الخلق كلّهم ، فكان الخادم الموكّل به ، ينزل إليه في كلّ يوم رغيفين ، ودورق ماء ، منه شربه وطهوره ، وفي البئر موضعٌ يتطهّر فيه ، فكان كذلك خمس عشرة سنة .

فلمّا كان بعد خمس عشرة سنة [١١٥ م] سأل عنه الرّشيد فقيل له : سلّم إلى فلان الخادم ، وذكر أنّه مات .

فأحضر الخادم ، وسأله عنه ، فقال : إنّه مات .

فاستثبته ، فرأى كلاماً مختلفاً ، فجدّ به ، فقال : لا أعرف غير موته ، فهدّده ، فأقام على الإنكار ، إلى أن استحضر الرّشيد المقارع .

فقال : أنا أصدق ، استحلفني أمير المؤمنين المهدي ، ألّا أخبر بخبره أحداً من الخلق أبداً .

فأكرهه الرّشيد ، فدلّ على البئر الّتي هو فيها ، ثمّ تتّفق الرّوايات .

قال : فلمّا وقف بين يدي الرّشيد ، وسلّم ، قال له الرّشيد – مخفياً كلامه – من أمير المؤمنينُ ؟

فقال : المهدي .

قال : قد مضى لحال سبيله ، فسلّم على أمير المؤمنين ، فسلّم .

فقال : قولوا له من أمير المؤمنين ؟

لا يمنن عليك يحيى بن خالد ، ولا غيره ، فما لأحد في إطلاقك شيء ، ولكنّي حملت بنيّة لي على عاتقي ، فذكرت حملك إيّاي على عاتقك ، وتسريحك إيّاي من الكتّاب ، فأمرت بإخراجك ، فدعوت له ، وأمر لي بخمسمائة ألف درهم ، وردّ عليّ من ضياعي ما يغلّ خمسة آلاف درهم في السنة ، وتقدّم بعلاج عيني ، فعولجت شهوراً ، إلى أن صرت أقرأ الخطّ الجلـيّ ، فكان يدعوني ، ويخلو معي ، ويحادثني ، فساء ذلك يحيى بن خالد ، فاستأذنته في الحجّ ، فأذن لي ، وأنا مقيم بمكاني كما ترى . .

[قال : الهادي

قال : قد مضى لحال سبيله ، فسلّم على أمير المؤمنين ، فسلّم .

فقال : قولوا له ، من أمير المؤمنين ؟

فقال : هارون ، ثمّ تتّفق الروايتان .

وروي لي هذا الخبر على وجه آخر ، وهو أضعف عندي ، غير أنّي أجيء به كما بلغني ، فحدّثت بروايات مختلفة ، قالوا][9] حدّث [٨٩ ر] عبد الله بن أيّوب ، قال :

رأيت يعقوب بن داود في الطواف ، فقلت له : كيف كان سبب خروجك ؟

قال : كنت في المطبق حتّى خفتُ على بصري ، فأتاني آتٍ في منامي ، فقال لي : يا يعقوب كيف ترى مكانك ؟

فقلت : وما سؤالك ؟ أما ترى ما أنا فيه ، أليس يكفيك هذا ؟

فقال : أسبغ الوضوء ، وصلّ أربع ركعات ، وقل : يا محسن ، يا مجمل ، يا منعم ، يا مفضل ، يا ذا الفضل والنّعم ، يا عظيم ، يا ذا العرش العظيم ، اجعل لي ممّا أنا فيه فرجاً ومخرجاً .

فانتبهت ، وقلت في نفسي : هذا في النّوم ، ورجعت إلى نفسي ، فحفظت الدّعاء ، وقمت ، فتوضّأت ، وصلّيت ، ودعوت به ، فلمّا أسفر الصّبح ، جاؤوني ، فأخرجوني .

فقلت : ما دعاني إلّا ليقتلني .

فلمّا رآني ، أومأ إليهم ، اذهبوا به إلى الحمّام ، فنظّفوه ، وأتوني به ، فطابت نفسي ، وسجدت شكراً لله تعالى ، فأطلت السجود .

فقالوا لي : قم .

---

٩ الزيادة من م .

فقال لهم الرّشيد : دعوه ما دام ساجداً ، ثمّ رفعت رأسي ، ثمّ مضي بي إلى الحمّام .

فلمّا خرجت خَلَعَ عليّ ، ثمّ ضرب بيده على ظهري ، وقال لي : يا يعقوب ، لا يمنّن عليك أحد بمنّة ، فما زلتُ منذ اللّيلة قلقاً بأمرك[10] .

---

١٠ بلغ من علوّ شأن يعقوب عند المهديّ ، أن يعقوب نصب أمناء على العمال في جميع الأصقاع ، فكان لا ينفذ كتاب إلى المهدي إلاّ بعد مطالعة أمناء يعقوب ، فقال بشار بن برد [وفيات الأعيان ٧/٢٢] :

بني أميّة هبّوا طال نومكمْ إنّ الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزقّ والعود

فأثّر ذلك في المهديّ ، وكانت عاقبة ذلك ، قتل الشاعر (بتهمة الزندقة) ، وحبس يعقوب في المطبق ، (بتهمة العلوية) .

٢٠٥
المهدي يطلق علويّاً من حبسه لمنام رآه

وجدتُ في بعض الكتب : أنّ المهديّ استحضر صاحب شرطته ليلاً ، وقد انتبه من نومه فزعاً ، فقال له : ضع يدك على رأسي ، واحلف بما أستحلفك به.

[قال :] فقلت : [١١٥ ظ] يدي تقصر عن رأس أمير المؤمنين ، ولكن عليّ وعليّ ، وحلفت بأيمان البيعة أنّي أمتثل ما تأمر به .

فقال : صِرْ إلى المطبق ، واطلب فلاناً العلويّ الحسيني ، فإذا وجدته فأخرجه وخيّره بين الإقامة عندنا مطلقاً مكرّماً محبوراً ، وبين الخروج إلى أهله ، فإن اختار الخروج قدت إليه كذا وكذا ، وأعطيته كذا وكذا ، وإن اختار المقام أعطيته كذا وكذا ، وهذه توقيعات بذلك .

فأخذتها وصرت إلى من أزاح علّتي في الجميع ، وجئت إلى المطبق ، فطلبت الفتى ، فأخرج إليّ وهو كالشنّ البالي ، [١٥٢ غ] فعرّفته أمر أمير المؤمنين ، وعرضت عليه الحالين ، فاختار الخروج إلى أهله بالمدينة ، فسلّمت إليه الصّلة والحملان .

فلمّا جاء ليركب ويمضي ، قلت : بالّذي فرّج عنك ، هل تعلم ما دعا أمير المؤمنين إلى إطلاقك ؟

قال : إنّي والله ، كنت اللّيلة نائماً ، فرأيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، في منامي ، وقد أيقظني ، وقال : يا بنيّ ظلموك ؟

قلت : نعم ، يا رسول الله .

قال : قم ، فصلّ ركعتين ، وقل بعد الفراغ : يا سابق الفوت ، ويا سامع الصوت ، ويا ناشز العظام بعد الموت ، صلّ على محمّد وعلى آل محمّد ، واجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ، إنّك تعلم ولا أعلم ، وتقدر ولا أقدر ، وأنت علّام الغيوب ، يا أرحم الرّاحمين .

قال : فقمت ، وصلّيت ، وجعلت أكرّر الكلمات ، حتّى دعوتني .

قال : فحمدت الله على توفيقي لمسألته ، وعدت إلى المهدي ، فحدّثته بالحديث .

فقال : صدّق والله ، لقد أتاني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في النّوم ، فأمرني بإطلاقه .

وفي خبر آخر : لقد أتاني زنجيٌّ في فراشي ، بعمود حديد ، فقال لي : أطلق فلاناً العلوي الحسيني وإلّا قتلتك ، فانتبهت فزعاً ، فما جسرت على النّوم ، حتّى جئتني ، فأمرت بإطلاقه[1] .

---

١ لم يقتل المهديّ أحداً من العلويّين . وذكر الأصبهاني في مقاتل الطالبيّين (ص ٤٢٧) أنّه قتل واحداً من أتباع عيسى بن زيد العلوي . ثم أورد بعد ذلك ما يشكّك في صحة الخبر .

٢٠٦

المعتمد يطلق بريئين من حبسه لمنام رآه

[حدّثني أبو بكر محمّد بن يحيي الصولي ، فيما أجاز لي روايته عنه ، بعدما سمعته منه ، قال : حدّثني][١] أحمد بن يزيد المهلّبي[٢] ، قال :

كنّا ليلة بين يدي المعتمد على الله ، فحمل عليه النّبيذ[٣] [١١٧ م] فجعل يخفق برأسه نعاساً .

فقال : لا يبرحنّ أحد ، ثمّ نام مقدار نصف ساعة ، وانتبه ، وكأنّه ما شرب شيئاً .

فقال : أحضروا لي من الحبس رجلاً يعرف بمنصور الجمّال ، فأحضر .

فقال له : منذ كم أنتَ محبوس ؟

فقال : منذ ثلاث سنين .

قال : فأصدقني عن خبرك ؟

قال : أنا رجل من أهل الموصل ، كان لي جمل أعمل عليه وأعود بكرائه على عيلتي[٤] ، فضاق الكسب عليّ بالموصل ، فقلت : أخرج إلى سرّ من رأى فإنّ العمل ثمّ أكثر ، فخرجت .

---

١ الزيادة من غ ، وفي م : حدّثنا الصولي .

٢ أحمد بن يزيد بن محمّد بن المهلّب المهلّبي : أديب ، نديم ، نادم المعتمد ، وكانت له حجرة في قصر المعتمد برسمه ، باعتباره نديماً ، وأبوه يزيد بن محمّد المهلّبي ، أديب ، شاعر ، راوية ، نادم المتوكّل ، والمنتصر ، والمعتزّ ، راجع الفهرست لابن النديم ٢٠٩ ، والأعلام ٩ / ٢٤٢ وتاريخ بغداد للخطيب ١٤ / ٣٤٨ والبصائر والذخائر م ٢ ق ١ ص ١٩٦ .

٣ حمل عليه النبيذ : قارب أن يصرعه السكر ، والبغداديّون الآن يقولون : فات عليه الشراب .

٤ عيلة الرجل وعائلته : أهل بيته الذين يعوّلهم .

فلمّا قربت منها ، إذا جماعة من الجند قد ظفروا بقوم يقطعون الطّريق ، وكتب صاحب البريد بعددهم ، وكانوا عشرة ، فأعطاهم واحد من العشرة مالاً على أن يطلقوه ، فأطلقوه وأخذوني مكانه ، وأخذوا جملي ، فسألتهم بالله عزّ وجلّ ، وعرّفتهم خبري ، فأبوا ، ثمّ حبسوني ، فمات بعض القوم ، وأطلق بعضهم ، وبقيت وحدي .

فقال المعتمد : أحضروني خمسمائة دينار ، فجاؤوه بها .

فقال : ادفعوها إليه ، وأجرى عليه ثلاثين ديناراً في كلّ شهر ، وقال : اجعلوا أمر جمالنا إليه .

ثمّ أقبل علينا ، فقال : رأيت السّاعة النّبي صلّى الله عليه وسلّم ، في النّوم ، فقال : يا أحمد ، وجّه السّاعة إلى الحبس ، وأخرج منصوراً الجمّال ، فإنّه مظلوم ، وأحسن إليه ، ففعلت ما رأيتم .

قال : ثمّ نام من وقته ، وانصرفنا[٥] .

ووقع إليّ هذا الخبر ، بطريق آخر ، بأتمّ من هذه الرواية ، [فحدّثني أبو محمّد الحسن بن محمّد الصلحي ، الّذي كان كاتب أبي بكر بن رائق ، ثمّ كتب لسيف الدولة ، ثمّ كان آخر تصرّف تصرّفه ، أن كتب للمطيع لله ، رحمه الله ، على ضياع الخدمة[٦] ، وخاصّ أمره ، في وزارة أبي محمّد المهلّبي لمعزّ الدولة[٧] ، قال : حدّثني أبو علي الأوارجي الكاتب ، قال : حدّثني أبو محمّد

---

٥ انفردت غ وم برواية هذه القصّة .

٦ ضياع الخدمة : الضياع التي تخصّص وارداتها للخليفة من أجل نفقاته ، وقد كان معزّ الدولة لما تسلّط على العراق ، أقام أوّل الأمر لنفقة المطيع ألفي درهم في كلّ يوم ، (تجارب الأمم ٢ / ٨٧) ثم حلف المطيع لمعزّ الدولة على الإخلاص وحسن النيّة فخصّص له ضياعاً غلّتها مائتا ألف دينار في السنة ، وسمّيت ضياع الخدمة (تجارب الأمم ٢ / ١٠٨) .

٧ في غ : في وزارة أبي محمّد المهلبيّ للمطيع لله ، والصحيح ما أثبتناه .

عبد الله بن حمدون النّديم][8] ، قال :

كان المعتمد مع سماحة أخلاقه ، وكثرة جوده وسخائه ، شديد العربدة على ندمائه إذا سكر[9] ، لا يكاد يسلم له من العربدة مجلس إلّا في الأقل ، فاشتهى يوماً [١٥٣ غ] [٩٠ ر] أن يصطبح على أترجّ ، فاتّخذ له منه شيء كثير ، مفرط العدد ، وعبّي ، وحزم بعضه ، فاصطبح عليه ، ولم يدع شيئاً من الخلع والصّلات والحملان[10] ، إلّا وعمله مع ندمائه في ذلك اليوم ، وخصّني منه بالكثير ، وكان كثير الشرب ، وكانت علامته إذا أراد أن ينهض جلساؤه ، أن يلتفت إلى سرير لطيف ، كان إذا جلس يستند إليه ، ويشيل[11] رجليه ، كأنّه يريد أن يصعد ، فيقوم جلساؤه[12] ، فإذا كان يريد النّوم صعده ، فنام ،

---

٨ الزيادة من غ .

٩ السكر : راجع التفصيل في آخر القصّة .

١٠ الحملان : هبة الخيل وكلّ ما يركب من الدوابّ .

١١ شال : فصيحة : رفع ، ما زالت مستعملة في العراق ، ويستعمل أعراب العراق ، هذه الكلمة عند الانتقال من موضع إلى آخر ، فيقولون : شال فلان إلى الموضع الفلاني ، لأنّه إذا انتقل ، شال (رفع) أثقاله ، وحملها معه ، وما زلت أذكر أغنية بغدادية سمعتها في صباي :

لا الله يـرضي بهـاي لا هيجـي گالـوا
بعـده الجـرح مـا طـاب حملـوا وشالـوا

يقول : لا الله يرضى بهذا ، ولا هكذا قالوا ، إنّ جرح قلبي لم يبرأ بعد ، فكيف انتقلوا وتركوني .

١٢ لكلّ واحد من الملوك السالفين ، والخلفاء ، والأمراء ، إشارة ، أو لفظة ، تكون بمثابة الإذن لجلسائه بالانصراف ، ومن جملة تلك الإشارات : التثاؤب ، أو إلقاء المروحة ، أو مدّ الساق ، أو التمطّي ، أو الاتّكاء ، أو رفع الساق إلى السرير (كما ترى في هذه القصّة) ، وأقدم ما بلغنا من ذلك عن ملوك الفرس من الإشارات والأقوال : أنّ إردشير ، كانت إشارته أن يتمطّى ، والأردوان الأصغر ، إذا جاءه الغلام بنعله ، وبشتاسف إذا دلّك عينيه ، وكذلك فيروز ، ويزدجرد الأثيم ، إذا قال : شب شد ، ومعناها : صار الليل ، وبهرام جور ، إذا رفع رأسه إلى السماء ، أو إذا قال : خرّم خفتار ، أو خرّم خوش باد ، ومعناها : نم مسروراً ، وكن مسروراً ، وقباذ ، إذا رفع رأسه إلى السماء ،

وإن لم يرد النوم ، ردّ رجله ، إذا قمنا ، وأتمّ شربه مع بعض خدمه ، أو حرمه .

فلمّا كان ذلك اليوم ، [جلسنا بحضرته نهارنا أجمع ، وقطعة من اللّيل ، ثمّ][13] ردّ رجله إلى السّرير في أوّل اللّيل ، فقمنا ، وانصرف الجلساء إلى حجرة مرسومة بهم ، وانصرفتُ إلى حجرة مرسومة بي من بينهم .

فلمّا انتصف اللّيل ، إذا بالخدم يدقّون باب حجرتي ، فانتبهتُ مرعوباً ، فقالوا : أجب أمير المؤمنين .

فقمت ، وقلت : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، مضى يومنا وبعض ليلتنا ، أحسن مضيّ ، وقدّرت أنّي أفلتُّ من عربدته ، فقد عنّ له أن يعربد عليّ ، فاستدعاني في هذا الوقت .

فأتيته وأنا في نهاية الجزع ، أفكّر كيف أشاغله عن العربدة ، إلى أن صرتُ بحضرته :

وسابور ، إذا قال : حسبك يا إنسان ، وأنوشروان ، إذا قال : قرّت أعينكم ، أو إذا مدّ رجليه ، وفي الإسلام ، كان الخليفة عمر بن الخطاب ، إذا قال : الصلاة ، قام سمّاره ، وعثمان ، إذا قال : العزّة لله ، ومعاوية ، إذا قال : ذهب الليل ، أو قال : العزّة لله ، وعبد الملك بن مروان ، إذا ألقى المخصرة من يده ، ومصعب بن الزبير ، إذا قال : إذا شئت فقم ، والوليد ، إذا ألقى المخصرة من يده أو إذا قال : أستودعكم الله ، وعمر بن هبيرة ، أمير العراق ، إذا دعا بالمنديل ، وأبو العباس السفّاح ، إذا تثاءب ، أو ألقى المروحة من يده ، والرشيد ، إذا قال : سبحانك اللهمّ وبحمده ، والمأمون ، إذا استلقى على فراشه ، أو إذا قال : برق يمان ، والمعتصم ، إذا نظر إلى صاحب النعل ، والواثق ، إذا مسّ عارضيه ، وكان القضاة إذا أرادوا أن يقوم جلساؤهم ، أغلقوا الدواة . وسئل أحد البخلاء ، وهو محمّد بن الجهم ، عن أمارته إذا أراد أن يقوم جلساؤه ، فقال : إذا قلت : يا غلام هات الطعام ، راجع التاج في أخلاق الملوك ١١٨ - ١٢٠ ومطالع البدور ١ / ١٨٤ ومحاضرات الأدباء ١ / ١٩٢ ووفيات الأعيان ٥ / ٣٦٤ والأغاني ١٨ / ٢٦٣ و ٢١ / ١٢١ والعقد الفريد ٢ / ٤٦١ و ٦ / ١٧٧ وحلبة الكميت للتواجي ٢٦ والمحاسن والمساوئ ١ / ١١٥ .

١٣ الزيادة من غ .

فلمّا رآني قائماً لم يستجلسني ، وقال لخادمه : عليّ بصاحب الشرطة السّاعة .

فمتّ جزعاً ، وقلت في نفسي وأنا واقف بين يديه : لم تجر عادته في العربدة باستدعاء صاحب الشرطة ، وما هذا إلّا لبليّة قد احتيل بها عليّ عنده .

فاقبلتُ أنظر إليه طمعاً في أن يفاتحني بكلمة ، فأداريه في الجواب ، وهو لا يرفع رأسه عن الأرض ، إلى أن جاء صاحب الشرطة ، فرفع رأسه إليه ، وقال له : في حبسك رجل يعرف بفلان بن فلان الجمّال ؟ وفي رواية : يعرف بمنصور الجمّال ؟

قال : نعم .

قال : أحضرنيه الساعة .

فمضى ليحضره ، فسهل عليّ الأمر قليلاً ، ووقفت ، وهو لا يخاطبني بشيء ، إلى أن أحضر الرّجل .

فقال له المعتمد : من أنت ؟

قال : أنا منصور بن فلان الجمّال .

قال : وما قصّتك ؟

قال : [١١٦ ظ] أنا مظلوم ، حبست منذ كذا وكذا سنة ، وأنا رجل من أهل الجبال[١٤] ، كان لي جمال أعيش من فضل أجرتها .

وكان يتقلّد بلدنا فلان العامل ، فاستدعي إلى الحضرة ، فأخذ جمالي غصباً يستعين بها في حمل متاعه[١٥] .

فتظلّمت إليه وصحت ، فلم ينفعني ذلك ، وقال : إذا صرتُ بالحضرة رددتها عليك .

---

١٤ الجبل ، أو الجبال : عراق العجم ، راجع حاشية القصّة ٦٥ من الكتاب .

١٥ في غ وم : حمل سواده .

فخرجت معه لئلا تذهب الجمال أصلاً ، فكنت مع جمالي أخدمها في الطّريق ١١٨ م] .

فلمّا قربنا من حلوان سلّ الأكراد منها جملاً محمّلاً ، فبلغه الخبر ، فأحضرني ، وقال : أنت سرقت الجمل بما عليه ، فقلت : غلمانك يعلمون أنّ الأكراد سلّوه .

فقال : الأكراد إنّما جاءوا بمواطأة منك ، ثمّ أمر بضربي ، وتقييدي ، وطرحي على بعض جمالي .

فلمّا وردنا الحضرة ، أنفذت إلى الحبس ، وأخذ الجمال ، ولم يكن لي متظلّم ، ولا مذكّر ولا متكلّم ، فطال حبسي ، وطالت بي المحنة إلى الآن .

فقال لبعض الخدم : امض السّاعة إلى فلان العامل ، واقعد على دماغه ، ولا تبرح ، أو يرد عليه جماله أو قيمتها على ما يريد ، فإذا قبض ذلك ، فاحمله إلى الخزانة ، واكسه كسوة حسنة ، وادفع إليه كذا وكذا ديناراً ، واصرفه مصاحباً .

ثمّ قال لصاحب الشرطة : في حبسك رجل يعرف بفلان بن فلان الحدّاد ؟ قال : نعم ، قال : أحضرنيه الساعة ، فأحضره .

فقال له : ما قصّتك ؟

قال : أنا رجل حبست بظلم ، أنا رجل من أهل الشّام ، وكانت لي نعمة فزالت ، فهربت من بلدي واتّصلت محنتي [١٥٥ غ] إلى أن وافيت الحضرة طلباً للتصرّف[١٦] ، فتعذّر عليّ حتّى كدت أتلف جوعاً .

فسألت عن عملٍ أعمله ليلاً لأتوفّر نهاراً على طلب التصرّف ، وأنفق في النّهار ما أكسبه ليلاً ، فأرشدت إلى حدّاد يعمل ليلاً ، فقصدته ، فاستأجرني

---

١٦ التصرّف : نسمّيه الآن العمل ، والتصريف : الاستخدام .

بدرهم في كلّ ليلة ، وكنت أعمل معه ، وكان معه غلام آخر يضرب بالمطرقة ، فأفسد ذلك الغلام على الحدّاد نعلاً كان [٩١ ر] يضربها ، فاغتاظ عليه ، ورماه بالنعل الحديد على قلّته[17] ، فتلف للوقت ، فهرب الحدّاد ، وبقيت أنا في الموضع متحيّراً لا أدري إلى أين أمضي ، وأحسّ الحارس في الحال بما رابه في الدكّان ، فهجم عليّ فوجدني قائماً ، والغلام ميّتاً فلم يشكّ أنّي القاتل ، فقبض عليّ ورفعني ، فحبست إلى الآن ، فقال لصاحب الشرطة : خلّ عنه .

وقال لخادم آخر : خذه فغيّر حاله ، وادفع إليه خمسمائة دينار ، ودعه ينصرف مصاحباً .

ثمّ رفع رأسه إليّ ، وقال : يا ابن حمدون ، الحمد لله الّذي وفّقني لهذا الفعل .

ففرّج عني ، فقلت : كيف تكلّف أمير المؤمنين النّظر في هذا [١٥٤ غ] بنفسه ، في مثل هذا الوقت ؟

فقال : ويحك إنّي رأيت في منامي رجلاً يقول لي : في حبسك رجلان مظلومان ، يقال لأحدهما : منصور الجمّال ، والآخر : فلان بن فلان الحدّاد ، فأطلقهما السّاعة وأحسن إليهما وأنصفهما ، فانتبهت مذعوراً ، ثمّ نمت .

فما استثقلت حتّى رأيت الشّخص بعينه ، يقول لي : ويلك آمرك أن تطلق رجلين مظلومين في حبسك ، قد طال مكثهما ، وأن تنصفهما وتحسن إليهما ، فلا تفعل ، وترجع تنام ؟ لقد هممت أن أوجعك ، فكاد يمدّ يده إليّ .

فقلت له : يا هذا من أنت ؟

فقال : أنا محمّد رسول الله ، فكأنّي قبّلت يده ، وقلت : يا رسول الله ، ما عرفتك ، ولو عرفتك ما تجاسرتُ على تأخير أمرك .

---

١٧ القلّة : أعلى الرأس ، وأعلى الجبل وكلّ شيء ، وقلّة السيف : قبيعته ، وأحسبه يعني بقلّة النعل الحديد ، حاشيته الدقيقة ، والبغداديّون يسمّون الحاشية الدقيقة : الگاز ، بالكاف الفارسيّة .

قال : قم ، فاعمل في أمرهما السّاعة ، بما أمرتك به ، فانتبهت مذعوراً ، فاستدعيتك لتشاهد ما يجري .

فقلت : هذه عناية من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأمير المؤمنين ، واهتمام بما يصلح دينه ، ويثبّت ملكه ، ومنّة عظيمة عليه ، لله عزّ وجلّ ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم .

فقال : امض فقد أزعجناك ، فعدت إلى حجرتي [١١٧ ظ] .

فلمّا كان من الغد عشيّاً ، دخلت إليه وهو جالس [للشّرب][١٨] على الرّسم فأحببت أن أعرّف الجلساء ما جرى البارحة ، ليسرّ هو بذلك ، وكنت أعرف من طبعه أنّه يحب الإطراء والمدح ، ونشر ما هذا سبيله ، فإنّه إذا عمل جميلاً أكثر من ذكره ، وتبجّح به ، وإن كان صغيراً .

فقلت له : إن رأى أمير المؤمنين أن يخبر خدمه ، بما كان من المعجزة البارحة ، وعناية رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، بخلافته .

فقال : وما ذاك ؟

فقلت : إحضاري البارحة ، وإحضار صاحب الشرطة ، والجمّال ، والحدّاد ، ورؤياه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وما أمره به فيهما ، وما تقدّم به إلى أمير المؤمنين من إنصافهما .

فقال : والله ما أذكر من هذا شيئاً ، وما كنتُ إلّا سكران ، نائماً طول ليلتي ، وما انتبهتُ .

فقلت : بلى يا سيّدي .

فتنكّر ، وقال : يا ابن حمدون قد صرتَ تغالطني [١١٩ م] وتخادعني بالكذب ؟

---

١٨ الزيادة من غ .

فقلت : أعيذ أمير المؤمنين بالله ، هذا أمر مشهور في الدّار عند الخدم الخاصّة وصاحب الشرطة نفسه ، وقصصت عليه القصّة ، وشرحتها .

فاستدعى الخدم ، فتحدّثوا بمثل ما ذكرته ، فأظهر تعجّباً شديداً ، وحلف بالله العظيم ، وبالبراءة من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وبالنّفي من العبّاس ، أنّه لا يذكر شيئاً من ذلك ، ولا يعلم إلّا أنّه كان نائماً ، ولا رأى مناماً ، ولا انتبه ، ولا جلس ، ولا استدعى أحداً ، ولا أمر بأمر .

فما رأيت أعجب من هذا المنام والحال ، ولا أطرف من هذا الاتّفاق في نسيانه بعد ذلك[19] .

ووجدت في خبر آخر ، قريب من هذا ، ولا يذكر فيه حديث الأترجّ ، وذكر فيه أنّ اسم الجمّال ، كان نصراً ، وأنّه كان من نهاوند[20] ، وله جمال يكريها ، وأنّ صاحب المعونة[21] ، اكترى منه عشرين جملاً ، وحمل عليها عشرين رجلاً من الأكراد أسرى ، ليحملهم إلى الحضرة ، فسار الجمّال معهم ، فهرب منهم في بعض الطريق ، واحدٌ ، فوقع لصاحب المعونة أنّ نصراً الجمّال هرّبه ، فقيّده ، وحمله مكانه ، فلمّا دخلوا الحضرة ، أنفذ الجمّال مع القوم ، إلى الحبس ، وأخذ صاحب المعونة جماله .

---

١٩ نقلها باختصار صاحب حلّ العقال ص ٤٨ .

٢٠ نهاوند : مدينة من مدن الجبل ، عظيمة ، جنوبي همذان ، قال ياقوت في معجمه ٤ / ٨٢٧ : كانت نهاوند من فتوح أهل الكوفة ، والدينور من فتوح أهل البصرة ، فلما كثر الناس بالكوفة ، واحتاجوا إلى ارتياد موضع من النواحي التي صولح على خراجها ، صيّرت لهم الدينور ، وعوّض أهل البصرة ، نهاوند ، فسمّيت نهاوند : ماه البصرة ، والدينور : ماه الكوفة ، وتسمّى نهاوند كذلك ماه دينار ، راجع معجم البلدان ٤ / ٤٠٦ .

٢١ صاحب المعونة ، أو والي المعونة : الشخص المرتّب لتقويم أمور العامّة .

السكــر

السُكْر ، في اللغة : حالة تعترض بين المرء وعقله (المنجد) ، والسكر من الخمر عند أبي حنيفة ، أن لا يعلم الأرض من السماء ، وعند الشافعي وأبي يوسف ومحمّد ، أن يختلط كلامه ، وعند آخرين ، أن يختلط في مشيته إذا تحرّك (التعريفات ٨١) .

والسكر موجب للحدّ ، أي العقوبة المقرّرة ، ويعتبر حقاً من حقوق الله تعالى (التعريفات ٥٧) ، وقد جلد رسول الله صلوات الله عليه في الخمر أربعين جلدة ، وكذلك فعل أبو بكر الصدّيق ، أما الفاروق عمر ، فجلد ولده عبد الرحمن ، حدّ الخمر ، ثمانين جلدة ، وأقيم الحدّ في عهد عثمان على الوليد بن عقبة ، أمير العراق ، وأخي عثمان لأمّه ، فجلد أربعين جلدة (ابن الأثير ٣ / ١٠٧ ومروج الذهب للمسعودي ١ / ٥٣٣ ، ٥٤٦) .

أما في عهد الأمويّين ، فإنّ يزيد بن معاوية كان يدمن شرب الخمر ، فلا يمسي إلاّ سكران ، ولا يصبح إلاّ مخموراً ، وكان عبد الملك يسكر في كلّ شهر مرة ، حتى لا يعقل في السماء هو أو في الماء ، وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ، ويدع يوماً ، وكان سليمان ابن عبد الملك ، يشرب في كل ثلاث ليال ليلة ، وكان هشام يسكر في كلّ جمعة ، وكان يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد يدمنان الشرب واللهو ، وكان مروان بن محمّد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت .

أمّا العباسيّون ، فقد كان أبو العباس السفاح يشرب عشية الثلاثاء وحدها ، وكان المهدي ، والهادي يشربان يوماً ، ويدعان يوماً ، وكان الرشيد يشرب في كلّ جمعة مرّتين ، وكان المأمون في أوّل أيّامه يشرب الثلاثاء والجمعة ، ثم أدمن الشراب عند خروجه إلى الشام في السنة ٢١٥ إلى أن توفّي ، وكان المعتصم لا يشرب يوم الخميس ولا يوم الجمعة ، وكان الواثق ربما أدمن الشراب وتابعه ، غير أنّه لم يكن يشرب ليلة الجمعة ، ولا في يومها (التاج في أخلاق الملوك ١٥١ – ١٥٣) .

أقول : الذي قرأته في الأغاني ٦ / ٧٧ أنّ هشام بن عبد الملك لم يكن يشرب ، ولا يسقي أحداً بحضرته مسكراً ، وكان ينكر ذلك ويعاقب عليه ، وأنّ أبا جعفر المنصور لم يكن يشرب غير الماء (التاج ٣٣ ومحاضرات الأدباء ٢ / ٦٩٤)، وكان المهدي لا يشرب

(الأغاني ٥ / ١٦٠) لا تحرّجاً ولكن كان لا يشتهيه (الطبري ٨ / ١٦٠) ، وأنّ موسى الهادي وهارون الرشيد كانا مستهترين بالنبيذ (نهاية الأرب ٤ / ٣٣٠) ، وأنّ الأمين كان لا يبالي مع من قعد ولا أين قعد (التاج ٤٢) ، أمّا المتوكّل ، فكان منهمكاً في اللذّات والشراب (تاريخ الخلفاء ٣٤٩) وكان يعربد على جلسائه إذا سكر (الطبري ٩ / ١٦٧) أمّا المهتدي ، محمّد بن الواثق ، فقد كان زاهداً ورعاً (تاريخ الخلفاء ٣٦١) ، وكان المعتمد منهمكاً في اللهو واللذّات (تاريخ الخلفاء ٣٦٣) وكان المقتدر مؤثراً للشهوات والشراب (تاريخ الخلفاء ٣٨٤) أمّا القاهر فكان لا يصحو من السكر (تاريخ الخلفاء ٣٨٦) أما المقتفي فلم يشرب النبيذ قط (تاريخ الخلفاء ٣٩٤) وكذلك القادر بالله (تاريخ الخلفاء ٤١٢) والقائم ابنه (تاريخ الخلفاء ٤١٧) والمقتدي حفيد القائم (تاريخ الخلفاء ٤٢٣) .

أما بشأن رجال الدولة ، فقد ذكر أنّ الفضل بن يحيى البرمكي ، لم يكن يشرب الخمر ، وعتب عليه الرشيد ، وثقل عليه مكانه لتركه الشرب معه ، وكان الفضل يقول : لو علمت أنّ الماء ينقص من مروءتي ما شربته (الطبري ٨ / ٢٩٣) ، وكان سيف الدولة الحمداني لا يشرب النبيذ (الملح للحصري ٢٦٦) ، وكذلك كان سيف الدولة الأسدي صدقة بن دبيس ، فإنّه لم يشرب مسكراً (المنتظم ٩ / ١٥٩) .

٢٠٧
أبو بكر المادرائي يولّي عاملاً
وهو على صهوة جواده

وحدّثني أبو محمّد الصلحي[١] ، قال : حدّثني أبو بكر محمّد بن علي المادرائي بمصر ، [وكان شيخاً جليلاً ، عظيم الحال والنعمة والجاه ، قديم الرياسة والولايات الكبار للأعمال ، وقد وزّر لخمارويه بن أحمد بن طولون ، وتقلّد مصر مرّات ، وعاش ستّاً وتسعين سنة][٢] ، [ومات في سنة نيف وأربعين وثلثمائة][٣] ، قال :

كنت أكتب لخمارويه بن أحمد بن طولون[٤] ، في حداثتي ، فركبتني الأشغال [٩٢ ر] وقطعني [ترادف الأعمال][٢] ، عن تصفّح أحوال المتعطّلين .

وكان ببابي شيخ من شيوخ الكتّاب قد طالت عطلته ، وقد غفلت عن تصريفه .

---

١ أبو محمّد الحسن بن محمّد بن أبي محمّد الصلحي : نسبته إلى فم الصلح ، بلدة على دجلة بأعلى واسط ، بينهما خمسة فراسخ (معجم البلدان ٣ / ٩١٧ والأنساب للسمعانيّ ٣٥٤) كان أبو محمّد الحسن يكتب لابن رائق ، لما كان أميراً للأمراء ببغداد (القصّة ٥ / ٣٧ من نشوار المحاضرة) ثم انتقل إلى كتبة ناصر الدولة الحمدانيّ ، وقد ذكر قصّة هروبه من بغداد مع ناصر الدولة ، لما احتلّ معزّ الدولة بغداد (المنتظم ٦ / ٣٤٩) ثم انصرف إلى خدمة الأمير سيف الدولة الحمدانيّ في حلب (القصّة ٣ / ١٢١ من نشوار المحاضرة) ثم كان آخر تصرّف تصرّفه أن كتب للمطيع على ضياعه وخاصّ أمره (القصّة ٢٠٦ من هذا الكتاب) .

٢ الزيادة من م وغ .

٣ الزيادة من غ .

٤ أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٥٠ – ٢٨٢) : من ملوك الدولة الطولونية بمصر ، وليها بعد وفاة أبيه ، سنة ٢٧٠ ، وكان شجاعاً ، حازماً ، ملك من الفرات إلى بلاد النوبة ، وتزوّج المعتضد ابنته قطر الندى ، ولد بسامراء ، وقتله غلمانه بدمشق (الأعلام ٢ / ٣٧٠) .

فرأيت ليلة في منامي ، أبي ، وكأنّه يقول لي : ويحك يا بنيّ أما تستحي من الله ، أن تتشاغل بأعمالك والنّاس ببابك يتلفون ضرّاً وهزالاً ؟ هوذا فلان ، شيخ من شيوخ الكتّاب ، قد أفضى أمره إلى أن تقطّع سراويله[٥] ، فما أمكنه أن يشتري بدله ، أحبّ أن لا تغفل أمره أكثر من هذا .

فانتبهت متعجّباً ، واعتقدت الإحسان إلى الشيخ من غدٍ ، ونمتُ ، فأصبحت وقد أنسيت أمره .

فركبت إلى دار خمارويه بن أحمد ، فإنّي لأسير إذ تراءى لي الشّيخ على دويبة له ضعيفة ، فأهوى ليترجّل لي ، فانكشف فخذه ، فإذا هو لابس خفّاً بلا سراويل .

فحين وقعت عيني على ذلك ، ذكرتُ المنام ، فقامت قيامتي [١٢٠ م] ، فوقفت في موضعي ، واستدعيته ، فقلت له : يا هذا ، ما حلّ لك ما صنعت بنفسك من تركك إذكاري بأمرك ، أما كان في الدنيا من يوصل لك رقعة ، أو يخاطب في أمرك ؟ الآن قد قلّدتك الناحية الفلانية ، ورزقتك رزقها وهو في كلّ شهر مائتا دينار ، وأطلقت لك من خزانتي ألف دينار معونة ، وأمرت لك من الثياب والحملان بكذا وكذا ، فاقبض ذلك واخرج ، فإن حسن أثرك في عملك ، زدتك ، وفعلت بك وصنعتُ .

وضممت إليه من يتنجّز له ذلك .

---

٥ السراويل : أعجمية ، مؤنّثة ، مفرد ، والجمع : سراويلات (التلخيص للعسكري ٢١٤/١ ولسان العرب ، مادة : سربل) ، قال المتنبّي [ديوان المتنبّي ، شرح الواحدي ٢٧٨] :

إنّي على شغفي بما في خمرها لأعفّ عمّا في سراويلاتها

والبغداديّون يسمّون السراويل (الداخليّة) : لباس ، وجمعها : لبسان ، أما السراويل الخارجيّة ، فيسمّونها : بنطلون ، افرنسية ، وجمعها : بنطلونات .

٢٠٨

أدرِك أبا محمّد الأزرق الأنباري

حدّثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول الأنباري التنوخي ، قال :

خرج أخي أبو محمّد الحسن بن يوسف ، يقصد أخانا أبا يعقوب إسحاق ابن يوسف وهو حينئذ بمصر ، ومعه زوجة كانت لأبي يعقوب إسحاق ببغداد ، وبنيّة له منها ، ومضى .

فلمّا عاد حدّثني [١١٨ ظ] أنّه سلك في قافلة كبيرة ، من هيت[١] على طريق السماوة[٢] ، يريد دمشق[٣] ، قال : فلمّا حصلنا في أعماق السماوة ، أخفرتنا[٤] خفراؤنا ، وجاء قوم من الأعراب ، فظاهروهم علينا ، وأظهروا أنّهم من غيرهم ، وقطعوا علينا ، فاستاقوا ركائبنا ، فبقيت أنا والنّاس مطرّحين على الماء الّذي كنّا نزلنا عليه بلا جمل ، ولا زاد ، ولا دليل ، فأيسنا من الحياة .

فقلت للناس : إنّ الموت لا بدّ منه على كلّ حال ، أقمنا في أماكننا أم

---

١ هيت : قال ياقوت في معجمه ٤ / ٩٩٧ إنّها بلدة على الفرات من نواحي بغداد ، فوق الأنبار ، ذات نخل كثير ، وخيرات واسعة ، وهي مجاورة للبرية ، وفيها قبر عبد الله بن المبارك .

٢ السماوة : البادية التي بين الكوفة والشام (معجم البلدان ٣ / ١٣١) أقول : وتسمّى : بادية كلب أيضاً ، لأنّ قبيلة كلب تعمرها ، ويسمّيها العراقيون اليوم : بادية الشام .

٣ دمشق : قال ياقوت في معجمه ٢ / ٥٨٧ إنّها قصبة الشام ، وجنّة الأرض بلا خلاف ، لم توصف الجنّة بشيء ، إلاّ وفي دمشق منه ، فتحها المسلمون سنة ١٤ (٦٣٩ م) ، وفي المنجد : هي الآن عاصمة سوريا ، بنيت منذ ٥٠٠٠ سنة ، فهي أقدم مدن العالم ، سكنها الآراميون ، وفتحها الأشوريون ، والبابليون ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، واتّخذها الأمويون عاصمة لهم ، وأحرقها تيمورلنك ، وهي محور تجاري بين الشرق والغرب .

٤ أخفر : غدر .

سرنا ، فلأن نسير في [١٥٦ غ] طلب الخلاص فلعلّ الله أن يرحمنا ويخلّصنا ، أولى من أن نموت هاهنا ، وإن متنا في سيرنا كان أعذر .

فساعدوني ، وسرنا يومنا وليلتنا ، وأنا أحمل الصبيّة ابنة أخي ، لأنّ أمّها عجزت عن حملها ، وكلّما طال علينا الطّريق ، ولم نر إنساناً ولا محجّة[٥] ، أحسسنا بالهلاك ، ومات منّا قوم ، وأنا خلال ذلك ، قد بدأت بقراءة ختمة ، وأنا متشاغل بها ، وبالدّعاء .

إلى أن وقعنا في اليوم الثّاني ، على حلّة[٦] أعراب ، فأنكرونا ، فلم أعمل عملاً ، حتّى ولجت بيت امرأة منهم ، فأمسكت ذيلها ، وكنت سمعت أنّ الإنسان إذا عمل ذلك أمن شرّهم ، ووجب حقّه عليهم ، ثمّ تفرّقنا في البيوت .

واختلفت أحوال النّاس ، فأمّا أنا ، فإنّ صاحب البيت الّذي نزلت عليه ، لما رأى هيبتي ودرسي للقرآن ، أكرمني ، ولم أزل أحادثه وأرفق به .

فقال لي : ما تشاء ؟

فقلت : تركبني وهذه المرأة ، وهذه الصبيّة ، راحلة ، وتسير معنا إلى دمشق على راحلة أخرى ، بزادٍ وماءٍ ، حتّى أعطيك ثمن راحلتك وأهبها لك ، وأقضي حقّك بعد هذا .

قال : فتذمّم[٧] واستحيا ، وقدّرت أنّي إذا دخلت دمشق ، وجدت بها

---

٥ المحجّة : الطريق .

٦ الحلّة ، بكسر الحاء ، وجمعها حلل وحلال : مجمع القوم النزول فيهم كثرة ، أقول : إذا كانت بيوت القوم النزول من القصب ، فهي حلل ، واحدتها حلّة ، فإن كانت من السعف ، فهي صرائف ، واحدتها : صريفة ، فإن كانت من الشعر ، فهي أخبية ، واحدها : خباء ، ومن شهيرات الحلل ، الحلّة ، المدينة المعروفة في العراق ، فقد كانت من قبل تضمّ حلل عساكر الأمير دبيس المزيدي الأسدي ، ملك العرب ، وهي إلى الآن تسمّى : حلّة دبيس .

٧ تذمّم : استحيا .

من أصدقاء أخي ، من آخذ منه ما أريد .

فكساني الأعرابي ، وكسا المرأة والصبيّة ، ووطّأ لي راحلة[8] ، وحمل معنا من الماء والزّاد كفايتنا ، وركب هو راحلة أخرى ، وكان أكثر من وصل معنا [٩٣ ر] إلى ذلك الموضع ، قد تأتّى له مثل ما تأتّى لي ، فصرنا رفقة صالحة العدد .

فلمّا كان بعد أيّام ، شارفنا دمشق مع طلوع الشمس ، فإذا بأهلها قد خرجوا يستقبلوننا ، وكلّ من له صديق أو معرفة ، يسأل عنه ، وقد بلغهم خبر القطع ، فما شعرت إلّا بإنسان يسأل عنّي ، بكنيتي ونسبي .

فقلت : هآ أناذا .

فعدل إليّ ، وقال : أنت أبو محمّد الأزرق الأنباري ؟

فقلت : نعم .

فقال : إليّ ، وأخذ بخطام[9] راحلتي ، وتبعني الأعرابي براحلته ، حتّى دخلنا مع الرّجل دمشق .

فجاء بنا الرّجل ، إلى دار حسنة سريّة[10] ، تدلّ على نعمة حسنة ، فأنزلنا ، ولم أشكّ أنّه صديق لأخي .

فنزلت ، وأنزلت الأعرابي معي ، وأخذت جمالنا ، وأدخلنا الحمّام [١٢١ م] وألبست خلعة[11] نظيفة ، وفعل بالمرأة والصبيّة مثل ذلك ، وأقمت عنده يومين في خفض عيش ، لا أسأله عن شيء ، ولا يسألني .

---

٨ الراحلة من الإبل : ما كان منها قوياً على الحمل والسفر .

٩ الخطم : الأنف ، والخطام ، بكسر الخاء ، والجمع خطم : كلّ ما وضع في أنف البعير ليقاد به .

١٠ السريّ : الجيّد من كلّ شيء .

١١ الخلعة ، بكسر الخاء : الثوب الذي يعطى منحة ، وفي أيّامنا ، كان من المتعارف في بغداد ، إذا عمّر الإنسان داراً ، فإنّ عليه أن يمنح البنّاء الذي قام بالعمل خلعة ، وتكون عادة من الثياب الغالية ، سواء كان الثوب مخيطاً أو غير مخيط وقد درست هذه العادة الآن .

فلمّا كان في اليوم الثالث ، قال : ما صورة هذا الأعرابي معك ؟ فأخبرته بما أخذنا منه .

فقال لي : خذ ما تريد من المال .

فقلت : أريد كذا وكذا ديناراً ، فأعطاني ذلك ، فدفعته إلى الأعرابي ، وسلّمت إليه جمليه .

وسألت الرّجل أن يزوّده زاداً كثيراً [لا يكون مثله في البادية ، فأخرج له شيئاً كثيراً][12] ، وخرج الأعرابيّ شاكراً .

فقال لي الرّجل : إلى أين تريد من البلاد ، وكم يكفيك من النفقة ؟

فلمّا قال لي ذلك ، ارتبت به ، وقلت : لو كان هذا من أصدقاء أخي الّذين كاتبهم بتفقّدي ، لكان يعرف مقصدي .

فقلت له : كم كاتبك أخي أن تدفع إليّ[13] ؟

قال : ومن أخوك ؟

قلت : أبو يعقوب الأزرق الأنباري ، الكاتب بمصر .

فقال : والله ، ما سمعت بهذا الاسم قط ، ولا أعرفه .

فورد عليّ أعجب مورد ، وقلت له : يا هذا ، إنّي ظننتك صديقاً لأخي ، وأنّ ما عاملتني به من الجميل من أجله ، فانبسطتُ إليك بالطّلب ، ولو لم أعتقد هذا لانقبضت [١١٨ ظ][14] فما السبب فيما عاملتني به ؟

فقال : أمر هو أوكد من أمر أخيك ، يجب أن يكون انبساطك إليه أتمّ .

فقلت : ما هو ؟ .

قال : إنّ خبر الوقعة بالقافلة الّتي كنت فيها ، بلغنا في يوم كذا وكذا ،

---

١٢ في ظ : ففعل ، والزيادة من م وغ .

١٣ في م : أن تعطيني .

١٤ يلاحظ أنّ هذا الرقم قد تكرّر في مخطوطة ظ .

فما بقي كبير أحد بدمشق ، إلّا وردت عليه مصيبة عظيمة ، إمّا بذهاب [١٥٧ غ] مال ، أو بغمّ على صديق ، غيري ، فإنّي لم يكن لي شيء من ذلك يتعلّق قلبي به ، واتّعد النّاس للخروج ، لتلقّي المنقطعين ، وإصلاح أحوالهم ، ولم أعزم أنا .

فلمّا كان في اللّيل ، رأيت النّبي صلّى الله عليه وسلّم في النّوم ، وهو يقول لي : أدرك أبا محمّد الأزرق الأنباري ، وأغثه ، وأصلح شأنه بما يبلغه مقصده ، فلمّا أصبحتُ ، خرجتُ مع النّاس ، فسألت عنك ، فكان ما رأيت ، والآن اذكر ما تريده .

فبكيت بكاء شديداً ، لم أقدر معه على خطابه مدّة ، ثمّ نظرت إلى ما يبلغني مصر ، فطلبته منه ، فأخذته ، وأصلحت أمري ، وسألت الرّجل عن اسمه ، فقال : أنا فلان بن فلان الصابوني [ذكره أبو محمّد ، وأنسيه أبو الحسن][15] .

قال : فلمّا بلغت إلى مصر ، حدّثت أخي بالحديث ، فعجب منه ، وبكى .

قال أبو الحسن : وضرب الدّهر ضربه ، وورد أبو يعقوب أخي إلى بغداد بعد سنين ، فتذاكرنا هذا الحديث .

فقال أخي : لما عرّفني أخي أبو محمّد ، ما عامله به ابن الصابوني الدمشقي هذا ، جعلته صديقاً لي ، فكنت أكاتبه .

فلمّا وردت إلى دمشق ، وجدت حاله قد اختلّت ، لمحن لحقته ، فوهبت له ضيعتي بدمشق ، وكانت جليلة الغلّة والقيمة ، فسلّمتها إليه ، مكافأة لما عامل به أبا محمّد أخي .

---

١٥ الزيادة من غ .

٢٠٩

اعتقلهم الوزير ابن الزيّات وأطلقوا لموت الواثق

[قال محمّد بن عبدوس ، في كتاب الوزراء ، حدّثني الحسين بن عليّ الباقطاني[١] ، قال : حدّثني أبي ، قال : قال لي أحمد بن المدبّر :][٢]

لما أمر محمّد بن عبد الملك[٣] بحبسي ، أدخلت محبساً فيه [٩٤ ر] أحمد بن إسرائيل ، وسليمان بن وهب ، وهما يطالبان[٤] ، فجعلت في بيت ثالث ، فكنّا نتحدّث ونأكل جميعاً ، وربّما أدخل إلينا النّبيذ[٥] ، فنشرب .

وكان أحمد بن إسرائيل شديد الجبن ، وكان ينكر علينا ، ويمنعنا أن نتحدّث بشيء ، أو نرجو لأنفسنا .

فجاءني يوماً سليمان بن وهب ، فقال لي : رأيت البارحة في نومي ، كأنّ قائلاً يقول لي : يموت الواثق إلى ثلاثين يوماً ، فقم بنا إلى أبي جعفر نحدّثه .

فقلت : والله ، إن سمع بهذا أبو جعفر ، ليشقّنّ ثوبه ، وليسدّنّ أذنه خوفاً .

---

١ قال ياقوت في معجم البلدان ١ / ٤٧٦ : باقطايا ، ويقال : باقطيا ، من قرى بغداد ، على ثلاثة فراسخ من ناحية قطربّل ، ينسب إليها الحسين بن عليّ ، الكاتب الأديب ، ذكرته في معجم الأدباء ، وقال في معجم الأدباء ١ / ٢٧٢ : قال الحسين بن عليّ الباقطاني : شاورت أبا الصقر قبل وزارته في أمر لي ، فعرّفني الصواب فيه ، فقلت له : أنت – أيّدك الله – كما قال إبراهيم بن العباس الصولي في هذا المعنى :

أتيتك شتّى الرأي لابس حيرة ... فسدّدتني حتى رأيت العواقبا
على حين ألقى الرأي دوني حجابه ... فجبت الخطوب واعتسفت المذاهبا

٢ كذا في غ ، وفي ظ : وحدّثني الباقطاني ، عن أحمد بن المدبّر ، وفي م : قال أحمد بن مدبر .

٣ محمّد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكّل .

٤ كان ذلك في السنة ٢٢٩ ، راجع تجارب الأمم ٦ / ٥٢٧ والطبري ٩ / ١٢٥ وابن الأثير ٧ / ١٠ .

٥ النبيذ : راجع البحث في آخر القصّة .

فقال لي : قم على كلّ حال ، فقمنا فدخلنا عليه ، فأخبره سليمان بما رأى .

فقال له : يا هذا ، أنت أجسر النّاس ، وأشدّهم جناية[6] على نفسك وعلينا ، إنّما تريد أن يسمع هذا فنقتل .

فقال له : فتكتب هذه الرؤيا عندك ، لتمتحن صدقها .

فنفر ، وقال : أنا لا أكتب مثل هذا ، فكتبته أنا في رقعة صغيرة [١٢٢ م] .

فلمّا كان يوم الثلاثين ، دخل عليّ أحمد بن إسرائيل فقال لي : يا أبا الحسن ، هذا يوم الثلاثين ، فأخرجت الرقعة ، فإذا هو قد حفظ اليوم ، ومضى يومنا إلى آخره .

فلمّا كان اللّيل ، لم نشعر إلّا والباب يدقّ دقّاً شديداً ، [وصاح بنا صائح : البشرى ، قد مات الواثق[7] ، اخرجوا][8] ،

فقال أحمد بن إسرائيل : قوموا بنا ، فقد حقّق الله الرؤيا ، وأتانا بالفرج ، وصدقت الرؤيا .

فقال سليمان بن وهب : كيف نمشي مع بُعدِ منازلنا ؟ ولكن نوجّه من يجيئنا بما نركب .

فاغتاظ أحمد بن إسرائيل ، وقال : نعم ، نقعد ، حتّى يجلس خليفة آخر ، فيقال له : إنّ في الحبس جماعة من الكتّاب عليهم أموال ، فيأمر بالتوثّق منّا ، إلى أن ينظر في أمرنا ، قم عافاك الله ، حتّى نمرّ .

فخرج ، وخرجنا على أثره .

فقبل أن نخرج من باب الهاروني ، سمعنا رجلين يقول أحدهما للآخر : سأل الخليفة جعفر المتوكّل عمّن في الحبس ، فقيل : فيه جماعة من الكتّاب ،

---

٦ في غ : وأشدّهم بحثاً .

٧ توفّي الواثق في السنة ٢٣٢ (الطبري ٩ / ١٥٠ وابن الأثير ٧ / ٢٩) .

٨ الزيادة من غ ، وم .

فقال : يكونون فيه إلى أن ننظر في أمورهم .

فجددنا في المشي وقصدنا غير منازلنا ، واسترنا .

وبحثنا عن الأخبار ، فبلغنا إقرار الخليفة محمّد بن عبد الملك ، فكتبت إليه رقعة عن جماعتنا ، نعرّفه خبرنا [١٥٨ غ] ، واتّساع آمالنا فيه ، ونستأذنه فيما نعمل .

فلمّا وصلت إليه الرّقعة ، وقّع على ظهرها : لم استخفيتم ؟ وليس منكم إلّا من عنايتي تخصّه ، [١١٩ ظ] ورأيي فيه جميل ، أما أبو أيّوب فقد تكلّم في حقّه أبو منصور إيتاخ ، واستوهبه ، فوهب له ، وأمرت باحضاره ليخلع عليه ، فليحضر ، وأما أبو جعفر فإنّه طولب بما لا يلزمه ، وقد وضحت حجّته في بطلانه ، فليصر إليّ ، وأمّا أبو الحسن فإنّه قذف بباطل ، فاظهروا جميعاً ، واثقين بما عندي من حياطتكم ورعايتكم .

فصرنا إليه جميعاً ، وزال عنّا ما كنّا فيه ، فخلع على سليمان خاصة[9] .

---

٩ في القصّة رقم ١٦٤ ب من هذا الكتاب ، تفصيل لما صنعه السيّد العربيّ النبيل ، قاضي القضاة أحمد ابن أبي دؤاد ، من أجل هؤلاء الكتّاب ، وسعيه في اطلاقهم ، وردّ بعض ما صودر منهم إليهم .

النبيـــذ

النبيذ : الخمر المعتصر من التمر ، أو العنب ، أو العسل ، وسمي نبيذاً ، لأنّ الذي يتّخذه يأخذ تمراً أو زبيباً ، فيلقيه في وعاء ويصبّ عليه الماء ، وينبذه حتى يفور ، ويصير مسكراً ، والمطبوخ منه هو الذي يعرض على النار ، وخير أنواع النبيذ هو القطربّلي ، من نتاج قطربّل إحدى ضواحي بغداد ، وهي مشهورة بخمرها (معجم البلدان ٤ / ١٣٣) .

وللاطّلاع على أنواع النبيذ راجع ما كتبه أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشيّ المتطبّب المعروف بابن النفيس في مطالع البدور ١ / ١٤٠ ، ولزيادة التفصيل راجع كتاب الأشربة لابن قتيبـة .

وممّا يلاحظ أنّ العراقيين كانوا لا يرون بشرب النبيذ بأساً ، أمّا الآن فهم يرون حرمته ، والقليل منهم من يشربه ، وقد كان عند أهل العراق لشرب النبيذ آيين ، وصفه القاضي التنوخي في القصّة ٨ / ١٠٩ من كتاب نشوار المحاضرة ، فيما يتعلّق بترتيب مجلس الشراب ، وما فيه من تمـاثيل العنبر ، وأجـاجين ماء الورد ، والصواني ، والمغاسل ، والمراكن ، والخرداذيات ، والمدافات التي تشتمل على الأنبذة ، وكيف يختار النبيذ ، ومن يختاره ، وكيف يتمّ السقي ، ومن يكون الساقي .

وفي القصّة ٣ / ٦٩ أورد التنوخي قصّة أشار فيها إلى آيين المنادمة الذي يفرض على النديم أن يقبّل يد الملك أوّلاً ، ثم يقبّل القدح ثانياً ، ويشرب ، وإذا قدّم للملك شراباً ، أو مأكلاً ، فإنّ عليه أن يتناول منه قبل الملك .

كما أورد التنوخي في نشواره وصفاً لأحد مجالس شرب المقتدر (القصّة ١ / ١٥٨) ولأحد مجالس شرب الراضي (القصّة ١ / ١٥٩) ولأحد مجالس شرب المتوكّل (القصّة ١ / ١٦٢) ولأحد مجالس شرب عضد الدولة (القصّة ٤ / ٤٤) ولأحد مجالس شرب أبي القاسم البريديّ (القصّة ١ / ١٦٤) ولأحد مجالس شرب الوزير المهلّبي ، ووزير معزّ الدولة (القصّة ١ / ١٦٣) ، وفي معجم الأدباء ٥ / ٣٣٤ وصف لمجلس من مجالس شرب الوزير المهلّبي ، كان يجتمع فيها بأصحابه من شيوخ القضاة ، في كلّ أسبوع مرّتين ، فيلبسون المصبّغات ، ويوضع أمام كلّ واحد منهم طاس من الذهب وزنه ألف مثقال ،

مملوء شراباً قطربّلياً عكبرياً ، فيشربون ، ويطربون ، ويرقصون ، وإلى هذا المجلس أشار السريّ الرفّاء في قوله (ديوان السريّ الرفّاء ٢٤٦) :

إذا سقى الله منزلاً فسقى ... بغداد ما حاولت من الديم
يا حبّذا صحبة العلوم بها ... والعيش بين اليسار والعدم
كيف خلاصي من العراق وقد ... أثرت فيها معادن الكرم
رأيت فيها خلاعة وصلت ... أطرافها بالعلوم والحكم
مجالس يرقص القضاة بها ... إذا انتشوا في مخانق البرم
كأنّهم من ملوك حمير ما ... أوفت أكاليلهم على اللمم
وصاحبٍ يخلط المجون لنا ... بشيمة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شيبه عبثاً ... أنامل مثل حمرة العنم

راجع في كتاب مطالع البدور ما ورد في الراح ، وفي آنيتها ، واستعمالها ، وما يجب على شاربيها ، ومستهديها ، ووصّافها ، والمتنادمين عليها ، ومسامراتهم ، وغنائهم ١ / ١٢٨ – ٢٢٩ .

ومن أراد التوسّع في الاطّلاع على مجالس شرب الخلفاء والأمراء والشعراء ، فعليه بكتاب الديارات للشابشتي تحقيق كوركيس عواد ، وكتاب قطب السرور في أوصاف الخمور للرقيق النديم ، فهما جامعان للكثير من هذه الأخبار ، وفي العقد الفريد ٦ / ٣٥٢ – ٣٧٣ بحث عن النبيذ ، وتحليله ، وتحريمه ، وعن الفرق بين النبيذ والخمر .

٢١٠

من شعر سليمان بن وهب لما حبس

قال : وفي هذه الحبسة كتب سليمان بن وهب إلى أخيه [الحسن بن وهب فيما حكاه محمّد بن عبدوس][١] :

هل رسولٌ وكيف لي برسولٍ   إنّ ليلي ليل السقيم العليل[٢]
هل رسول إلى أخي وشقيقي   ليت أنّي مكان ذاك الرّسول
يا أخي لو ترى مكاني في الحبـ   ـس وحالي وزفرتي وعويلي
وعثاري إذا أردت قياماً   وقعودي في مثقلات الكبول
لرأيت الّذي يغمّك في الأعـ   ـداء أن يسلكوا جميعاً سبيلي
هذه جملة أراني غنيّاً   معها عن أذاك بالتفصيل
ولعلّ الإله يأتي بصنعٍ   وخلاصٍ وفرجة عن قليل [٩٥ ر]

[وذكر أبياتاً أخر ، تماماً لهذه الأبيات ، لم أذكرها ، لأنّها ليست من هذا المعنى][٣] ، ثمّ قال :

[وقد ذكر محمّد بن داود ، في كتابه المسمّى « كتاب الوزراء » من خروج سليمان بن وهب من حبس الواثق غير هذا ، قال في كتابه : حدّثني أبو القاسم عبيد الله بن سليمان ، واقتصّ محمّد بن عبدوس ، قصّة طويلة ، ليس فيها ذكر منام ، فذكرتها أنا في كتابي هذا ، في باب من خرج من حبس

---

١ كذا ورد في غ ، وفي م وردت : فيما حكاه محمّد بن داود ، وسقطت في ظ و ر .
٢ كذا في ظ و ر ، وفي م : إنّ ليلي منذ غبت عنّي طويل ، وفي هـ : إنّ ليلي إذ نمت غير طويل .
٣ الزيادة من م وغ .

أو أسر أو اعتقال ، إلى سراح وسلامة وصلاح حال ، ورويتها عن عليّ بن عيسى ، عن عبيد الله بن سليمان ، بألفاظ قويّة ، [أقوى] من الألفاظ الّتي أوردها ابن عبدوس ، ولم أذكرها هاهنا ، لأنّ هذا الخبر ، مختصّ بالمنامات ، فجعلته في بابه ، وأوردت تلك القصّة في الباب المفرد لأمثالها][4] .

---

٤ انفردت بها غ .

٢١١

بين الوزير المهلّبي والحسين السمري

[حدّثني علي بن محمّد الأنصاري الخطمي[١] ، قال : حدّثني أبو عبد الله الحسين بن محمّد السمري[٢] كاتب الدّيوان بالبصرة ، قال :][٣]

كان أبو محمّد المهلّبي ، في وزارته ، قبض عليّ بالبصرة ، وطالبني بمال ، وحبسني حتّى يئست من الفرج ، فرأيت ليلة في المنام ، كأنّ قائلاً يقول لي : اطلب من ابن الراهبوني دفتراً خلقاً عنده ، على ظهره دعاء ، فادع الله به ، فإنّه يفرّج عنك ، وكان ابن الراهبوني هذا ، صديقاً لي من تنّاء أهل واسط ، مقيماً بالبصرة .

فلمّا كان من غد ، جاءني ، فقلت له : عندك دفتر على ظهره دعاء .

فقال لي : نعم .

قلت : جئني به ، فجاءني به ، فرأيت مكتوباً على ظهره : اللّهم أنت أنت ، انقطع الرّجاء إلّا منك ، وخابت الآمال إلّا فيك ، صلّ على محمّد وعلى آل محمّد ، ولا تقطع اللّهمّ منك رجائي ، ولا رجاء من يرجوك في شرق الأرض وغربها ، يا قريباً غير بعيد ، ويا شاهداً لا يغيب ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ، وارزقني رزقاً واسعاً [١٥٩ غ] من حيث لا أحتسب ، إنّك على كلّ شيء قدير [١٢٣ م] .

---

١ الخطمي ، بفتح الخاء وسكون الطاء : النسبة إلى بطن من الأنصار ، بني خطمة بن جشم بن مالك ابن الأوس بن حارثة (اللباب ١ / ٣٧٩) .

٢ السمري : نسبة إلى سمر ، بلد من أعمال كسكر بين واسط والبصرة (الأنساب ٣٠٨) .

٣ في ظ : قال أبو محمّد الشوني ، وفي ر : وحكى أبو محمّد السموني ، وفي م ، وغ : حدّث أبو عبد الله الحسين بن محمّد السمري ، كاتب الديوان بالبصرة ، والزيادة من هـ .

قال : فواصلت الدّعاء بذلك ، فما مضت إلّا أيّام يسيرة ، حتّى أخرجني المهلّبي من الحبس ، وقلّدني الإشراف على أحمد الطويل [٤] ، في أعماله بأسافل الأهواز [٥] .

[قال لي أبو الحسن الأنصاري : قال لي أبو عليّ زكريا بن يحيى الكاتب النصراني ، حدّثني بهذا الحديث] [٦] أبو عبد الله السمري ، وكتبت عنه الدعاء ، ونقلته ، وحفظته ، وتقلّبت بي الأحوال ، فكتبتُ لأبي جعفر مُمْلِهْ [٧] ، صاحب مائدة معزّ الدولة ، فاعتقلني بعد مدّة ، ونكبني ، فواصلت الدّعاء به ، فأطلقني بعد أيّام يسيرة .

---

٤ في م : أحمد بن محمّد بن أبي الحسين الطويل ، وذكره التنوخي في كتاب نشوار المحاضرة في القصّة ٨ / ١٠٥ ، فقال : أبو الحسين أحمد بن محمّد بن طريف ، المعروف بأحمد الطويل ، وكان يتقلّد حصن مهديّ ، راجع كذلك تجارب الأمم ٢ / ٢٤٤ .

٥ يريد بأسافل الأهواز : حصن مهديْ التي كان يتقلّدها أبو الحسين أحمد الطويل ، وهي بلد من نواحي خوزستان ، ونهر المسرقان تنحدر منه مياه خوزستان من الأهواز والدورق ، حتي تنتهي إلى حصن مهدي ، فتصير هناك نهراً كبيراً ذا عرض وعمق ، حتى يصب من حصن مهدي إلى البحر ، راجع معجم البلدان ٢ / ٢٧٩ وراجع كذلك القصّة ٨ / ١٠٥ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، وقد سمّاها التنوخي في القصّة ٣٢٨ من هذا الكتاب ، بالأسافل ، بالنظر لشهرتها .

٦ الزيادة من غ وم .

٧ أبو جعفر المعروف بممله ، صاحب مطبخ معزّ الدولة ، ذكره صاحب تجارب الأمم ٢ / ٢٨٥ وقال عنه : إنّه كان ضامناً تكريت ، وما يجري معها من المآصير العليا ، ثم أصيب بعلل متصلة ، وأعرض معزّ الدولة عنه .

٢١٢

رأى في المنام أنّ غناه بمصر

[حدّثني أبو الرّبيع سليمان بن داود البغداديّ ، صاحبٌ كان لأبي ، وكان قديماً يخدم القاضيين أبا عمر محمّد بن يوسف ، وابنه أبا الحسين في دورهما ، وكانت جدّته تعرف بِسمسمة ، قهرمانة كانت في دار القاضي أبي عمر محمّد بن يوسف رحمه الله ، قال :][1] .

كان في جوار القاضي قديماً ، رجلٌ انتشرت عنه حكاية ، وظهر في يده مال جليل ، بعد فقر طويل ، وكنت أسمع أنّ أبا عمر حماه من السلطان ، فسألت عن الحكاية ، فدافعني طويلاً ، ثمّ حدّثني ، قال :

ورثت عن أبي مالاً جليلاً ، فاسرعت فيه ، وأتلفته ، حتّى أفضيت إلى بيع أبواب داري وسقوفها ، ولم يبق لي من الدنيا حيلة ، وبقيتُ مدّة بلا قوت إلّا من غزل أمّي ، فتمنّيت الموت .

فرأيت ليلة في النّوم ، كأنّ قائلاً يقول لي : غناك بمصر ، فاخرج إليها .

فبكرت إلى أبي عمر القاضي ، وتوسّلت إليه بالجوار ، وبخدمة كانت من أبي لأبيه ، وسألته أن يزوّدني كتاباً إلى مصر ، لأتصرّف بها ، ففعل ، وخرجت .

فلمّا حصلتُ بمصر ، أوصلتُ الكتابَ ، وسألتُ التصرّف ، فسدّ الله عليّ الوجوه حتّى لم أظفر بتصرّف ، ولا لاح لي شغل .

ونفدت نفقتي ، فبقيت متحيّراً ، وفكّرت في أن أسأل النّاس ، وأمدّ يدي على الطريق ، فلم تسمح نفسي ، فقلت : أخرج ليلاً ، وأسأل ، فخرجت بين العشاءين ، فما زلت أمشي في الطّريق ، وتأبى نفسي المسألة ، ويحملني الجوع

---

١ الزيادة من غ ، ومن هنا انقطع الكلام في غ .

عليها ، وأنا ممتنع ، إلى [١٢٠ ظ] أن مضى صدر من اللّيل .

فلقيني الطّائف[٢] ، فقبض عليّ ، ووجدني غريباً ، فأنكر حالي ، فسألني عن خبري ، فقلت : رجل ضعيف ، فلم يصدّقني ، وبطحني ، وضربني مقارع .

فصحت : أنا أصدقك .

فقال : هات .

فقصصت عليه قصّتي من أوّلها إلى آخرها ، وحديث المنام .

فقال لي : أنت رجل ما رأيت أحمق منك ، والله لقد رأيتُ منذ كذا وكذا سنة ، في النّوم ، كأنّ رجلاً يقول لي : ببغداد في الشّارع الفلاني ، في المحلّة الفلانيّة – فذكر شارعي ، ومحلّتي ، فسكتُّ ، وأصغيتُ إليه – وأتمّ الشرطيُّ الحديث فقال : دار يقال لها : دار فلان – فذكر داري ، واسمي – فيها بستان ، وفيه سدرة ، وكان في بستان داري سدرة[٣] ، وتحت السدرة مدفون ثلاثون ألف دينار ، فامض ، فخذها ، فما فكّرت في هذا الحديث ، ولا التفتّ إليه ، وأنت يا أحمق ، فارقتَ وطنك ، وجئت إلى مصر بسبب منام .

قال : فقوي بذلك قلبي ، وأطلقني [٩٦ ر] الطائف ، فبتّ في بعض المساجد ، وخرجت مع السَّحَرِ من مصر ، فقدمت بغداد ، فقطعت السدرة ، وأثرت تحتها ، فوجدت قمقماً فيه ثلاثون ألف دينار ، فأخذته ، وأمسكت يدي ، ودبّرت أمري ، فأنا أعيش من تلك الدنانير ، من فضل ما ابتعتُ منها من ضيعة وعقار إلى اليوم .

---

٢ الطائف : العسس .

٣ السدرة : شجرة النبق .

٢١٣

خزيمة بن هازم يصرّف الحرّاني

ويعقد له على طريق الفرات

[وجدتُ في كتاب أبي الفرج عبد الواحد المخزوميّ الحنطيّ[١] ، عن عليّ ابن العبّاس النُّوبختي[٢] ، قال : حدّثني أحمد بن عبد الله التغلبيّ ، قال : كان من بقايا شيوخ خراسان ، ممّن يلزم دار العامّة بسرّ من رأى ، شيخ يكنى أبا عصمة ، وكان يحدّثنا كثيراً ، بأخبار الدولة وأهلها][٣] فحدّثنا يوماً :

أنّ خزيمة بن خازم[٤] ، كان يجلس في داره للنّاس ، في كلّ يوم ثلاثاء ، فلا يحجب عنه أحد ، ولا يستأذن لمن يدخل ، إنّما يدخلون أَرسالاً ، بغير إذن ، فمن كان من الأشراف ووجوه النّاس ، سلّم وانصرف ، ومن كان من طلّاب الحوائج ، أو خطّاب التصرّف ، دفع رقعته إلى الحاجب ، فيجتمع النّاس ويدخلون ، فيعرض رقاعهم عليه .

---

١ الحنطي : النسبة إلى حنطب ، وهو جد أبي الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمّد بن عبيد الله من أولاد حنطب ، المخزومي الحنطبي الشاعر المعروف بالببغاء .

٢ أبو الحسن عليّ بن العباس النوبختي : من مشايخ الكتّاب في عصره ، عاش طويلاً ، وروى عن البحتري وابن الروميّ من أشعارهما قطعة حسنة ، توفّي سنة ٣٢٧ (الأعلام ٥ / ١١١) .

٣ في ظ : قال : كان من كبار الكتّاب شيخ يكنّى أبا عصمة ، فحدّثنا يوماً ... إلخ ، وفي ر : وحكي أنّه كان من الكتّاب شيخ يكنّى أبا عصمة فحدّثنا يوماً ... إلخ ، وفي م : ووجدت في كتاب أبي علي الحسن بن لبيب ، بإسناد ذكره ، قال : كان من بقايا شيوخ خراسان ... إلخ ، والذي أثبتناه من هـ .

٤ خزيمة بن خازم التميمي : من أكابر القوّاد في عهد الرشيد والأمين والمأمون ، شهد الوقائع الكثيرة ، وقاد الجيوش ، وولّي البصرة في أيّام الرشيد ، والجزيرة في أيّام الأمين ، ولما اختلف الأخوان انحاز إلى جانب المأمون ، واشترك في حصار بغداد ، ومات ببغداد سنة ٢٠٣ (الأعلام ٢ / ٣٥١) .

وكان قد أفرد لهذا كاتباً حصيفاً يقال له : الحسن بن مسلمة ، يتصفّح [١٢٤ م] الرّقاع قبل عرضها عليه ، فما كان يجوز أن يوقّع عنه فيه بخطّه ، وقّع وسلّمه إلى أربابه ، وما كان لا بدّ من وقوفه عليه ، وتوقيعه فيه بخطّه ، أوقفه عليه ، ومن كان من النّاس زائراً ، أو مسترفداً ، عرضت رقعته عليه ، فيكون هو الموقّع فيها بما يراه

فلا يكاد ينصرف أحد من ذلك الجمع العظيم المفرط ، إلّا وهو مسرور بقضاء حاجته .

قال أبو عصمة : وكان ممّن يتصرّف في الأعمال ، رجلٌ من الأعراب ، ذو لسان وفصاحة ، يقال له : حامد بن عمرو الحرّانيّ ، وكان فيه إلحاح شديد ، وملازمة تامّة إذا تعطّل ، فيؤذي بذلك ويبرم .

وكان يخاطب خزيمة في أيّام الثلاثاء ، ولا يقنع بذلك ، حتّى يلازم بابه كلّ يوم ، وإذا ركب خاطبه على الطّريق ، وربّما تعرّض له في دار الخليفة فخاطبه ، ولم يكن في طبع خزيمة احتمال مثل ذلك .

قال أبو عصمة : فحدّثني الحسن بن مسلمة ، كاتب خزيمة ، قال : نظر خزيمة إلى هذا الرّجل في داره ، وكان قد لقيه في الطّريق ، فخاطبه قبل ذلك بيوم ، وأضجره ، ووافق من خزيمة ضجراً بشيء حدث من أمور المملكة ، مع ما فيه من الجبروتية والكِبْر .

فحين خاطبه الرّجُل ، صاح فيه ، وأمر بإخراجه من داره إخراجاً عنيفاً ، ثمّ دعاني ، فقال : والله ، لئن دخل هذا داري ، لأضربنّ عنقه ، ولئن وقف لي على طريق ، أو كلّمني في دار السلطان ، لأضربنّ عنقه ، فأخبره بذلك ، وحذّره ، وتقدّم إلى البوّابين والحجّاب بمنعه ، وكان خزيمة إذا وعَد أو توعّد ، فليس إلّا الوفاء .

فخرجتُ إلى الحجّاب والبوّابين وأصحاب المقارع ، فبالغتُ في تحذيرهم ، وتهديدهم ، وعرّفتهم ما قال ، وأنّه حَلَف أن تُضرب أعناقهم إذا خالفوا ، وأكّدت الوصيّة بجهدي ، مستظهراً لنفسي .

وخرجت إلى خارج الدّار ، فوجدت الرّجل قائماً ، فأعلمته [١٢١ ظ] أنّ دمه مرتهن بنظرة ينظرها إليه خزيمة في دار السلطان ، أو على بابه ، أو في الطّريق ، وحذّرته تحذيراً شديداً ، وخوّفته من سفك دمه ، وأن لا يجعل عليه سبيلاً ، فشكرني على تحذيره ، وانصرف كئيباً .

فلمّا أصبحنا من الغد ، غدوت إلى دار خزيمة على رسمي ، للملازمة ، فلمّا دنوت من الباب ، إذا بالرّجل واقفاً كما كان يقف منتظراً لركوبه .

فعظم ذلك عليّ ، وقلت : يا هذا ، أما تخاف الله ؟ أتحبّ أن تقتل نفسك ؟ أما تعرف الرّجل ؟

فقال : والله ، ما أتيت هذا عن جهل منّي ولا اغترار ، بل أتيته على أصل قويّ ، وسبب وثيق ، وسترى من لطف الله ما يسرّك ، وتعجب منه .

قال الحسن : فزاد عجبي منه [٩٧ ر] ، ودخلت الدّار ، فصادفت خزيمة في صحن الدّار يريد الركوب ، فحين نظر إليّ ، قال : ما فعل حامد بن عمرو ؟

قلت : رأيته السّاعة بالباب ، [وقد تهدّدته ، فلمّا رأيته اليوم بالباب تعجّبت من جهله وعوده ، مع ما أعذرت إليه من الوعيد ، وأمرته بالانصراف ، فأجابني بجواب لا أدري ما هو ، فأنا بريء من فعله][٥] .

فقال : بأيّ شيء أجابك ؟ فأخبرته ، فسكت خزيمة ، وخرج فركب ، فحين رآه حامد ترجّل له .

---

٥ في ظ بدل هذه الجملة : وعجبت منه لما أنذرته من وعيدك ، والزيادة من م .

فصاح به : لا تفعل ، والحقني إلى دار أمير المؤمنين وسار خزيمة ، فدخل دار الرّشيد[٦] ، ودخلنا معه إلى حيث جرت عادتنا أن نبلغه من الدّار ، فجلسنا فيه ، ومضى خزيمة يريد الخليفة ، وجاء حامد فجلس إلى جانبي .

فقلت له : أصدقني عن خبرك ، والسّبب في جسارتك على خزيمة ، ولينه لك بعد الغلظة ، وعرّفته ما جرى بيني وبين خزيمة ثانياً .

فقال : طِب نفساً ، فما أبدي لك شيئاً إلّا بعد بلوغ [١٢٥ م] آخر الأمر .

فبينما نحن كذلك ، إذ دُعي حامد إلى حيث كان مرسوماً بأن يدخله من يخلع عليه ، فتحيّرت فلم يكن بأسرع من أن خرج وعليه الخلع ، وبين يديه لواء قد عُقد له على طريق الفرات بأسره ، فقمت إليه وهنّأته .

وقلت : ولا السّاعة تخبرني الخبر ؟

فقال : ما فات شيء، وودّعني ومضى ، فأقمت بمكاني إلى أن خرج خزيمة ، فسرت معه إلى داره ، فلمّا استقرّ ، دعاني ، فسألني عن أمورٍ جرت .

وقال : أظنّك أنكرت ما جرى من أمر حامد ؟

قلت : إي والله ، أيّها الأمير .

قال : فاسمع الخبر ، اعلم أنّي كنت في نهاية الغيظ عليه ، وأمرت فيه بما علمته أمس ، فلمّا كان البارحة ، رأيته في النّوم ، كأنّه قائم يصلّي ، وقد رفع يديه إلى الله يدعو عليّ .

---

٦ من أهمّ الأسباب التي وطّدت قدم خزيمة بن خازم في دولة الرشيد ، أنّ الهادي كان قد خلع الرشيد وبايع لابنه جعفر ، فلما توفّي الهادي ، هجم خزيمة في خمسة آلاف مسلّح ، فأخذ جعفر من فراشه ، وقال له : والله لأضربنّ عنقك أو لتخلعنها ، وبكر من غدٍ ، فأقامه على باب الدار في العلو ، والأبواب مغلقة ، فأقبل جعفر ينادي : يا معشر الناس ، من كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللته منها ، والخلافة لعمّي هارون (تاريخ الموصل لابن اياس الأزدي ٢٦٢) .

فصحت به : لا تفعل ، لا تفعل ، وادنُ منّي ، فانفتل من صلاته ، وجاء حتّى وقف بين يديّ .

فقلت له : ما يحمِلك على أن تدعو عليّ ؟

فقال : لأنّك أهنتني ، واستخففت بي ، وهدّدتني بالقتل ظلماً ، وقطعت أملي من طلب رزقي وقوتي ، وأنا أشكوك إلى الله ، وأستعينه عليك .

وكأنّي أقول له : طِب نفساً ، ولا تدعُ عليّ ، فإنّي أحسن إليك غداً ، وأولّيك عملاً ، واستيقظت .

فعجبت من المنام ، وعلمت أنّي قد ظلمت الرّجل ، وقلتُ في نفسي : شيخ من العرب ، له سنّ وشرف ، أسأت إليه بغير جرم ، وأرعبته ، وماذا عليه إذا لجّ في طلب الرزق ؟ وعلمت أنّ الّذي رأيته في منامي موعظة في أمره ، [وحثّ على حفظ النّعم ، وأن لا أنفّرها بقلّة الشكر ، واستعمال الظّلم][7] .

فاعتقدت أن أولّيه ، كما وعدته في النّوم ، فكان ما رأيت .

قال الحسن بن مسلمة : فقوّيت رأيه في هذا ، ودعوت له ، وانصرفت ، فجاءني من العشيّ حامد ، مسلّماً ، ومودّعاً ، ليخرج إلى عمله .

فقلت له : هات الآن خبرك .

فقال : نعم ، انصرفتُ من باب خزيمة موجع القلب ، قلقاً ، مرتاعاً ، فأخبرت عيالي ، فصار في داري مأتم ، وبكاء عظيم ، ولم أُطعم أنا ، ولا هم ، شيئاً ، يومنا وليلتنا ، وأمسيت كذلك .

فلمّا هذأت العيون ، توضّأت ، واستقبلت القبلة ، فصلّيت ما شاء الله ، وتضرّعت إلى الله ، ودعوته بإخلاص نيّة ، وصدق طويّة ، وأطلت ، فحملتني عيني ، فنمت وأنا ساجد في القبلة .

---

٧ الزيادة من م .

فرأيت في منامي ، كأنّي على [١٢٢ ظ] حالي في الصّلاة والدّعاء ، وكأنّ خزيمة قد وقف عليّ ، وأنا أدعو ، فصاح بي : لا تفعل ، لا تفعل ، واّغدُ عليّ ، فإنّي أُحسن إليك ، وأولّيك ، فانتبهت مذعوراً ، وقد قويت نفسي ، فقلت : أبكّر إليه ، فلعلّ الله أن يطرح في قلبه الرقّة ، فغدوت [٩٨ ر] إليه ، فكان ما رأيت[٨] .

قال الحسن : فكثر تعجّبي لاتّفاق المنامين ، فقلت لحامد : لقد أخبرني الأمير بمثل ما ذكرتَه ، لم يخرم منه حرفاً ، وبكّرت إلى خزيمة ، فحدّثته بالحديث ، فعجب منه ، وأحضر حامداً حتّى سمع منه ذلك ، وأمر له بكسوة وصلة وحملان ، ولم يزل بعد ذلك يتعمّد إكرامه[٩] .

---

٨ هذه القصّة ساقطة من غ .

٩ جرى في مجلس القائد خزيمة بن خازم ، حديث ما يسفك من الدماء ، فقال : والله ، ما لنا عند الله عذر ولا حجّة ، إلاّ رجاء عفوه ومغفرته ، ولولا عزّ السلطان ، وكراهة الذلّة ، وأن أصير بعد الرئاسة سوقة وتابعاً ، بعدما كنت متبوعاً ، ما كان في الأرض أزهد ولا أعبد منّي (الأغاني ٤ / ٩٩) .

٢١٤

بين الوزير عليّ بن عيسى والعطّار الكرخي

ويقارب هذا حديثان ، حدّثني بأحدهما بعض أهل بغداد :

أنّ عطاراً من أهل الكَرخ ، كان مشهوراً بالستر والأمانة ، فركبه دين ، وقام من دكانه[١] ، ولزم بيته مستتراً ، وأقبل على الدّعاء والصّلاة ، إلى أن صلّى ليلة الجمعة صلاة كثيرة ، ودعا ، ونام ، فرأى النّبي صلّى الله عليه وسلّم في منامه ، وهو يقول له : اقصُد عليّ بن عيسى[٢] ، وكان إذ ذاك وزيراً ، فقد أمرته أن يدفع إليك أربعمائة دينار ، فخذها وأصلح بها أمرك .

قال الرّجل : وكان عليّ ستمائة دينار ديناً ، فلمّا كان من الغد ، قلتُ : قد قال [١٢٦ م] النّبي صلّى الله عليه وسلّم ، من رآني في منامه فقد رآني ، فإنّ الشيطان لا يتمثّل بي ، فَلِمَ لا أقصد الوزير .

فلمّا صرتُ ببابه ، منعتُ من الوصول إليه ، فجلست إلى أن ضاق صدري ، وهممت بالانصراف ، فخرج الشافعيّ[٣] صاحبه ، وكان يعرفني معرفة ضعيفة ، فأخبرته الخبر .

فقال : يا هذا ، الوزير والله في طلبك منذ السَّحَر إلى الآن ، وقد سألني

---

١ قام : اصطلاح بغدادي ، لم يزل مستعملاً ، يقال : قام التاجر : إذا أغلق دكّانه ، وعجز عن سداد ديونه .

٢ أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجرّاح ، وزير المقتدر .

٣ أبو بكر محمّد بن عبد الله الشافعيّ : صاحب الوزير عليّ بن عيسى ، كان أثيراً عنده ، راجع القصص ١/٣٥ و ١/٥٠ و ١٢٧/٢ من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التّنوخي ، وكتاب الوزراء للصابي ٣٥٧ ، ٣٦١ وقد صادره المحسّن في وزارة أبيه ابن الفرات بمبلغ ثلاثين ألف دينار (الوزراء ٢٤٥) .

عنك فأنسيتك ، وما عرفك أحد ، والرّسل مبثوثة في طلبك ، فكن بمكانك ، ثمّ رجع فدخل ، فلم يكن بأسرع من أن دعي بي ، فدخلت إلى عليّ بن عيسى .

فقال لي : ما اسمك ؟

قلت : فلان بن فلان العطّار .

قال : من أهل الكرخ ؟

قلت : نعم .

قال : أحسن الله إليك في قصدك إيّاي ، فوالله ما تهنّأتُ بعيش منذ البارحة ، فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، جاءني البارحة في منامي ، فقال : أعطِ فلان بن فلان العطّار من أهل الكرخ أربعمائة دينار يصلح بها شأنه ، فكنت اليوم في طلبك ، وما عرفك أحد .

فقلت : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، جاءني البارحة ، فقال لي كيتَ وكيت .

قال : فبكى عليّ بن عيسى ، وقال : أرجو أن تكون هذه عناية من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بي .

ثمّ قال : هاتوا ألف دينار ، فجاءوه بها عيناً .

فقال : خذ منها أربعمائة دينار ، امتثالاً لأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وستمائة دينار هبة منّي لك .

فقلت : أيّها الوزير ما أحب أن أزداد على عطاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيئاً ، فإنّي أرجو البركة فيه ، لا فيما عداه .

فبكى عليّ بن عيسى ، وقال : هذا هو اليقين ، خذ ما بدا لك .

فأخذتُ أربعمائة دينار ، وانصرفتُ ، فقصصتُ قصّتي على صديق لي ، وأريته الدنانير ، وسألته أن يقصد غرمائي ، ويتوسّط بيني وبينهم ، ففعل .

وقالوا : نمهله بالمال ثلاث سنين .

فقلت : لا ، ولكن يأخذون منّي الثلث عاجلاً ، والثّلثين في سنتين ، في كلّ سنة ثلثاً ، فرضوا بذلك ، وأعطيتهم مائتي دينار ، وفتحت دكّاني بالمائتي دينار الباقية .

فما حال الحول إلّا ومعي ألف دينار ، فقضيت ديني ، وما زال مالي يزيد ، وحالي يصلح ، والحمد لله[4] .

٤ وردت القصّة في نشوار المحاضرة للتنوخيّ برقم ٢ / ١٢٧ وهي ساقطة من غ .

٢١٥

طاهر بن يحيى العلويّ

وجرايته من الحاج الخراسانيّ

والخبر الآخر ، ما حدّثني به أحمد بن يوسف الأزرق[1] ، عن أبي القاسم ابن أماجور المنجّم[2] ، قال :

كنت إذا حججتُ ، دخلت على طاهر بن يحيى العلوي ، فرأيت عنده خراسانيّاً ، كان يحجّ في كلّ سنة ، فإذا دخل المدينة ، جاء إلى [٩٩ر] طاهر بن يحيى فأعطاه مائتي دينار ، فكانت كالجراية له منه .

فلمّا كان في [١٢٣ ظ] بعض السنين ، جاء يريد داره ، ليعطيه المائتي دينار ، فاعترضه رجل من أهل المدينة ، فشنع بطاهر عنده ، وقال له : تضيع دنانيرك الّتي تدفعها إلى طاهر ، وهو يأخذها منك ومن غيرك ، فيصرفها فيما يكرهه الله تعالى ، ويفعل ويصنع ، وتكلّم فيه بقبيح .

قال الخراساني : فانصرفت عنه ، وتصدّقت بالدنانير ، وخرجت من المدينة ، ولم ألق طاهراً .

فلمّا كان في العام الثاني ، دخلت المدينة ، فتصدّقت بالمال ، وطويتُ طاهراً .

---

١ أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق الأنباري التنوخيّ الكاتب .

٢ أبو القاسم عبد الله بن أماجور المنجّم : من أولاد الفراغنة ، كان فاضلاً ، ألّف كتباً عدّة في علم الفلك ذكرها ابن النديم في الفهرست ٢٨٠ ، وكان ولده أبو الحسن عليّ ، فاضلاً مؤلفاً ، ترجم له صاحب تاريخ الحكماء ٢٣١ ، وقال عنه : إنّه أحد العلماء بحركات الكواكب والمعانين لأرصادها ، وأهل هذا الشأن يستدلّون بقوله .

فلمّا كان في العام الثالث ، تأهّبت للحجّ ، فرأيت النّبي صلّى الله عليه وسلّم في منامي ، يقول لي : ويحك قبلت في ابني طاهر قول أعدائه ، وقطعت عنه ما كنت تبرّه به ؟ لا تفعل ، فاقصده ، وأعطه ما فاته ، ولا تقطعه عنه ما استطعت .

قال : فانتبهت فزعاً ، ونويت ذلك ، وأخذت صرّةً فيها ستمائة دينار ، وحملتها معي ، فلمّا صرت بالمدينة ، بدأت بدار طاهر ، فدخلت عليه وجلست ، ومجلسه حفل .

فحين رآني ، قال : يا فلان ، لو لم يبعث بك إلينا ما جئتنا ،

فقلت : كلمة وافقت أمراً ، ليس إلّا أن أتغافل ، فقلت : ما معنى هذا الكلام أصلحك الله ؟

فقال : قبلت فيّ قول [١٢٧ م] عدوّ الله ، وعدوّ رسوله ، وقطعت عادتك عنّي ، حتّى لامك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في منامك وأمرك أن تعطيني الستمائة دينار ، هاتها ، ومدّ يده إليّ .

فتداخلني من الدّهش ما ذهلت معه ، فقلت : أصلحك الله ، هكذا والله كانت القضيّة ، فمن أعلمك بذلك ؟

فقال لي : بلغني خبر دخولك المدينة في السنة الأولى ، فلمّا رحل الحاجّ ولم تأتني ، أثّر ذلك في حالي ، وسألت عن القصّة ، فعرفت أنّ بعض أعدائنا لقيك ، فشنع بي عندك ، فآلمني ذلك .

فلمّا كان في الحول الثاني ، بلغني دخولك ، وخروجك ، وأنّك قد عملت على قوله فيّ ، فازددت غمّاً لذلك .

فلمّا كان منذ شهور ، ازدادت إضاقتي ، وامتنع منّي النّوم غمّاً لما دفعت إليه ، ففزعت إلى الصّلاة ، فصلّيت ما شاء الله ، وأقبلت أدعو بالفرج ، فحملتني عيني في المحراب ، فنمتُ ، فرأيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في منامي وهو

يقول لي : لا تهتمّ ، فقد لقيت فلاناً الخراساني ، وعاتبته على قبوله فيك قول أعدائك ، وأمرته أن يحمل إليك ما فاتك ، ولا يقطع عنك بعدها ذلك ، ويبرّك ما استطاع ، وانتبهتُ ، فحمدت الله وشكرته ، فلمّا رأيتك ، علمت أنّ المنام جاء بك .

قال : فأخرجت الصرّة الّتي فيها ستمائة دينار ، فدفعتها إليه ، وقبّلت يده ، وسألته أن يحلّني من قبول قول ذلك الرّجل فيه[3] .

---

٣ هذه القصّة ساقطة من غ ، وقد وردت في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخيّ برقم ٢ / ١٤٨ .

٢١٦

قصّة العلويّة الزمنة

حدّثني أبو محمّد يحيى بن محمّد بن سليمان بن فهد الأزديّ[١]، قال :

كان في شارع دار الرّقيق[٢] ، جارية علويّة ، أقامت زَمِنَةً خمس عشرة سنة[٣] ، وكان أبي في جوارها [أيّام نزولنا بدرب المعوج من هذا الشارع ، في دار شفيع المقتدريّ ، الّتي كان اشتراها][٤] ، يتفقّدها ، ويبرّها ، وكانت مسجّاة ، لا يمكنها أن تنقلب من جنب إلى جنب ، أو تُقْلَب ، ولا تَقْعُد ، أو تُقْعَد ، وكان لها من يخدمها في ذلك ، وفي الإنجاء ، والأكل ، لقصور أطرافها ، وأعضائها ، وكانت فقيرة ، إنّما قُوتها وقُوت خادمتها من برّ النّاس .

---

١ أبو محمّد يحيى بن محمّد بن سليمان بن فهد الأزدي : كاتب ، شاعر ، أديب ، راوية ، نقل عنه القاضي التنوخيّ كثيراً من الأخبار في كتابه نشوار المحاضرة ، وكان هو ، وأبوه ، على صلة متينة بالأمراء الحمدانيّين ، أمراء الموصل ، وكان أبوه يتوسّط بينهم وبين حكام بغداد (القصّة ١ / ٢٩ من نشوار المحاضرة) ويظهر من القصص ٢ / ١٨ و٢ / ١٣٢ أنّ أبا محمّد ، كان متين العلاقة بأبي تغلب الحمداني ، راجع ما نقله عنه التنوخيّ في القصص ١ / ٢ و١ / ١٠٣ ، و١ / ١٤٣ ، ١ / ١٤٤ و١ / ١٤٨ ، ٢ / ١٩ ، و٢ / ٢٠ و٢ / ٢٦ و٢ / ٢٧ و٢ / ٢٨ و٢ / ٧٧ و٢ / ٩٠ و٢ / ١٣٤ و٣ / ١٠٧ و٣ / ١٧٢ و٣ / ١٧٤ و٤ / ١١٤ و٤ / ١١٨ من كتاب نشوار المحاضرة .

٢ في ظ : دار الدقيق . والتصحيح من م و ر ، ودار الرقيق : محلة كانت ببغداد متّصلة بالحريم الطاهري من الجانب الغربي (معجم البلدان ٢ / ٥١٩) أقول : هي الآن جزء من الشالچية .

٣ الزمانة : العاهة ، أو عدم بعض الأعضاء بحيث تتعطّل القوى .

٤ الزيادة من م .

فلمّا مات أبي لاختلّ أمرها ، وبلغ تجنّي[5] ، أمّ ولد الوزير المهلّبيّ خبرها ، فكانت تقوم بأمرها ، وأجرت عليها جراية في كلّ شهر ، وكسوة في كلّ سنة .

فباتت ليلة من اللّيالي على حالها ، وأصبحت من الغد ، وقد برأت ، [١٠٠ ر] ومشت ، وقامت ، وقعدت .

وكنت مجاوراً لها ، وكنت أرى النّاس يأتون باب دارها ، فأنفذتُ امرأة من داري ، ثقة ، حتّى شاهدَتْهَا ، وسمعتها تقول : إنّي ضجرت بنفسي ضجراً شديداً ، فدعوت الله تعالى بالفرج ممّا أنا فيه ، أو الموت ، وبكيت بكاء [١٢٤ ظ] شديداً متّصلاً ، وبتُّ ، وأنا متألّمة ، قلقة ، ضجرة ، وكان سبب ذلك ، أنّ الجارية الّتي كانت تخدمني ، تضجّرت بي ، وخاطبتني بما ضاق صدري معه .

فلمّا استثقلتُ في نومي ، رأيت كأنّ رجلاً دخل عليّ ، فارتعت منه ، وقلت له : يا هذا ، كيف تستحلّ أن تراني ؟

فقال : أنا أبوك ، فظننته أمير المؤمنين[6] .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هوذا ترى ما أنا فيه .

---

٥ تجنّي : محظية الوزير أبي محمّد المهلّبي ، وزير معزّ الدولة ، وأمّ ولده أبي الغنائم المفضّل ، وابنته زينة التي تزوّجها الوزير أبو الفضل الشيرازي ، وكان المهلّبي شديد الولع بها (القصّة ٣ / ١٧٧ من كتاب نشوار المحاضرة) ودام حبّه لها حتّى فرّق الموت بينهما ، راجع في اليتيمة ٢ / ٢٢٤ - ٢٤١ ، في ترجمة الوزير المهلّبي ، بعض شعره في تجنّي ، وكانت من خيّرات النساء ، كثيرة الحسنات ، وقد لقيت من معزّ الدولة وأتباعه ، بعد وفاة الوزير المهلّبي ، كثيراً من الأذى ، راجع القصّة ٤ / ٥٨ من نشوار المحاضرة ، وتجارب الأمم ٢ / ١٩٧ و١٩٨ .

٦ إذا قيل « أمير المؤمنين » مطلقاً ، فهو عليّ بن أبي طالب ، وإذا قيل « ابن عباس » فهو عبد الله ، وإذا قيل « ابن عمر » فهو عبد الله ، وإن كان لهما أولاد غيرهما ، وإذا قيل « الحسن » فهو الحسن البصري ، و « النابغة » نابغة بني ذبيان ، و « الأعشى » أعشى قيس (محاضرات الأدباء ٣ / ٣٤١) .

فقال : أنا محمّد رسول الله .

فبكيت ، وقلت : يا رسول الله ، ادعُ لي بالفرج والعافية .

فحرّك شفتيه بشيء لا أفهمه ، ثمّ قال : هاتي يديك ، فأعطيته يديّ ، وأخذهما ، وجذبني بهما ، فقمت .

فقال : امشي على اسم الله .

فقلت : كيف أمشي ؟

فقال : هاتي يديك ، فأخذهما ، وما زال يمشي بي ، وهما في يديه ساعة ، ثمّ أجلسني ، حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات .

ثمّ قال لي : قد وهب الله لك العافية ، فاحمديه واتّقيه ، وتركني ومضى .

فانتبهت ، وأنا لا أشكّ أنّه واقف ، لسرعة المنام ، فصحت بالخادم ، فظنّت أنّي أريد البول ، فتثاقلَتْ .

فقلت لها : ويحك ، أسرجي ، فإنّي رأيت رسول الله [١٢٨ م] صلّى الله عليه وسلّم ، فانتبهَتْ ، فوجدتني مسجّاة ، فشرحت لها المنام .

فقالت : أرجو أن يكون الله تعالى قد وهب لك العافية ، هاتي يدك ، فأعطيتها يدي ، فأجلستني .

ثمّ قالت لي : قومي ، فقمت معها ، ومشيت متوكّئة عليها ، ثمّ جلستُ ، ففعلتُ ذلك ثلاث مرّاتٍ ، الأخيرة فيهنّ مشيت وحدي .

فصاحت الخادمة سروراً بالحال ، وإعظاماً لها ، فقدّر الجيران أنّي قد متُّ ، فجاؤوا ، فقمت أمشي بين أيديهم .

قال أبو محمّد : وما زالت قوّتها تزيد ، إلى أن رأيتها قد جاءت إلى والدتي في خفٍّ وإزار ، بعد أيّام ، ولا داء بها ، فبررناها ، وهي إلى الآن باقية ، وهي من أصلح وأورع أهل زماننا ، وقد تزوّجت برجل علويّ موسر ، وصلحت

حالها ، ولا تعرف إلى الآن ، إلّا بالعلويّة الزمنة[7] .

فمضى على هذا الحديث ، سنون كثيرة ، وجرى بيني وبين القاضي أبي بكر محمّد بن عبد الرّحمن ، المعروف بابن قريعة[8] ، مذاكرة بالمنامات ، فحدّثني بحديث منام هذه العلويّة ، وقصّتها ، وعلّتها ، على مثل ما حدّثني به أبو محمّد ، وقال : وأنا كنت أحمل إليها جرايتها من عند تجنّي ، جارية الوزير أبي محمّد المهلّبيّ ، وكسوتها على طول السّنين ، وسمعت منها هذا المنام ، ورأيتها تمشي بعد ذلك صحيحة ، بلا قلبة ، وتجيء إلى تجنّي ، وتجنّي

---

٧ إلى هنا وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي ، راجع القصّة ٢ / ١٣٤ من كتاب النشوار .

٨ القاضي أبو بكر محمّد بن عبد الرحمن ، المعروف بابن قريعة (٣٠٢ – ٣٦٧) : قاضي بغداد ، قال عنه صاحب وفيات الأعيان ٤ / ٣٨٢ : كان من عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالجواب عن جميع ما يسأل عنه ، في أفصح لفظ ، وأملح سجع ، وكان مختصّاً بالوزير أبي محمّد المهلّبي ، وزير معزّ الدولة ، وله مسائل وأجوبة مدوّنة في كتاب ، ولما قدم الصاحب بن عباد إلى بغداد رأى من ظرفه ، وسرعة جوابه مع لطفه ، ما عظم منه تعجّبه ، وقد ذكر له في ترجمته فتوى له عجيبة ، وقال عنه الخطيب في تاريخه ٢ / ٣١٧ كان كثير النوادر ، حسن الخاطر ، عجيب الكلام ، يسرع بالجواب للمسجوع المطبوع ، من غير تعمّل له ، ولا تكلّف فيه ، وقال عنه الصفدي في الوافي بالوفيات ٣ / ٢٢٧ : كان الفضلاء يداعبونه برسائل ومسائل هزلية ، فيجيب عنها أسرع جواب وأعجبه من غير توقّف ، للاطّلاع على بعض أجوبته ، راجع وفيات الأعيان ٤ / ٣٨٢ وتاريخ بغداد للخطيب ٢ / ٣١٧ والوافي بالوفيات ٣ / ٢٢٧ ، وراجع في مطالع البدور ١ / ١٣٩ فتوى له عجيبة ، ولّاه أبو السائب قاضي القضاة ، قضاء السندية (وفيات الأعيان ٤ / ٣٨٢) وولّي الأهواز (القصّة ٥ / ٤ من كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي) وولّي الحسبة ببغداد (تاريخ بغداد للخطيب ٢ / ٣١٨) وكان مختصّاً بالوزير أبي محمّد المهلّبي ، ثم نادم عزّ الدولة بختيار البويهي ، وتوفّي ببغداد ، راجع الهفوات النادرة ص ٣٢٤ – ٣٣١ ، وراجع في رسائل الصابي ١ / ١٤٣ العهد الذي قلّده المطيع بموجبه قضاء جند يسابور ، وراجع فتوى له طريفة في نهاية الأرب ٤ / ١٢ وفتوى أطرف في البصائر والذخائر للتوحيدي م ٣ / ١ ص ١٧٤ ، ورقعة بحوالة بثمن ثلاثين بيضة ص ١٧٥ و١٧٦ .

زوّجتها بالعلويّ ، وأعطتني مالاً ، فقمت بتجهيزها ، وأمرها ، حتّى أعرس بها زوجها ، وهي إلى الآن من خيار النساء .

قال مؤلّف الكتاب : وحدّثني بعد هذا ، جماعة أسكن إليهم من أهل شارع دار الرّقيق ، بخبر هذه العلويّة ، على قريبٍ من هذا ، وهي باقية إلى حين معرفتي بخبرها في سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة[9] .

ثمّ كنت في سنة سبع وسبعين وثلثمائة عند أبي الفتح أحمد بن عليّ بن هارون المنجم[10] ، فرأيت في داره بدرب سليمان من شارع دار الرّقيق[11] ، وأنا عنده ، امرأة عجوزاً ، قد دخلت ، فأعظمها .

فقلت : من هذه ؟

فقال : العلويّة الزمنة ، صاحبة المنام ، وكانت تمشي بخفّها وإزارها .

فسألتها أن تجلس ، ففعلت ، واستخبرتها ، فحدّثتني ، فقالت :

اعتللتُ من برسام ، [١٠١ ر] وأنا في حدود عشرين سنة من عمري ، ثمّ انجلى عنّي ، وقد لحق حقوي شيءٌ أزمنني ، فكنت مطروحة على الفراش سبعاً

---

٩ إلى هنا وردت القصّة في م ، والباقي من ر وظ .

١٠ أبو الفتح أحمد بن عليّ بن هارون بن عليّ بن يحيى بن أبي منصور المنجّم : قال عنه الخطيب البغدادي ٤ / ٣١٨ : إنّه أخذ عن والده أبي الحسن عليّ بن هارون المشتهر بالعلم والفضل والأدب وخدمة الخلفاء . وقال عنه ياقوت في معجمه ١ / ٢٣٢ : إنّه أحد من سلك سبيل آبائه في طرق الآداب ، واهتدى بهديهم في الوصول إلى الفضائل من كلّ فنّ . وقد نقل عنه صاحب النشوار قصصاً ، وأثبت شيئاً من شعره ، شعر متوسّط ، راجع القصص ٣ / ١٣٣ و ٤ / ١٣ و ٤ / ٣٤ من نشوار المحاضرة .

١١ درب سليمان : أحد الدروب في شارع دار الرقيق ، وهو منسوب إلى سليمان بن جعفر بن المنصور . وفيه كانت داره ، وكان هذا الدرب يقابل الجسر في أيّام المهدي والهادي والرشيد . وأيّام كون بغداد عامرة (معجم البلدان ٢ / ٥٦٣) أقول : الجسر الذي أشار إليه ياقوت ، حلّ محلّه الآن جسر الصرّافيّة الحديد ، ودرب سليمان هو الدرب الذي يتغلغل في الشالجيه ، امتداداً لجسر الصرّافية في الجانب الغربي من بغداد .

وعشرين سنة ، لا أقدر أن أقعد ، ولا أقوم أصلاً ، وأنجو في موضعي ، وأغسل ، وكنت مع ذلك ، لا أجد ألماً .

ثمّ بعد سنين كثيرة من علّتي ، رأيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، في منامي [١٢٥ ظ] وأنا أقول له : يا جدّي ، ادعُ الله عزّ وجلّ أن يفرّج عنّي .

فقال : ليس هذا وقتك .

ثمّ رأيت أمير المؤمنين رضي الله عنه ، فقلت له : أما ترى ما أنا فيه ، فاسأل رسول الله أن يدعو لي ، أو ادعُ لي أنت ، فكأنّه قد دافعني .

ثمّ توالت عليّ بعد ذلك ، رؤيتي لهما في النّوم ، فجرى بيني وبينهما قريب من هذا ، ورأيت الحسن والحسين رضي الله عنهما ، وكأنّي أسأل كلّ واحد منهما الدّعاء بالعافية ، فلا يفعل .

فلمّا مضت سبع وعشرون سنة ، لحقني ألم شديد ، أيّاماً في حقوي ، فقاسيت منه شدّة شديدة ، فأقبلت أبكي ، وأدعو الله بالفرج .

فرأيت ليلة في منامي ، النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فعرفته ، لأنّي كنت أراه طول تلك السّنين على صورة واحدة ، وكأنّي أقول له : يا جدّي ، متى يفرّج الله عنّي ؟

فكأنّه أدخَل يده في طرف كمّي ، وجسّ بدني ، من أوّله إلى آخره ، حتّى بلغ حقوي ، فوضع يده عليه ، وتكلّم بكلام لا أفهمه ، ثمّ ردّني على قفاي ، كما كنت نائمة ، وقال : قد فرّج الله عنك ، فقومي .

فقلت : كيف أقوم ؟

فقال : هاتي يدك ، فأعطيته يدي ، فأقعدني .

ثمّ قال : قومي على اسم الله .

فقمت ، ثمّ خطا بيَ خطوات يسيرة ، وقال : قد عوفيت .

فانتبهت ، وأنا مستلقية على ظهري ، كما كنت نائمة ، إلّا أنّني فرحانة ،

فرمت القعود ، فقعدت لنفسي وحدي ، ودلّيت رجليّ من السرير ، فتدلّتا ، فرمت القيام عليهما ، فقمت ، ومشيت ، فقلت للمرأة الّتي تخدمني : لست آمن أن يشيّع خبري ، فيتكاثر النّاس عليّ ، فيؤذوني ، وأنا ضعيفة من الألم الّذي لحقني ، إلّا أنّي كنت لمّا انتبهت ، لم أحسّ بشيء من الألم ، ولم أجد غير ضعف يسير .

فقلت : اكتمي أمري يومين ، إلى أن صلحت قوّتي فيهما ، وزادت قدرتي على المشي والحركة ، وفشا خبري ، وكثر النّاس عليّ ، فلا أُعرف إلى الآن ، إلّا بالعلويّة الزَمِنَة .

فسألتها عن نسبها ، فقالت : أنا فاطمة بنت عليّ بن الحسن بن القاسم ابن عبد الله بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم ، لم تذكر لي غير هذا[١٢] ، ولا سألتها عنه[١٣] .

١٢ تبيّن لي من المطابقة بين المخطوطات التي تيسّر لي الاطّلاع عليها من كتاب الفرج بعد الشدّة ، أنّ القاضي التنوخي رحمه الله ، كان يتعاهد مؤلّفاته ، ويراجعها من وقت إلى وقت ، كما اتّضح لي من بعض القصص التي أثبتها في النشوار ، ثم أوردها في هذا الكتاب ، أنّه كان إذا توافرت لديه فوائد جديدة ، تزيد عما رواه أوّلاً ، أثبتها عند تكراره القصّة ، وقصّة العلويّة الزمنة ، هذه ، من الأدلّة على ذلك ، فإنّه أثبت القصّة في النشوار ، بالرقم ٢ / ١٣٤ ، وذكر أنّ العلويّة كانت عاتقاً ، ولما عاد فأثبت هذه القصّة في كتاب الفرج بعد الشدّة ، ذكر أنّ العلويّة الزمنة تزوّجت ، وأنّ السيدة تجنّي ، أمّ ولد الوزير المهلبيّ ، كانت تجري عليها ، وأنّها هي التي زوّجتها ، وجهّزتها من مالها ، وأنّها باقية ، إلى حين معرفته بخبرها في السنة ٣٧٣ (نسخة دار الكتب المصرية (م) ص ١٢٨) ثم عاد من بعد ذلك ، فأضاف إلى القصّة ما توافر لديه من فوائد جدّت من بعد ذلك ، فأثبت في الكتاب ، أنّه أبصر هذه العلويّة في السنة ٣٧٧ في دار صديقه أبي الفتح أحمد بن عليّ بن هارون المنجّم ، رآها في داره بدرب سليمان في شارع دار الرقيق ، فتحرّكت فيه طبيعة القاضي ، فاستجوبها ، ولم يكتف بأن أثبت قصّتها مفصّلة ، حتى سألها عن نسبها ، وعندما أنهى استجوابها ، كتب في آخره : ولم تذكر لي غير هذا . وهذه فقرة يختم بها القضاة أقوال المتداعين ، كي لا تضاف إلى أقوالهم إضافات أخرى ، (نسخة ر ١٠٠ و١٠١ ونسخة ظ ١٢٤ و١٢٥) .

١٣ هذه القصّة ساقطة من غ .

٢١٧

أبو القاسم السعدي يرى مناماً

فيتوب عن فعل المنكر .

حدّثني أبو محمد يحيى بن محمّد بن سليمان بن فهد الأزديّ الموصليّ ، قال : سمعت أبا القاسم السعديّ ، يحدّث أبي ببغداد ، قال :

كنت وأنا حدث السنّ ، مشغوفاً بغلام لي شغفاً شديداً ، منهمكاً معه في الفساد ، فكان ربّما هجرني ، فأترضّاه بكلّ ما أقدر عليه ، حتّى يرضى .

قال : وإنّه غضب عليّ مرّة غضباً شديداً ، فهرب ، واستتر عنّي خبرُه ، فلحقني من الحيرة والوله[١] ، [ما قطعني عن النّظر في أمري ، وصيّرني كالمجنون ، واجتهدت في صرف ذلك عنّي فما انصرف][٢] .

وحضر وقت خروج النّاس إلى الحائر[٣] ، على ساكنه أفضل الصلاة والسّلام ، فكتبت رقعة أسأل الله عزّ وجلّ فيها الفرج ممّا أنا فيه ، وأتوسّل إلى الله تعالى بالحسين ابن عليّ رضي الله عنهما ، ودفعتها إلى بعض من خرج ، وسألته أن يدفعها في ناحية من القبر .

وكانت ليلة النّصف من شعبان ، ففزعت إلى الله ، في كشف ما بي ، وتفرّدت بالصّلاة والدّعاء ، قطعة من اللّيل ، ثمّ حملني النّوم [١٠٢ ر] .

---

١ وردت القصّة في ظ في الصحيفة ١٢٦ مبتورة إلى هذا الحدّ ، ثم ورد جزء منها في الصحيفة ١٢٧ وأكثر باقيها في الصحيفة ١٢٨ ثم عادت الخاتمة إلى الصحيفة ١٢٦ .

٢ هذه الجملة وردت في ظ في الصحيفة ١٢٧ .

٣ الحائر : قبر الحسين عليه السلام .

فرأيت في منامي كأنّي في مقابر قريش[4] ، والنّاس مجتمعون فيها ، إذ قيل : قد جاء الحسين بن عليّ ، وفاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، للزيارة .

فتشوّفت لرؤيتهما ، فإذا بالحسين ، في صورة كهل ، حسن الوجه ، بدرّاعة ، وعمامة ، وخفٍّ ، قد أقبل ، ومعه فاطمة عليها السّلام ، متنقّبة بنقاب أبيض ، وملحفة بيضاء .

فاعترضت الحسين ، وقلت : يا ابن رسول الله ، كتبتُ إليك رقعة في حاجة لي ، فإن رأيت أن تعمل فيها ؟ فلم يجبني ، ودخل إلى القبّة الّتي فيها محمّد بن عليّ بن موسى رضي الله عنهم ، ودخلَتْ فاطمة عليها السّلام معه ، وكأنّ قوماً قد وقفوا يمنعون النّاس من الدخول إليها ، فلم أزل أكابس[5] وأتوصّل ، إلى أن دخلتُ ، فأعدت عليه الخطاب ، فلم يجبني .

فقلت لفاطمة : يا سيّدة النّساء ، إن رأيت أن تعملي في أمري .

فقالت : على أن تتوب ؟

فقلت : نعم .

فقالت : اللهَ ؟

فقلت : اللهَ .

فكرّرت ذلك عليّ ثلاثاً ، ثمّ أومأت إلى جماعة ممّن كانوا قياماً ، فقالت : خذوه ، فأخذوني ، ونزعَتْ خاتماً من يدها فدفعته إليهم ، وخاطبتهم بما لم أفهمه ، فحملوني حتّى غبت عن عينها ، وأضجعوني وحلّوا سراويلي وشدّوا

---

٤ مقابر قريش : قال ياقوت في معجم البلدان ٤ / ٥٨٧ ، مقبرة مشهورة ومحلّة فيها خلق كثير ، وعليها سور ، وهي التي فيها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، أقول : هي مقبرة الإمامين الكاظمين ، وقد اتّسعت المحلّة المحيطة بها ، فأصبحت مدينة الكاظميّة .

٥ المكابسة : الضغط والاقتحام .

ذكري بخيطٍ حلبيّ ، ووضعوا على الشدّ طيناً ، وختموه بالخاتم [١٢٩ م] ، فورد عليّ من الألم أمر عظيم ، أنبهني ، فانتبهتُ وقد أثّر الخيط في الموضع [١٢٨ ظ] ، وصار أثر الخاتم كأنّه الجديريّ ، مستديراً حول الموضع .

ثمّ قال لأبي : إن شئتَ كشفتُ لك فأرَيتك ، فقد أريته لجماعة .

فقال : لا أستحلّ النّظر إلى ذلك .

قال السّعديّ : فأصبحت من غدٍ ، وما في قلبي البتّة من الغلام شيء ، وابتعت الجواري ، فكنت أطأهنّ ، لا أنكر من جماعي شيئاً .

ثمّ طالبتني بالغلمان ، فدافعتها مدّة ، ثمّ غلبتني الشّهوة ، فاستدعيت غلاماً ، فلم أقدر عليه ، واسترخى العضو ، وبطل ، فلمّا فارقته ، أنعظت ، فعاودته ، فاسترخى ، فجرّبت ذلك على عدّة غلمان ، فكانت صورتي واحدة .

فجدّدت توبةً ثانية ، وما نقضتها بعد ذلك .

قال أبو محمّد : وكان أبو علي القارئ الضّرير ، قد سمع معي هذا الخبر من السعديّ ، فأخبرني بعد مدّة طويلة[٦] – وحلف لي على ذلك – أنّه رأى فاطمة رضي الله عنها ، في النّوم ، قال : فقلت لها: يا سيّدتي[٧] ، منام السعديّ الّذي حكاه صحيح ؟ فقالت : نعم[٨] .

---

٦ إلى هذا الحدّ من القصّة ورد في الصحيفة ١٢٨ من مخطوطة ظ .

٧ في ر : يا سيّدة النساء .

٨ هذا الجزء الأخير من القصّة ، ورد في الصحيفة ١٢٦ من ظ ، والقصّة ساقطة من غ .

٢١٨

أبو جعفر بن بسطام له قصّة في رغيف

حدّثنا أبو علي الحسن بن محمد الأنباريّ الكاتب ، قال :

كانَ ابن الفرات[1] ، يتتبّع أبا جعفر بن بسطام بالأذيّة ، ويقصده بالمكاره ، فلقي منه في ذلك شدائد كثيرة .

وكانت أمّ أبي جعفر قد عوّدته منذ كان طفلاً ، أن تجعل له في كلّ ليلة ، تحت مخدّته الّتي ينام عليها ، رغيفاً من الخبز ، فإذا كان في غدٍ ، تصدّقتْ به ، عنه .

فلمّا كان بعد مدّة من أذيّة ابن الفرات له ، دخل إلى ابن الفرات في شيء احتاج إلى ذلك فيه ، فقال له ابن الفرات : لك مع أمّك خبر في رغيف ؟

قال : لا .

فقال : لا بدّ أن تصدقني .

فذكر أبو جعفر الحديث ، فحدّثه به على سبيل التطايب بذلك من أفعال النّساء .

فقال ابن الفرات : لا تفعل ، فإنّي بتّ البارحة ، وأنا أدبّر عليك تدبيراً لو تمّ لاستأصلتك ، فنمتُ ، فرأيت في منامي ، كأنّ بيدي سيفاً مسلولاً ، وقد قصدتك لأقتلك به ، [١٢٦ ظ] فاعترضتني أمّك بيدها رغيف تترّسك به منّي ، فما وصلتُ إليك ، وانتبهتُ .

فعاتبه أبو جعفر على ما كان بينهما ، وجعل ذلك طريقاً [١٠٣ ر] إلى

---

١. أبو الحسن عليّ بن محمّد بن الفرات ، وزير المقتدر .

استصلاحه ، وبذل له من نفسه ما يريده من حسن الطاعة ، ولم يبرح حتّى أرضاه ، وصارا صديقين .

وقال له ابن الفرات : والله ، لا رأيت منّي بعدها سوءاً أبداً[٢] .

٢ لا توجد هذه القصّة في م ، ولا في غ ، وقد وردت في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي برقم القصّة ٣ / ١٧٢ وفي الوزراء للصابيّ ٧٣ و٧٤ وفي المنتظم لابن الجوزي ٦ / ١٩٢ .

٢١٩

بينما كان يترقّب القتل

وافاه الفرج في مثل لمح البصر

ذكر محمّد بن عبدوس في كتابه ، كتاب الوزراء ، عن أبي العبّاس ابن الفرات[١] ، عن محمّد بن عليّ بن يونس ، عن أبيه ، أنّه كان يكتب لرجاء ابن أبي الضحّاك ، وهو بدمشق[٢] ، وأنّ عليّ بن إسحاق بن يحيى بن معاذ ، كان يتقلّد خلافة صول أرتكين على المعونة بدمشق ، فوثب على رجاء ، فقتله[٣] ، وقبض على جماعة من أسبابه ، وأمر بحبسي ، فحُبست في يدي سجّان كان جاراً لي ، فكان يأتيني بالخبر ساعةً بساعة .

فدخل إليّ ، وقال : قد أخرج راس صاحبك رجاء على قناة .

[ثمّ جاءني وقال : قد قتل مطبّبه . ثمّ جاءني فقال : قد قتل ابن عمّه][٤] ، ثمّ جاءني فقال : قد قتل كاتبه الآخر .

ثمّ قال : السّاعة ، والله ، يدعى بك لتقتل ، فقد سمعت نبأ ذلك ، فنالني جزع شديد ، وخرج السجّان ، فأقفل الباب عليّ .

فدعي بي ، فدافع عنّي ، وقال : البيت الّذي هو فيه مقفل ، والمفتاح مع

---

١ أبو العباس أحمد بن محمّد بن الفرات : ترجمته في حاشية القصّة ١٧٢ من الكتاب .

٢ كان رجاء بن أبي الضحّاك متقلداً الخراج بدمشق (الطبري ٩ / ١١١ والكامل ٦ / ٥١٧) .

٣ كان ذلك في السنة ٢٢٦ وقد أعتقل عليّ بن إسحاق . وأصيب بمسّ . ثم اطلق من بعد ذلك . فقال البحتري يعيّر الحسن بن رجاء (الطبري ٩ / ١١١) :

عفا عليّ بن إسحاق بفتكته ... على غرائب تيهٍ كنّ في الحسن
فلم يكن كابن حجر حين ثار ولا ... أخي كليب ولا سيف بن ذي يزن

٤ الزيادة من ر .

شريكي ، والسّاعة يجيء، وبعث في طلبه .

فنالني في تلك السّاعة نعاس ، فرأيت في منامي ، كأنّي ارتطمت في طين كثير ، وكأنّي قد خرجت ، وما بلّ قدمي منه شيء، فاستيقظت . وتأوّلت الفرج ، وسمعت حركة شديدة ، فلم أشكّ أنّها لطلبي . فعاودني الجزع .

فدخل السجّان ، فقال : أبشِر فقد أخذ الجند عليّ بن إسحاق فحبسوه .

فلم ألبث حتّى جاءني الجند ، فأخرجوني ، وجاؤوا بي إلى مجلس عليّ بن إسحاق [5] الّذي كان فيه جالساً ، وقدّامه دواة وكتاب قد كان كتبه إلى المعتصم في تلك السّاعة ، يخبره بخبر قتله رجاء ، وجعل له ذنوباً ، ولنفسه معاذير . وسمّاه رجاء المجوسيّ [6] ، والكافر ، فخرّقت الكتاب ، وكتبت بالخبر كما يجب إلى المعتصم .

فحبس طويلاً ، ثمّ أظهر الوسواس ، وتكلّم فيه أحمد بن أبي دؤاد ، فأُطلق [7] .

---

٥ وردت القصّة في ظ مبتورة إلى هذا الحدّ في الصحيفة ١٢٩ وتتمتها في الصحيفة ١٢٧ .

٦ كان رجاء ابن عم الفضل بن سهل السرخسيّ وزير المأمون (الطبري ٨ / ٥٤٠) .

٧ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ .

٢٢٠

المنصور يرى مناماً

فيرفع الظلامة عن محبوس

وجدت في بعض الكتب :

أنّ المنصور استيقظ من منامه ليلة من اللّيالي ، وهو مذعور لرؤيا رآها ، فصاح بالرّبيع ، وقال له : صِر السّاعة إلى الباب الثاني الّذي يلي باب الشّام فإنّك ستصادف هناك رجلاً مجوسيّاً مستنداً إلى الباب الحديد ، فجئني به ، فمضى الرّبيع مبادراً ، وعاد والمجوسيّ معه .

فلمّا رآه المنصور ، قال : نعم ، هو هذا ، ما ظلامتك ؟

قال : إنّ عاملك بالأنبار ، جاورني في ضيعة لي ، فسامني أن أبيعه إيّاها ، فامتنعتُ ، لأنّها معيشتي ، ومنها أقوت عيالي ، فغصبني إيّاها .

فقال له المنصور : فبأيّ شيء دعوت قبل أن يصير إليك رسولي ؟

قال : قلت : اللّهمّ إنّك حليم ذو أناة ، ولا صبرَ لي على أناتك .

فقال المنصور للرّبيع : أشخص هذا العامل ، وأحسِن أدبه ، وانتزع ضيعة هذا المجوسيّ [من يده ، وسلّمها إلى هذا المجوسيّ ، وابتع من العامل ضيعته ، وسلّمها إليه أيضاً][1] .

ففعل الرّبيع ذلك كلّه في بعض نهار يوم ، وانصرف المجوسيّ ، وقد فرّج الله عنه ، وزاده ، وأحسن إليه[2] .

---

١ الزيادة من هـ و ر .

٢ لم ترد هذه القصّة في م ، ولا في غ .

٢٢١

صاحب الشرطة ببغداد يرى مناماً

يرشده إلى القاتل ويبرّئ فيجاً مظلوماً .

وجدتُ في كتاب : حدّث القاسم بن كرسوع ، صاحب أبي جعفر محبرة[١] ، قال :

كان ابن أبي عون ، صاحب الشرطة[٢] ، قد وعد محبرة أنّه يجيئه للإقامة عنده ، والشرب مصطبحاً على ستارته[٣] في يوم الثلاثاء ، فأبطأ عليه ، وتعلّق قلب محبرة بتأخّره ، فبعث غلاماً له يطلبه ويعرف خبره في تأخّره .

فعاد إلى محبرة ، وقال : وجدته في مجلس الشرطة ، يضرب رجلاً بالسياط ، وذكر أنّه يجيء السّاعة ، [١٠٤ ر] فلمّا كان بعد ساعة ، جاء ابن أبي عون .

فقال له أبو جعفر : أفسدت صبوحنا[٤] ، وشغلت قلبي بتأخّرك ، فما سبب ذلك ؟

---

١ أبو جعفر محمّد بن يحيى بن أبي عبّاد جابر بن يزيد بن الصباح العسكري ، الملقّب بمحبرة النديم : ترجمته في حاشية القصّة ١٩٩ في الكتاب .

٢ محمّد بن أبي عون : كان من قوّاد الأمير محمّد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد (الطبري ٩ / ٢٨٤) واشترك إلى جانب المستعين في الحرب بينه وبين المعتزّ (الطبري ٩ / ٣٠١ و٣١٠ و٣٣٧) وجنّد جنداً من العيّارين لحرب الأتراك (الطبري ٩ / ٢٨٨) ثم تقلّد البصرة واليمامة والبحرين (الطبري ٩ / ٣٥٤) ثم تقلّد واسط (الطبري ٩ / ٤١٢) ثم نقل عنها إلى ولاية الأبلّة وكور دجلة (الطبري ٩ / ٤١٥) واشترك في المعارك مع صاحب الزنج إلى نهايتها (الطبري ٩ / ٤١٨ – ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨) ويظهر من هذه القصّة أنّه تقلّد ، بعد ذلك ، الشرطة ببغداد .

٣ الستارة : كناية يراد بها المغنّيات .

٤ الصبوح : الشرب بكرة .

فقال : إنّي رأيت البارحة في منامي ، كأنّي بكّرت بليل لأجيك [5] ، وليس بين يديّ إلّا غلام واحد ، فسرت في خراب إسحاق بن إبراهيم بن مصعب [6] ، لأجيء إلى رحبة الجسر [7] ، فإنّي لأسير في القمر ، إذ رأيت شيخاً بهيّاً ، نظيف الثّوب ، على رأسه قلنسوة لاطية [8] ، وفي يده عكّاز ، فسلّم عليّ ، وقال : إنّي أرشدك إلى ما فيه مثوبة : في حبسك فيج [9] مظلوم ، وافى من المدائن ،

---

٥ يريد لأجيئك ، وقد حذفت الهمزة من الكلمة على طريقة البغداديين التي ما زالوا عليها إلى الآن في حذف الهمزة إذا كانت في آخر الكلمة ، أو إبدالها بالواو أو الياء إذا كانت في وسطها ، راجع حاشية القصّة ١٦٧ من الكتاب .

٦ أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب المصعبيّ : توفّي سنة ٢٣٥ وهو أمير بغداد ، وصاحب الدولة ، فأصبحت داره من بعد ربع قرن خراباً ، وفي هذا عبرة لمن اعتبر .

٧ رحبة الجسر : راجع البحث في آخر القصّة .

٨ القلنسوة : لباس الرأس ، وقد تسمى الشاشيّة (القصّة ٣٢٦ من هذا الكتاب ورسوم دار الخلافة ص ٤٣) ، وهي طاقية مخروطة الشكل ، مدبّبة الرأس ، تلفّ حولها العمامة ، وعند التخفّف تلبس القلنسوة وحدها ، ولا يلفّ حولها شيء ، وقد رأيت في غرناطة في السنة ١٩٦٠ صورة للسلطان أبي عبد الله بن الأحمر ، صوّرها له المصوّرون الأسبان ، وعلى رأسه قلنسوة ، وكانت القلنسوة تختلف في ارتفاعها ، زيادة ونقصاً ، وقد فرض المنصور على جنده لبس القلانس الطوال ، حتى أنّ أحد أتباعه ، وصف نفسه لما لبسها ، أنّ وجهه أصبح في وسطه (الملح والنوادر للحصري ٨٧ ونهاية الأرب ٤ / ٣٧) ، ثم أصبحت القلنسوة الطويلة من بعده مقصورة على القضاة والفقهاء ، وكانت القلنسوة تدعم من باطنها لتبقى قائمة على الرأس (راجع رسوم دار الخلافة ص ٤٣) ، فإن لم تكن فيها أعواد تدعمها ارتخت وتهدّلت على الرأس وسميت : قلنسوة لاطية ، وفي المنجد : القلنسوة اللاطئة ، قلنسوة صغيرة تلطأ ، أي تلصق بالرأس ، وما يزال هذا اسمها ببغداد ، ولكنهم يلفظونها بياء مشدّدة (لاطيّة) ، وقد تطوّرت القلانس إلى لبدة ، وكلوته ، وشربوش ، وكلاو ، وطاقية ، والطاقية تسمى في بغداد : عرقچين ، واللفظة مكونة من كلمتين : عرق : فصيحة ، وهو الماء الذي يرشح من الجلد ، وچين : فارسية بمعنى طيّة أو ثنية .

٩ الفيج : في الأصل تطلق الكلمة على رسول السلطان الذي يسعى على قدميه ، ثم أطلقت على كل من اتخذ نقل الرسائل صناعة ، وبذلك أصبح « التفيّج » صناعة ، ويعني نقل الرسائل من بلد إلى بلد ،

في وقت ضيّق ، فاتّهم بأنّه قتل رجلاً ، وهو بريء من دمه ، وقد ضُرِب وحبس ، وقاتلُ الرّجلِ غيره ، وهو في غرفة وسطى من ثلاث غرف مبنية على طاق العكّي[10] بالكرخ ، واسمه فلان بن فلان ، ابعث من يأخذه ، فإنّك ستجده سكران ، عريان ، بسراويل ، وفي يده سكّين مخضّبة بالدّم ، فاصنع به ما ترى ، وأطلق الفيج البائس [١٢٩ ظ] .

قلت : أفعل ، وانتبهت ، فركبتُ ، وسرتُ ، حتّى وافيت رحبة الجسر .

فقلت : ما حدث في هذه اللّيلة ؟

وكان للفيوج زيّ خاص يفرضه عليهم التخفّف من حمل الرحل ، فكانوا يلبسون المرقّعة ، ويحملون ركوة لشرابهم ، وعصا في أيديهم ، وتاسومة في أقدامهم ، إضافة إلى الخريطة التي تودع فيها الرسائل ، راجع القصّة ٢٨٤ والقصّة ٣٢٩ من هذا الكتاب .

١٠ في ظ و ر : طاق السكك ، وفي هـ : طاق التك ، وكلاهما محرّف عن طاق العكّيّ ، والطاق : البناء المعقود ، ويجمع على طاقات وطيقان ، وطاقات العكّيّ ، كانت في قطيعة العكّيّ ، بمدينة المنصور ، بين باب البصرة ، وباب الكوفة ، وكانت أوّل طاقات بنيت ببغداد (معجم البلدان ٣ / ٤٨٨ ، والقصّة ٤ / ٢٤ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي) ، أقول : وقد رأينا ببغداد طاقات يربط الطاق منها بين دارين متقابلين ، يمرّ عابرو السبيل من تحتها ، منها طاق البصراوي في عقد النصارى ، والطاق في عقد « جوّا الطاق » النافذ من سوق العطارين إلى عقد الكنائس ، وطاقاً في عقد النصارى ، قرب البناية القديمة للمدرسة الجعفرية ، يصل بين داري أرسطو ، وهو طبيب فارسي ، يداوي مرضاه بالطب اليونانيّ ، وطاقاً عند بيت عبد الرحمن باشا الحيدري ، في الزقاق النافذ إلى عقد مشرعة بيت النوّاب المتفرّع من شارع النهر ، أما الطاقات خارج بغداد ، فهي طاقات أبواب السور وقد رأينا منها طاقات باب المعظم ، وهو الباب الشمالي في سور بغداد ، وطاقات الباب الشرقي ، وهو الباب الجنوبي المسمى باب كلواذى ، أو باب البصلية ، وطاقات باب الظفرية ، ويسميه البغداديون ، الباب الوسطاني ، أي المتوسّط بين الباب الشمالي ، وباب كلواذى ، وقد اتّخذ الآن متحفاً للأسلحة القديمة (أنظر صورته في كتاب بغداد الصادر في السنة ١٩٦٩ ص ٢٥٠ و٢٥١) ، وهناك طاقات باب آخر ، هو باب الحلبة ، ويسميه عامة بغداد : باب الطلّسم ، لوجود صورة حيّتين ، ملتفّتين ، متقابلتين على الطاق ، وهو في الجانب الشرقي من السور ، وقد نسفه الجيش التركي عند مغادرته بغداد في السنة ١٩١٧ في الحرب العالمية الأولى (أنظر صورته في كتاب بغداد ص ٢٤٨ و٢٤٩) .

فقالوا : وجدنا هذا القتيل ، وهذا الفيج معه ، فضربناه ، ولم يقرّ .

فرأيت به أثر ضرب عظيم ، فسألته عن خبره ، فقال : أنا معروف بالمدائن بسلامة الطّريقة ، ومعاشي التفيّج ، أنفذني فلانٌ بن فلان من المدائن ، إلى فلان بن فلان من أهل بغداد ، بهذه الكتب ، وأخرج إضبارة[11] ، فدخلت أوائل بغداد وقت العتمة ، فوجدت في الطّريق رجلاً مقتولاً ، فجزعت ، ولم أدر أين آخذ ، فأنا على حالي إذ أدركني الأعوان ، فظنّوني قتلته ، ووالله ما أعرفه ، ولا رأيته قطّ ، وقد حبسوني وضربوني ، فاللهَ ، اللهَ ، في دمي .

فقلت : قد فرّج الله عنك ، انطلق حيث شئت ، ثمّ أخذت الرجّالة ، ومضيت إلى طاق العكّي[12] ، فإذا الثّلاث غرف مصطفّة ، فهجمت على الوسطى ، فإذا فيها رجل سكران عليه سراويل فقط ، وفي يده سكّين مخضّب بالدم ، وهو يقول : أخ عليك ، والك ، نعم يا سيدي ، أنا جرحته ، أخو القَحبة[13] ، وإن مات فأنا قتلته ، فأنزلته مكتوفاً ، وبعثت به إلى الحبس ، وانحدرت إلى الموفّق ، فأعلمته بالحديث ، فتعجّب ، وتقدّم إليّ أن أضرب القاتل بالسّياط إلى أن يتلف ، وأصلبه في موضع جنايته ، فتشاغلت بذلك إلى أن فرغت منه ، ثمّ جئتك[14] .

---

١١ الإضبارة : بكسر أوّله ، المجموعة من الصحف .

١٢ في ظ و ر : طاق السكك ، وفي هـ : طاق التك .

١٣ هذه الكلمات التي نطق بها العيّار السكران ، ما يزال العيّارون البغداديون يستعملونها الآن ، كما كان أسلافهم منذ أكثر من ألف عام ، والبغداديون يسمون العيّارين الآن : الأشقياء ، ويسمون العيارة : الشقاوة ، لاحظ أنّ كلمة : والك ، أصلها : ويلك ، للتفصيل راجع حاشية القصّة ٤٧٨ من هذا الكتاب .

١٤ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ .

الرحبـــة

الرحبة : الأرض الواسعة ، وكانت الكلمة تطلق على المدينة أو القرية ، أو الفضاء الكائن بين الأبنية ، مما يسمّى الآن ساحة ، أو ميداناً .

وذكر ياقوت في كتابه (المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص ٢٠٣) ستة مواضع تسمّى الرحبة ، بضم الراء ، وتسعة مواضع تسمّى الرحبة ، بفتح الراء .

فمن المدن : رحبة مالك بن طوق ، بناها مالك ، ونسبت إلى بانيها ، وهي بين الرقّة وبغداد على شاطئ الفرات على بعد ٨ أيّام من دمشق (معجم البلدان ٢ / ٧٦٤) .

ومن القرى : الرحبة ، قرية بحذاء القادسية ، على مرحلة من الكوفة ، قال عنها ياقوت إنّها على يسار الحاج المتوجّهين إلى مكة ، وقد خربت الآن لكثرة طروق العرب ، لأنّها على ضفة البريّة ، ليس بعدها عمارة (معجم البلدان ٢ / ٧٦٢ والمفترق صقعاً ص ٢٠٣) .

أقول : مررت على الرحبة في السنة ١٩٣٥ لما كنت قاضياً في منطقة أبي صخير المجاورة للنجف ، وكانت الحيرة ، ورحبة القادسية تابعة لمحكمة أبي صخير ، وقد أبصرت أهالي الرحبةيقيمون في حصن ، وقد اتخذوا في باطنه مساكن لهم ، وهم يزرعون الخضر والبطيخ الأحمر المعروف ببغداد بالرقّي ، وماؤهم من عين ثرّة هناك ، تسمى « عين الرحبة » .

وأمّا الرحبة بمعنى الساحة ، أو الميدان ، أو الفضاء الكائن بين الأبنية ، فقد كان لكلّ جامعٍ رحبة ، وفي كلّ رأس جسر رحبة ، هذا ما عدا الرحبات الأخرى الكائنة في داخل المدينة ، وقد سميت إحدى رحبات مسجد المدينة ، رحبة القضاء ، إذ كانت داراً لعبد الرحمن بن عوف ، قضى فيها لعثمان بالخلافة (الطبري ٤ / ٢٣٧) ، ورحبة القصّابين بالبصرة ، وقعت فيها معركة بين أنصار يزيد بن المهلّب ، وبين أتباع الأمويين في السنة ١٠١ (العيون والحدائق ٣ / ٥٧) ، وكان لمسجد البصرة رحبة (الطبري ٥ / ٥١٨) ولجامع المنصور بالمدينة المدوّرة رحبة (الطبري ٩ / ٣٥٨) ، وكانت إحدى الرحبات في سامراء ، اسمها رحبة زيرك وهي بالقرب من باب الفراغنة (تاريخ بغداد للخطيب ٦ / ٣٦٨) .

وكان لجامع القصر ببغداد رحبة ، وهو الجامع الذي كان الخلفاء العبّاسيّون يقيمون فيه ببغداد صلاة الجمعة ، ينفذون إليه من قصر الخلافة ، عبر ممرّات تحت الأرض ، وهذا الجامع ، تعاورته أيدي الغصب فلم يبق منه إلاّ مئذنته ، واسمها الآن منارة سوق الغزل .

أمّا رحبة جامع القصر ، فهي واقعة خارج الجامع ، مما يلي المئذنة ، في شرقيّها ، وما تزال إلى الآن رحبة يحتلّها القصّابون الذين يبيعون لحم البقر ، وتفصل هذه الرحبة الآن بين سوق الشورجة حيث تباع الغلال ، وبين سوق الدهانة ، حيث دكاكين العطّارين ، والبقّالين ، والحلوانيين ، ويسميهم البغداديون (الشكرچية) .

وكانت رحبة الجسر من أنزه المواضع ببغداد ، بحيث انّ الناس كانوا يجتمعون فيها للفرجة ، وفي بغداد أغنية شائعة ، نظمها بغدادي أضاق ، فقال يسلّي نفسه :

لا بـدّ مـا تنقضـي   والفقـر مـا هو عيب
وأقف بـراس الجـسر   وأخرخشـك يـا جـيب

وحدّثوا أنّ أعرابياً قدم بغداد ، فأطعم اللوزينج (اسمه الآن ببغداد : بقلاوه ، فارسية : باقلاوا) ، فاستطابه ، وقال : سمعت الأشياخ من أهلي ، يذكرون أنّ من طيّبات بغداد : الحمّام ، ورأس الجسر ، وهذا الذي أكلته ، لا بدّ أن يكون واحداً منهما .

٢٢٢

عزم على قتله ثم منّ عليه وأطلقه

ثمّ يمنّ عليه ويطلقه

حدّثني عليّ بن محمّد بن إسحاق بن إبراهيم بن موسى ، وكان ابن أخي موسى بن إسحاق القاضي الأنصاريّ[١] ، قال :

كنت خرجت مع أبي وهو يكتب لأبي جعفر الكرخيّ محمّد بن القاسم[٢] ، لما تقلّد الموصل والديارات[٣] ، وكان قد ضمّ إلى أبي جعفر جماعة من قوّاد السلطان ، فلمّا صرنا بنصيبين[٤] كان[٥] أبي قد مضى وأنا معه إلى أبي العباس أحمد

---

١ أبو بكر موسى بن إسحاق بن عبد الله الأنصاري الخطمي (٢١٠ – ٢٩٧) : قاضٍ ، ثقة ، ثبت ، عفيف ، صدوق ، فصيح ، أقرأ القرآن في الجانب الشرقيّ وهو ابن ١٨ سنة ، واستقضي وله ٢٨ سنة ، ولّي القضاء بالريّ والأهواز ، وتوفّي وهو على قضاء الأهواز (المنتظم ٦ / ٩٦) .

٢ أبو جعفر محمّد بن القاسم الكرخيّ : من رجال الدولة العباسيّة ، ولّي الجبل ، وديوان السواد ، دفعات ، وقطعة كبيرة من المشرق ، وتقلّد البصرة والأهواز مجموعة ، ثم تقلّد عدّة دواوين كبار جليلة بالحضرة ، ثم تقلّد الوزارة للراضي ، وللمتّقي ، وكان يخرج إلى عمله ومتاعه على ستمائة بغل ودابّة ، وكان له نيّف وأربعون طبّاخاً ، وآلت حاله في آخر عمره إلى الفقر الشديد ، ومات بمنزله ببغداد بعد سنة ٣٤٠ ، ونسبته إلى كرخ البصرة ، وهي من ناحية الرستاق الأعلى بالبصرة من عراص الفتح ، قال عنها ياقوت في معجم البلدان ٤ / ٢٥٣ إنّها باقية إلى الآن ، إلاّ أنّها كالخراب لشدّة اختلالها ، راجع معجم البلدان ٤ / ٢٥٣ وتجارب الأمم ١ / ٣٣٨ والفخري ٢٨١ وكتاب الوزراء للصابي ٧٤ و١٩١ والقصص ٢ / ١١٤ و٣ / ١٠٧ و٤ / ١٢٤ من كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي .

٣ الديارات : ديار بكر ، وديار ربيعة ، وديار مضر .

٤ نصيبين : قال ياقوت في معجم البلدان ٤ / ٧٨٧ عنها : إنّها مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل بين الموصل والشام ، قالوا إنّ فيها ، وفي قراها ، أربعين ألف بستان ، وتبعد ستّة أيّام عن الموصل ، راجع أخبار سيف الدّولة ص ٢١٠ ، أقول : وهي الآن بليدة .

٥ وردت القصّة في ظ مبتورة إلى هذا الحدّ ، وقد أكملناها من ر .

ابن كشمرد[٦] مسلّماً عليه ، فتحدّثا ، فسمعته يحدّثه ، قال :

لما أسرني أبو طاهر القرمطيّ[٧] ، فيمَن أسره بالهبير[٨] ، حبسني وأبا الهيجاء[٩] ،

---

٦ أبو العباس أحمد بن محمّد بن كشمرد : ورد اسمه في بعض التواريخ أحمد بن محمّد بن كمشجور : من رجال الدولة العباسية ، كان في السنة ٢٨٦ يتولى المعاون بالأنبار (الطبري ١٠ / ٧٢) وفي السنة ٢٩١ يتولّى المعاون بالأنبار وطريق الفرات ، وكان أحد من اعتقله أبو طاهر القرمطيّ في وقعة الهبير سنة ٣١٢ (الطبري ١٠ / ٧٢ و١٠٩ ، والكامل ٨ / ١٤٧ وتجارب الأمم ١ / ١٢١) .

٧ أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنّابي الهجريّ القرمطي ، ملك البحرين ، وزعيم القرامطة ، خارجي ، طاغية ، جبار ، نسبته إلى جنّابة من بلاد فارس ، وكان أبوه استولى على هجر والأحساء والقطيف ، وخلف أباه فوثب على البصرة ، ونهبها ، وأغار على الكوفة ، وسلب ما فيها ، وأغار على مكّة يوم التروية ، فقتل ثلاثين ألفاً من الحجاج ، ونهب أموالهم ، وقلع الحجر الأسود ، وأرسله إلى هجر ، وعرّى البيت الحرام ، وأخذ بابه ، وردم زمزم بالقتلى ، ومات في السنة ٣٣٢ في هجر (الأعلام ٣ / ١٨٣) .

٨ وقعة الهبير في السنة ٣١٢ ، التي قطع فيها أبو طاهر القرمطيّ الطريق على الحاجّ ، واستباح أموالهم ودماءهم ، وكان رئيس القرامطة أبو طاهر الجنّابي – إذ ذاك – سنّه ١٧ سنة ، خرج إلى الهبير في ثمانمائة فارس وثمانمائة راجل ، فاستقبل الحاجّ عند عودتهم من مكّة ، وقتلهم قتلاً مسرفاً ، وأخذ جمالهم ، وسبى من اختار من النساء والصبيان ، وسار بهم إلى هجر ، وترك باقي الحاجّ في موضعهم بلا جمال ولا زاد ، فمات أكثرهم بالعطش والحفاء ، وحصل لأبي طاهر ما حزر من الأموال بألف ألف دينار ، ومن الأمتعة والطيب نحو ألف ألف دينار أيضاً ، فانقلبت بغداد ، وخرجت النساء منشورات الشعور ، مسودات الوجوه ، يلطمن ويصرخن في الشوارع ، ووثب العامّة على الوزير ابن الفرات ، ورجموا طيّاره بالآجر ، ورجموا داره أيضاً (المنتظم ٦ / ١٨٨) .

٩ أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبيّ العدوي : ترجمته في حاشية القصّة ١٦٣ ، وقد كانت إليه في سنة الهبير ، طريق الكوفة ، وطريق مكّة ، وبذرقة الحاجّ ، وكان قد أشار على الحاجّ أن يعدل بهم من فيد إلى وادي القرى ، لئلا يجتازوا بالهبير ، إذ انّه بلغه خبر القرمطي ، فضج الحجّاج من ذلك ، وامتنعوا عليه ، وساروا ، فاضطرّ إلى المسير معهم ، فلاقاهم القرمطي ، وأوقع بهم (تجارب الأمم ١ / ١٢٠) .

والغمر[10] ، في ثلاث حجرٍ متقاربة ، ومكّننا أن نتزاور ، ونجتمع على الحديث .

فمكّن أبا الهيجاء خاصّة ، واختصّ به ، وعمل على إطلاقه . وشفّعه في أشياء .

فسألت أبا الهيجاء أن يسأله إطلاقي ، فوعدني ، واستدعاه القرمطيّ ، فمضى إليه وعاد [١٠٥ ر] إلى حجرته ، فجئت وسألته : هل خاطبه ؟ فدافعني .

فقلت : لعلّك أنسيت ؟

فقال : لا والله ، ولوددت أنّي ما ذكرتك له ، إنّي وجدته متغيّظاً عليك ، فقال : والله ، لأضربنّ عنقه عند طلوع الشّمس في غدٍ .

ورحل أبو الهيجاء ، فورد عليّ أمر عظيم ، وعدت إلى حجرتي وقد يئست من الحياة ، فلمّا كان في اللّيل ، رأيت في منامي كأنّ قائلاً يقول لي : اكتب في رقعةٍ : بسم الله الرّحمن الرّحيم ، من العبد الذليل ، إلى المولى الجليل ، مسّني الضرّ والخوف ، وأنت أرحم الرّاحمين ، فبحقّ محمّد وآل محمّد ، اكشف همّي وحزني ، وفرّج عنّي ، واطرح هذه الرّقعة في هذا النّهر ، وأومأ إلى ساقية كانت تجري هناك في المطبخ .

فانتبهتُ من نومي ، وكتبت الرّقعة ، وطرحتها في السّاقية .

فلمّا كان السَّحَر استدعاني القرمطيّ ، فلم أشكّ أنّه القتل ، فلمّا دخلت إليه أدناني وأجلسني ، وقال : قد كان رأيي فيك غير هذا ، إلّا أنّي قد رأيت تخليتك .

---

١٠ كذا في ظ وهـ ، ووردت في ر : والعم ، وجميعها محرّفة عن : العمري ، وهو نحرير العمري أحد قوّاد الدولة العبّاسيّة ، اشترك في قتال القرامطة في السنة ٢٩٣ ، وأسره القرمطي أبو طاهر في وقعة الهبير (الطبري ١٠ / ١٢٧ ، تجارب الأمم ١ / ١٢١ والكامل ٨ / ١٤٧) .

فخرجت ، فإذا على الباب راحلة ، ورجل يصحبني ، فركبت ، ودخلت البصرة سالماً ، ولحقت أبا الهيجاء بها ، فدخلنا معاً إلى بغداد[11]

---

١١ لم ترد هذه القصّة في م ، ولا في ع ووردت في ظ مبتورة ، وأكملناها من ر ، أقول : لما ظفر أبو طاهر الجنابي ، يوم الهبير ، بالحجّاج ، وقتلهم ، وأخذ أموالهم ، كان من جملة ما أخذ بعض الأحمال ، وفيها من رفيع البزّ ، والمثقل ، وطريف الوشي والمصمت ، ما أعجبه ، وأبهته ، فقال : عليّ بصاحب هذه الأحمال ، فأحضروه ، فقال له : ما منعك أن يكون ما جئت به أكثر من هذا ؟ فقال : لو علمت أنّ السوق بهذا النفاق لفعلتُ ، فاستظرف أبو طاهر الجواب ، وأعاد إليه جميع ما أخذ منه ، ودفع إليه مالاً من عنده ، وأرسل معه من يحفظه ، حتى أوصله إلى مأمنه (الملح للحصري ٢٠) .
وكان عروة الزبيري ، ممن سلم من الوقعة يوم الهبير ، وكان معه قرد وكلب ، تركهما ناجياً بنفسه ، ووصل الكوفة سالماً ، ووصل القرد والكلب بعده ، وكان القرد راكباً الكلب ، وإذا القرد كان يحتال في طعامه وطعام الكلب ، طول الطريق ، ويركبه مقابل إطعامه ، راجع التفصيل في القصّة ١٠٨/١ من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التّنوخي .

٢٢٣

محمّد بن سليمان الكاتب

دخل مصر أجيراً ثمّ دخلها أميراً

قال أبو الحسن عليّ بن زكيّ[١] :

كنت مع صاحبي عيسى النوشريّ[٢] ، وكان مضافاً لمحمّد بن سليمان الكاتب[٣] على حرب الطولونية[٤] ، إلى أن افتتحت مصر[٥] ، فتقلّدها عيسى[٦] .

---

١ كذا في ظ وهـ ، وفي ر : أبو عليّ الحسن بن تركي .

٢ عيسى النوشري : كان من قوّاد بدر غلام المعتضد ، استخلفه في السنة ٢٧٨ على شرطة الجانب الغربيّ من بغداد (الطبري ١٠ / ٢٢) ثم تقلّد أصبهان ، ثم فارس (الطبري ١٠ / ٤٧ و٧٧) ثم تقلّد المعونة بالقاهرة لما فتحها محمّد بن سليمان واستأصل الطولونيّين (الطبري ١٠ / ١١٩) . وقال صاحب اللباب ٣ / ٢٤٣ انّ النوشري : نسبة إلى نوشر ، ولم يعيّن ماهيتها ، ولعلّها مخفّفة عن : نوشهر ، وهو اسم لنيسابور ونواحيها بخراسان ، راجع معجم البلدان ٤ / ٨٢٤ و٨٥٧ .

٣ محمّد بن سليمان الكاتب : فاتح مصر ، كان في ابتداء أمره يكتب لأبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد ، ثم تولّى ديوان الجيش ، وفي السنة ٢٩٠ وجّهه الوزير القاسم بن عبيد الله لحرب القرمطي صاحب الشامة ، فناجزه الحرب ، وفتك بالقرامطة ، وأسر صاحب الشامة وجماعة من قوّاده ، فخلع عليه ، وطوّق ، وسوّر . ثم وجّهه المكتفي في السنة ٢٩١ إلى الشام ومصر ، لحرب الطولونية . فلما وصل إلى مصر استأمن إليه القائد بدر الحمامي وكثير من قوّاد الطولونية ، ففتح مصر ، واعتقل جميع آل طولون ، وأسبابهم . وبعث بهم إلى بغداد ، راجع أخباره في الطبري ١٠ / ٢٢ ، ٤٥ ، ١٠٧ – ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ .

٤ دامت دولة الطولونية ٣٨ سنة ، من ٢٥٤ إلى ٢٩٢ بدأت بأحمد بن طولون ، وانتهت بهارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون .

٥ افتتحت مصر في السنة ٢٩٢ (الطبري ١٠ / ١١٩) .

٦ راجع الطبري ١٠ / ١١٩ .

قال : قال عيسى : خرج يوماً محمّد بن سليمان إلى ظاهر الفسطاط[7] ، فانتهى به السير إلى قبّة كانت لأحمد بن طولون[8] ، يقال لها : قبّة الهواء ، مطلّة على النيل وعلى البرّ ، فجلس فيها ومعه الحسين بن حمدان[9] وجماعة من القوّاد ، ثمّ قال : الحمد لله الّذي بيده الأمر كلّه يفعل ما يشاء .

فقال له الحسين بن حمدان : لا شكّ أنّ تجديدك الحمد لأمرٍ .

قال : نعم ، وهو عجيب طريف ذكرته السّاعة ، وهو أنّي نزعت إلى مصر وأنا في حال رثّة ، في زيّ صغار الأتباع ، فضاق عليّ المعاش بها ؟ فاتّصلت بلؤلؤ الطولونيّ[10] ، فأجرى عليّ دينارين في كلّ شهر ، وصيّرني مشرفاً في

---

٧ الفسطاط : حاضرة الديار المصرية ، قبل بناء القاهرة ، أنشأها المسلمون لما افتتحوا مصر ، وكان سبب إنشائها أنّ قائد جيش المسلمين كان قد نصب فسطاطه في موضع ، ولما أراد تقويضه ، إذا بيمامة قد باضت في أعلاه ، فقال : لقد تحرّمت بجوارنا ، وأقرّ الفسطاط على حاله ، ووكّل به من يحفظه ، وعمّر الناس حول الفسطاط مدينة أصبحت حاضرة مصر (معجم البلدان ٣ / ٨٩٦) .

٨ أبو العباس أحمد بن طولون (٢٢٠ - ٢٧٠) : من كبار القوّاد الأتراك في الدولة العبّاسيّة ، تقدّم عند المتوكّل ، فولّاه الثغور والشام ، ثمّ مصر ، واختلف مع الحضرة ، فاستقلّ ، وحارب الجيش العبّاسيّ ، وكان شديداً ، قاسياً ، سفّاكاً للدماء (الأعلام ١ / ١٣٧) .

٩ الحسين بن حمدان بن حمدون الحمداني : عمّ سيف الدولة الحمداني ، أحد الأمراء الشجعان المقدّمين في العصر العباسي ، من قوّاد المعتضد ، اشترك في فتنة ابن المعتزّ ، ثم ولّي قم ، ثم ديار ربيعة ، ثم خرج عن الطاعة ، فأسر ، واعتقل ، وقتل في الحبس سنة ٣٠٦ (الأعلام ٢ / ٢٥٤) .

١٠ لؤلؤ الطولوني : غلام أحمد بن طولون ، ربّاه أحمد ، وقوّده ، وقلّده حمص وحلب وقنسرين وديار مضر (الطبري ٩ / ٦١٤) فانتقض عليه في السنة ٢٦٨ (الطبري ٩ / ٦١١) وكاتب أبا أحمد الموفّق في المصير إليه (الطبري ٩ / ٦١٤) وقدم بغداد في جيش عظيم من الفراغنة والأتراك والروم والبربر والسودان وغيرهم من نخبة أصحاب ابن طولون (الطبري ٩ / ٦٥٠) فقلّد أعمال الفرات وشهرزوراء وحلوان وأعمالاً أخرى غيرها (الطبري ٩ / ٦٢٨) واشترك في حرب صاحب الزنج ، فأبلى وجيشه بلاء حسناً (الطبري ٩ / ٦٥٠) وكان قتل صاحب الزنج بيد أحد أتباعه (الطبري ٩ / ٦٥٩) فجازاه الموفّق أقبح جزاء ، إذ اعتقله في السنة ٢٧٣ واستصفى ماله ، فقال لؤلؤ : ما عرفت لنفسي ذنباً

إصطبله على كراعه ، فكنت هناك من حيث لا يعرف وجهي جيّداً ، ولا أقدم على الوقوف بين يديه .

فلمّا كان في بعض الأيّام أحضرني ، فقال : ويحك ، من أين يعرفك الأمير ؟ يعني أحمد بن طولون .

فقلت : والله ، ما رآني قط ، ولا وقعت عينه عليّ إلّا في الطّريق ، ولا محلّي محلّ من يتصدّى للقائه .

فقال : دعاني السّاعة ، وهو في قبّة الهواء ، فقال : معك رجل أشقر أشهل[11] ، يقال له : محمّد بن سليمان .

فقلت : ما أعرفه .

فقال : بل هو في جَنْبَتِك ، فأبعده عنك ، فإنّي رأيته البارحة وفي يده مكنسة يكنس داري بها ، فتوقّ ويحك ، ولا تتعرّف إلى أحد من حاشيته ، وأقرّني على أمري ، فامتثلت أمره .

ومضت لهذا الحديث شهور ، ثمّ دعاني ثانية ، فقال : ويحك ، ماذا بليت به منك ، وبليتَ أنت به من هذا الأمير ؟ دعاني بعدّة من أصحاب الرّسائل ، فوافيته وأنا في غاية الوجل ، فقال . أليس أمرتك بصرف محمّد بن سليمان الأزرق الأشقر ؟

فقلت : قد عرّفتك يا سيّدي أنّي ما[12] استخدمت مَنْ هذه سبيله ، ولا وقعت لي عليه عين .

استوجبت به ما فعل بي ، إلاّ كثرة مالي (الطبري ١٠ / ١٢) واستمرّ معتقلاً إلى أن أطلقه المعتضد في السنة ٢٨٢ (الطبري ١٠ / ٤١) .

١١ الأشهل : ذو العين الشهلاء ، وهي التي يخالط سوادها زرقة .

١٢ جاءت هذه القصّة في ظ مبتورة الأوّل إلى هنا ، وقد أكملناها من ر .

فقال : كذبتَ ، هو معك في إصطبلك ، فأخرجهُ السّاعة عن البلد ، فإنّي قد رأيته البارحة في النّوم ، وفي يده مكنسة ، وهو يكنس بها سائر حجري وداري ، ونسأل الله الكفاية .

فقلت للؤلؤ : [١٠٦ ر] وأيّ ذنب لي يا سيّدي في الأحلام ؟

فقال لي : صدقتِ ، فاستتر إلى أن يتناسى الأمير ذكرك ، ففعلتُ ، وكان يجري عليّ ذلك الرزق ، وأنا لا أعمل شيئاً .

فلمّا تهيّأ من إنفاذ لؤلؤ إلى الشّام ما تهيّأ ، نهضت معه ، وتخلّف عنه كتّابه ، لما كانوا علموه من تغيّر حاله عند صاحبه ، فأدناني ، وقرّبني ، وأجرى عليّ في كلّ شهر عشرة دنانير ، وحملني على دابّة وبغل ، فلزمت خدمته ، وكفيته ، واستحمدت إليه ، فزادني من رأيه ، ولم ينته إلى العريش ، حتّى تنبّه أحمد بن طولون على استيحاش لؤلؤ ، فكتب إليه بالرّجوع إلى مصر ، فشاورني ، فأشرت عليه بالانحدار إلى نواحي ديار مضر ، وأخذ ما يستهدف له من المال ، ولم أترك غايةً إلّا أتيتها في تضريبه وتأليبه ، حتّى أوردته مدينة السّلام .

ثمّ تقلّبت بي الأحوال في خدمة السلطان ، وخدمة الدول ، وتوفّي أحمد بن طولون ، وقتل أبو الجيش [١٣] ، وجيش ابنه [١٤] ، وتولّى بعدهم هارون بن خمارويه [١٥] ،

---

١٣ أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون . قتل سنة ٢٨٢ .

١٤ أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون : أمير مصر والشام ، تولّى بعد مقتل أبيه بدمشق في السنة ٢٨٢ ، وعاد إلى مصر ، فغلب عليه اللهو ، فنقمت عليه الخاصّة ، فخلع ، وحبس ، وقتل في الحبس سنة ٢٨٣ (الأعلام ٢ / ١٤٩) .

١٥ هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٦٤ – ٢٩٢) : من ملوك الدولة الطولونية بمصر ، بويع له بعد مقتل أخيه جيش في السنة ٢٨٣ وخسر كثيراً من جيشه في قتال القرامطة ، ولما صار الأمر للمكتفي ، سيّر جيشاً لاستخلاص مصر من آل طولون سنة ٢٩١ ، فافتتحت مصر ، وقتل هارون في السنة ٢٩٢ (الأعلام ٩ / ٤٠) .

فاختصصت أنا بالقاسم بن عبيد الله ، فقلّدني ديوان الجيش . ثمّ ندبني لمحاربة هارون ، وضمّ إليّ القوّاد والرّجال ، وكان فيهم لؤلؤ صاحبي ، وكان أصغر الجماعة حالاً ، وأحقرهم شأناً ، خالياً من الرّجال والكراع ، فلم أقصّر في إصلاح حاله ، والإحسان إليه ، ومعرفة حقّه .

فلم أدن من الشّام حتّى تلقّاني بدر الحماميّ ، وتلاه طغج بن جف[16] مسرعاً ، وصرت إلى مصر ، فلمّا شارفتها وثب شيبان بن أحمد بن طولون [١٣٠ ظ] ومن تابعه من جند مصر ، فقتلوا هارون[17] ، وتولّى شيبان الأمر بعده ، وانثال إليّ القوّاد في الأمان ، ولحق بهم شيبان ، وتخلّف الرّجالة وقطعة من الفرسان ، وأظهروا الخلاف ، فأوقعت بهم ، وأفنيتهم قتلاً وأسراً ، ودخلت فسطاط مصر عنوةً ، وحويت النعم والمهج ، وأشخصت الطولونية عن البلد إلى الحضرة ، حتّى لم يبقَ منهم أحد .

وصحّ بذلك منام أحمد بن طولون ، فسبحان الّذي ما شاء فعل ، وإيّاه نسأل خير ما تجري به أقداره ، وأن يختم لنا بخير برحمته[18] .

---

١٦ أبو محمّد طغج بن جف بن يلتكين الفرغاني : وتفسير كلمة طغج : عبد الرحمن . أصله من ملوك فرغانة ، ورد والده على المعتصم ، فأكرمه ، وأقطعه بسرّ من رأى ، ومات جف ليلة قتل المتوكّل سنة ٢٤٧ ، واتّصل طغج بلؤلؤ غلام أحمد بن طولون ، فاستخدمه ، ثم رآه أبو الجيش خمارويه ، فأعجب به ، وقلّده دمشق وطبريّة ، ولما قتل خمارويه ، رحل طغج إلى المكتفي ، فأكرمه ، ثم اعتقله ، ومات في الحبس ، وهو والد أبي بكر محمّد بن طغج ، الذي استولى على مصر والشام وأسّس الدولة الإخشيدية (وفيات الأعيان ٥ / ٥٦ و٥٧) .

١٧ في الكامل ٧ / ٥٣٦ انّ الذي قتل هارون ، جندي مغربي ، وأنّه لما قتل قام عمّه شيبان بن أحمد بن طولون بالأمر من بعده ، ثم استأمن شيبان إلى محمّد بن سليمان ، وخرج إليه ، وكان ذلك في السنة ٢٩٢ .

١٨ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ .

٢٢٤

شفاه منام رآه أحد أصحابه

حدّثني أبو الفرج عبد الواحد بن نصر الكاتب المعروف بالببغاء، قال:

اعتللت بحلب[١] علّةً، جفّ منها بدني كلّه، فكنت كالخشبة، لا أقدر على أن أتحرّك أو أُحرَّك، ونحل جسمي، وتقلّبت بي أعلالٌ متّصلة متضادّة صعبة، فمكثت حليف الفراش ثلاث سنين، وآيسني الأطبّاء من البرء، وقطعوا مداواتي.

وكان لي صديق شيخ يعرف بأبي الفرج بن دارم، من أهل بلدي – يعني نصيبين – مقيمٌ بحلب، مواظبٌ على عيادتي، وملازمٌ لي، وكان لفرط اغتمامه بي، وأنّ الأطبّاء قد آيسوه منّي، يُظهر لي من الجزع عليّ أمراً يؤلم قلبي، ويؤيسني من نفسي، ثمّ تجاوز ذلك إلى التصريح باليأس، وتوطيني عليه، ثمّ تعدّى هذا إلى أن صار لا يملك دمعته إذا خاطبني.

فضعفتُ عن تحمّل هذا، وتضاعفَتْ به علّتي، وخارت معه قوّتي، فاعتقدت أن أقول لغلامي أن يترصّده، فإذا جاء الرّجل إليّ قال له عنّي: إنّي لا أستحسن حجابه، وإنّ علّتي تضاعفت ممّا أشاهده، وأسمعه منه، ويسأله أن ينقطع عنّي، أو يقطع مخاطبتي بما فيه إياس لي، وقرّرت عزمي على هذا في ليلة من اللّيالي، ولم أخاطب به غلامي.

---

١ كان أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي، في عنفوان أمره، وريعان شبابه، متّصلاً بسيف الدولة الحمداني، مقيماً في جملته، في حلب حاضرة ملكه، ثم تنقلت به بعد وفاة صاحبه الأحوال (اليتيمة ١ / ٢٥٢).

فلمّا كان في صبيحة تلك اللّيلة ، باكرني ابن دارم ، فحين وقعت عيني عليه ، تثاقلت به خوفاً من أن يسلك معي مذهبه ، وهممت أن أفتتح خطابه بما كنت عزمت على مراسلته به ، فسبقني بأن قال لي : جئتك مبشّراً .

فقلت : بماذا ؟

قال : رأيت البارحة في منامي ، كأنّي بالرقّة ، والنّاس يهرعون [١٠٧ ر] إلى زيارة قبور الشهداء .

قال أبو الفرج : وهم جماعة ممّن قتل بصفّين[٢] ، مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، منهم عمّار بن ياسر[٣] ، حملوا إلى ظاهر الرقّة ، فدفنوا بها ، والحال في ذلك مشهور ، والقبور إلى الآن مغشيّة معمورة .

قال لي ابن دارم : ورأيت كأنّ أكثر النّاس مطيفون بقبّة ، فسألت عنها ، فقيل لي : هي على قبر عمّار بن ياسر رضي الله عنه ، فقصدتها ، وطفت بها ،

---

٢ صفّين : موضع بقرب الرقّة ، على شاطئ الفرات من الجانب الغربي ، بين الرقّة وبالس ، وفيه كانت وقعة صفّين بين الإمام عليّ بن أبي طالب ومعاوية في السنة ٣٧ ، قتل فيها من الطرفين خمسة وسبعون ألفاً (معجم البلدان ٣ / ٤٠٢) .

٣ أبو اليقظان عمّار بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي العنسي القحطاني (٥٧ ق‌هـ – ٣٧ هـ) : من الولاة الشجعان ذوي الرأي ، أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به ، وأمه سميّة ، أوّل شهيدة من النساء في الإسلام (لطائف المعارف ١٣) ، هاجر إلى المدينة ، وشهد بدراً وأُحداً والخندق ، وبيعة الرضوان ، وكان النبيّ صلوات الله عليه يلقبه : الطيّب المطيّب ، وقال عنه : ما خيّر عمّار بين أمرين ، إلا اختار أرشدهما ، وهو أوّل من بنى مسجداً في الإسلام ، ولّاه الخليفة عمر الكوفة ، وشهد وقعة الجمل وصفّين مع عليّ ، وقتل في إحدى معارك صفّين ، قتله أحد أنصار معاوية ، فأحدث قتله اضطراباً في الشاميّين ، لأنّ النبيّ صلوات الله عليه ، قال له : يا عمّار ، تقتلك الفئة الباغية (الطبري ٥ / ٣٩ و ٤١ والأعلام ٥ / ١٩٢) ، وحاول معاوية أن يهدّئ اضطراب أصحابه ، فقال : إنّ عليّاً هو الذي قتل عمّار ، لأنّه جاء به إلى المعركة ، وبلغ ذلك عليّاً ، فقال : إذن يكون النبيّ صلوات الله عليه ، هو قاتل عمّه حمزة ، لأنّه جاء به إلى معركة أحد .

فإذا القبر مكشوف ، وفيه رجل شيخ ، بثياب بيض ،وفي رأسه ضربات بيّنة دامية ، وعلى لحيته دم ، والنّاس يسألونه فيجيبهم ، فلحقتني حيرة ، ولم أدرِ عمّا أسأله .

فقلت له : يا سيّدي ، لعلّك عارف بأبي الفرج عبد الواحد بن نصر المخزوميّ المعروف بالببغاء .

فقال : نعم ، أنا عارف به .

فقلتَ : أيعيش أم لا ؟

فقال : نعم ، يعيش ، ويبرأ ، ولكن أنت لك ابن فاحذر عليه من علّة تلحقه قريباً ، واستيقظتُ .

وأخذ يهنّئني بالعافية ، ويقول : سرّني ما جرى ، ولكن قد أوحشني في أمر ابني ، وأسأل الله تعالى الكفاية .

قال أبو الفرج : وكان للرّجل ابن ، له نحو الثّلاثين سنة ، وهو في الحال معافىً ، فلمّا مضت خمسة أيّام من الرؤيا حُمّ الفتى ، وتزايدت علّته ، فمات في اليوم الرّابع عشر من يوم حمّ ، فقويت نفسي في صحّة المنام ، وما مضى على موت الفتى إلّا أيّام يسيرة ، حتّى أدبر مرضي ، ولم تزل العافية تقوى [١٣١ ظ] إلى أن عوفيت ، وعادت صحّتي كما كانت بعد مدّة يسيرة [٤] .

---

٤ لم ترد هذه القصّة في م . ولا في غ .

٢٢٥

رأى الإسكندر رؤيا

تبعها انتصاره على دارا ملك الفرس

وجدتُ في بعض الكتب :

أنّه لما اشتدّت الحرب بين الإسكندر[١] ، وبين دارا بن دارا[٢] ، استظهر دارا عليه ، وأشرف الإسكندر على الهلاك ، وأيس من النّصر ، وحال الشتاء بينهما ، فانصرف الإسكندر إلى معسكره ، مغموماً مهموماً ليلته ، ثمّ نام .

فرأى في منامه ، كأنّه صارع دارا ، فصرعه دارا ، فانتبه وقد كربه ذلك ، وزاد في همّه وغمّه .

فقصّ رؤياه على بعض فلاسفته ، فقال : أبشر أيّها الملك بالغلبة والنّصر ، فإنّك تغلب دارا على الأرض ، لأنّك كنت تليها لما صرعك .

فلمّا كان بعد أيّام يسيرة ، انهزم دارا ، وقُتل ، وجاؤوا برأسه إلى الإسكندر[٣] .

---

١ الإسكندر بن فيلبس (٣٥٦ قم – ٣٢٤ قم) : لقّب بالكبير ، وبذي القرنين ، درس على أرسطوطاليس ، وتولّى الحكم في مكدونيا بعد وفاة أبيه ، حارب الفرس ، وانتصر عليهم في عدّة معارك ، كان آخرها معركة إربل في العراق ، حيث قتل دارا (داريوس) ملك الفرس ، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الهندوس ، ثم عاد وتوفّي في بابل .

٢ داريوس كودومان : ملك فارس ، آخر ملوك سلالة الأخمنيين ، حاربه الإسكندر الكبير في عدّة معارك ، قتل في آخرها ، وهي معركة إربل سنة ٣٣٠ قم .

٣ لم ترد هذه القصّة في م ، ولا في ر ، ولا في غ .

٢٢٦

رؤيا عبد الله بن الزبير وتعبيرها

قال مؤلّف هذا الكتاب :

ومثل هذا ما هو مشهور في روايات أصحاب الأخبار والسّير ، أنّ عبد الله ابن الزّبير[١] رأى في منامه ، كأنّه صارع عبد الملك بن مروان ، فصرع عبد الملك ، وسمّره على الأرض بأربعة أوتاد .

فأرسل راكباً إلى البصرة ، وأمره أن يلقى محمّد بن سيرين[٢] ، ويقصّ الرؤيا عليه ، ولا يذكر له من أنفذه .

فأتاه وقصّ عليه المنام ، فقال له ابن سيرين : من رأى هذا ؟

قال : أنا رأيته في رجل بيني وبينه عداوة .

فقال : ليس هذه رؤياك ، هذه رؤيا ابن الزّبير أو عبد الملك ، أحدهما في الآخر .

فسأله الجواب ، فقال : ما أفسّرها أو تصدقني ، فلم يصدقه ، فامتنع من التفسير ، فانصرف الرّاكب إلى إبن الزّبير ، فأخبره بما جرى .

فقال له : ارجع إليه ، واصدقه ، أنّني رأيتها في عبد الملك .

---

١ أبو بكر عبد الله بن الزبير بن العوّام القرشي الأسدي (١ – ٧٣) : ترجمته في حاشية القصّة ٥٦ من هذا الكتاب .

٢ أبو بكر محمّد بن سيرين البصري الأنصاري (٣٣ – ١١٠) : تابعيّ . ولد وتوفّي بالبصرة . إمام وقته في علوم الدين بالبصرة . تفقّه وروى الحديث . واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا . (الأعلام ٧ / ٢٥) .

فرجع الرّاكب إلى ابن سيرين ، وصدقه ، فقال له : قل له يا أمير المؤمنين ، إنّ عبد الملك يغلبك على الأرض ، ويلي هذا الأمر من ولده لظهره أربعة ، بعدد الأوتاد الّتي سمّرته بها على الأرض [3] .

---

٣ . لم ترد هذه القصّة في غ ، ولا في م .

٢٢٧

رأى في منامه أنّه قد صرع خصمه

فكان تعبير رؤياه أنّ الخصم هو المنتصر

حدّثني أبو القاسم الحسن بن بشر الآمديّ[١] ، الكاتب ، المقيم – كان – بالبصرة ، إلى أن مات ، قال :

لمّا سعى أبو أحمد طلحة بن الحسن بن المثنّى[٢] ، مع جيش أبي القاسم بن أبي عبد الله البريديّ[٣] ، في أن يقبضوا عليه ، ويحبسوه عند أبي أحمد ، إلى

---

١ أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي : صاحب كتاب الموازنة بين الطائيّين (أبي تمام والبحتري) في عشرة أجزاء ، كان حسن الفهم ، جيّد الدراية ، والرواية ، سريع الإدراك ، وهو من أهل البصرة ، كان يكتب بمدينة السلام لأبي جعفر هارون بن محمّد الضبيّ ، وكتب بالبصرة لأبي الحسين أحمد ، وأبي أحمد طلحة ، ولدي الحسن بن المثنّى ، وبعدهما لقاضي البلد جعفر بن عبد الواحد الهاشميّ على الوقوف التي تليها القضاة ، ثم لأخيه أبي الحسن محمّد بن عبد الواحد لما ولّي قضاء البصرة ، وكان كثير الشعر ، حسن الطبع ، جيّد الصنعة ، توفّي بالبصرة سنة ٣٧٠ (معجم الأدباء ٣ / ٥٤) .

٢ أبو أحمد طلحة بن الحسن بن المثنّى : كان هو ، وأخوه أبو الحسين أحمد بن الحسن ، على نعمة وافرة ، ومركز محترم ، ويتّضح من هذه القصّة ، والقصّة ٣ / ١٤٦ من كتاب نشوار المحاضرة ، انّه خاصم أبا القاسم بن أبي عبد الله البريدي المتغلّب على البصرة ، وتآمر على استئصاله ، فأحسّ به البريدي ، واعتقله ، وقتله في السنة ٣٣٥ .

٣ أبو القاسم عبد الله بن أبي عبد الله أحمد بن محمّد بن يعقوب البريدي : تسلّط على البصرة بعد موت أبيه ، ونازعه عمّه أبو الحسين السلطة ، وحاربه ، فانكسر أبو الحسين ، والتجأ إلى القرامطة ، ثم إلى بغداد ، حيث قتل صبراً ، فاستقلّ أبو القاسم بالبصرة ، وفي السنة ٣٣٦ طرده منها معزّ الدولة ، فالتجأ إلى هجر مجدّداً ، ثم دخل إلى بغداد بأمان من معزّ الدولة ، فأعاد عليه ضياعه ببادوريا ، وأقطعه ضياعاً جديدة ، وأنزله بدار الموزة ، بمشرعة الساج ، محتاطاً عليه ، وأقام ببغداد حتّى توفّي سنة ٣٤٩ (تجارب الأمم ٢ / ٥٨ – ١٨١) .

أن يرد المطيع لله[4] ، أو جيش له إلى البصرة ، فيملكوها ، ويتسلّمون منه أبا القاسم البريديّ ، وكانت القصّة المشهورة في ذلك .

فبلغني ذلك ، فخلوتُ بأبي أحمد ، وكنت أكتب له حينئذ ، وكان لا يحتشمني في أموره ، وثنَيته عن هذا الرّأي ، وعرّفته وجوه الغلط فيه ، والمخاطرة بدمه ونعمته ، وهو غير قابل لمشورتي ، إلى أن أكثرت عليه .

فقال لي : اعلم أنّني قد رأيت رؤيا أنا بها واثق في تمام [١٠٨ ر] ما قد شرعت فيه من القبض على هذا الرّجل .

فعجبت في نفسي من رجل يخالف الحزم الظّاهر ، والرأي الواضح ، من أجل منام ، ثمّ قلت له : ما الرؤيا ؟

فقال : رأيت كأنّ حيّة عظيمة ، قد خرجت عليّ من حائط هذا العرضيّ[5] .

قال : وكان جالساً في عرضيّ داره ، قال : فكأنّني قد رميتها ، فأثبتها في الحائط .

فحين قال أبو أحمد : أثبتّها في الحائط ، ذكرت تأويل منام ابن الزّبير ، وقصّ المنام الّذي ذكرته ، فسبق إلى قلبي ، أنّ تأويل منام أبي أحمد ، أنّه قد أثبت عدوّه في حائطه ، وأنّ عدوّه سيغلبه على البلد .

قال : فأمسكتُ ، وقطعت الكلام ، فما مضت إلّا مدّة يسيرة ، حتّى شاع التدبير ، وصحّ الخبر به عند أبي القاسم البريديّ ، [فبادر إلى القبض على

---

٤ المطيع لله ، أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر : ولّي الخلافة سنة ٣٣٤ على أثر خلع سلفه المستكفي وسمله ، وكان أمر المطيع ضعيفاً ، والحكم لبني بويه ، واستمرّت خلافته ثلاثين سنة إلاّ أشهراً ، وأصيب بالفالج ، وثقل لسانه ، فخلع نفسه ، ونصب ولده عبد الكريم الطائع لله ، مكانه (الفخري ٢٨٩) .

٥ العرض : الناحية ، والعرضيّ : حجرة تكون في ناحية من الدار ، تشرف على ساحتها ، وتهيّأ لاستقبال الضيوف ، وقد حرّف البغداديون اسمها الآن ، فأصبحت : أرسي .

فائق الأعسر ، وكان هو الّذي ندَبهُ أبو أحمد للقبض على البريديّ][6] ،
وأن يكون أمير البلد ، إلى أن يرد جيش الخليفة ، فقرّره ، فأقرّ بالخبز على
شرحه ، فقبض أبو القاسم على أبي أحمد بعد قبضه على فائق بيومين أو ثلاثة ،
فاستصفاه ، وأهله ، وولده ، ثمّ قتله بعد ذلك بأيّام[7] [١٣٢ ظ] .

---

٦ الزيادة من ر .

٧ في ر : ثم قتله بعد ذلك بثلاثة أيّام . ولم ترد هذه القصّة في م . ولا في غ . وقد وردت بتقديم وتأخير في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي برقم ٣ / ١٤٥ .

الرّشيد يولّي أخاه إبراهيم بن المهدي دمشق

بلغني عن إبراهيم بن المهدي ، قال :

كنت في جفوة شديدة من أخي الرّشيد ، أثّرت في جاهي ، ونقصت حالي ، وأفضيت معها إلى الإضاقة بتأخير أرزاقي ، وظهور اطّراحه إيّاي ، فاختلّت لذلك أحوالي ، وركبني دينٌ فادح ، فبلغ بي القلق والفكر فيه ليلة من اللّيالي ، مبلغاً شديداً ، ونمت فرأيت في النّوم كأنّي واقف بين يدي أبي المهدي ، وهو يسألني عن حالي ، وأنا أشكو إليه ما نكبني به الرّشيد ، وأنهيت إليه حالي ، وأنا أقول : ادع الله عليه يا أمير المؤمنين .

فكأنّه يقول : اللّهم أصلح ابني هارون ، يكرّرها ثلاثاً .

فكأنّي أقول : يا أمير المؤمنين أشكو إليك ظلم هارون لي ، وأسألك أن تدعو عليه ، فتدعو له .

فقال : وما عليك ، إن أصلحه الله لك وللكافّة ، أن يبقى على حاله ، هوذا أمضي إليه السّاعة ، وآمره أن يرجع لك ، ويقضي دينك ، ويولّيك جند دمشق .

فكأنّني أومي إليه بسبّابتي ، وأقول له : دمشق ، دمشق ، استقلالاً لها .

فيقول لي : حرّكت مسبّحتك استقلالاً لدمشق ، فكلّما خفّ منها حظّك ، كان في العاقبة أجود لك .

فانتبهتُ ، وأحضرت رجلاً كان مؤدّبي في أيّام المهدي ، فسألته عن المسبّحة ، فقال : كان عبد الله بن العبّاس ، يسمي السّبّابة : المسبّحة[1] ، فما

---

١ المسبّحة : راجع البحث في آخر القصّة .

سؤال الأمير لي عنها ؟

فقصصت عليه الرؤيا ، وامتنع النّوم عنّي ، فأخذ يحدّثني وأنا جالس في فراشي ، إذ جاءني رسول الرّشيد ، فارتعت له ارتياعاً شديداً ، ولم أعبأ بالمنام ، وخفت أن يريدني لسوء يوقعه بي .

فقلت : أدافعه إلى أن تطلع الشّمس ، ثمّ يكون دخولي الدّار نهاراً ، فإن كان أرادني لغيلة لم تتمّ .

فتقاطرتْ رسله حتّى أعجلوني عن الرأي ، واضطرّوني إلى الرّكوب في الحال ، فدخلت إليه وأنا شديد الجزع ، وهو جالس في فراشه ينتحب .

فلمّا رآني ، قال : سألتك بالله يا أخي هل رأيت اللّيلة في منامك شيئاً ؟

فقلت : نعم ، الساعة رأيت أمير المؤمنين المهدي .

فلمّا قلت له ذلك ازداد بكاؤه ، ثمّ قال لي : ويحك ، بالله ، شكوتني إليه وسألته أن يدعو عليّ ؟

فقلت : قد كان ذلك ، ولكنّه قال كذا وكذا ، وشرحت له ما قال .

فقال : السّاعة والله ، جاءني في منامي ، فقصّ عليّ جميع ما ذكرت ، وقد وفى بوعده ، والله لأمتثلنّ أمره ، ولأصلنّ رحمك ، كم دينك ؟

قلت : كذا وكذا ، فأمر بقضائه .

وقال : لا تبرح ، حتّى أصلّي وأخرج ، فأعقد لك على دمشق ، فانتظرت حتّى وجبت الصّلاة ، فصلّى ، وجاء وقت جلوسه ، فجلس ، واستدعاني [١٠٩ ر] فأظهر تكرمتي ، وعقد لي لواء على دمشق[٢] ، وأمر النّاس ، فساروا معي إلى منزلي ، فعاد جاهي ، وصلحت حالي[٣] .

---

٢ في الأعلام أنّ الرشيد ولّى إبراهيم إمرة دمشق ، ثم عزله عنها بعد سنتين ، ثم أعاده إليها ، فأقام فيها أربع سنين (الأعلام ١ / ٥٥) .

٣ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ .

المسبّحة

التسبيح ، في اللغة : الصلاة ، والدعاء ، وفي الاصطلاح : قول سبحان الله ، تمجيداً وتنزيهاً له ، والمسبِّحة : الإصبع التي تلي الإبهام ، لأنّها يشار بها عند التسبيح (لسان العرب ، مادة : سبح) .

وكان التسبيح يجري باليد ، ثمّ بالحصى ، وكانت ساحات المساجد في الكوفة والبصرة والموصل ، مفروشة بالحصى ، يسبّح به المصلّون ، ويحصبون به الولاة والخطباء ، إذا سمعوا منهم ما لا يرضيهم (الطبري ٥ / ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٦ / ٢٠٣ والأغاني ١٧ / ١٣٥ و١٣٦ والإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢ / ١٦ و ٢٥ و ٢٦ والعقد الفريد ٤ / ٨ والهفوات النادرة ١٠٠ و ١٠١) .

وكان عبد الملك بن هلال ، عنده زنبيل حصى ملآن ، فكان يسبّح بواحدة ، واحدة ، فإذا ملّ شيئاً ، طرح اثنتين ، اثنتين ، فإذا ملّ ، قبض قبضةً ، وقال : سبحان الله بعدد هذا ، فإذا ضجر ، أخذ بعروتي الزنبيل ، وقلبه ، وقال : سبحان الله بعدد هذا كلّه ، وإذا بكّر لحاجة ، وكان مستعجلاً ، لحظ الزنبيل ، لحظة ، وقال : سبحان الله عدد ما فيه (البيان والتبيين ٣ / ٢٢٨) .

ثم اتّخذت السُبحة (بضم السين) ، أو المِسْبَحَة (بكسر الميم) ، وهي خرزات منظومة في سلك ، يجري التسبيح بها ، وكان حمل السُبحة ، دلالة على التقوى ، قال ابن أبي عتيق ، لسلاّمة : احملي معك سُبحة ، وتخشّعي (القصّة ٢٢٧ من هذا الكتاب ، والأغاني ٨ / ٣٤٢) .

ثم تعدّى الأمر إلى اتخاذ السُبحة للتسلية ، وأصبح للسبحة هواة ، يجمعون أصنافاً منها ، ويغالون في أثمانها ، وكانت سبحة زبيدة ، قد اشترتها بخمسين ألف دينار (البصائر والذخائر م ١ / ق ٣ / ص ١٤٥ و ١٤٦) . وكان للمقتدر العباسي ، سبحة قوّمت بمائة ألف دينار ، حدّثنا عنها الأمير أبو محمد الحسن بن عيسى بن المقتدر ، وذكر أنّ والدته عمرة ، جارية المقتدر ، أخبرته ، بأنّ المقتدر استدعى بجواهر ، فاختار منها مائة حبّة ،

ونظمها سُبحة يسبّح بها ، وأنّ هذه السبحة عرضت على الجوهريّين ، فقوّموا كلّ حبّة منها بألف دينار وأكثر (القصّة ٧ / ١٤٧ من نشوار المحاضرة) .

وأعطى المقتدر ، قهرمانته زيدان ، سبحة لم ير مثلها (تاريخ الخلفاء ٣٨٤) وكان يضرب بها المثل ، فيقال : سبحة زيدان (المنتظم ٦ / ٧٠) .

ولمّا وزّر عليّ بن عيسى للمقتدر ، قال : ما فعلت سبحة جوهر ، قيمتها ثلثمائة ألف دينار ، أخذت من ابن الجصّاص ؟ ، قال : في الخزانة ، فقال : تطلب ، فطُلِبَتْ ، فلم توجد ، فأخرجها الوزير من كمّه ، وقال : عرضت عليّ ، فاشتريتها ، فإذا كانت خزانة الجوهر لا تحفظ ، فما الذي يحفظ ؟ ، فاشتدّ ذلك على المقتدر (المنتظم ٦ / ٧٠) .

ولما عاد الخليفة القائم في السنة ٤٥١ من منفاه في الحديثة ، إلى بغداد ، بعثت إليه زوجته أرسلان خاتون ، اثنتي عشرة حبّة لؤلؤ كباراً مثمنة ، وسألته أنّ يتخذ منها سبحة يسبّح بها (المنتظم ٨ / ٢٠٧) .

ولما سَمَلَ توزون ، الخليفة المتّقي ، في السنة ٣٣٣ ، ونصّب المستكفي خليفة بدلاً منه ، وجّه المستكفي إلى توزون سبحة جوهر في قدّ واحد ، خاتمتها ياقوتة حمراء ، لم ير مثل ذلك الدرّ والخاتمة ، وقوّمت بخمسين ألف دينار (تجارب الأمم ٢ / ٧٥) .

وكان لأبي الحسن محمّد بن عمر العلوي الكوفي (٣١٥ - ٣٩٠) سبحة جوهر ، قيمتها مائة ألف دينار ، طوّق بها قنينة بلّور للشراب (المنتظم ٧ / ٢١٢) .

وكانت سبحة نصر الدولة ، صاحب ميافارقين (ت ٤٥٣) من اللؤلؤ ، عدد حبّاتها مائة وأربعون لؤلؤة ، وزن كلّ حبّة مثقال ، وفي وسطها الجبل الياقوت ، وقطع بلخش ، قدّرت قيمتها بثلثمائة ألف دينار (الوافي بالوفيات ١ / ١٢٢) .

ولما استولى أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، على غرناطة في السنة ٤٧٩ ، وجد لصاحبها سبحة جوهر ، من أربعمائة حبّة ، وقوّمت كلّ حبّة بمائة دينار (ابن الأثير ١٠ / ١٥٥) .

أقول : وقد زرت في السنة ١٩٦٨ عندما كنت في طهران ، متحف الجواهر ، في قبو عمارة البنك الملّي الايراني ، فوجدت من جملة الجواهر المعروضة فيها ، سبحة من اللؤلؤ ، عدد حبّاتها قليل ، إلاّ أنّ كلّ حبّة منها ، كانت بقدر الجوزة ، ولم تكن الحبّات تامّة التكوير ، وسألت عنها ، فقالوا : إنّها سبحة فتح علي شاه .

وفي أيّامنا هذه ، تتّخذ المسابح المعدّة للتسبيح ، من الطين أو الخشب ، أمّا التي تتّخذ

للتسلية ، فلا حصر لها ، فهي تتخذ من أنواعِ المعادن ، والحجارة ، والزجاج ، والعظام ، والجواهر ، واللآلئ ، ولعلّ أكثرها استعمالاً ، التي تتّخذ من معدن الكهرمان ، ويسمّى ببغداد : الكهرب .

ومن أطرف ما سمعناه عن أصناف المسابح ، مسبحة من الباقلاء ، اتّخذها أحد طلبة الفقه في النجف ، ليغيظ بها أهالي الحلّة ، وتفصيل القصّة : أنّ الحليّين ، يكثرون من زرع الباقلاء وأكلها ، وهم يعيّرون بذلك ، ويغضبون إذا ذكرت في مجالسهم ، لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم ، وكان الشيخ محمد طه نجف ، أحد كبار علماء الشيعة ، يقضي شهرين من فصل الصيف في قرية الجمجمة من ضواحي الحلّة ، وكان موكبه يشقّ الحلّة ليصل إلى تلك القرية ، فكان إذا مرّ بسوق الحلّة ، يسمع من خلفه الشتائم ، فيعجب ، ثم تبيّن له أنّ أحد تلاميذه يتحرّش بأهل الحلّة ، ويعيّرهم بالباقلاء ، فيسبّونه ، فأنذر الشيخ تلميذه بأن لا يصحبه في رحلة الصيف ، فاعتذر هذا وأظهر التوبة ، وحلف لشيخه أنّه سوف لا يفتح فمه ، ولا ينبس بحرف عند مروره بالحلّة ، ولكن ما إن مرّ موكب الشيخ إلاّ وأخذت الشتائم تترى ، فالتفت ، فوجد تلميذه صامتاً كما وعد ، ولكنّه كان قد رفع كفّه حاملاً مِسْبَحَةً من الباقلاء يسبّح بها أمام الناس .

٢٢٩

يرى مناماً وهو محبوس

فيطلق من حبسه .

حدّثني أبو القاسم طلحة بن محمّد بن جعفر ، المقرئ ، الشّاهد[١] ، قال : حدّثني أبو الحسين عبد الواحد بن محمّد الحصيبي ، قال : حدّثني أبو الفضل ميمون بن هارون[٢] ، قال : حدّثني موسى بن عبد الملك[٣] ، قال :

رأيت وأنا في الحبس ، كأنّ قائلاً يقول لي :

لازلتَ تعلو بك الجدودُ　　نعم وحفّت بك السّعود
أبشر فقد نلت ما تريد　　يبيد أعداءَك المبيد
لم يمهلوا ثمّ لم يقالوا　　بل يفعل الله ما يريد
فاصبر فصبر الفتى حميدٌ　　واشكر ففي شكرك المزيد

---

١ أبو القاسم طلحة بن محمّد بن جعفر ، المقرئ ، الشاهد ، المعتزلي (٢٩١ - ٣٨٠) : نقل عنه التنوخي في نشواره أخباراً عدّة ، وترجم له الخطيب البغدادي في تاريخه ١٩ / ٣٥ ووصفه صاحب شذرات الذهب ٣ / ٩٧ بأنّه الشاهد ، العدل ، المقرئ ، تلميذ ابن مجاهد ، وفي المنتظم ٧ / ١٥٤ أنّه كان مقدّماً على الشهود ، وقد كان أحد الشهود الذين شهدوا على خلع المطيع لله نفسه من الخلافة ، راجع تفصيل ذلك في خلاصة الذهب المسبوك (٢٥٧ و ٢٥٨) .

٢ أبو الفضل ميمون بن هارون بن مخلد بن أبان : كاتب بغدادي ، صاحب أخبار وآداب وأشعار ، أخذ عن الجاحظ ومعاصريه (الأعلام ٨ / ٣٠١) وهو جد أبي الحسين أحمد بن محمّد بن ميمون وزير المتقي (القصّة ٢٠٠ من هذا الكتاب) راجع قصّته مع فرج الرخجي في رسوم دار الخلافة ص ٣٨ .

٣ أبو عمران موسى بن عبد الملك الأصبهاني ، صاحب ديوان الخراج : ترجمته في حاشية القصّة ١٠٣ من الكتاب .

[فانتبهتُ ، وقد طفئ السّراج ، فطلبت شيئاً ، حتّى كتبت الأبيات على الحائط ، وأصبحت وقد قويت نفسي][4] .

قال : فما مضى على ذلك إلّا أيّام يسيرة ، حتّى أطلقت[5] .

---

٤ الزيادة من ه .

٥ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ .

٢٣٠

يكره شخصاً على العمل ثمّ يحبسه ويعذّبه

وذكر المدائني في كتابه ، كتاب الفرج بعد الشدّة والضيقة ، قال :

قال توبة العنبري[1] : أكرهني يوسف بن عمر[2] على العمل ، فلمّا رجعتُ حبسني حتّى لم يبقَ في رأسي شعرة سوداء .

فأتاني آتٍ في منامي فقال لي : يا توبة [١٣٣ ظ] أطالوا حبسك ؟

قلت : أجل .

فقال : سلِ الله عزّ وجلّ العفو والعافية ، في الدنيا والآخرة ، ثلاثاً ،

---

١ أبو المورع توبة بن أبي الأسد كيسان العنبري البصري : أحد الولاة ، من رجال الحديث ، ولد باليمامة ، وتحوّل إلى البصرة ، ولّاه يوسف بن عمر سابور ، ثم ولّاه الأهواز ، توفّي سنة ١٣١ (الأعلام ٢ / ٧٤) .

٢ أبو يعقوب يوسف بن عمر بن محمّد بن الحكم الثقفي : من الأمراء في العهد الأموي ، كان قصير القامة ، عظيم البطن ، عريض اللحية ، وكان يلبس ثياباً طوالاً يجرّها (العيون والحدائق ١٠٣/٣) وكان إذا أحضر لـه الثوب الطويل ، وقال له الخياط : إنّه يفضل منه ، ضربه ، وإذا قال له : لا يكفينا إلاّ بعد التصرّف في التفصيل ، سرّه (ابن الأثير ٥ / ٢٢٥ و٢٢٦) وكان جباراً ظالماً ، يكفي للدلالة على ظلمه ، أنّه سلك سبيل الحجّاج ، السيّئ الصيت ، في الأخذ بالشدّة والعنف ، وكان يضرب به المثل في التيه والحمق ، يقال : أتيه من أحمق ثقيف (وفيات الأعيان ٧ / ١٠٩) وكان يلقّب تيس ثقيف (خطط المقريزي ٢ / ٤٤٨ سطر ١٨) وفي المحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٣٤) عجائب من حماقاته ، وقد قتل مرّة أحد المجانين لأنّه تكلم أثناء خطبته ، واحتبس كاتبه يوماً عن الديوان ، فقال له : ما حبسك ؟ فقال : اشتكيت ضرسي ، فقال : تشتكي ضرسك ، وتقعد عن الديوان ، ودعا بالحجّام وأمره أن يقلع ضرسين من أضراسه ، ولّي اليمن لهشام بن عبد الملك ، ثم أضاف إليه العراق وخراسان ، وكان أوّل ما بدأ به عند ولايته العراق ، أن قتل سلفه خالد بن عبد الله القسري ، بعد أن عذّبه عذاباً شديداً ، راجع تفصيل ذلك في الطبري ٧ / ٢٥٤ – ٢٦١ ولما ولّي يزيد بن الوليد ، عزله واعتقله ، وقتل في الحبس سنة ١٢٧ (الأعلام ٩ / ٣٢٠) .

فاستيقظت ، فكتبتها ، وتوضّأت ، وصلّيت ما شاء الله ، ثمّ جعلت أدعو ، حتّى وجبت صلاة الصّبح ، فصلّيتها .

فجاء حرسي ، فقال : أين توبة العنبريّ ، فحملني في قيودي ، فأدخلني عليه ، وأنا أتكلّم بهنّ ، فلمّا رآني ، أمر بإطلاقي .

قال توبة : فعلّمتها في السّجن رجلاً ، فقال : إنّي لم أدعَ إلى عذابٍ قط ، فقلتهنّ ، إلّا خلّوا عنّي ، فجيء بي يوماً إلى العذاب ، فجعلت أتذكّرهنّ ، فلا أذكرهنّ ، حتّى جلدتُ مائة سوط ، فذكرتهنّ بعد ، فدعوتُ بهنّ ، فخلّوا عنّي [3] .

[حدّثنا علي بن الحسن ، بن أبي الطيّب ، قال : حدّثنا ابن الجرّاح ، قال : حدّثنا ابن أبي الدّنيا ، قال : حدّثنا حاتم بن عبد الله ، أنّه حُدِّث عن سيّار بن حاتم [4] ، قال : حدّثنا عثمان بن مطر [5] ، قال : حدّثنا توبة العنبري ، فذكر مثله ، وزاد فيه ، فقيّدني ، فما زلت في السّجن ، حتّى لم يبقَ في رأسي شعرة سوداء] [6] .

---

٣ لم ترد هذه القصّة في م ، ولا في غ ، ووردت في مخطوطة (د) الجزء الأخير منها في ص ١٥٣ والجزء الأول منها في ص ١٦٥ .

٤ أبو سلمة سيار بن حاتم العنزي البصري : ترجم له صاحب الخلاصة ص ١٣٦ وقال إنّه توفّي سنة ١٩٩ .

٥ أبو الفضل عثمان بن مطر الشيباني البصري : ترجم له صاحب الخلاصة ص ٢٢٢ .

٦ هذه الفقرة انفردت بها ظ .

أقول : ذكر ابن الأثير ، في الكامل ١٣٠/٥ توبة ، وسمّاه : توبة بن أبي سعيد ، وذكر أنّه كان على خاتم مسلم بن سعيد عامل خراسان ، ولما ولّي أسد بن عبد الله (القسري) خراسان ، جعل على خاتمه أيضاً ، وذكر الطبري ٣٥/٧ بتفصيل ، وسمّاه توبة بن أبي أسيد ، وذكر أنّ مسلم بن سعيد ، طلبه من ابن هبيرة ، فبعث به إليه من البصرة ، فلما حضر عنده ، قال له مسلم : هذا خاتمي ، فاعمل برأيك ، ولما عزل مسلم عن خراسان ، أراد توبة أن يشخص معه ، فتمسك به خلف مسلم ، وهو عبد الله بن أسد القسري ، وقال له : أقم معي ، فأنا أحوج إليك من مسلم ، فأقام معه ، وأحسن إلى الناس ، وألان جانبه ، وأحسن إلى الجند ، ووفاهم أرزاقهم .

٢٣١

رأى في منامه أن قد أخرجت

من داره اثنتا عشرة جنازة

وروى المدائني في كتابه أيضاً ، عن معمر بن المثنى ، عن علي بن القاسم ، قال : حدّثني رجلٌ قال :

رأيت في المنام ، أيّامَ الطاعون ، أنّهم أخرجوا من داري اثنتي عشرة جنازة ، وأنا وعيالي اثنا عشر نفساً ، فمات عيالي ، وبقيتُ وحدي ، فاغتممت ، وضاق صدري .

فخرجتُ من الدّار ثمّ رجعت في الغد ، فإذا لصٌّ قد دخل ليسرق ، فطعن في الدّار ، فمات ، وأخرجت منها جنازته .

وسرِّي عنّي ما كنت فيه ، ووهب الله العافيةَ والسلامة[1] .

١ لم ترد هذه القصّة في م ، ولا في غ .

٢٣٢

وهب بن منبّه يصاب بالإملاق

ثمّ يعطيه الله من فضله

ذكر القاضي أبو الحسين ، في كتابه الفرج بعد الشدّة : أنّ وهب بن مُنَبّه[١] ، قال :

أملقت ، حتّى قنطت ، أو كدت ، فأتاني آتٍ في منامي ، ومعه شبيه بالفستقة ، فدفعها إليّ .

وقال : افضِض ، ففضضتها فإذا حريرة .

فقال : انشُر ، فنشرتها ، فإذا فيها ثلاثة أسطر ببياض : لا ينبغي لمن عرف عن الله عدله ، أو عقل عن الله أمره ، أن يستبطئ الله في رزقه .

قال : فأعطاني الله بعدها ، فأكثر[٢] .

---

١ أبو عبد الله وهب بن منبه الأبناوي ، الصنعاني ، الذماري (٣٤ – ١١٤) : مؤرّخ ، عالم بأساطير الأوّلين ، وبالإسرائيليات ، يعدّ من التابعين ، أبوه من أبناء الفرس الذين جاؤوا إلى اليمن ، وأمّه من حمير ، ولّاه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء ، حبسه يوسف بن عمر الثقفي ، وضربه حتى مات (الأعلام ٩ / ١٥٠) .

٢ لم ترد هذه القصّة في م ، ولا في غ .

٢٣٣
درس في الإيثار

وذكر أيضاً عن الواقدي[1] ، أنّه قال :

أضَقتُ إضاقة شديدة ، وهجم شهر رمضان ، وأنا بغير نفقة ، فضاق ذرعي بذلك ، فكتبتُ إلى صديق لي علويّ ، أسأله أن يقرِضني ألف درهم ، فبعث إليّ بها في كيس مختوم ، فتركتها عندي .

فلمّا كان عشيُّ ذلك اليوم ، وردت عليّ رقعة صديق لي ، يسألني إسعافه لنفقة شهر رمضان ، بألف درهم ، فوجّهت إليه بالكيس بخاتمه .

فلمّا كان في الغد ، جاءني صديقي الّذي اقترض منّي ، والعلويّ الّذي اقترضت منه [١١٠ ر] ، فسألني العلويّ عن خبر الدراهم ، فقلت : صرفتها في مهمّ .

فأخرج الكيس بختمه ، وضحك ، وقال : والله لقد قرب هذا الشّهر وما عندي إلّا هذه الدراهم ، فلمّا كتبت إليّ ، وجّهت بها إليك ، وكتبت إلى صديقنا هذا ، أقترض منه ألف درهم ، فوجّه إليّ بالكيس ، فسألته عن القصّة ، فشرحها ، وقد جئناك لنقتسمها ، وإلى أن ننفقها يأتي الله بالفرج .

قال الواقدي : فقلت لهما ، لست أدري أيّنا أكرم ، فقسمناها ، ودخل شهر رمضان ، فأنفقت أكثر ما حصل منها ، وضاق صدري ، وجعلت أفكّر في أمري .

---

١ أبو عبد الله محمّد بن عمر بن واقد السهمي ، المعروف بالواقدي (١٣٠ – ٢٠٧) : من أقدم المؤرّخين في الإسلام ، ولد بالمدينة ، وانتقل إلى العراق ، واتّصل بالبرامكة ، ونصب قاضياً ببغداد ، ومات بها (الأعلام ٧ / ٢٠٠) .

فبينما أنا كذلك ، إذ بعث إليّ يحيى بن خالد البرمكي في سحرة يوم ، فصرت إليه .

فقال : يا واقدي ، رأيتك البارحة فيما يرى النّائم ، وأنت على حال دلّتني على أنّك في غمّ شديد وأذى ، فاشرح لي أمرك .

فشرحته ، إلى أن بلغت حديث العلويّ ، وصديقي والألف درهم ، فقال : ما [١٣٤ ظ] أدري أيّكم أكرم ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم ، ولهما بعشرين ألف ، وقلّدني القضاء[٢] .

---

٢ لم ترد هذه القصّة في م ، ولا في غ ، ووردت في المستجاد للتنوخي بتصرّف ١١٠ و١١١ .

البَابُ السَّابع

من استنقذ من كرب وضيق خناق
بإحدى حالتي عمدٍ أو اتّفاق

٢٣٤
محمّد بن زيد العلوي يضرب مثلاً عالياً في النبل

حدّثنا أبو الفرج علي بن الحسين المعروف بالأصبهاني الكاتب ، قال :

كان محمّد بن زيد العلوي[١] ، الداعي بطبرستان[٢] ، إذا افتتح الخراج ، نظر ما في بيت المال من خراج السنة التي قبلها ، ففرّق في قبائل قريش قسطاً ، على دعوتهم ، وفي الأنصار ، وفي الفقهاء ، وأهل القراءات ، وسائر طبقات النّاس ، حتّى يفرّق جميع ما بقي .

فجلس سنة من السنين ، يفرّق المال ، على ما كان يفعل ، فلمّا فرغ من بني هاشم ، دعا بسائر بني عبد مناف ، فقام رجل ، فقال له : من أيّ بني عبد مناف أنت ؟ ، فسكت .

---

١ محمد بن زيد بن اسماعيل بن الحسن العلوي الحسني : صاحب طبرستان والديلم . كان أخوه الحسن ابن زيد . أمير طبرستان والديلم عشرين سنة . وتوفي في السنة ٢٧٠ فولّيها محمد . ودامت ولايته ١٨ سنة . من ٢٧٠–٢٨٧ . وكانت في أيامه حروب وفتن . وكان شجاعًا . فاضلاً . كريم الأخلاق . أديبًا . شاعرًا . عالمًا بالتاريخ . جرح في إحدى حروبه مع السامانيين . وتوفي سنة ٢٨٧ (الأعلام ٣٦٦/٦ وابن الأثير ٤٠٧/٧) .

٢ طبرستان : وتسمى مازندران . بلاد واسعة . مجاورة لجيلان وديلمان . يغلب عليها الجبال (مراصد الاطلاع ٨٧٨/٢) .

قال : لعلّك من ولد معاوية ؟

قال : نعم .

قال : فمن أيّ ولده أنت ؟ فسكت .

قال : لعلك من ولد يزيد[3] ؟

قال : نعم .

قال : بئس الاختيار اخترت لنفسك ، من قصدك بلداً ولايته لآل أبي طالب ، وعندك ثأرهم في سيّدهم وإخوته وبني عمّه ، وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشام والعراق ، عند من يتولّى جدّك ، ويحبّ رفدك ، فإن كنت جئت عن جهل بهذا منك ، فما يكون بعد جهلك شيء ، وإن كنت جئت متمرّياً[4] بهم ، فقد خاطرت بنفسك .

فنظر إليه العلويّون نظراً شديداً ، فصاح بهم محمّد وقال : كفّوا عافاكم الله ، كأنّكم تظنّون أنّ في قتل هذا دركاً أو ثأراً بالحسين بن علي رضي الله عنهما ، وأيّ جرم لهذا ؟ ، إنّ الله عزّ وجلّ قد حرّم أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت ، والله ، لا يعرِض له أحد إلّا أقدته به[5] ، واسمعوا حديثاً أحدّثكم به ، يكون قدوة لكم فيما تستأنفون من أموركم .

حدّثني أبي ، عن أبيه ، قال : عرض على المنصور ، سنة حجّ ، جوهر فاخر ، فعرفه ، وقال : هذا كان لهشام بن عبد الملك[6] ، وهذا بعينه ، قد بلغني خبره ، عند ابنه محمّد ، وما بقي منهم أحد غيره .

---

٣ أبو خالد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : ترجمته في آخر القصّة .

٤ التمرّي : التحكّك والتعرّض طلباً للشرّ . راجع الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٥٠ سطر ٩ ، قال أبو نؤاس يهجو أبان اللاحقي من أبيات ، [الحيوان للجاحظ ٤/٤٥٠] .

عن كـــافر يتمـرّى بـــالكفر بـــالرحمن

٥ أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

٦ هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي (٧١–١٢٥) : ترجمته في حاشية القصّة ٦٨ من الكتاب .

ثمّ قال للرّبيع : إذا كان غداً ، وصلّيتُ بالنّاس في المسجد الحرام ، وحصل النّاس فيه ، فأغلق الأبواب كلّها ، ووكّل بها ثقاتك من الشيعة ، واقفلها ، وافتح للنّاس باباً واحداً ، وقف عليه ، فلا يخرج إلّا من عرفته .

فلمّا كان من الغد ، فعل الرّبيع ما أمره به ، وتبيّن محمّد بن هشام القصّة ، فعلم أنّه هو المطلوب ، وأنّه مأخوذ ، فتحيّر .

وأقبل محمّد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام على أثر ذلك ، فرآه متحيّراً ، وهو لا يعرفه ، فقال له : يا هذا ، أراك متحيّراً [١١١ ر] فمن أنت ؟ ولك أمان الله التام العام ، وأنت في ذمّتي حتّى أخلّصك . .

فقال : أنا محمّد بن هشام بن عبد الملك ، فمن أنت ؟

قال : أنا محمّد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

فقال محمّد بن هشام : عند الله احتسب نفسي .

قال : لا بأس عليك ، فإنّك لست قاتل زيد[7] ، ولا في قتلك إدراك ثأره ، وأنا الآن بخلاصك ، أولى منّي بإسلامك ، ولكن تعذرني في مكروه أتناولك به ، وقبيح أخاطبك به ، يكون فيه خلاصك بمشيئة الله تعالى .

قال : أنت وذاك .

قال : فطرح رداءه على رأسه ووجهه ، ولبّبه به ، وأقبل يجرّه .

فلمّا وقعت عين الرّبيع عليه ، لطمه لطمات ، وجاء به إلى الرّبيع ، وقال :

---

٧ الإمام أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، العلوي ، الهاشمي القرشي (٧٩–١٢٢) : أحد الخطباء المشهورين ، قال أبو حنيفة : ما رأيت في زمانه أفقه منه ، ولا أسرع جوابًا ، ولا أبين قولاً ، أقام بالكوفة ، وأشخص إلى الشام ، فآذاه هشام بن عبد الملك ، وحبسه ، فعاد إلى العراق ، حيث بايعه أربعون ألفًا ، وانتهت المعركة بمقتله ، وحمل رأسه إلى الشام ، ثم إلى المدينة ، ثم إلى مصر ، وصلب يوسف بن عمر جثته بالكوفة ، طيلة مدة حكم هشام ، فلما ولي الوليد ، أنزل ، وأحرق (الاعلام ٣/٩٨ والعيون والحدائق ٣/١٠٠) .

يا أبا الفضل ، إنّ هذا الخبيث جمّال من أهل الكوفة ، أكراني جماله ذاهباً وراجعاً ، وقد هرب منّي في هذا الوقت ، وأكرى بعض القوّاد الخراسانيّة ، ولي عليه بذلك بيّنة ، فتضمّ إليّ حرسيّين يصيران به معي إلى القاضي ، ويمنعان الخراساني من عراره[8] .

فضمّ إليه حرسيّين ، وقال : امضيا معه .

فلمّا بعد عن المسجد ، قال له : [١٣٥ ظ] يا خبيث ، تؤدّي إليّ حقّي ؟

قال : نعم يا ابن رسول الله .

فقال للحرسيّين : انصرفا ، وأطلقه محمّد .

فقبّل محمّد بن هشام رأسه ، وقال : بأبي أنت وأمّي ، الله أعلم حيث يجعل رسالاته ، ثمّ أخرج جوهراً له قدرٌ ، فدفعه إليه ، وقال : تشرّفني يا سيّدي بقبول هذا منّي .

فقال : يا ابن عمّ ، إنّا أهل بيت ، لا نقبل على المعروف مكافأة ، وقد تركت لك دم زيد ، وهو أعظم من متاعك ، فانصرف راشداً ، ووارِ شخصك ، حتّى يخرج هذا الرّجل ، فإنّه مجدّ في طلبك ، فمضى ، وتوارى .

قال : ثمّ أمر محمّد بن زيد ، الداعي بطبرستان ، للأمويّ ، بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف ، وضمّ إليه جماعة من مواليه ، وأمرهم أن يخرجوا معه إلى الريّ[9] ، ويأتوه بكتاب بسلامته .

فقام الأموي ، فقبّل رأسه ، ومضى ومعه القوم ، حتّى وصل إلى مأمنه ، وجاءوه بكتاب بسلامته[10] .

---

٨ عارّه عرارًا : قاتله وآذاه .

٩ الريّ : مدينة قديمة في مادي ، جنوبي طهران بشرق ، فتحها العرب في زمن عمر ، وفيها ولد هارون الرّشيد (المنجد) .

١٠ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ، ووردت في كتاب المستجاد للتنوخي ١٤٩–١٥٢ .

يزيد بن معاوية

أبو خالد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي (٢٥ – ٦٤) : ثاني ملوك الدولة الأموية بالشام ، فرضه أبوه على الناس فرضاً ، وشدّد في بيعته بالرغبة والرهبة ، ففتح بذلك على المسلمين باباً من أبواب الفتنة ، راجع خبر ذلك في الأغاني ١٦ / ١٩٧ وفي مروج الذهب ٢ /٢١٠ وفي ترجمة معاوية (القصّة ٣٠٩ من هذا الكتاب) .

ولد يزيد بالشام ونشأ بها في ظل والده الذي حكم الشام حكماً مستمراً دام ما يزيد على أربعين سنة ، فنشأ نشأة الأمراء الأرستقراطيين ، يشرب الخمر ، ويسمع الغناء ، ويمارس الصيد ، ويتّخذ القيان ، ويتفكّه بما يلهو به المترفون من اللعب بالقرود ، والمعافرة بالكلاب والديكة (الأغاني ١٧ / ٣٠٠ و٣٠١ والبصائر والذخائر م ٤ / ٢٦٦ وأنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ١ و٣) حتى وصفه أبو حمزة الخارجي ، بأنّه : يزيد الخمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القرود (السيادة العربية ١٤٣) .

وكان تصرّفه وهو ولي لعهد ، يستره لين أبيه مع الناس ، فلمّا مات انكشفت أعماله للناس فلم يحتملها أحد منهم ، لقرب عهدهم بأيّام الخلفاء الراشدين (١١ – ٤٠) فاضطرّوا إلى قتاله .

وكانت أيّام حكمه ثلاث سنوات لم تخل واحدة منها ، من عظيمة من العظائم ، ففي السنة الأولى قتل الحسين عليه السلام وأهل بيت رسول الله صلوات الله عليه ، فضحّى بالدين يوم الطفّ (الأغاني ٩ / ٢٢) وفي السنة الثانية استباح مدينة رسول الله صلوات الله عليه وانتهك حرمات أهلها ذبحاً ونهباً وانتهاك حرمات (اليعقوبي ٢ / ٢٥٣) فشفى بذلك غيظه من الأنصار الذين عاونوا في انتصار المسلمين في موقعة بدر حيث قتل في مبارزة واحدة أبو جدّته هند ، وعمّها ، وأخوها (الأغاني ٤ / ١٨٩) ذلك الغيظ الذي لم يطق كتمانه وهو أمير ، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار ، فأبى وأشار عليه بالأخطل (العقد الفريد ٥ / ٣٢١) فهجاهم ، ووصفهم باللؤم ، وعيّرهم بأنّهم يهود ، فلما ذبح أهل المدينة ، كان جند يزيد يقاتلونهم ويقولون لهم : يا يهود (أنساب الأشراف ٤ / ٢ / ٣٧) ولما عرضت على يزيد جريدة بأسماء قتلى أهل المدينة ، تملّكه

العجب من كثرتهم ، وقال : يا عجباً ، قاتلني كلّ أحد ، حتى ابن خالتي ، وقال : ما أرى أنّه بقي بالمدينة أحد (الأغاني ٨ / ٣٢٥ و١٤ / ٢٤٠) ، ثم تمثّل بقول ابن الزبعري ، الذي شمت بقتل المسلمين في يوم أحد . فقال : [رسائل الجاحظ ١٩ — ٢٠] :

ليت أشياخي ببدر شهدوا | جزع الخزرج من وقع الأسل
لاستطالوا واستهلّوا فرحاً | ثم قالوا : يا يزيد لا تشل
قد قتلنا الغرّ من ساداتهم | وعدلناه ببدر فانعدل

وفي السنة الثالثة ، استباح الكعبة ، حرم الله سبحانه وتعالى ، وسفك فيها الدماء ، وأحرقها (اليعقوبي ٢ / ٢٥٣ وأنساب الأشراف جـ ٤ ق ٢ ص ١ والفخري ١٢٣) ، وقضى في سنة حكمه الثالثة ، فختم بهلاكه صحيفة سوداء ملوّثة ، حتى أنّ رجلاً ذكره في مجلس الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، فقال : أمير المؤمنين يزيد ، فقال له عمر : تقول أمير المؤمنين ، وأمر به ، فضرب عشرين سوطاً (تاريخ الخلفاء ٢٠٩) .

٢٣٥

بين الإسكندر وملك الصين

حدّثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، إملاء من حفظه ، قال :

قرأت في بعض الأخبار للأوائل ، أنّ الإسكندر[١] لمّا انتهى إلى الصين ، وحاصر ملكها[٢] ، أتاه حاجبه ، وقد مضى من الّليل شطره ، فقال له : هذا رسول ملك الصين بالباب ، يستأذن عليك .

فقال : أدخله[٣] .

فوقف بين يدي الإسكندر ، وسلّم ، وقال : إن رأى الملك أن يخليني ، فعل .

فأمر الإسكندر من بحضرته بالانصراف ، وبقي حاجبه ، فقال : إنّ الّذي جئت له لا يحتمل أن يسمعه غيرك .

فقال: فتّشوه ، ففتّش ، فلم يوجد معه شيء من السلاح .

فوضع الإسكندر بين يديه سيفاً مسلولاً ، وأخرج حاجبه ، وكلّ من كان عنده ، وقال له : قف بمكانك ، وقل ما شئت .

فقال له : إنّي أنا ملك الصين ، لا رسوله ، وقد جئت أسألك عمّا تريده ، فإن كان مما يمكن الانقياد إليه ، ولو على أشقّ الوجوه[٤] ، قبلته ، وغنيت أنا وأنت عن الحرب .

قال الإسكندر : وما آمنك منّي ؟

---

١ الإسكندر الكبير ذو القرنين . إبن فيلبس : ترجمته في حاشية القصّة ٢٢٥ من الكتاب .

٢ في المستجاد : ونازل ملكها .

٣ في المستجاد : فقال : إئذن لـه .

٤ في المستجاد : أصعب الوجوه .

قال : علمي بأنّك رجل عاقل ، وليس بيننا عداوة ، ولا مطالبة بذحل ، وأنت تعلم أنّك إن قتلتني لم يكن ذلك سبباً لأن يسلم إليك أهل الصين ملكهم ، ولم يمنعهم قتلي من أن ينصبوا لأنفسهم ملكاً غيري ، ثمّ تنسب أنت إلى غير الجميل [5] ، وضدّ الحزم .

فأطرق الإسكندر ، وعلم أنّه رجل عاقل ، فقال : الّذي أريده منك ، ارتفاع مملكتك لثلاث سنين عاجلاً ، ونصف ارتفاعها في كلّ سنة .

قال : هل غير ذلك شيء ؟

قال : لا .

قال : قد أجبتك .

قال : فكيف يكون حالك حينئذ ؟

قال : أكون قتيل أوّل محارب ، وأكلة أوّل مفترس .

قال : فإن قنعت منك بارتفاع ثلاث سنين ، كيف يكون حالك ؟

قال : أصلح مما كانت ، وأفسح مدّة .

قال : فإن قنعت منك بارتفاع سنة ؟

قال : يكون ذلك كمالاً لأمر ملكي ، وموفياً لجميع لذّاتي [6] .

قال : فإن اقتصرتُ منك على ارتفاع السّدس ؟

قال : يكون السّدس موفّراً ، ويكون الباقي للجيش ولسائر الأسباب .

قال : قد اقتصرت منك على هذا ، فشكره ، وانصرف .

فلمّا طلعت الشمس ، أقبل جيش ملك الصين حتّى طبّق الأرض ، وأحاط بجيش الإسكندر حتّى خافوا الهلاك ، وتواثب أصحابه فركبوا ، واستعدّوا للحرب .

فبينما هم كذلك إذ طلع ملك الصين ، وعليه التاج ، وهو راكب ،

---

٥ في المستجاد : عين الجهل .

٦ في المستجاد : مجحفاً بملكي . ومذهبًا لجميع لذّاتي .

فلمّا رأى الاسكندر ، ترجّل .

فقال له الاسكندر : غدرتَ ؟

قال : لا والله .

قال : فما هذا الجيش ؟

قال : إنّي أردت أن أريك أنّني لم أطعكَ من قلّة ولا من ضعف ، وأنت ترى هذا الجيش ، وما غاب عنك منه أكثر ، ولكنّي رأيت العالم الأكبر [7] مقبلاً عليك ، ممكّناً لك ممن هو أقوى منك ، وأكثر عدداً ، ومن حارب العالم الأكبر غلب ، فأردت طاعته بطاعتك [١٣٦ ظ] والذلّة لأمره بالذلّة لك .

فقال الإسكندر : ليس مثلك من يؤخذ منه شيء ، فما رأيت بيني وبينك أحداً يستحق التفضيل ، والوصف بالعقل ، غيرك ، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك ، وأنا منصرف عنك .

فقال ملك الصين : أما إذ فعلت ذلك ، فلستَ تخسر .

فلمّا انصرف الاسكندر ، أتبعه ملك الصين ، من الهدايا ، بضعف ما كان قرّره معه [8] .

---

٧ في المستجاد : العالم الأثير .

٨ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ . ووردت في كتاب المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي ص ٤٦-٤٩ .

٢٣٦

بين إسحاق الموصلي وغلامه فتح

أخبرني أبو بكر محمّد بن يحي الصولي – فيما أجاز لي روايته عنه ، بعد ما سمعته منه – قال : حدّثني الحسن بن يحي[1] ، قال :

كان لإسحاق الموصلي غلام يقال له : فتح ، يسقي الماء لأهل داره على بغلين من بغاله دائماً .

قال إسحاق : فقلت له يوماً : أيش خبرك يا فتح ؟

قال : خبري أن ليس في هذه الدار أشقى منّي ومنك ، أنت تطعم أهل الدار الخبز ، وأنا أسقيهم الماء .

فاستظرفت قوله ، وضحكت منه ، وقلت له : فأيّ شيء تحبّ ؟

قال : تعتقني ، وتهب لي البغلين ، لأستقي عليهما لنفسي .

ففعلت[2] .

---

١ أبو عيسى الحسن بن يحيى بن الحسين بن زهير الربعي المقرئ : ترجم له الخطيب في تاريخه ٧/٤٥٤ وقال : إنّه توفي سنة ٣٠٣ .

٢ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ .

٢٣٧

أنسب بيت قالته العرب

أخبرني أبو الفرج ، قال : حدّثني خلف بن وضاح[١] ، قال : حدّثني عبد الأعلى بن عبد الله بن محمّد بن صفوان الجمحي[٢] ، قال :

حملت دَيناً بعسكر المهدي[٣] ، فركب المهديّ يوماً بين أبي عبيد الله[٤] ، وعمر بن بزيع[٥] ، وأنا وراءه في موكبه على برذون قطوف[٦] ، فقال : ما أنسب بيت قالته العرب ؟

فقال أبو عبيد الله : قول امرىء القيس :

وما ذرفت عيناك إلّا لتضربي   بسهميك في أعشار قلبٍ مقتّل

فقال : هذا أعرابيّ قحّ .

---

١ في تاريخ بغداد للخطيب ٧٠/١١ : خالد بن وضّاح .

٢ في تاريخ بغداد للخطيب ٧٠/١١ : عبد الأعلى بن عبيد الله بن محمد بن صفوان بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي بن خلف الجمحي المكي . من أشراف قريش . ومن أهل الفضل والعلم والأدب . ولّي قضاء المدينة للمهدي بعد موت أبيه .

٣ عسكر المهدي : المحلّة المعروفة ببغداد بالرصافة بالجانب الشرقي (المفترق صقعاً ٣١٠) أقول : هي الآن المحلّة الّتي تقع فيها المقبرة الملكيّة بالأعظمية .

٤ أبو عبيد الله معاوية بن يسار . وزير المهدي (١٠٠–١٧٠) : أوحد الناس في عصره حذقًا . وخبرةً . وكتابة . وزّر للمهدي . ودسّ عليه الربيع الحاجب . فأفسد ثقة المهدي به . فعزله . ومات معزولاً (الاعلام ١٧٤/٨) .

٥ عمر بن بزيع . مولى المهدي : كان أثيرًا عند المهدي . يشرب النبيذ في مجلسه . والمهدي لا يشرب . ويحضر معه في رحلات صيده . وظل أثيرًا لديه . ولدى ولديه موسى وهارون . وولّي للمهدي في السنة ١٦٢ دواوين الأزمّة . ولم تكن هذه الدواوين موجودة في أيام بني أميّة . وأوّل من أسّسها عمر بن بزيع . راجع تفصيل ذلك في حاشية القصّة ٧٣ من هذا الكتاب .

٦ البرذون : دابّة الحمل الثقيل . والدابّة القطوف : التي تسيء السير وتبطئ .

فقال عمر بن بزيع : قول كثيِّر يا أمير المؤمنين :

أريد لأنسى ذكرها فكأنّما تمثّل لي ليلى بكلّ سبيل

فقال : ما هذا بشيء ، وما له يريد أن ينسى ذكرها ، حتّى تمثّل له ؟

فقلت : عندي حاجتك يا أمير المؤمنين .

قال : الحق بي .

فقلت : لا لحاق بي ، ليس ذلك في دابّتي .

فقال : احملوه على دابّة .

قلت : هذا أوّل الفتح ، فحملت على دابّة ، فلحقته .

فقال : ما عندك ؟

فقلت : قول الأحوص يا أمير المؤمنين :

إذا قلت إنّي مشتفٍ بلقائها

فحمّ التلاقي بيننا زادني سقما [١١٢ ر]

فقال : أحسنت ، حاجتك ؟

قلت : عليّ دين .

قال : اقضوا دينه .

فقضي ديني[٧] .

---

٧ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ .

٢٣٨

تقلّد الإنفاق على عسكرَين فأفاد في

أقلّ من شهر سبعمائة ألف درهم

ذكر ابن عبدوس في كتابه ، كتاب الوزراء : حدّث أحمد بن محمّد بن زياد[١] ، قال : قال لي الريّان بن الصلت :

كنت في خدمة الفضل بن سهل[٢] ، فيما كنت فيه ، من ثقته واستنامته ، على ما كنت عليه .

فدعاني في وقت من الأوقات ، إلى أن يضم إليّ أربعة آلاف من الشاكريّة والجند ، ويقوّدني عليهم ، ويجريني مجرى قوّاده ، فامتنعت عليه من ذلك ، وأعلمته أنّي لا أقوم بذلك ، ولا أصلح له ، ولا آمن أن أتقلّد منه ما يقع فيه التقصير ، فيسقط حظّي عنده ، ومنزلتي لديه .

فأنكر ذلك عليّ أشدّ الإنكار ، وعاودني فيه مراراً ، فلم أجبه إليه ، فلمّا رأى إقامتي على الإمتناع ، جفاني ، وأعرض عنّي ، وامتدّت الأيّام على هذا ، حتّى أدّاني ذلك إلى الاختلال الشديد الّذي أضرّ بي .

فدخل إليّ غلامي يوماً ، فأعلمني أنّه لا نفقة عنده ، ولا مضطرب له في احتيالها ، لامتناع التجّار عن إعطائه ، لتأخّر مالهم علينا عنهم ، وأنّه لا علف لدوابنا ، ولا قوت لنا .

---

١ أبو علي أحمد بن محمد بن زياد بن أيوب : ترجم له الخطيب في تاريخه ٩/٥ و ١٠ وقال : إنّه توفي سنة ٣١٠ .

٢ أبو العباس الفضل بن سهل السرخسي ، وزير المأمون : ترجمته في حاشية القصّة ٥٥ من الكتاب .

فأومأتُ إلى عمامة مُلْحَم[3] كانت بحضرتي ، وأمرته ببيعها ، وصرف ثمنها فيما يحتاج إليه ، فباعها بثمانية دراهم .

وورد عليّ في ذلك اليوم كتاب وكيلي على أهلي ، بمدينة السّلام ، يعلمني ضيق الأمر عليه فيما يحتاج إلى إقامته للعيال ، وإنّه التمس من التجّار مقدار ألفي درهم ، فلم يجيبوه إليها ، فعظمَ عليّ ما ورد من ذلك ، وضاقت بي [١٣٧ظ] المذاهب .

فبينما أنا قاعد في عشيّة يومي ذلك ، إذ أتاني رسول الفضل يأمرني بحضور الدار ، والمقام فيها ، إلى عند خروجه من دار المأمون ، فحضرتها بعد صلاة العتمة ، فأقمت ، إلى أن خرج الفضل في وقت السحر ، فلقيته ، وبين يديه خرائط كثيرة محمولة .

فقال : صلّيت صلاة اللّيل ؟

قلت : نعم .

فقال : لكنّي ما صلّيت ، فكنْ ها هنا إلى أن أصلّي ، فصلّى ، ثمّ انفتل من صلاته ، فدعاني .

فقال : أتدري ما هذه الخرائط ؟

قلت : لا .

قال : هذه ثماني وستّون خريطة وردت ، وقرأتها ، وأجبت عنها بخطّي ، فدعوتُ الله له بحسن المعونة والتوفيق .

ثمّ قال لي : يا ريّان ، إن أبا محمّد الحسن بن سهل قد دفع إلى واسط ،

---

٣ الملحم : القماش الذي سداه إبريسم ، ولحمته غير إبريسم (قاله ميخائيل عواد في رسوم دار الخلافة ص ٩٠) أقول : إختصّت مرو بالثياب الملحم (لطائف المعارف ص ٢٠١) .

ورأى أمير المؤمنين أن يمدّه بدينار بن عبد الله[4] ونعيم بن خازم[5] في عشرة آلاف رجل ، وأن يقلّدك الإنفاق عليهم في عسكريهما ، وأن يجرى لك في كلّ شهر عشرة آلاف درهم ، ولكاتبك ثلاثة آلاف درهم ، ولقراطيسك ألف درهم ، وأن يوظّف لك على كلّ عسكر عشرة أجمال لحملك ، أو مائة دينار عوضاً

٤ دينار بن عبد الله : من كبار القوّاد في الدولة العباسيّة ، وهو من موالي الرشيد ، وارتفعت منزلته في أيام المأمون ، وخلف الحسن بن سهل في السنة ٢٠٣ على القيادة العامة في العراق ، وولي للمأمون عدّة ولايات وإليه تنسب دار دينار ، في الجانب الشرقي من بغداد ، بين سوق الثلاثاء ونهر دجلة (معجم البلدان ٥١٨/٢) يعني أنّها كانت على النهر إما في موضع المستنصرية ، أو في جوارها ، وهذه الدار هي التي نزل بها الأمير الموفق أبو أحمد طلحة بن المتوكل ، لما ورد بغداد منفياً إلى البصرة وواسط بأمر من أخيه المعتز (الطبري ٣٧٧/٩) ، وهو أحد ملوك المخرّم الذين هجاهم دعبل الخزاعي ، فقال :

ومن يشتري مـنّي مـلوك المـخرِّم ... أبـع حسنًا وابـني هشام بـدرهم
وأعطي رجـاءً فـوق ذاك زيـادة ... وأمـنح دينـارًا بـغير تـندّم
فـإن طلبوا مـنّي الزيـادة زدتـهم ... أبـا دلـف والمستطيـل ابن أكـثم

يريد بالحسن : الحسن بن سهل ، وزير المأمون ، وبابني هشام ، أحمد وعلي من رجال الدولة العباسيّة ، ثانيهما قتله المأمون ، راجع تفصيل ذلك في كتاب بغداد لابن طيفور ١٤٦ ، وبرجاء : رجاء بن أبي الضحّاك ، ابن عم الفضل بن سهل وزير المأمون (الطبري ٥٤٠/٨) وبأبي دلف : القائد العربي القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل العجليّ ، وبابن أكثم ، القاضي يحي بن أكثم قاضي المأمون ، راجع أخبار دينار بن عبد الله في الكامل لابن الأثير ٣٥٦/٦ و ٣٨١ والطبري ٥٦٩/٨ و٥٩٣ و٦٠٦ والعيون والحدائق ٣٥٧/٣ و ٤٥٦ وتاريخ بغداد لابن طيفور ١٢٢ .

٥ نعيم بن خازم : أحد قوّاد الدولة العباسيّة ، كان في جيش الرشيد لما سافر إلى طوس سنة ١٩٢ (الطبري ٣٤١/٨) ، وفي السنة ١٩٦ لما عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم ، وسماه : ذا الرئاستين ، أي رئاسة السيف ، ورئاسة القلم ، حمل له اللواء نعيم بن خازم (الطبري ٤٢٤/٨) ، ثم انحاز إلى صف إبراهيم بن المهدي ، وخاض معارك عدّة ، كانت آخرها المعركة التي أسر فيها قرب واسط (الطبري ٥٦٢/٨) ، فأحضر أمام الحسن بن سهل حافيًا ، حاسرًا ، وهو يقول : ذنبي أعظم من السماء ، ذنبي أعظم من الأرض ، فقال له الحسن : على رسلك أيّها الرجل ، لا بأس عليك ، قد تقدّمت لك طاعة ، وحدّثت لك توبة ، وليس للذنب بينهما موضع ، وما ذنبك في الذنوب ، بأعظم من عفو أمير المؤمنين في العفو (العقد الفريد ١٥٧/٢ وعيون الأخبار ١٠٥/١) .

عنها . ثمّ أمر لي في ذلك الوقت ، أن تحمل إليّ أرزاق ثلاثة أشهر ، فما صلّيت الصبح حتّى حمل إليّ اثنان وأربعون ألف درهم ، وأخذ في تجهيز العسكرين .

قال : وبعث إليّ الفضل بفرس من دوابّه وأمرني أن أبعث به إلى نعيم بن خازم ، وأعلمه أنّه خصّه به ، وأنّه من خيله الّتي يركبها ، فوجّهت به إلى نعيم بن خازم ، فأظهر السرور والابتهاج بذلك ، والتعظيم له ، ووهب لغلامي عشرة آلاف درهم ، وبعث إليّ بخمسين ألف درهم .

فكتبت بذلك إلى الفضل . فكتب على رقعتي : أردد على نعيم ما بعث به إليك . وما وهب لغلامك ، واقبض لنفسك عوضاً منه ، مائة وعشرين ألف درهم .

ثمّ أمر بعد أيّام لدينار ، بسبعمائة ألف درهم صلة ومعونة ، ولنعيم بن خازم بخمسمائة ألف درهم ، فبعثت بها إليهما ، فبعث إليّ كلّ واحد منهما بخمسين ألف درهم .

فكتبت إلى الفضل رقعة ، فأعلمته فيها بما فعلاه ، فوقّع على ظهرها : إقبل من دينار ما بعث به إليك . واردد إلى نعيم ما بعث به ، واقبض لنفسك عوضاً من ذلك مائة ألف درهم .

قال : وسرنا عن مرو ، فلمّا صرنا في الطّريق ، ورد عليّ كتاب الفضل ، يأمرني فيه ، أن أحمل الى دينار ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، وإلى نعيم ألف ألف درهم ، ففعلت ، فحمل إليّ دينار مائة ألف درهم ، وخمسين ألف درهم ، وبعث إليّ نعيم مائة ألف درهم ، فقبلت من دينار ما بعث به ، ورددت على نعيم ما بعث به ، حسبما حدّ لي في رقعتيّ الأولى والثانية ، ولم أكتب بالخبر في ذلك إلى الفضل ، لئلا يتوهّم عليّ استدعاء العوض ، وكتب له بذلك صاحب خبر[٦] ، كان له في السرّ علينا ، فوقّع على ظهر كتابه إليّ ،

---

٦ صاحب الخبر : راجع حاشية القصّة ١٤٣ من هذا الكتاب .

قد علمت أنّك أمسكت عن الكتابة إليّ بما فعله نعيم ودينار ، وما كان من ردّك على نعيم ما بعث به ، لئلا أتوهّم عليك الاستدعاء للصّلة ، وقد رأيت أن تقبض لنفسك عوضاً عن ذلك مائتي ألف درهم .

قال الريّان : فلم تمضِ سبعة وعشرون يوماً ، حتّى حصل عندي سبعمائة ألف درهم[٧] .

٧ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ..

٢٣٩

المأمون بخراسان ينقلب حاله

من أشدّ الضيق إلى أفسح الفرج

وذكر في كتابه عن جبريل بن بختيشوع[١] ، في خبرٍ طويل ، أنّه سمع المأمون يقول :

كان لي بخراسان يوم عجيب ، فأولى الله فيه بإحسانه جميلاً ، لما توجّه طاهر بن الحسين[٢] إلى عليّ بن عيسى بن ماهان[٣] ، كما قد عرفتموه من ضعف طاهر وقوّة عليّ ، وَقَرَ[٤] في نفوس عسكري جميعاً ، أنّ طاهراً ذاهب ، ولحق أصحابي إضاقة شديدة ، وظهرت فيهم خلّة عظيمة ، ونفد ما كان [١٣٨ ظ] معي ، فلم يبق منه لا قليل ولا كثير ، وأفضيت إلى حال كان أصلح ما فيها الهرب ، فلم أدرِ إلى أين أهرب ، ولا كيف آخذ ، وبقيت حائراً متفكّراً .

فأنا – والله – كذلك وكنت نازلاً في دار أبوابها حديد ، ولي مستشرفات[٥] أجلس فيها إذا شئت ، وعدد غلماني ستّة عشر غلاماً ، لا أملك غيرهم ، وإذا بالقوّاد والجيش جميعاً قد شغبوا ، وطلبوا أرزاقهم ، ووافوا جميعاً يشتموني ، ويتكلّمون بكلّ قبيح .

---

١ جبريل بن بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري : طبيب هارون الرشيد . والأمين من بعده . ولما ولي المأمون سجنه . ثم أطلقه ورفع منزلته . توفي سنة ٢١٣ (الأعلام ٢/١٠٠) وله ترجمة مفصّلة في تاريخ الحكماء ١٣٢–١٤٦ .

٢ أبو الطيّب طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي . ذو اليمينين : ترجمته في حاشيه القصّة ١٠١ من الكتاب .

٣ علي بن عيسى بن ماهان . القائد العباسي : ترجمته في حاشية القصّة ١٠١ من هذا الكتاب .

٤ وقر : ثبت وبقي (أساس البلاغة للزمخشري ٢/٥٢٢) .

٥ المستشرفات : المرتفعات التي يشرف منها الانسان ويطلّ على ما تحته .

فكان الفضل بن سهل بين يديّ . فأمر بإغلاق الأبواب ، وقال لي : قم فاصعد إلى المجلس الّذي يستشرف فيه ، إشفاقاً عليّ من دخولهم ، وسرعة أخذهم إيّاي ، وتعليلاً لي بالصعود .

فقلت : القوم يدخلون الساعة ، فيأخذوني ، فلأن أكون بموضعي ، أصلح .

فقال لي : يا سيّدي اصعد ، فوالله ، ما تنزل إلّا خليفة .

فجعلت أهزأ به ، وأعجب منه . وأحسب أنّه إنّما قال ما قال ، ليسمعني[٦] . وأركنت للهرب من بعض أبواب الدار . فلم يكن إلى ذلك سبيل . لإحاطة القوم بالدار والأبواب كلّها .

فالحّ عليّ أن أصعد ، فصعدت وأنا وجِل ، فجلست في المستشرف . وأنا أرى العسكر .

فلمّا علموا بصعودي اشتدّ كلبهم ، وشتمهم ، وضجيجهم ، وبادروني بالوعيد والشتم ، فأغلظت على الفضل بن سهل وقلت له : أنت جاهل ، غررتني ، ولم تدعني أعمل برأيي . وليس العجب إلّا ممّن قَبِلَ منك ، وهو في هذا كلّه ، يحلف أنّني لا أنزل إلّا خليفة ، وغيظي عليه ، وتعجّبي من حمقه ، ومواصلة الأيمان أنّني لا أنزل إلّا خَليفة ، مع ما أشاهده ، والحال يزيد ، أشدّ عليّ ممّا أقاسيه من الجند .

ثمّ وضع القوم النار في شوك جمعوه ، وأدنوه من الدار ، ونقبوا في سورها عدّة نقوب ، وثلموا منه قطعة ، فذهبت نفسي خوفاً وجزعاً ، وعلمت أنّي بين أن أحترق ، وبين أن يصلوا إليّ فيقتلوني ، فهممت بأن ألقي نفسي إليهم . وقدّرت أنّهم إذا رأوني استحيوا منّي ، وأقصروا .

وجعل الفضل بن سهل يقبّل يدي ورجلي ، ويناشدني أن لا أفعل ، ويحلف لي أنّي لا أنزل إلّا خليفة ، وفي يده الإسطرلاب ، ينظر فيه في الوقت بعد الوقت .

---

٦ كذا في الأصل .

فلمّا اشتدّ عليّ الأمر ، واستحكم اليأس ، قال لي : يا سيّدي ، قد – والله – أتاك الفرج ، أرى شيئاً في الصحراء قد أقبل ، ومعه فرجنا ، فازددت من قوله غيظاً ، وأمرت غلماني بتأمّل الصحراء ، فلم أرَ ، ولم يروا شيئاً .

وجدّ القوم في الهدم والحريق ، حتّى هممت – لما داخلني – أن أرمي بالفضل إليهم .

فقال الغلمان : إنّا نرى في الصحراء شيئاً يلوح ، فنظرت فإذا شبح ، وجعل يزيد تبياناً ، إلى أن تبيّنوا رجلاً على بغلة ، ثمّ قرب ، فإذا هو يلوّح ، وقرب من العسكر ، وقويت له قلوبنا ، ورأى الجند ذلك فتوقّفوا ، وخالطهم ، فإذا هو يقول : البشرى ، هذا رأس علي بن عيسى بن ماهان معي في المخلاة [7] ، فلمّا رأوا ذلك أمسكوا [١١٣ ر] عنّا ، وانقلبوا بالدعاء ، والسرور بالظفر والفتح .

فقال لي الفضل بن سهل : يا سيّدي ، إئذن لي في إدخال بعضهم ، فأذنت له ، فشرط عليهم أن لا يدخل إلّا من يريد ، فأجابوا إلى ذلك ، وسمّى قوماً من القوم ، فأدخلهم .

فكان أوّل من دخل عليّ ، عبد الله بن مالك الخزاعي [8] ، فقبّل يدي ، وسلّم عليّ بالخلافة ، ثمّ أدخل القوّاد بعده ، واحداً ، واحداً ، ففعلوا مثل ذلك ، فأطفأ الله – عزّ وجلّ – النائرة ، ووهب السلامة ، وقلّدني الخلافة ، فظفرت

---

٧ كان جيش الأمين يشتمل على خمسين ألف فارس بقيادة علي بن عيسى بن ماهان ، وجيش المأمون ، أقل من أربعة آلاف فارس ، بقيادة طاهر بن الحسين ، والتقيا بالريّ ، فانكسر جيش الأمين ، وقتل قائده ، وكتب طاهر إلى المأمون بالفتح ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، كتابي إلى أمير المؤمنين ، ورأس علي بن عيسى بين يديّ ، وخاتمه في أصبعي ، وجنده مصرّفون تحت أمري ، والسلام (ابن الأثير ٢٤٥/٦) .

٨ عبد الله بن مالك الخزاعي : ترجمته في حاشية القصّة ١٣٠ من هذا الكتاب .

من أموال علي بن عيسى بن ماهان ، وما في عسكره ، بما أصلحنا به أمور جندنا .

ثمّ ذكر تمام الحديث .

وحدّثني بهذا الخبر ، أبو محمّد الحسن بن محمّد الصلحي ، قال : حدّثني أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرّة[9] ، قال : قال الفضل بن مروان : كنت مع المأمون ، وقد خرج إلى نواحي الإسحاقي ليتصيّد في [١٣٩ ظ] جماعة من عسكره قليلة ، فذكر هذا الخبر بطوله ، وصدره وعجزه على ما في كتاب ابن عبدوس ، ممّا لم أذكره ، فذكر فيه هذه القطعة من الخبر ، على قريب ممّا هي مذكورة هاهنا[10] .

---

٩ أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرّة الحراني الطبيب : كان طبيب المقتدر . وكان المقتدر فرض أن ليس لأيّ طبيب ببغداد أن يزاول مهنته ، إلاّ بإذن من سنان يطلق له فيه مزاولة المهنة ، على أن يعيّن له ما يصلح أن يتصرّف فيه (يعني الاختصاص) . وقد أحصي عدد الأطباء في ذلك الوقت ممن أجيز بمزاولة المهنة ، في جانبي بغداد ، فبلغ عددهم ثمانمائة ونيف وستّون رجلاً ، سوى من استغني عن امتحانه لاشتهاره بالتقدّم في صناعته ، وسوى من كان في خدمة السلطان ، إذ لم يدخل هؤلاء تحت الإحصاء ، وإليه كتب الوزير أبو الحسن علي بن عيسى بأن يفرد أطباء يدخلون إلى المسجونين في كلّ يوم ويحملون معهم الأدوية والأشربة ، وكتب إليه مرة أخرى بأن ينفذ أطباء ومعهم خزانة أدوية وأشربة إلى خارج بغداد يطوفون بالسواد ، ويقيمون في كلّ صقع منه مدّة ما تدعو الحاجة لإقامتهم لمعالجة من فيه ، وهو ما يسمى اليوم بالمستوصفات السيّارة . وبناء على إشارته أنشأ المقتدر بيمارستانًا (مستشفى) بباب الشام ، سمّي البيمارستان المقتدري ، وفي نفس السنة أنشأت السيّدة أمّ المقتدر بيمارستانًا آخر ، سمّي باسمها ، تولّت هي الصرف عليه من مالها ، راجع في ترجمة سنان ، في كتاب تاريخ الحكماء ١٩٠–١٩٥ النصيحة التي أسداها لأمير الأمراء بجكم التركي في تدبير صحّته وتصرّفاته .

١٠ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ .

٢٤٠

طلب الولاية على بز بندات

البحر وصدقات الوحش

وذكر أيضاً في كتابه ، قال : حدّثني محمّد بن مخلد ، وكان يلقّب لبد ، لطول عمره[١] ، وروى عنه المدائنيّ الكاتب ، عن أبيه مخلد بن يزيد :

أنّ المأمون ، أوّل ما قدم العراق ، خطر له أن يقلّد الأعمال ، الشيعة الذين قدموا معه من خراسان . فطالت عطلة كتّاب السواد وعمّاله ، وكانوا يحضرون داره في كلّ يوم ، حتّى ساءت أحوالهم .

فخرج يوماً بعض مشايخ الشيعة ، وكان مغفّلا ، فتأمّل وجوههم ، فلم ير فيهم أسنّ من مخلد بن يزيد ، فجلس إليه ، وقال له : إنّ أمير المؤمنين أمرني أن أتخيّر ناحية من نواحي الخراج ، صالحة المرفق ، ليوقّع بتقليدي إيّاها ، فاختر لي ناحية .

---

١ إنّ تلقيب من طال عمره ، لبد ، يستند إلى قصّة متداولة ، وهي أنّ لقمان ، عاش عمر سبعة نسور ، كلما هلك واحد ، خلفه آخر ، عمر كلّ نسر ثمانون سنة ، وهلك منها ستة ، وكان السابع لبد ، فكان لقمان يقول له : إنهض لبد ، قال أبو السري الخزرجي في معاذ بن مسلم النحوي (وفيات الأعيان ٥/٢١٨ و ٢١٩ ، والحيوان للجاحظ ٣/٤٢٣ و ٤٢٤ و ٦/٣٢٧ و ٣٢٨) .

إنّ معاذ بن مسلم رجلٌ ليس لميقات عمره أمد
قد شاب رأس الزمان واكتهل الـ ـدهر وأثواب عمره جدد
يا بكر حواء كم تعيش وكم تسحب ذيل الحياة يا لبد
قد أصبحتْ دار آدم خربت وأنت فيها كأنّك الوتد
تسأل غربانها إذا حجلت كيف يكون الصداع والرمد

فقال : لا أعرف لك عملاً أولى بك من بزبندات[٢] البحر ، وصدقات الوحش .

فقال له : أكتبه لي ، فكتبه له مخلد ، فعرض الشيعيّ الرقعة على المأمون ، وسأل تقليده ذلك العمل .

فقال له : من كتب لك هذه الرقعة ؟

فقال : شيخ من الكتّاب ، يحضر الدار في كلّ يوم .

فقال : هلمّه .

فلمّا دخل ، قال له المأمون : ما هذا يا جاهل ؟ تفرّغت لأصحابي[٣] ؟

فقال له : يا أمير المؤمنين ، أصحابنا هؤلاء ثقات يصلحون لحفظ ما يصل إلى أيديهم من الخزائن والأموال ، وأما شروط الخراج ، وحكمه ، وما يجب تعجيل استخراجه ، وما يجب تأخيره ، وما يجب إطلاقه ، وما يجب منعه ، وما يجب إنفاقه ، وما يجب الإحتساب به ، فلا يعرفونه ، وتقليدهم يعود بذهاب الإرتفاع ، فان كنت يا أمير المؤمنين لا تثق بنا ، فضمّ إلى كلّ واحد منهم رجلاً منّا ، فيكون الشيعيّ يحفظ المال ، ونحن نجمعه .

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه ، وأمر بتقليد عمّال السواد وكتّابه ، وأن يضمّ إلى كلّ واحد منهم ، واحداً من الشيعة ، وضمّ مخلد إلى ذلك الشيخ ، وقلّده ناحية جليلة[٤] .

---

٢ في ظ : ترندات ، وفي هـ ٢/٨ : بريدات ، وقال ميخائيل عوّاد : هي البزندات ، ويقصد بها الحواجز التي توضع في وجه الماء لتصدّه ، وتحمي الشاطئ من التأكّل ، ومن طغيان الماء على ما خلفه من الأراضي والزروع ، وإنّها في العراق تسمّى : المسنّيات ، مفردها : مسنّاة ، والسكور ، مفردها : سكر ، بكسر السين ، وفي مصر ، تسمّى : الجسور ، أقول : إسمها الصحيح : بزبندات ، فارسيّة ، بند : بمعنى سدّ ، وبز : بمعنى قاعدة (المعجم الذهبي) .

٣ سبب غضب المأمون على مخلد ، لأنّه هزأ بالخراساني ، إذ لا تبنى سدود أو مسنّيات على البحر ، ولا تفرض صدقة على الوحش .

٤ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا في ر .

٢٤١
المنصور يقتل مؤدّب ولده جعفر ظلماً

وذكر في كتابه :

أنّ المنصور ضمّ رجلاً يقال له فضيل بن عمران[١] الكوفي إلى جعفر ابنه[٢] ، يكتب له ، ويقوم بأمره .

وكانت لجعفر حاضنة تعرف بأمّ عبيدة ، فثقل عليها مكان فضيل ، فسعت به إلى أبي جعفر ، وادّعت عنده أنّه يلعب بجعفر ، فبعث المنصور ، مولاه الريّان[٣] ، وهارون بن غزوان ، مولى عثمان بن نهيك[٤] ، إلى الفضيل ، وأمرهما بقتله ، وكتب لهما منشوراً بذلك ، فصارا إليه فقتلاه .

---

١ سماه صاحب تاريخ الموصل ص ١٩٨ : الفضيل بن غزوان .

٢ جعفر بن أبي جعفر المنصور : أكبر أولاد المنصور ، وبه يكنّى ، وهو والمهدي من أمّ واحدة ، ويقال له جعفر الأكبر ، تمييزاً له عن جعفر آخر من أولاد المنصور ، هو ابن الكرديّة (الأغاني ٨١/٦) ويقال له جعفر الأصغر ، وكان جعفر الأكبر خليعاً ماجناً ، وكان يصرع في اليوم مرات ، وكان يزعم إنّه يعشق امرأة من الجنّ ، وهو مجتهد في خطبتها ، وجمع أصحاب العزائم عليها ، وهم يغرونه ، ويعدونه بها ، ويمنّونه (الأغاني ٢٨٨/١٣ و ٢٨٩) ولذلك فإنّ المنصور قدّم عليه المهدي ، وبايعه بولاية العهد ، فغضب جعفر ، راجع ما قاله في هذا الموضوع ، في الأغاني ٢٨٧/١٣ ، ومات جعفر في حياة أبيه ، فحزن عليه حزناً شديداً ، ولما عاد من دفنه طلب من أنشده قصيدة أبي ذؤيب في رثاء أولاده وهي التي مطلعها : أمن المنون وريبها تتوجّع (الأغاني ٢٧٢/٦ و ٢٨٨/١٣) .

٣ الريّان مولى المنصور : يظهر أنّه كان أحد جلاديه أيضاً ، فقد بعثه لقتل مؤدّب ولده جعفر ، وبعثه إلى البصرة لقتل المغيرة بن الفزع ، أحد المستأمنين (العيون والحدائق ٢٥٥/٣) وكان أثيراً لدى المنصور ، حتى إنّه كان أحد من نزل في قبره عند دفنه (ابن الأثير ٢٢/٦) .

٤ أبو يزيد عثمان بن نهيك : من قوّاد الدّولة العباسيّة ، كان قائد حرس المنصور ، وهو أوّل من ضرب بسيفه أبا مسلم ، لما أراد المنصور قتله ، ولما ثار الراوندية على المنصور في السنة ١٤١ أصيب بين كتفيه بسهم ، فرض ومات (الطبري ٣٦٢/٧ ، ٣٨٩ ، ٤١٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٦٢ ، ٤٨٨–٤٩١ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ وابن الأثير ٣٨٦/٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣) .

وكان الفضيل ديّناً ، عفيفاً ، فقيل للمنصور في ذلك ، وأنّه أبرأ النّاس ممّا قُرِفَ به ، فأحضر المنصور غلاماً من غلمانه ، وجعل له عشرة آلاف درهم ، إن أدركه قبل أن يقتل ، فصار إليه ، فوجده قد قتل ، ولم يجفّ دمه .

واتّصل خبر قتله بجعفر بن أبي جعفر ، فطلب الريّان ، فلمّا جيئ به ، قال له : ويلك ، ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل مسلم بغير جرم ؟

فقال له الريّان : هو أمير المؤمنين ، يفعل ما يشاء .

فقال له جعفر : يا ماصّ بظر أمّه ، أكلّمك بكلام الخاصّة ، فتكلّمني بكلام العامّة ؟ جرّوا برجله ، فألقوه في دجلة .

قال الريّان : فأخذوا – والله – برجلي ، فقلت : أكلمك بكلمة ، ثمّ اعمل ما شئت .

فقال : ردّوه ، فرددت ، فقال : قل .

فقلت له : أبوك إنّما يسأل عن قتل فضيل بن عمران وحده ؟ ومتى يسأل عنه ، وقد قتل عمّه عبد الله بن علي[5] ، وقتل عبد الله بن الحسن ، وعشرات من أولاد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[6] ، وقد قتل من أهل الدنيا ما لا يحصى

---

٥ عبد الله بن علي بن عبد الله بن العبّاس (١٠٣–١٤٧) : عمّ المنصور ، من أعاظم القوّاد ، هزم مروان الحمار بالزاب ، وتبعه إلى دمشق ، وقتل من أعيان بني أميّة بالرملة ثمانين رجلاً ، وظل أميرًا على الشام مدّة خلافة ابن أخيه السفّاح ، وكان يؤمّل أن يخلفه ، فلما خلفه المنصور ، ثار عليه ، فانتدب المنصور له أبا مسلم الخراساني ، وانكسر جيش عبد الله ، وفرّ هو إلى إخوانه بالبصرة ، فأمنه المنصور ، واعتقله ، وأسكنه في دار أساسها من الملح ، وأجرى عليه الماء فانهدم البيت عليه (ابن الأثير ٥٨٢/٥ والاعلام ٢٤١/٤ والعيون والحدائق ٢٥٨/٣ وخلاصة الذهب المسبوك ٧٧) ، وفي مروج الذهب ٢٤١/٢ إنّه قتل خنقًا ، وخنقت معه جارية له ، ثم وضعا في الفراش متعانقين ، وهدم عليهما البيت .

٦ راجع ما صنعه المنصور بآل الحسن في حاشية القصّة ٣١٨ من هذا الكتاب .

ولا يعدّ[7] ، هو إلى أن يسأل عن فضيل بن عمران جوشانة[8] تحت خصى فرعون . قال : فضحك ، وقال : خلّوا عنه ، لعنه الله ، فأفلتُّ منه[9] .

---

٧ سأل المنصور ابن أبي ذؤيب : ناشدتك الله أيّ الرجال أنا عندك ؟ فقال : أنت – والله – عندي شرّ الرجال ، لأنّك استأثرت بمال الله ورسوله ، وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين ، وأهلكت الضعيف ، وأتعبت الأقوياء في أموالهم ، وسفكت الدماء في غير حقّها ، فما حجّتك ؟ فقال أبو جعفر : ويحك ، أتعقل ؟ أنظر ما أمامك ، قال : نعم ، قد رأيت أسيافًا ، وإنّما هو الموت ، ولا بدّ منه ، فما لا بدّ منه ، عاجله خير من آجله (واسطة السلوك في سياسة الملوك ٢٧) ، ولما ثقل المنصور ، وهو في طريقه إلى مكّة ، قال للربيع : بادر بي إلى حرم ربّي وأمنه ، هاربًا من ذنوبي ، وإسرافي على نفسي (الطبري ٨/١١٤) ودخل سفيان الثوري على المهدي بمكّة ، فوعظه وشدّد عليه ، فقال المهدي : لو كان المنصور حيًّا ، ما احتمل هذا الكلام منك ، فقال سفيان : لو أخبرك المنصور بما لقي ، ما استقرّ بك مجلسك (البصائر والذخائر ج ٢ ق ٢ ص ٨١٤ و ٨١٥) .

٨ في الأصل جوذابة ، وفي الطبري ٨/١٠٠ جردانة ، وأحسب أنّ الصحيح ما أثبتناه : جوشانة ، من جوش الفارسيّة : حبوب تظهر على الجلد مثل حبّ الشباب (المعجم الذهبي) .

٩ لم ترد القصّة في م ، ولا في غ ، ووردت في الطبري ٨/١٠٠ مبتورة وفي تاريخ الموصل لابن أياس ص ١٩٨ .

٢٤٢
مالك بن طوق يتزوّج المهناة بنت الهيثم الشيباني

وجدت في كتاب أبي الفرج الحنطي المخزومي الكاتب : أنّ محمّد [١٤٠ ظ] بن عبد الحميد الجشمي قال :

حججت سنة ثلاث وأربعين ومائتين ، فأنا في بعض المنازل راجعاً ، إذ رأيت فقراء بالبادية يستميحون[1] ، فوقفَتْ منهم عليّ جارية تتصدّق ، بوجه كأنّه القمر حين استدار ، أو كقرن الشمس حين أنار ، فرددت طرفي عنها ، واستعذت بالله من الفتنة بها ، فلم تزل تذهب وتجيء ، فيما بين رجال الحجّ ، وتعود إلى رحلي ، فوقفَتْ .

فقلت لها : أما تستحين أن تبدين هذا الوجه في مثل هذا الموضع ، بحضرة الخلائق .

فلطمت وجهها ، وقالت :

لم أبده حتّى تقضّت حيلتي ... فبذلته وهو الأعزّ الأكرم
ويعزّ ذاك عليّ إلّا أنّه ... دهرٌ يجور كما تراه ويظلم
قد صنته وحجبته حتّى إذا ... لم يبق لي طمع ومات الهيثم
أبرزته من حجبه مقهورةً ... والله يشهد لي بذاك ويعلم
كشف الزمان قناعه في بلدة ... قلّ الصديق بها وعزّ الدرهم
أصبحت في أرض الحجاز غريبة ... وأبو ربيعة أسرتي ومحلّم

قال : فأعجبني ما رأيت من جمالها ، وفصاحتها ، وأدبها ، وشعرها ، فبرزتها ، وقلت لها : ما اسمك ؟

---

١ المليح : إغتراف الماء بالكفّ ، ومنه اشتقّت الاستماحة ، أي طلب العطاء .

قالت : أنا المهنّاة بنت الهيثم الشيباني ، وكان أبي جاراً لبني فزارة ، فاعتلّ ، واستنفد ماله ، وتوفّي ، وتركني فقيرة ، فاحتجت إلى التكفّف[2] .

قال : ورحلنا ، فلمّا صرنا بالرحبة ، دخلت إلى مالك بن طوق[3] مسلّماً ، فسألني عن طريقي وسفري ، وما رأيته من الأعاجيب فيه ، فحدّثته بحديث الجارية ، فأعجب به ، واستطرف الأبيات ، وكتبها منّي ، ورحلتُ الى منزلي بالشام .

فلمّا كان بعد أيّام من اجتماعنا ، أتاني رسوله يستزيرني ، فصرت إليه ، فبينما أنا جالس عنده يوماً ، فإذا خادمان قد جاءا معهما أكياس مختومة ، ونحوت ثياب مشدودة ، فوضعاها بين يديّ .

فقلت لمالك : ما هذا ؟

---

٢ التكفّف : مدّ الكفّ إلى الناس للاستعطاء .

٣ أبو كلثوم مالك بن طوق بن عتّاب التغلبي : أمير ، فارس ، جواد ، فصيح ، شاعر (الأعلام ١٣٧/٦) ، بنى الرحبة في خلافة المأمون (معجم البلدان ٧٦٤/٢ ومراصد الاطلاع ٦٠٨/٢) وإليه تنسب ، وولّي أمرة دمشق للمتوكّل في السنة ٢٣٢ (فوات الوفيات ٢٩٤/٢ ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٤٣) ولما اختصم المستعين والمعتز ، كان في جانب المستعين (الطبري ٢٨٧/٩ وابن الأثير ١٤٢/٧ وتجارب الأمم ٥٧٩/٦) وتوفّي في الرحبة سنة ٢٦٠ (ابن الأثير ٢٧٤/٧) أقول : أورد ياقوت رحمه الله في معجم البلدان ٧٦٤/٢ عند حديثه عن الرحبة ، قصّة خلاصتها أنّ مالك بن طوق كان من ندماء الرشيد ، وأنّه رافقه في حرّاقة في الفرات ، وأنّ الرشيد منحه أرض الرحبة ، فبناها ، وأنّه عصى بعد ذلك على الرشيد ، فحاربه ، وأسره ، ثم منّ عليه وأطلقه ، ونقل عنه القصّة صاحب فوات الوفيات في ترجمة مالك بن طوق ٢٩٤/٢ ، وهذا القول لا يعلق بقبول ، فإنّ من ينادم هارون الرشيد لا بد أن يكون قد تجاوز العشرين ، وآخر مرّة مرّ فيها الرشيد بالفرات ، في السنة ١٩٠ لما غزا الصائفة (الطبري ٣١٩/٧) وحيث أنّ مالك بن طوق توفي في السنة ٢٦٠ فيقتضي أن يكون قد تجاوز التسعين من عمره ، يضاف إلى ذلك أنه لا يوجد ذكر للرحبة في كتب التاريخ في أيّام الرشيد مطلقًا ، والقصّة والشعر اللذان أوردهما ياقوت وصاحب فوات الوفيات ، حصلت بين المعتصم وبين أحد الخارجين عليه ، وهو تميم بن جميل السدوسي ، راجع القصّة رقم ٣٩٣ من هذا الكتاب ، وكتاب المستجاد من فعلات الأجواد ١١٧-١١٩ .

قال : هذا حقّ دلالتك على المهنّاة بنت الهيثم الشيباني ، الّتي أظفرني الله منها بما كانت أمنيتي تقصر عنه ، وهي أنفذت إليك بهذا من مالها ، ولك من مالي ضعفه .

فقلت : كيف كان خبرها ؟

فقال : إنّك لما انصرفت ، أنفذتُ رسلاً إلى البادية ، أثق بعقولهم وأمانتهم ، فما زالوا يسألون عنها ، حتّى ظفروا بها ، فحملوها ، ووليّها معها ، فتزوّجتها ، فرأيت منها ما زاد على ما كان زرعه حديثك عنها في نفسي ، وقد افضتُ عليها من دنياي ، بحسب تمكّنها من قلبي ، [١١٤ ر] فسألتني عن سبب طلبي إيّاها ، فأخبرتها بخبرك ، وكتبت أستزيرك لأعرّفك هذا ، وأقضي حقّك ، وقد أمرت لك بعشرين ألف درهم ، وعشر تخوت ثياب .

قال عبد الحميد : وكانت أمّ عدّة من أولاده [٤] .

---

٤ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ .

٢٤٣
بين ابن أبي البغل عامل أصبهان
وأحد طلّاب التصرّف

حدّثني أبو القاسم سعد بن عبد الرحمن الأصبهاني[١] ، قال :

كان أبو الحسين بن أبي البغل[٢] يتقلّد بلدنا[٣] ، فقدم عليه شيخ من الكتّاب يطلب التصرّف ، وأورد عليه كتباً من الحضرة ، يذكرون فيها طول عطلته ، ومحلّه من الصناعة ، ويسألونه تصريفه ، فسلّم إليه الكتب ، فتركها ابن أبي البغل بين يديه ، وكانت كثيرة ، وكان فيه حدّة وضجرة ، فاستكثرها ، وفضّ منها واحداً ، فقرأه ، وأقبل على شغله ، من غير أن يقرأ باقي الكتب .

فقال له الرجل : إن رأيت أن تقف على باقي الكتب .

فضجر ، وتغيّظ ، وقال : أليس كلّها في معنى واحد ؟ قد — والله — بلينا بكم يا متعطّلين ، كلّ يوم يصير إلينا منكم واحدٌ يريد تصرّفاً ، لو كانت

---

١ أبو القاسم سعد بن عبد الرحمن الأصبهاني : ذكره التنوخي في كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة في القصص ٥٦/١ و ٧٨/٢ و ٧٩/٢ وفي القصّة ١٥٦/٣ قال عنه : إنّه ضمن عمالة البصرة من الوزير المهلّبي ، في شركة ابن أخته أبي علي الحسن بن علي بن مهدي الأصبهاني ، وأبي الحسين أحمد بن محمد بن عبدالله بن الحسين الأهوازي .

٢ أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى ، المعروف بابن أبي البغل : من كبار العمال في الدولة العباسيّة ، كان عاملاً على أصبهان ، ورغب في الوزارة ، وتوسّطت له أمّ موسى القهرمانة ، وأحسّ الخاقاني الوزير بذلك ، فقبض عليه ، واستنقذته أمّ موسى ، فأعيد إلى أصبهان ، ولما قبض على أمّ موسى ، صرف عن عمله ، وصودر أوّلاً ، وثانيًا ، واعتقل ، وكان في خشية القتل لما ورد الخبر بعزل الوزير ابن الفرات فكتب في تقويم لديه : اليوم ولد محمد بن أحمد بن يحيى (يعني نفسه) وله إحدى وثمانون سنة (تجارب الأمم ٢١/١ ، ٤٣ ، ٨٤ ، ١٤٠ ، والوزراء ٥١-٣٨٢) .

٣ في ظ : البصرة ، والتصحيح من هـ ومن القصّة ٧٨/٢ من نشوار المحاضرة .

خزائن الأرض لي ، لكانت قد نفدت ، يا هذا ، مالك عندي تصرّف ، ولا عمل شاغر [4] فأردّه إليك ، ولا في مالي فضل فأبرّك ، فدبّر أمرك بحسب ذلك ، هذا والرجل ساكت .

فلمّا سكن ابن أبي البغل ، قام الرّجل ، وقال : أحسن الله جزاءك [١٤١ ظ] وفعل بك وصنع ، وأسرف في الشكر والدّعاء له ، وولّى منصرفاً .

فقال ابن أبي البغل : ردّوه ، فرجع .

فقال له : يا هذا ، هوذا تسخر منّي ، على أيّ شيءٍ تشكرني ؟ على إياسي لك من التصرّف ، أو على قطع رجائك من الصّلة ، أو قبيح ردّي لك ، أو ضجري عليك ؟ أم تريد خدعتي بهذا الفعل ؟.

فقال : والله ، ما أريد خداعك ، وما كان منك من قبيح الردّ فغير منكر ، لأنّك سلطان ، ولحقك ضجر ، ولعلّ الأمر كما ذكرته من كثرة الواردين عليك ، وقد بَعِلتَ [5] بهم ، واتّفق لقوّة نحسي ، أن كان هذا الرد القبيح وقع في بابي ، ولم أشكرك إلّا في موضع الشكر ، لأنّك صدقتني عمّا في نفسك من أوّل وهلة ، وأعتقت عنقي من رقّ الطمع ، وأرحتني من التعب بالغدوّ والرواح إليك ، وخدمة قوم أستشفع بهم إليك ، وكشفت لي ما أدبّر به نفسي ، وكسوتي جديدة ، وبقيّة نفقتي معي ، ولعلّي أتحمّل بها إلى بلد آخر ، في وجه أحد سواك .

قال : فأطرق ابن أبي البغل ، ومضى الرّجل ، فرفع رأسه ، فاستدعاه ، واعتذر اليه ، وأمر له بصلة ، وقال له : خذ هذه ، إلى أن أقلّدك ما يصلح لك ، فإنّي أرى فيك مصطنعاً .

فلمّا كان بعد أيّام قلّده عملاً جليلاً ، وصلحت حال الرّجل معه [6] .

---

٤ العمل الشاغر : الخالي ممن يقوم به ، والأرض الشاغرة : الخالية ممّن يضبطها ويحميها .

٥ بعل : تحيّر ، فلم يدر ما يصنع .

٦ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي برقم ٧٨/٢ ، ولم ترد في م ولا في غ .

٢٤٤
بين جحظة البرمكي ومحبرة بن
أبي عبّاد الكاتب

حدّثني أبو الفرج الأصبهاني ، عن جحظة[١] ، أنّه قال :

اتّصلت عليّ إضاقة ، حتّى بعت فيها كلّ ما أملك ، وبقيتُ وليس في داري غير البواري ، فأصبحت يوماً أفلس من طنبور مقطّع الأوتار[٢] ، ففكّرت في الحيلة ، فوقع لي أن أكتب إلى محبرة الكاتب[٣] ، وكنتُ أجاوره بالبصرة ، وكان منقرساً[٤] ، يلازم بيته ، حتّى صار لا يمكنه الحركة ، إلّا أن يحمل في محفّـة[٥] ، وكان ظريفاً ، عظيم النعمة ، كثير الشرب والقصف ، فأتطايب عليه ، ليدعوني ، أو يبرّني بشيء ، فكتبت إليه :

١ أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي ، المعروف بجحظة (٢٢٤–٣٢٤) : برمكي ، كاتب ، شاعر ، مغنّ حاذق ، طنبوري فائق ، قبيح الوجه ، لقّب بجحظة ، لجحوظ عينيه ، لقّبه به عبد الله بن المعتز ، وقال فيه ابن الرومي :

نبّئتُ جحظة يستمدّ جحوظَه ... من فيل شطرنج ومن سرطان

وارحمتا لمنادميه تحمّلوا ... ألم العيون للذّة الآذان

(معجم الأدباء ٣٨٣/١ ووفيات الأعيان ١٣٤/١) ، راجع في كتاب قطب السرور ص ١٦٢–١٦٥ قصّته مع الشابّة البغداديّة التي أقسمت أن تبذل نفسها لأقبح الناس وجهًا ، وراجع بقيّة أخباره في نشوار المحاضرة ٩٤/٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٥١ ، و١٥/٤ ، ٩٠ ، ٩١ و١٠٥/٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ و ٦٧/٧ .

٢ المثل البغداديّ المشهور : أفلس من طنبور بلا وتر .

٣ أبو جعفر محمد بن يحيى بن أبي عباد جابر بن يزيد بن الصباح العسكري ، المعروف بمحبرة الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ١٩٩ من الكتاب .

٤ النقرس : ورم يحصل في مفاصل القدم وإبهامها .

٥ المحفّة ، بكسر الميم وفتح الحاء : سرير يحمل عليه المريض أو المسافر .

ماذا ترى في جُدَيٍّ[6] وبرمةٍ[7] وبوارد[8]
وقهوة[9] ذات لون يحكي خدود الخرائد
ومُسمِعٍ[10] يتغنّى من آل يحيي بن خالد
إنّ المضيع لهذا نزر المروءة بارد

قال : فما شعرت إلّا بمحفّة محبرة ، يحملها غلمانه ، إلى داري ، وأنا جالس على بابها .

فقلت : لِمَ جئت ، ومن دعاك ؟

قال : أنت [١١٥ ر] .

قلت : إنما قلت ماذا ترى ، وعنيت في منزلك ، ولم أقل أنّه عندي ، وبيتي – والله – أفرغ من فؤاد أمّ موسى .

فقال : قد جئتُ الآن ، ولا أرجع ، ولكن أحضر من داري ، ما أريد .

فقلت : ذاك إليك ، فدخل الدار ، فلم ير فيها إلّا بارية .

فقال : يا أبا الحسن ، هذا والله فقر مدقع .

فقلت : هو ما ترى .

---

٦ الجديّ : تصغير الجدي ، وهو ابن المعز في السنة الأولى (كتاب التلخيص للعسكري ٦٢٣/١) ويسمّيه البغداديّون : قوزي ، أحسبها تركية .

٧ البرمة : القدر من الحجر (المنجد) ، وربما سمّي بهذا الإسم طعام يصنع في ذلك القدر ، أو أنّه البرمة المعروفة الآن في بغداد ، وهي حلوى تتّخذ من الجوز والسكر وتلفّ في رقاقة فتكون كالإصبع .

٨ البوارد : الألوان التي تؤكل باردة ، ذكر بعضها صاحب كتاب الطبيخ ٥٦–٥٩ ومنها البزماورد المسمّى الآن بالساندويج (القصّة ٤٩٢ من هذا الكتاب) والوسط (القصّة ١٨٥ من الكتاب) .

٩ القهوة : الخمر ، وقد أصبح هذا الإسم الآن مقصوراً على شراب البنّ ، واشتقّ منه إسم المقهى ، وهو الموضع الذي تشرب فيه القهوة .

١٠ المسمع : المغنّي ، والسماع : الغناء ، إلاّ أنّ كلمة السماع ، تكاد تكون مقصورة على الغناء الذي يحصل في حلقات الأذكار عند الصوفية .

فانفذ إلى داره ، فجاءوه بفرش حسنة ، وآلة ، وقماش ، وآنية ، وطعام كثير من مطبخه ، وألوان الأشربة ، والفواكه ، والمشامّ ، وعبّي المجلس ، وفرش الفرش ، وجلس يومه يشرب على غنائي وغناء مغنّية دعوتها له كانت تألفني .

فلمّا كان من الغد ، سلّم اليّ غلامه كيساً فيه ألفا درهم ، ورزمة ثياب صحاحاً ومقطوعة ، من فاخر الثياب ، واستدعى محفّته فجلس فيها ، وشيّعته .

فلمّا بلغ آخر الصّحن ، قال : مكانك يا أبا الحسن ، فكلّ ما في دارك هو لك ، فلا تدع أحداً يأخذ منه شيئاً .

وقال للغلمان : اخرجوا بين يديّ ، فخرجوا ، وأغلقت بابي على قماش يساوي ألوفاً كثيرة[11] .

١١ وردت القصّة في نشوار المحاضرة ٩٠/٤ وفي المنتظم ٢٨٤/٦ ولم ترد في م ولا في غ .

٢٤٥
تاجر خراساني يجد الفرج
عند صاحبه الكرخي

حدّثني عبيد الله بن محمّد العبقسي ، عن بعض تجّار الكرخ ببغداد ، قال :

كنت أعامل رجلاً من الخراسانيّة ، أبيع له في كلّ موسم متاعاً ، فأنتفع من سمسرته بألوف دراهم .

فلمّا كان سنة من السنين تأخّر عنّي ، فأثّر ذلك في حالي ، وتواترت عليّ محنٌ ، فأغلقت دكّاني [١٤٢ ظ] وجلست في بيتي ، مستتراً من دين لحقني ، أربع سنين .

فلمّا كان في وقت الحاجّ ، تتبّعت نفسي خبر الخراساني ، طمعاً في إصلاح أمري به ، فمضيت إلى سوق يحيى[1] ، فلم أعط له خبراً ، فرجعت ، فنزلت الجزيرة وأنا تعب مغموم .

---

١ سوق يحيى : محلّة ببغداد ، في الجانب الشرقي ، منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكي ، أقطعه إيّاها الرّشيد ، وانتقلت إلى أمّ جعفر ، ثم إلى طاهر بن الحسين ، وخربت عند ورود السلاجقة إلى بغداد ، وتقع بين الرصافة (منطقة المقبرة الملكية الآن) ودار المملكة (أي المخرِّم الّتي هي الآن العلوازية) ، راجع معجم البلدان ١٩٥/٣ ، وحيث أنّه تقع شمالي المخرِّم محلّة باب الطاق (هي الآن الصرافية) ، فتكون محلّة سوق يحيى ، واقعة على دجلة شمالي باب الطاق (الصرافية) ، بينها وبين الرصافة (منطقة المقبرة الملكيّة) ، ويظهر من القصّة أنّه كان في النهر مقابل محلّة سوق يحيى ، جزيرة يرتادها النّاس للسباحة ، أقول : هذه الجزيرة كانت واسعة المساحة ، يقابلها من جهة الغرب الحريم الطاهري ، الذي كان يقيم فيه أمير بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر (الطبري ٢٨٣/٩ ، ٣٠٧) وفيها كان عامة بغداد يجتمعون ويتظاهرون ضدّ أميرهم (الطبري ٣٢٧/٩) وفيها صلّى المستعين صلاة العيد لما كان محصوراً ببغداد في السنة ٢٥١ (الطبري ٣٤٣/٩) .

وكان يوماً حاراً ، فنزلت إلى دجلة ، فتغسّلت ، وصعدت ، فابتلّ موضع قدمي ، فقلعت رجلي قطعة من الرمل ، انكشفت عن سيرٍ[2] .

فلبست ثيابي ، وجلست مفكّراً أولع بالسير ، فلم أزل أجرّه حتّى ظهر لي هميان[3] موصول به ، فأخذته ، فإذا هو مملوء دنانير ، فأخفيته تحت ثيابي ، ووافيت منزلي ، فإذا فيه ألف دينار .

فقويت نفسي قوّة شديدة ، وعاهدت الله عزّ وجلّ ، أنّه متى صلحت حالي ، وعادت ، أن أعرّف الهميان ، فمن أعطاني صفته ، رددته عليه .

واحتفظت بالهميان ، وأصلحت أمري مع غرمائي ، وفتحت دكّاني ، وعدت إلى رسمي من التجارة والسمسرة ، فما مضت إلّا ثلاث سنين حتّى حصل في ملكي ألوف دنانير .

وجاء الحُجّ[4] ، فتتبّعتهم لأعرّف الهميان ، فلم أجد من يعطيني صفته ، فعدت إلى دكّاني .

فبينما أنا جالس ، إذا رجل قائم حيال دكّاني ، أشعث ، أغبر ، وافي السبال[5] ، في خلقة سؤّال الخراسانيّة[6] وزيّهم ، فظننته سائلاً ، فأومأت إلى دريهمات لأعطيه ، فاسرع الإنصراف ، فارتبت به ، فقمت ، ولحقته ، وتأمّلته ، فإذا هو صاحبي الّذي كنت أنتفع بسمسرته في السنة بألوف دراهم .

فقلت له : يا هذا ، ما الذي أصابك ؟ وبكيت رحمة له .

فبكى ، وقال : حديثي طويل .

---

٢ السير : قدّة من الجلد مستطيلة ، ما زال هذا اسمها ببغداد .

٣ الهميان : فارسية : حزام عريض يودع في باطنه المال ويشدّ على الوسط ، ما زال هذا اسمه ببغداد .

٤ الحجّ : بضم الحاء وتشديد الجيم ، الحجّاج والحجيج ، مفردها : حاجّ .

٥ وافي السبال : يريد أنّه لم يقص شيئًا من شاربه ، وتركه يدور حول فه ، ويتهدّل على شفتيه .

٦ السؤّال : جمع سائل ، وهو الشحّاذ .

فقلت : البيت ، وحملته إلى منزلي ، فأدخلته الحمّام ، وألبسته ثياباً نظافاً ، وأطعمته ، وسألته عن خبره .

فقال : أنت تعرف حالي ونعمتي ، وإنّي أردت الخروج إلى الحجّ في آخر سنة جئت إلى بغداد ، فقال لي أمير البلد : عندي قطعة ياقوت أحمر كالكفّ ، لا قيمة لها عظماً وجلالةً ، ولا تصلح إلّا للخليفة ، فخذها معك ، فبعها لي ببغداد ، واشتر لي من ثمنها متاعاً طلبه ، من عطر ، وطرف ، بكذا وكذا ، وأحمل الباقي مالاً .

فأخذت القطعة الياقوت ، وهي كما قال ، فجعلتها في هميان جلد ، من صفته كيت وكيت ، ووصف الهميان الّذي وَجَدْتُهُ ، وجعلتُ في الهميان ألف دينار عيناً من مالي ، [١١٦ ر] وحملته في وسطي .

فلمّا جئت إلى بغداد ، نزلت أسبح عشيّاً في الجزيرة الّتي بسوق يحيى ، وتركت الهميان وثيابي بحيث ألاحظها .

فلمّا صعدت من دجلة ، لبست ثيابي عند غروب الشمس ، وأنسيت الهميان ، فلم أذكره إلى أن أصبحت ، فعدت أطلبه ، فكأنّ الأرض ابتلعته .

فهوّنت على نفسي المصيبة ، وقلت : لعلّ قيمة الحجر ثلاثة آلاف دينار ، أغرمها له .

فخرجت إلى الحجّ ، فلمّا رجعت ، حاسبتك على ثمن متاعي ، واشتريت للأمير ما أراده ، ورجعت إلى بلدي ، فأنفذت إلى الأمير ما اشتريته ، وأتيته ، فأخبرته بخبري .

وقلت له : خذ منّي تمام ثلاثة آلاف دينار ، عوضاً عن الحجر .

فطمع فيّ ، وقال : قيمته خمسون ألف دينار ، وقبض عليّ ، وعلى جميع ما أملكه من مال ومتاع ، وأنزل بي صنوف المكاره ، حتّى أشهد عليّ في جميع

أملاكي[٧] ، وحبسني سبع سنين ، كنت يُرَدَّدُ عليّ فيها العذاب .

فلمّا كان في هذه السنة ، سأله النّاس في أمري ، فأطلقني .

فلم يمكنني المقام ببلدي ، وتحمّل شماتة الأعداء ، فخرجت على وجهي ، أعالج الفقر ، بحيث لا أعرف ، وجئت مع الحجّ الخراساني ، أمشي أكثر الطريق ، ولا أدري ما أعمل ، فجئت إليك لأشاورك في معاش أتعلّق به .

فقلت : قد ردّ الله عليك بعض ضالّتك ، هذا الهميان الّذي وصفْتَه ، عندي ، وكان فيه ألف دينار [١٤٣ ظ] أخذتها ، وعاهدت الله تعالى ، أنّني ضامنها ١
لمن يعطيني صفة الهميان ، وقد أعطيتني أنت صفته ، وعلمت أنّه لك ، وقمتُ ، فجئته بكيس فيه ألف دينار .

وقلت له : تعيّش بهذا في بغداد ، فإنّك لا تعدم خيراً إن شاء الله .

فقال لي : يا سيّدي الهميان بعينه عندك ، لم يخرج عن يدك ؟

قلت : نعم .

فشهق شهقة ، ظننت أنّه قد مات معها ، وغشي عليه ، فلمّا أفاق بعد ساعة ، قال لي : أين الهميان ؟

فجئته به ، فطلب سكّيناً ، فأتيته بها ، فخرق أسفل الهميان ، وأخرج منه حجر ياقوت أحمر ، أشرق منه البيت ، وكاد يأخذ بَصَري شعاعه ، وأقبل يشكرني ، ويدعو لي .

فقلت له : خذ دنانيرك .

فحلف بكلّ يمين ، لا يأخذ منها إلّا ثمن ناقة ، ومحمل ، ونفقة تبلغه ، فبعد كلّ جهد أخذ ثلثمائة دينار ، وأحلّني من الباقي ، وأقام عندي ، إلى أن عاد الحاجّ ، فخرج معهم .

---

٧ أشهد عليه في جميع أملاكه : يعني أنّه أجبره على الإشهاد بأنّه باعها للأمير .

فلمّا كان العام المقبل ، جاءني بقريب ممّا كان يجيئني به سابقاً من المتاع .

فقلت له : أخبرني خبرك .

فقال : مضيت ، فشرحت لأهل البلد خبري ، وأريتهم الحجر ، فجاء معي وجوههم إلى الأمير ، وأعلموه القصّة ، وخاطبوه في إنصافي .

فأخذ الحجر ، وردّ عليّ جميع ما كان أخذه منّي ، من متاع ، وعقار ، وغير ذلك ، ووهب لي من عنده مالاً .

وقال : اجعلني في حلّ ممّا عذّبتك وآذيتك ، فأحللته .

وعادت نعمتي إلى ما كانت عليه ، وعدت إلى تجارتي ومعاشي ، وكلّ هذا بفضل الله تعالى وبركتك ، ودعا لي .

وكان يجيئني بعد ذلك ، حتّى مات[8] .

٨ لم ترد هذه القصة في م ولا في غ .

٢٤٦

أضاع هميانه في طريق الحجّ

ووجده أحوج ما يكون إليه

حدّثني عبيد الله بن محمّد الصروي[١] : قال حدّثني أبي :

أنّ رجلاً حجّ ، وفي وسطه هميان فيه دنانير وجواهر ، قيمة الجميع ثلاثة آلاف دينار ، وكان الهميان ديباج أسود[٢] .

فلمّا كان في بعض الطريق ، جلس يبول ، فانحلّ الهميان من وسطه وسقط ، ولم يعلم بذلك إلّا بعد أن سار من الموضع فراسخ .

واتّفق أنّ رجلاً جاء على أثره ، فجلس يبول مكانه ، فرأى الهميان ، فأخذه ، وكان له دِيْنٌ ، فحفظه .

قال الرّجل : فلم يؤثّر في قلبي ذهابه ، لكثرة مالي ، فاحتسبته عند الله تعالى ، وتغافلت .

وكان [١١٧ ر] معي تجارة بأموال عظيمة ، فقضيت حجّي ، وعدت إلى بلدي .

فلمّا كان بعد سنين ، افتقرت لمحنٍ توالت عليّ ، حتّى لم يبقَ لي شيءٌ ،

---

١ أبو القاسم عبيد الله بن محمّد الصروي : شاعر ، أديب ، كان منقطعاً إلى أبي العبّاس سهل بن بشر ، عامل الأهواز ، وله مدائح في القاضي التنوخي ، مؤلّف هذا الكتاب ، ونقل عنه التّنوخي كثيرًا من القصص في كتابيه نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، وهذا الكتاب ، راجع القصص ٩٧/٢ و١٤٩/٢ و١٥٧/٢ و١٥٨/٢ و٥٥/٧ و٦٦/٧ و١١١/٧ من كتاب نشوار المحاضرة ، والصروي : نسبة إلى الصراة . نهر ببغداد .

٢ الدّيباج : القماش الذي سداه ولحمته حرير ، راجع حاشية القصّة ١٩٧ من هذا الكتاب .

فهربت على وجهي من بلدي ، وقد أفضيت إلى الصدقة عليّ ، وزوجتي معي ، فأويت إلى بعض القرى ، فنزلتُ في خان خراب[3] .

فأصاب زوجتي الطلق ، وما أملك غير دانق ونصف فضّة ، وكانت ليلة مطيرة ، فولدَتْ .

---

٣ الخان : فارسيّة : الحانوت ، وأصل الكلمة آرامي ، وتطلق على الدّكّان والمخدع والماخور (الألفاظ الفارسية المعربّة ٥٨) ثم أطلقت على المواضع التي ينزلها المسافرون مما يطلق الآن عليه إسم الفندق ، وما تزال في العراق أماكن عدّة تسمّى الخان ، لأنّها بنيت مواضع لنزول المسافرين الذين يقدمون لزيارة الأماكن المقدّسة في العراق ، في سامراء والكاظمين ، وكربلاء والنجف ، مثل : خان بني سعد ، خان آزاد ، خان المحمودية ، خان الحصوة ، خان النصّ (خان النصف ، في منتصف الطريق بين كربلا والنجف) قال معروف الرصافي :

نزلت الخان في بلدي كأنّي ... أخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه ... لأنّي اليوم في وطني غريب

ولا بن الروميّ قصيدة كلّها غرر ، ذكر فيها الخان ، كتبها إلى أبي العبّاس أحمد بن محمد بن ثوابة لما ندبه للخروج من أجل تصريفه ، مطلعها [الملح والنوادر للحصري ٢٤٥ و ٢٤٦] :

دع اللّوم إنّ اللّوم عون النوائب ... ولا تتجاوز فيه حدّ المعاتب

قال فيها :

لقيت من البرّ التباريح بعدما ... لقيت من البحر ابيضاض الذوائب
سقيت على ريّ به ألف مطرة ... شغفت لبغضيها بحبّ المجادب
فملت إلى خان مرثّ بناؤه ... مميل غريق الثوب لهفان لائب
فما زلت في خوفٍ وجوعٍ ووحشةٍ ... وفي سهرٍ يستغرق الليل واصب
يؤرّقني سقف كأنّي تحته ... من الوكف تحت المدجنات الهواضب
وكم خان سَفْر خانَ فانقضّ فوقهم ... كما انقضّ صقر الدجن فوق الأرانب

وقال الشاعر : [أخبار القضاة ١٨٧/١]

يا أيّها السائل عن حالتي ... نزلت في الخان على نفسي
يغدو عليّ الخبز من خابز ... لا يقبل الرهن ولا ينسي
آكل من كيسي ومن كسرتي ... حتّى لقد أوجعني ضرسي

فقالت : يا هذا ، الساعة أموت ، فأخرج ، وخذ لي شيئاً أتقوّى به .

فخرجت أتخبّط في الظلمة والمطر ، حتّى جئت إلى بقّال فوقفت عليه ، فكلّمني بعد كلّ جهد ، فشرحت له حالي ، فرحمني ، وأعطاني بتلك القطعة حلبة ، وزيتاً ، أغلاهما عنده ، وأعارني غضارة جعلته فيها ، فمشيت أريد موضعي ، فزلقتُ ، فانكسرت الغضارة ، وذهب ما فيها .

فورد عليّ أمر عظيم ، ما ورد عليّ مثله قط ، وأقبلت ألطم ، وأبكي ، وأصيح ، فإذا برجل قد أخرج رأسه من شبّاك في دار ، وقال : ويلك ، مالك تبكي ، ما تدعنا ننام ، فشرحت له قصّتي .

فقال : هذا البكاء كلّه بسبب دانق ونصف ؟

فتداخلني من الغمّ أكثر من الأوّل ، فقلت : يا هذا ، والله ، ما لما ذهب عندي محلّ ، ولكنّ بكائي رحمة لنفسي ممّا دفعت إليه ، وإنّ زوجتي وولدي الساعة يموتان جوعاً ، ووالله ، وإلّا فعليّ وعليّ ، وحلفت بأيمان مغلّظة ، لقد حججت في سنة كذا ، وأنا أملك من المال ، ما ذهب منّي هميان فيه دنانير وجواهر بثلاثة آلاف [١٤٤ ظ] دينار ، ما فكّرت فيه ، وهوذا تراني الآن أبكي بسبب دانق ونصف فضّة[٤] ، فأسأل الله العافية والسلامة ، ولا تعيّرني فتبتلي بمثل بلواي .

فقال لي : بالله عليك ، ما كان صفة هميانك ؟

فلطمت رأسي ، وقلت : ما يقنعك ما خاطبتني به وما تراه من صورتي ، وقيامي في الطين والمطر ، حتّى تتلهّى بي ، وأيّ شيء ينفعني وينفعك من صفة همياني ، وقد ضاع من كذا وكذا سنة ، ومشيت .

وإذا هو قد خرج يصيح بي : تعال خذ هذا ، فقدّرته يتصدّق عليّ ، فجئته .

---

٤ الدانق : سدس الدرهم .

فقال : أيش صفة هميانك ؟ وقبض على يدي ، فلم أقدر أتخلّص منه ، فوصفت له همياني .

فقال لي : أدخل ، فدخلت منزله .

فقال : أين زوجتك ؟

فقلت : في الخان الفلاني .

فأنفذ غلمانه ، فأتوا بها ، فأدخلها إلى حرمه ، فأصلحوا أمرها ، وأطعموها ما احتاجت إليه ، وكساني كسوة حسنة ، وأدخلني الحمّام ، وأصبحت عنده في عيشة طيّبة .

فقال لي : أقم عندي أيّاماً لأضيفك ، فأقمت عنده عشرة أيّام ، فكان يعطيني في كلّ يوم عشرين ديناراً ، وأنا متحيّر من عظيم برّه ، بعد شدّة جفائه .

فلمّا كان بعد ذلك ، قال لي : أيّ شيئ تتصرّف فيه ؟

فقلت : كنت تاجراً .

فقال : أقم عندي ، وأنا أعطيك رأس مال فتتّجر في شركتي .

فقلت : أفعل .

فدفع إليّ مائتي دينار ، وقال لي : اتّجر بها ها هنا .

فقلت : هذا معاش ، قد أغناني الله تعالى به ، يجب أن ألزمه ، فلزمته .

فلمّا كان بعد شهور ، ربحنا ، فجئته ، فقلت له : خذ ربحك .

فقال لي : اجلس ، فجلست .

فأخرج إليّ همياني ، وقال : أتعرف هذا ؟

فحين رأيته ، شهقت شهقة غشي عليّ منها .

ثمّ أفقت بعد ساعة ، فقلت له : يا هذا ، أملَكٌ أنت أم نبيّ ؟

فقال : لا ، ولكنّي ممتحن بحفظ هميانك منذ كذا وكذا سنة ، فلمّا سمعتك تلك اللّيلة تقول ما قلته ، وأعطيتني علامته ، أردت أن أعطيك هو ،

فخشيت أن تنشقّ مرارتك من الفرح ، فأعطيتك تلك الدنانير الّتي أوهمتك أنّها هبة لك ، وإنّما أعطيتك ذلك كلّه من هميانك ، والدنانير المائتان ، قرض ، فخذ هميانك واجعلني في حلّ .

فأخذته ، ودعوت له ، ورددت عليه القرض ، ورجعت إلى بلدي ، وبعت الجوهر [١١٨ ر] وأضفت ثمنه إلى الدنانير ، واتّجرت بها ، فما مضت إلّا سنيّات ، حتّى صرت صاحب عشرة آلاف دينار ، وصلحت حالي ، فأنا في فضل الله تعالى ، أعيش إلى الآن[٥] .

---

٥ لم ترد القصّة في م ولا في غ .

٢٤٧

الوزير عليّ بن عيسى يقول : ليتني تمنّيت المغفرة

حدّثني أبو سهل بن زياد القطّان[١] ، صاحب عليّ بن عيسى ، قال : كنت مع علي بن عيسى[٢] بمكّة ، حين نفي إليها[٣] ، فدخلنا في حرّ شديد ، وقد كدنا نتلف ، فطاف علي بن عيسى[٤] ، وسعى[٥] ، وجاء فألقى نفسه كالميت من الحرّ والتعب ، وقلق قلقاً شديداً .

وقال : أشتهي على الله عزّ وجلّ ، شربة ماء بثلج .

فقلت له : يا سيّدنا ، تعلم أنّ هذا ما لا يوجد بهذا المكان .

فقال : هو كما قلت ، ولكنّ نفسي ضاقت عن ستر هذا ، فاستروحت إلى المنى .

قال : وخرجت من عنده ، فرجعت إلى المسجد الحرام[٦] ، فما استقررت

---

١ أبو سهل أحمد بن محمد بن عبد الله بن زياد بن عبّاد المعروف بالقطّان (٢٥٩–٣٥٠) : أديب ، شاعر ، راوية للأدب ، ترجم له الخطيب البغدادي (٥/٤٥–٢٤٠٤) ، ولقب بالقطّان لأنّه أقام بدار القطن فنسب إليها ، ويتّضح من هذه القصّة أنّه كان متين العلاقة بالوزير علي بن عيسى بحيث رافقه إلى مكّة لما نفي ، كما أنّه في القصّة ٣/٦٣ من كتاب نشوار المحاضرة يتحدّث عن علي بن عيسى في أمور لا يعرفها إلاّ الخواص .

٢ أبو الحسن علي بن عيسى بن الجراح وزير المقتدر : ترجمته في حاشية القصّة ١٦٣ من الكتاب .

٣ كان ذلك في السنة ٢٩٦ ، راجع تجارب الأمم ١/١٣ .

٤ الطواف : الدوران حول الكعبة سبعاً ، وهو من أركان فعل الحجّ ، قال تعالى : وليطّوّفوا بالبيت العتيق (٢٩ م الحج ٢٢) .

٥ السعي : الترداد بين الصفا والمروة سبعاً ، وهو فرض سواء كان في الحج في أيّامه المعلومة ، أو في العمرة ، قال تعالى : إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما (١٥٨م البقرة ٢) ، لزيادة التفصيل راجع معجم البيان في تفسير القرآن ٢/٢٣٨–٢٤٠ .

٦ المسجد الحرام : أنظر التفصيل في آخر القصّة .

فيه ،، حتّى نشأت سحابة ، فأبرقَتْ ، وأرعدَتْ رعداً متّصلاً شديداً ، ثمّ جاءت بمطر يسير ، وبَرَدٍ كثير .

فبادرت إلى الغلمان ، فقلت : آجمعوا ، فجمعنا شيئاً كثيراً ، وكان علي بن عيسى نائماً .

فلمّا كان وقت المغرب ، خرج إلى الصلاة ، فقلت له : أنت والله مقبل ، والنكبة زائلة ، وهذه علامات الإقبال ، فاشرب الثلج كما طلبت .

وجئته إلى المسجد الحرام بأقداح مملوءة بالأشربة[7] والأسوقة[8] ، مكبوسة بالبَرَدِ ، فأقبل يسقي ذلك من كان بقربه من الصوفيّة والمجاورين والضعفاء ، ويستزيد ، ونحن نأتيه بما عندنا من ذلك ، وكلّما قلت له : اشرب ، يقول : حتّى يشرب النّاس .

فخبأت من البَرَد مقدار خمسة أرطال ، وقلت [١٤٥ ظ] له : لم يبق شيء .

فقال : الحمد لله ، ليتني كنت تمنّيت المغفرة ، بدلاً من تمنّي الثلج ، فلعلّي كنت أجاب .

---

٧ الأشربة ، مفردها : شراب ، كلّ ما يشرب ، ويسمّى الآن ببغداد : شربت ، ويجمع على شرابت .

٨ الأسوقة ، مفردها سويق ، بفتح السين ، وفي بغداد يلفظ بضمّها وتلفظ القاف كافًا فارسية : الناعم من الدقيق ، وكل ما صلح أن يكون دقيقًا ، يمكن أن يتّخذ منه السويق ، وأعلى أنواعه سويق اللوز ، ويخلط بالسكر أو العسل ، ويصبّ عليه الماء ، ويضاف إليه الثلج في وقت الصيف ، ويقال أنّ المنصور سمّ وزيره أبا جهم ، في سويق اللّوز ، قال الشاعر :

تجنّب سويق اللّـــوز لا تشربنّـــه ... فشرب سويق اللّوز أردى أبـا جهم

ويتّخذ في جنوب الجزيرة العربية سويق النبق ، وسويق الشعير معروف في بغداد إلى الآن ، فإنّ أهلها عند احتفالهم بالنيروز ، يصنعون أنواع الحلوى والمخلّط ، ومن جملة ذلك سويق الشعير ، مخلوطًا بدبس التمر ، وفي القصّة ٥/٧٩ من كتاب نشوار المحاضرة ذكر القاضي التنوخي أنّ شخصًا أخبره في السنة ٣٦٠ أنّه كان يصنع في بغداد في كلّ سنة ٢٨٠ كرًّا من سويق الحمّص ويستهلك كلّه في نفس السّنة .

فلمّا رجع إلى بيته حلفت عليه أن يشرب ، فما زلت أداريه حتّى شرب منه بقليل ماء وسويق ، وتقوّت به باقي ليلته[9] .

---

٩ وردت القصّة في نشوار المحاضرة ١٠٦/٤ ، وفي المنتظم ٣٥١/٦ ، ولم ترد في م ولا في غ .

المسجد الحرام

المسجد الحرام : المسجَد ، بفتح الجيم : ما يمسّ الأرض من الأعضاء عند السجود ، وبكسر الجيم : الموضع الذي يسجد فيه ، والجمع في كليهما : مساجد (المنجد) ، والحرام : المقدّس ، ومنه سمّيت مكّة والمدينة : المنطقة الحرام ، والحَرَمان (دائرة المعارف الإسلامية ٧ / ٣٦١) والمسجد الحرام هو الكعبة ، سمّيت الكعبة ، لتربيعها (معجم البلدان ٤ / ٦١٦ - ٦٢٦) .

ولم يكن للمسجد الحرام في أيّام النبي صلوات الله عليه وأبي بكر سور يحيط به ، فضيّق الناس على الكعبة ، وألصقوا دورهم بها ، فاشترى عمر تلك الدور ، وهدمها ، وزادها في المسجد ، واتّخذ للمسجد جداراً دون القامة ، كانت المصابيح توضع عليه ، ولما استخلف عثمان زاد في سعة المسجد ، واتخذ فيه الأروقة حين وسّعه (معجم البلدان ٤ / ٥٢٥ - ٥٢٦) ثم وسّعه المنصور (أحسن التقاسيم ٧٥) .

وأقصى ما وصلت إليه سعة المسجد الحرام ثلاثين ألف متراً مربّعاً ، فأقدمت الحكومة العربية السعودية على عمل من أشرف الأعمال وأكرمها عند الله والناس ، إذ زادت في سعة المسجد إلى خمسة أضعاف مساحته الأولى ، فبلغت مساحته مائة وخمسين ألف متر مربّع ، وشيّدت حوله أروقة محيطة بالمسجد على طابقين بلغ من علوها أنّ سقف الطابق الثاني منها ، قارب في علوه رؤوس المآذن القديمة في المسجد ، وسقفت المسعى بين الصفا والمروة ، وشادت عليه طابقين ، وكان البناء جميعه بالرخام البديع ، فاكتسى المسجد الحرام رداء من الجمال والبهاء ، لم أشاهد مثله في أي مكان من أماكن العبادة الأخرى ، فإنّي شاهدت الفاتيكان ، وكنائس روما ، والإسكوريال ، وجامع قرطبة ، وجامع دمشق ، وجوامع القسطنطينيّة ، وجوامع أصبهان ، والمراقد المقدّسة في العراق وإيران وفي جميعها ما يبهر الناظر ، ولكنّها لا تماثل بناء المسجد الحرام ولا تقاربه ، وأدارت بسور المسجد الحرام ، رحبة عظيمة السعة أحاطت به من جميع جهاته ، تنفذ منها طرق إلى خارج مكّة ، إضطرّت لانفاذ بعضها أن نحتت الصخور ، فصحّ في ذلك المثل القائل : همم الرجال ، تقلع الجبال .

٢٤٨
فتى ورث مالاً فأتلفه ثمّ آل أمره إلى صلاح

حدّثني عبيد الله بن محمّد الصروي ، أيضاً ، عن أبيه ، قال :

كان يجاورنا ببغداد فتى مَن أولاد الكتّاب ، ورث مالاً جليلاً ، فأتلفه في القيان[1] ، وأكله إسرافاً ، حتّى لم يبق منه شيءٌ ، واحتاج إلى نقض داره ، فلم يبق منها غير بيت يكنّه .

فحدّثني بعض من كان يعاشره وانقطع عنه لما افتقر ، قال :

قصدته يوماً بعد انقطاعي عنه نحو سنة ، لأعرف خبره ، فدخلت إليه ، فوجدته نائماً في ذلك البيت ، في يوم بارد ، على حصير خَلَقٍ ، قد توطّأ قطناً

١ القيان : الجواري المغنّيات اللواتي يعدّهنّ أصحابهنّ للغناء والمجالسة إمّا في دور أصحابهنّ ، أو يخرجن إلى دور من يطلبهنّ لقاء جذر . وهنّ المسمّيات في زماننا هذا بالأرتستات ، وقد أفرد أبو الطيّب الوشّاء ، في كتابه : الموشّي ، باباً في وصفهنّ والكلام عن تصرّفاتهنّ ، جاء فيه بكلّ طريف نادر . بدأه بقوله : إعلم أنّه لم يبتل أحد من أهل المروءات والأدب ، وأهل التظرّف والأرب ، ولا امتحن سراة الفتيان ، ببليّة هي أعظم من هوى القيان . ووصف في كتابه كيفيّة تصرّف القينة إذا رأت في المجلس فتى له غنى ويسار ، وكيف تمنحه نظرها وتغمزه بطرفها ، وتشير إليه بكفّها ، وتغني له على كاساته ، وتميل إلى مرضاته ، وتشرب من فضلة كأسه ، حتى توقع المسكين في حبالها ، فاذا حوت عقله ، وصارت شغله ، أخذت في طلب الهدايا السريّة ، وتمارضت من غير سقم ، وشكت من غير ألم ، وفصدت من غير علّة ، لتجيئها هدايا ذوي الوجد ، في المرض والفصد ، حتى إذا نفد اليسار ، وأحسّت بالإفلاس ، أظهرت الملل ، وأعلنت البذل ، وتبرمّت بكلامه ، وضجرت بسلامه ، وطلبت عليه العلل ، وتفقّدت منه الزلل ، وتتبّعت عليه سقطاته ، وتيمّمت عثراته ، وصرفت عنها هواه ، ومالت إلى سواه ، راجع كتاب الموشّى ، باب صفة ذمّ القيان ص ١٣٤ وما بعدها ، وللجاحظ رسالة في القيان ، جمعت فأوعت .

ووصفت فضل الشاعرة القيان ، فقالت من أبيات [أعلام النساء ١٧٥/٤] :

ويحك إنّ القيان كالشرك الـ ... منصوب بين الغرور والعطب
لا يتصدّين للفقير ، ولا ... يطلبن إلاّ معادن الذهب

كأنّه حشو فراش ، وتغطّى بقطن كان في لحاف ، فهو بين ذلك القطن كأنّه السفرجل[2] .

فقلت له : ويحك ، بلغت إلى هذا الحدّ .

فقال : هو ما ترى .

فقلت : فهل لك حاجة .

قال : أو تقضيها ؟

فظننت أنّه يطلب منّي شيئاً أسعفه به ، فقلت : إي والله .

فقال : أشتهي أن تحملني إلى بيت فلانة المغنّية ، حتّى أراها ، وهي الّتي كان يتعشّقها ، وأتلف ماله عليها .

وبكى ، فرحمته ، فمضيت إلى منزلي ، فأتيته من ثيابي بما لبسه ، وأدخلته الحمّام ، وحملته إلى بيتي ، فأطعمته ، وبخّرته ، وذهبنا إلى دار المغنّية .

فلمّا رأتنا ، لم تشكّ أنّ حاله قد صلحَتْ ، وأنّه قد جاءها بدراهم ، فبشّت في وجهه ، وسألته عن حاله ، فصدقها عن حاله ، حتّى انتهى إلى ذكر الثياب ، وأنّها لي .

فقالت له في الحال : قم ، قم .

فقال : لِمَ ؟

فقالت : لئلّا تجيء ستّي ، فتراك ، وليس معك شيء ، فتحرد عليّ ، لِمَ أدخلتكَ ، فاخرج برّا[3] ، حتّى أصعد فأكلّمك من فوق ، فخرج ، وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة في الدار ، إلى الطريق ، فأقلبت عليه مرقة سكباج[4] ،

---

٢ أدركت البقّالين ببغداد وهم يعرضون السفرجل في دكاكينهم ، وقد أحيط من فوقه ومن تحته بالقطن ، ويتّضح من هذه القصّة أنّ هذا الآيين في عرض السفرجل ، كان متّبعًا منذ عهد القاضي التنّوخي ، أي منذ أكثر من ألف عام ، ولعلّ السبب في ذلك أنّ القطن يحفظه من التعرّض للفساد ، كما أنّه يحول دون أن يسحق بعضه بعضاً ، والعامّة ببغداد الآن يسمّون السفرجل : حيوه .

٣ برّا : يعني خارج الدار ، (كتاب أخلاق الوزيرين ص ١٤٩) ، أقول : لم تزل الكلمة مستعملة ببغداد .

فصيرته آية ونكالاً .

فبكى ، وقال لي : بلغ أمري إلى هذا ؟ أشهد الله ، وأشهدك ، أنّي تائب .

فضحكت منه ، وقلت : أيّ شيءٍ تنفعك التوبة الآن وقد افتقرتَ ؟

فرددته إلى بيته ، ونزعت ثيابي عنه ، وتركته بين القطن ، كما كان أوّلاً ، وحملت ثيابي فغسلتها وانقطعت عنه ، فما عرفت له خبراً .

وبعد نحو ثلاث سنين ، بينما [١١٩ ر] أنا ذات يوم بباب الطاق ، إذا أنا بغلام يطرّق[٥] لرجل راكب ، فرفعت رأسي ، فإذا به على برذون فاره[٦] ، بمركب فضّة ، خفيف ، مليح ، وثياب حسنة ، وكان أوّلاً يركب من الدواب أفخرها ، ومن المراكب أثقلها .

فلمّا رآني ، قال لي : يا فلان ، فعلمت أنّ حاله قد صلحت ، فقبّلت فخذه .

وقلت : سيّدي أبو فلان .

قال : نعم ، قد صنع الله تعالى ، وله الحمد ، البيتَ ، البيتَ ، فتبعته إلى منزله ، فإذا بالدار الأوّلة ، قد رمّها ، وجصّصها ، من غير بياض ، وطبّقها[٧] ، وبنى فيها مجلسين متقابلين ، وخزائن ، ومستراح ، وجعل باقي ما كان فيها ، صحناً كبيراً ، وقد صارت حسنة ، غير أنّها ليست بذلك الأمر الأوّل .

فأدخلني إلى حجرة منها ، كان يخلو فيها قديماً ، قد أعادها كأحسن

---

٤ السكباج : مرق يصنع من اللحم والخلّ ومواد أخرى ، راجع كتاب الطبيخ للبغدادي ١٣ أقول : السكباج شديد الحموضة ، لموضع الخلّ فيه ، والعامة ببغداد ، إذا شكوا من حموضة طعام ، قالوا : حامض كأنّه سكباج .

٥ يطرّق : يركض أمام الدابّة ، ويصيح : الطريق .

٦ الفاره : النّشيط القويّ .

٧ طبّق الدار : فرش أرضها بالطابوق ، مفردها : طابوقة ، وهي آجرة عريضة مسطّحة تفرش بها الأرض ، وما زالت هذه الكلمة مستعملة ببغداد .

ما كانت ، وفيها فرش حسنة ، وفي داره ثلاثة غلمان ، قد جعل كلّ خدمتين إلى واحد منهم ، وقد أقام على حرمه خادماً كان لأبيه ، وله سائس هو شاكريّه[٨] ، وشيخ بوّاب كان يصحبه قديماً ، ووكيل يتسوّق له[٩] .

فجلس ، وأجلسني ، وأحضر فاكهة قليلة ، في آلة مقتصدة مليحة ، وجاءوا بعدها بطعام نظيف ، كافٍ ، غير مسرف ولا مقصّر ، فأكلنا ، ثمّ نام ، ولم تكن تلك عادته ، ومدّت ستارة ، وأحضرت مشامّ ورياحين ، في صواني وزبديّات ، والجميع متوسّط مليح ، غير مسرف [١٤٦ ظ] ، فانتبه ، فصلّى ، وتبخّر بقطعة ندّ[٩] ، وبخّرني بقطعة عود مطرّى[١٠] ، وقدّم بين يديه صينيّة فيها من مطبوخ العنب[١١] شيئ حسن ، وقدّم بين يديّ صينية فيها نبيذ التمر[١٢] ، جيّد .

فقلت : يا سيّدي ما هذه الترتيبات الّتي لست أعرفها .

---

٨ الشاكري : أصلها : جاكري ، فارسية ، بمعنى خادم ، ثم صرفت إلى من يعني بالدابّة خارج الإصطبل ، ويعدو معها إذا ركبها سيّده ، ويمسك بعنانها إذا نزل عنها ، راجع القصّة ٢٨٣ من هذا الكتاب .

٩ السوق : موضع البياعات ، والتسوّق : البيع والشراء في السوق ، يقال : تسوّق القوم ، إذا باعوا واشتروا (لسان العرب) ، والتسوّق عند البغداديّين الآن ، مقصور على الشراء من السوق فقط ، تقابله الكلمة الانكليزية ، وكان لكلمة التسوّق ، عند البغداديّين في القرن الرابع الهجري ، معنى آخر ، هو : الخوض في سيرة الناس ، واتّهامهم بالباطل ، راجع كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، للقاضي التنوخي ، القصّة رقم ٤/٤٥ ج ٤ ص ٩٧ و٩٨ .

١٠ الندّ : عود يتبخّر به ، والعود : ضرب من الطيب يتبخّر به أيضًا . وخير أنواعه الهندي المندلي ، نسبة إلى مندل ، من بلاد الهند ، وكلّما كان أصلب ، كان أجود ، وامتحان جودته إذا كانت فيه رطوبة بأن يوضع عليه نقش الخاتم ، فينطبع ، وإذا كان يابسًا ، فالنار تفصح عنه ، ومن خصائصه ثبات رائحته في الثوب أسبوعًا وأكثر (لطائف المعارف—حاشية الصحيفة ٢١٥) لزيادة التفصيل راجع نهاية الأرب ١٢/٢٣-٤٢ .

١١ مطبوخ العنب : إذا نبذ العنب أو التمر أو الزبيب ، دون عرضه على النار ، فهو نبيذ ، فإذا عرض على النار ، سمّي مطبوخًا ، لتفريقه عن غير المطبوخ .

١٢ نبيذ التمر : راجع حاشية القصّة ٢٠٩ من هذا الكتاب .

فقال : دع ما مضى ، فإنّ الحال لا تحتمل الإسراف ، فأقبل يشرب ، وأنا أساعده ، فتغنّى من وراء الستارة ، ثلاث جواري في نهاية طيب الغناء ، كلّ واحدة منهنّ أطيب من الّتي أنفق عليها ماله .

فلمّا طابت أنفسنا ، قال لي : تذكر أيّامنا الأوّلة ؟

قلت : نعم .

قال : أنا الآن في نعمة متوسّطة ، وما قد أفدته من العقل ، والعلم بأمر الدنيا وأهلها ، يسلّيني عمّا ذهب منّي ، وهوذا ترى فرشي ، وآلتي ، ومركوبي ، وإن لم يكن ذلك بالعظيم المفرط ، ففيه جمال ، وبلاغ ، وتنعّم ، وكفاية ، وهو مغنٍ عن الإسراف ، والتخرّق ، والتبذير ، وقد تخلّصت من تلك الشدّة ، تذكر يوم عاملتني فلانة المغنّية ، بما عاملتني ؟

قلت : نعم والحمد لله الّذي كشف ذلك عنك ، فمن أين هذه النعمة ؟

قال : مات مولى لأبي ، وابن عمّ لي ، في يوم واحد بمصر ، فحصل لي من تركتهما أربعون ألف دينار ، فوصل أكثرها إليّ ، وأنا بين القطن كما رأيتني ، فحمدت الله ، واعتقدت التوبة من التبذير ، وأن أدبّر ما رزقته ، فعمّرت هذه الدار بألف دينار ، واشتريت الفرش ، والآلة ، والجواري بتسعة آلاف دينار ، وسلّمت إلى بعض التجّار الثقات ، ألفي دينار ، يتجرّ لي بها ، وأودعت بطن الأرض عشرة آلاف دينار ، للحوادث ، وابتعت بالباقي ضيعة تغلّ لي في كلّ سنة نفقتي هذه الّتي شاهدتها ، فما أحتاج إلى قرض ، ولا استزادة ، ولا تقبل غلّة ، إلّا وعندي بقية من الغلّة الأوّلة ، فأنا أتقلّب في نعمة الله ، عزّ وجلّ ، كما ترى ، ومن تمام النعمة ، إنّي لا أعاشرك ، ولا أحداً ممّن كان يحسّن لي السرف ، يا غلمان ، أخرجوه .

قال : فأخرجت ، فوالله ما أذن لي بعدها في الدخول عليه[١٣] .

---

١٣ وردت القصّة في نشوار المحاضرة ٩٣/١ ، ولم ترد في م ولا في غ .

٢٤٩
أبو يوسف القاضي يأكل اللوزينج بالفستق

وحدّثني أبي ، قال : بلغني أنّ أبا يوسف[١] صحب أبا حنيفة[٢] ، ليتعلّم العلم ، على فقر وشدّة ، وكانت أمّه تحتال له فيما يتقوّته يوماً بيوم ، فطلب يوماً ما يأكل ، فجاءته [١٢٠ ر] بغضارة[٣] مغطّاة ، فكشفها ، فإذا فيها دفاتر .

فقال : ما هذا ؟.

فقالت : هذا الّذي أنت مشتغل به نهارك أجمع ، فكل منه .

فبكى ، وبات جائعاً ، وتأخّر عن المجلس من الغد ، حتّى احتال فيما أكله ، ثمّ مضى إلى أبي حنيفة ، فسأله عن سبب تأخّره ، فصدقه .

فقال له : ألا عرّفتني فكنت أمدّك ؟ ولا يجب أن تغتمّ ، فإنّه إن طال عمرك ، فستأكل اللوزينج[٤] بالفستق .

قال : فلمّا خدمت الرشيد ، واختصصت به ، قدّم بحضرته يوماً ، جام

---

١ أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري ، قاضي الرّشيد : ترجمته في حاشية القصّة ١٢٨ من الكتاب .

٢ أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (٨٠–١٥٠) : إمام الحنفية ، الفقيه ، المجتهد ، المحقّق ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة ، ولد ونشأ بالكوفة ، يبيع الخزّ ، ويطلب العلم ، ثم انقطع للتدريس والإفتاء ، أريد على القضاء أكثر من مرّة فامتنع وكان عالمًا ، عاملاً ، زاهدًا ، عابداً (الأعلام ٤/٩) .

٣ الغضارة : الصحفة المتّخذة من الطين اللازب الحرّ .

٤ اللوزنيج : حلوى تصنع بأن يبسط العجين المرقّق ، ويوضع عليه اللّوز المسحوق والسكّر الناعم معجونًا بماء الورد ، ثم يطوى ويلفّ ، ويقطّع قطعًا صغارًا ، ويصب عليه الشيرج ، ويغمر بالجلّاب المضاف إليه ماء الورد ، وينثر عليه الفستق المدقوق (كتاب الطبيخ للبغدادي ٧٦) ، إقرأ في مروج الذهب ٥٣٦/٢ وصف ابن الروميّ للّوزينج ، أقول : والبغداديون الآن يسمّون اللّوزينج : بقلاوة ، فارسية : باقلاوا .

فيه لوزينج بفستق ، فدعاني إليه ، فحين أكلت منه ، ذكرت أبا حنيفة ، فبكيت ، وحمدت الله تعالى ، فسألني الرّشيد عن قصّتي ، فأخبرته[٥] .

---

٥ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنّوخي ١٣٤/١ ولم ترد في م ولا في غ .

٢٥٠
الشيخ الخيّاط وأذانه في غير وقت الأذان

حدّثني أبو الحسن محمّد بن عبد الواحد الهاشمي[1] :

أنّ شيخاً من التجّار ، كان له على بعض القوّاد ، مال جليل ببغداد ، فماطله به ، وجحده إيّاه ، واستخفّ به .

قال : فعزمتُ على التظلّم إلى المعتضد[2] ، لأنّي كنت تظلّمت إلى عبيد الله بن سليمان الوزير[3] ، فلم ينفعني ذلك .

فقال لي بعض إخواني : عليّ أن آخذ لك المال ، ولا تحتاج إلى أن تتظلّم إلى الخليفة ، قم معي السّاعة ، فقمت معه .

---

١ أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي : أحد الأشخاص الذين نقل عنهم القاضي التنوخي كثيراً من الأحاديث الّتي دونّها في كتابيه ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، وكتاب الفرج بعد الشدّة ، ونقل عنه في نشوار المحاضرة شيئًا من شعره الّذي لا يرتفع إلى مرتبة الوسط (القصّة ٤١/١ من نشوار المحاضرة) وكان الهاشمي قاضيًا بالبصرة ثم عزل في السنة ٣٥٦ (القصّة ٨٠/٢ من نشوار المحاضرة) راجع القصص ٥/١ و ١٧٢/١ و ١٧٥/١ و ٣٦/٢ من كتاب نشوار المحاضرة .

٢ المعتضد ، أبو العبّاس أحمد بن أبي أحمد الموفق : ترجمته في حاشية القصّة ٦٥ من الكتاب .

٣ أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وزير المعتمد والمعتضد : ترجمته في حاشية القصّة ٦٦ من الكتاب .

فجاء بي إلى خيّاط في سوق الثلاثاء[4] ، يخيط ، ويقرئ القرآن في مسجدٍ ، فقصّ عليه قصّتي ، فقام معنا .

فلمّا مشينا ، تأخّرت ، وقلت لصديقي : لقد عرّضت هذا الشيخ ، وإيّانا ، لمكروه عظيم ، هذا إذا حصل على باب الرجل ، صُفِعَ ، وصفعنا معه ، هذا لم يلتفت [١٤٧ ظ] إلى شفاعة فلان ، وفلان ، ولم يفكّر في الوزير ، فكيف يفكّر في هذا الفقير ؟

فضحك ، وقال : لا عليك ، إمش ، واسكت .

فجئنا إلى باب القائد ، فحين رأى غلمانه الخيّاط ، أعظموه وأهووا لتقبيل يده ، فمنعهم من ذلك ، وقالوا : ما جاء بك أيّها الشيخ ، فإنّ صاحبنا راكب ، فإن كان لك أمر يتمّ بنا بادرنا إليه وإلّا فادخل ، واجلس إلى أن يجيئ ، فقويت نفسي بذلك ، ودخلنا وجلسنا .

وجاء القائد ، فلمّا رأى الشيخ أعظمه إعظاماً تاماً ، وقال : لست أنزع ثيابي ، أو تأمرني بأمرك .

فخاطبه في أمري ، فقال : والله ، ما عندي إلّا خمسة آلاف درهم تسأله أن يأخذها ، وأعطيه رهناً في باقي ماله .

فبادرت إلى الإجابة ، فأحضر الدراهم ، وحلياً بقيمة الباقي ، فقبضت

---

٤ سوق الثلاثاء : قال ياقوت في معجم البلدان ١٩٣/٣ إنّ فيه اليوم سوق بزّ بغداد الأعظم ، أقول : وما زال هو سوق البزّازين الأعظم ببغداد ، وذكره ابن بطّوطة الذي زار بغداد في عهد السلطان أبي سعيد ابن السلطان خدابنده ، فقال : إنّ أعظم أسواق الجانب الشرقي في بغداد ، يعرف بسوق الثلاثاء ، كلّ صناعة فيه على حدة ، وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة الّتي صارت الأمثال تضرب بحسنها ، وفي آخره المدرسة المستنصرية (مهذب الرحلة ١٧٥/١) ، أقول : يتّضح من هذا الوصف أنّ سوق الثلاثاء يشتمل على سوق الهرج الذي أمام المستنصرية ، ويمتد بامتداد ما نسمّيه الآن سوق المصبغة ، ثم يلتفّ حتى يمر على خان دلة ، وينتهي بالطريق العام الذي هو الآن شارع الرّشيد ، راجع بحثنا عن دار مؤنس التي اقتطعت منها المدرستان النظامية والمستنصرية ، في حاشية القصّة ١٦٣ من الكتاب.

ذلك منه ، وأشهدت عليه الرّجل ، وصديقي ، أنّ الرهن عندي إلى أجل ، فإن حلّ الأجل ولم يعطني ، فقد وكّلني في بيعه ، وقبض مالي من ثمنه ، فخرجنا ، وقد أجاب إلى ذلك .

فلمّا بلغنا مسجد الخيّاط ، قلت له : قد ردّ الله تعالى عليّ هذا المال بسببك ، فأحبّ أن تأخذ منه ما أحببت ، بطيبة من قلبي .

فقال : ما أسرع ما كافأتني على الجميل بالقبيح ، إنصرف ، بارك الله لك في مالك .

فقلت : قد بقيت لي حاجة .

قال : قل .

قلت : تخبرني عن سبب طاعته لك ، مع تهاونه بأكثر أهل الدولة .

فقال : قد بلغتَ مرادك ، فلا تقطعني عن شغلي ، وما أعيش به .

فألححت عليه ، فقال : أنا رجلٌ أصلّي بالنّاس في هذا المسجد ، وأقرئ القرآن ، منذ أربعين سنة ، ومعاشي من هذه الخياطة ، لا أعرف غيرها .

وكنت منذ دهر ، قد صلّيت المغرب ، وخرجت أريد منزلي ، فاجتزت بتركيّ كان في هذه الدار ، وامرأة جميلة مجتازة ، وقد تعلّق بها وهو سكران ، ليدخلها داره ، وهي ممتنعة تستغيث ، وليس من أحد يغيثها ، أو يمنعه منها ، وتقول في جملة كلامها : إنّ زوجي قد حلّف عليّ بالطلاق ، أن لا أبيت برّا[5] ، فإن بيّتني ، خرب بيتي ، مع ما يرتكبه منّي من الفاحشة .

قال : فرفقت به وسألته تركها ، فضرب رأسي بدبّوس[6] كان في يده ،

---

٥ برّا : تعبير بغدادي ، يراد به ما كان خارجاً ، فيقال : برّا البيت ، أي في خارجه ، ويقابله تعبير بغدادي آخر هو : جوّا ، أي ما كان داخله ، فيقال : جوّا البيت ، أي في داخله .

٦ الدبّوس : مقمحة أو عصا من الحديد أو الخشب ، في رأسها شيء كالكرة (المنجد) ، أقول : البغداديّون الآن ، يسمّون العصا الصلبة ، إذا كان في رأسها كرة من القير : مكوار ، أو مكيار ، نسبة للكير

فشجّني[7] ، ولكمني ، وأدخل المرأة بيته .

فصرتُ إلى منزلي ، وغسلت الدم ، وشددت الشجّة ، واسترحت ، وخرجت لصلاة العشاء الآخرة .

فلمّا صلّينا ، قلت لمن معي في المسجد : قوموا بنا إلى عدوّ الله ، هذا التركي ، لننكر عليه ، ولا نبرح ، أو نخرج المرأة .

فقاموا ، وجئنا فضججنا على بابه ، فخرج إلينا في عدّة غلمان ، فأوقع بنا ، وقصدني من بين الجماعة ، فضربني [١٢١ ر] ضرباً عظيماً كدت أتلف منه ، فحملني الجيران إلى منزلي كالتالف ، فعالجني أهلي ، ونمت نوماً قليلاً ، وقمت نصف الليل ، فما حملني النوم ، للألم ، والفكر في القصّة .

فقلت : هذا قد شرب طول ليلته ، ولا يعرف الأوقات ، فلو أذّنتُ ، لوقع له أنّ الفجر قد طلع ، وأطلق المرأة ، فلحقت بيتها قبل الفجر ، فسلمت من أحد المكروهين .

فخرجت إلى المسجد متحاملاً ، وصعدتُ المنارة ، فأذّنتُ ، وجلست

(القير) ، فإن كانت العصا مطوية الرأس ، أو كانت ذات عقدة في رأسها ، فهي : جماغ (بالجيم الفارسية والغين) ، وقد كان الجماغ معروفًا باسم (جماق) منذ القديم ، راجع تاريخ ابن الأثير ١٢/١٥ و ٨٥ ، فان كانت العصا في رأسها أداة من الحديد ، مدبّبة من إحدى جهتيها ، كأنّها المطرقة ، فهي : كلنك ، فإن كانت قضيباً من الحديد ، برأس بيضيّ فهي : كراز وإذا كان رأس العصا معقوفاً ، كهيأة رأس حرف الحاء ، فإنّ اسمها الآن عند البغداديّين : باكور واسمها في الفصحى : المحجن (فقه اللغة ٢٥٨) .

٧ شجّه : ضربه على رأسه فجرحه ، وفي بغداد يقولون : فشخه ، وهي فصيحة ، بمعنى لطمه ، وأهل القرى المحيطة ببغداد وفي جنوبها يقولون : فجّه ، وهي فصيحة أيضًا ، بمعنى : شقّه .

أطّلع منها إلى الطريق ، أترقّب خروج المرأة ، فإن خرجَتْ ، وإلّا أقمتُ الصلاة ، لئلا يشكّ في الصباح ، فيخرجها .

فما مضت إلّا ساعة ، والمرأة عنده ، حتّى رأيت الشارع قد امتلأ خيلاً ، ورجالاً ، ومشاعل ، وهم يقولون : من أذّن الساعة ؟ ففزعتُ ، وسكتُّ .

ثمّ قلت : أخاطبهم ، لعلّي أستعين بهم على إخراج المرأة ، فصحت من المنارة : أنا أذّنت .

فقالوا لي : إنزل ، وأجب أمير المؤمنين .

فقلت : دنا الفرج ، فنزلت ، فإذا بدر ، وعدّة غلمان ، فحملني ، وأدخلني على المعتضد ، فلمّا رأيته ، هبته ، وارتعتُ ، فسكّن منّي .

وقال : ما حملك على أن تغرّ المسلمين بأذانك في غير وقته ، فيخرج ذو الحاجة [١٤٨ ظ] في غير وقتها ، ويمسك المريد للصوم[٨] ، في وقت قد أباح الله له الأكل فيه ، وينقطع العسس والحرس عن الطواف ؟

فقلت : يؤمنني أمير المؤمنين ، لأصدقه .

فقال : أنت آمن .

فقصصت عليه قصّة التركي ، وأريته الآثار .

فقال : يا بدر ، عليّ بالغلام الساعة والمرأة ، وعُزِلْتُ في موضعٍ .

فمضى بدر ، وأحضر الغلام والمرأة ، فسألها المعتضد عن الصورة ، فأخبرَتْهُ بمثل ما أخبرته .

فقال لبدر : بادر بها الساعة إلى زوجها ، مع ثقة يدخلها دارها ، ويشرح لزوجها القصّة ، وبأمره عنّي بالتمسّك بها ، والإحسان إليها .

---

٨ الإمساك : إنقطاع من أراد الصيام عن تناول الطعام والشراب إستعداداً للصوم ، ويكون الإمساك إعتباراً من طلوع الفجر الثاني ، تطبيقًا لما جاء في القرآن : وكلوا ، وأشربوا ، حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتمّوا الصيام إلى الليل (١٨٧ م البقرة ٢) .

ثمّ استدعاني ، فوقفت بازائه ، فجعل يخاطب الغلام ، وأنا واقف أسمع .

فقال له : كم جرايتك ؟

قال : كذا وكذا .

قال : وكم عادتك[٩] ؟

قال : كذا وكذا .

قال : وكم صِلاتك ؟

قال : كذا وكذا .

قال : وكم جارية لك ؟

قال : كذا وكذا ، فذكر عدّة جواري .

قال : أفما كان فيهنّ ، وفي هذه النعمة العريضة ، كفاية عن ارتكاب معصية الله تعالى ، وخرق هيبة السلطان ، حتّى استعملت ذلك ، وجاوزته إلى الوثوب بمن أمرك بالمعروف ؟ فأسقط الغلام في يده ، ولم يحر جواباً .

فقال : هاتوا جوالقاً[١٠] ، ومداقّ الجصّ[١١] ، وأدخلوه الجوالق ، ففعلوا ذلك به .

وقال للفرّاشين : دقّوه ، فدقّوه ، وأنا أسمع صياحه ، إلى أن مات[١٢] ،

---

٩ كذا ورد في ظ ، ولم ترد في ر ، وفي هـ : وكم عطاؤك ؟

١٠ الجوالق : بضم الجيم ، وبكسرها ، جمعها جوالق ، بفتح الجيم : العدل من الصوف أو الشعر ، وأحسب أنّ الجملة الواردة في القصّة : هاتوا جوالقًا ، من تصرّف النسّاخ ، وصحيحها ، ما ورد في نشوار المحاضرة ، في القصّة ١/١٧٢ قال المعتضد : هاتم جوالق ، وهاتم ، لغة بغدادية في هاتوا .

١١ مدقّة الجصّ : عصا من الخشب الثقيل ، بعرض الكفّ ، أو أعرض قليلاً ، وسمكها ثلاثة أصابع أو أكثر قليلاً ، ولها مقبض ، يدقّ بها الجصّ ليصير ناعمًا ، صالحاً لاستعماله في أعمال البناء .

١٢ روى المؤرخون عن المعتضد ألوانًا من العذاب ، فقد شوى أحد الخارجين عليه ، وهو حيّ (القصّة ١/٧٣ من كتاب نشوار المحاضرة) وعذّب وزيره إسماعيل بن بلبل بأنواع العذاب ، وجعل في عنقه غلاً فيه رمانة حديد ، والغلّ والرمانة مائة وعشرون رطلاً ، وألبسه جبّة صوف قد صيّرت في ودك الأكارع ، =

فأمر به ، فطرح في دجلة ، وتقدّم إلى بدر ، أن يحمل ما في داره .

ثمّ قال لي : يا شيخ ، أيّ شيئ رأيت من أجناس المنكر ، كبيراً كان أو صغيراً ، أو أيّ أمر عنّ لك ، فمر به ، وأنكر المنكر ، ولو على هذا — وأومأ إلى بدر[13] — فإن جرى عليك شيئ ، أو لم يقبل منك ، فالعلامة بيننا أن تؤذّن في مثل الوقت الّذي أذّنت فيه ، فإنّي أسمع صوتك ، وأستدعيك ، وأفعل هذا بمن لا يقبل منك .

فدعوت له ، وانصرفت .

وانتشر الخبر في الأولياء والغلمان ، فما خاطبت أحداً بعدها في إنصاف أحد ، أو كفّ عن قبيح إلّا أطاعني كما رأيت ، خوفاً من المعتضد .

وما احتجت إلى الأذان في مثل ذلك الوقت[14] .

وعلّق معه رأس ميت ، فلم يزل على ذلك حتى مات (حاشية القصّة ٧٦/١ من النشوار) وقتل آخر بأن سدّ بالقطن فمه وأنفه وعينيه وأذنيه وسائر منافذ جسمه ، حتى اختنق ومات (القصّة ٧٧/١ من النشوار) وعذّب قرطاس الروميّ ، بأن قلع أظفاره ، وسلخ جلد أصابع كفّه من رؤوسها إلى أكتافه ، وعبر بها صلبه وكتفيه ، إلى آخر أصابعه الأخرى ، وأمر أن تفتل من الجلد المسلوخ أوتار ، صلب بها قرطاس (القصّة ٧٨/١ من النشوار) ، راجع بحث العذاب في حاشية القصّة ٣٥٨ من الكتاب .

١٣ قول المعتضد للشيخ المؤذّن : إن رأيت منكرًا ، فأنكره ، ولو على هذا ، وأشار إلى بدر ، دليل على عظم المنزلة الّتي كان يتمتّع بها بدر ، وهو بدر بن خير ، وأبوه خير من موالي المتوكل ، وكان بدر في خدمة ناشئ غلام الموفق صاحب ركابه ، ثم اتّصل بالمعتضد في أيام الموفّق وقرب من قلبه ، وأصبح أثيراً عنده عالي المرتبة ، حتى كان تلتمس به الحوائج عند المعتضد ، وكان جميل الصورة جدًّا ، وكان المعتضد يفرح إذا رآه ، وكانت منزلته هذه من المعتضد ، السبب في إشعال نار الحسد في قلوب كثير من رجال الدولة والقوّاد له ، فلمّا مات المعتضد ، واستخلف المكتفي وكان بينه وبين بدر تباعد ، استغلّ رجال الدولة هذا التباعد ، فأغروا المكتفي به ، واحتال عليه القاسم بن عبيد الله الوزير ، فكتب له أمانًا ، ثم غدر به وقتله . (مروج الذهب ٥٢٨/٢ والمنتظم ٣٤/٦–٣٦) .

١٤ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي برقم ١٧٢/١ ولم ترد في م ولا في غ .

٢٥١
أحيحة بن الجلاح أكبّ على إصلاح ضيعته

وجدت في بعض الكتب :

أنّ أحيحة بن الجلاح[١] ، أسرع في ماله فأتلفه مع إخوان له ، حتّى افتقر ، فهجروه وقطعوه ، واحتاج إليهم في الشيْ اليسير فمنعوه ، فلحقته شدّة ، وضرّ وجهد .

فمات بعض أهله ، فورّثه مالاً ، وضيعة خراباً ، تعرف بالزوراء ، فأخذ المال ، وخرج إلى الضيعة يعمرها به ، فطمع فيه القوم الّذين أنفق ماله عليهم ، فكتبوا إليه يعتذرون ممّا جرى ، ويرغّبونه في مواصلتهم ، ومعاشرتهم ، وكان أديباً ، فكتب إليهم :

إنّي مكبّ على الزوراء أعمرهـا ... إنّ الكريم على الإخوان ذو المال
كلّ النداء إذا ناديت يخذلـني ... إلّا ندائي إذا ناديت يا مالي [١٢٢ ر]

فأيسوا منه ، وكفّوا عنه ، وثابت حاله ، وحسنت ضيعته[٢] .

---

١ أبو عمرو أحيحة بن الجلاح بن الحريش الأوسي : شاعر جاهلي ، شجاع ، كان سيد الأوس في الجاهلية ، وكان له حصنان بالمدينة ، توفي سنة ١٣٠ قبل الهجرة (الاسلام ١/٢٦٣) .

٢ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا هـ .

٢٥٢
مجلس غناء بمحضر الرشيد

وروى حمّاد[١] ، عن [أبي] صدقة[٢] ، وكان يحضر مجلس الرشيد مع المغنّين ، فربّما غنّى ، وربّما لم يغنّ ، قال : فدعانا الرّشيد يوماً ، فدخلنا ، والستارة دونه ، وهو من خلفها جالس ، فقال خادم من خلفها : غنّ يا ابن جامع[٣] ، فاندفع يغنّي بهذا الصوت :

قف بالمنازل ساعة فتأمّل ... هل بالديار لزائر من منزل
أولا ففيم توقّفي وتلدّدي ... وسط الديار كأنّني لم أعقل
ما بالديار من البلى ولقد أرى ... أن سوف يحملني الهوى في محمل
وأحقّ من يبكي بكلّ محلّة ... عرضت له في منزل للمعول
عانٍ بكلّ حمامة سجعت له ... وغمامة برقت بنوء الأعزل [١٤٩ ظ]
يبكي فتفضحه الدموع فعينه ... ما عاش مخضلة كفيض الجدول

فقال الخادم : ليغنّ هذا الصوت منكم من كان يحسنه ، فغنّى كلّ من أحسنه منهم ، فكأنّه لم يطرب له .

---

١ حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي : ترجمته في حاشية القصّة ١١٩ .

٢ في الأصل : صدقة ، وأحسب أنّ المقصود أبا صدقة واسمه مسكين بن صدقة ، وهو مغنّ مدني ، أقدمه الرشيد من الحجاز في أيّامه ، وكان مليح الغناء ، طيّب الصوت ، خفيف الروح ، لطيف النادرة ، وكان من أشدّ الناس طمعاً ، وألحهّم في المسألة ، وليم على ذلك ، فقال : وما يمنعني من ذلك ، واسمي مسكين ، وكنيتي أبو صدقة ، واسم إبني صدقة ، واسم امرأتي فاقة ، راجع ترجمته في الأغاني ١٩/٢٨٩-٢٩٩ .

٣ أبو القاسم إسماعيل بن جامع السهمي القرشي : من أكابر المغنين الملحنين ، ولد بمكة ، وانتقل إلى المدينة ، واحترف الغناء ، فاشتهر ، ورحل إلى بغداد ، فاتّصل بالرشيد ، وحظي عنده ، وكان من أقران إبراهيم الموصلي ، توفي سنة ١٩٢ (الأعلام ١/٣٠٦) .

فأقبل الخادم عليّ ، فقال : إن كنت تحسن أن تغنّيه ، فغنّه .

فقلت : نعم ، فعجبوا من إقدامي على صوت لم يستطب من جماعتهم ، فغنّيته .

فقال الخادم : أحسنت ، والله ، فأعده ، فأعدته ، وأعاد الاستحسان ، والأمر بإعادته على ذلك سبع مرّات .

ثمّ قال لي الخادم : قم يا [أبا] صدقة ، فادخل ، حتّى تغنّي أمير المؤمنين بحيث يراك ، فدخلت ، والمغنّون كلّهم محجوبون[٦] ، فغنّيته إيّاه ، ثلاث مرّات ، فطرب في جميعهنّ .

---

٤ كان الخلفاء الأمويون ، معاوية ، ومروان ، وعبد الملك ، والوليد ، وسليمان ، وهشام ، ومروان بن محمد ، بينهم وبين الندماء ستارة . فكان إذا طرب الخليفة للمغنّي ، أو رقص ، أو تجرّد ، لا يراه إلاّ خواصّ جواريه ، وإذا ارتفع من خلف الستارة صوت ، قال صاحب الستارة : يا جارية كفّي ، إنتهي ، أقصري ، يوهم الندماء أنّ الفاعل لذلك بعض الجواري . أمّا الباقون من خلفاء بني أميّة ، فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا أو أن يتجرّدوا ، ويحضروا عراة بحضرة الندماء والمغنّين . وعلى ذلك لم يكن أحد منهم في مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد في المجون والرفث والتجرّد بحضرة الندماء ، لا يباليان ما صنعا ، أمّا عمر بن عبد العزيز ، فإنّه ما طنّ في سمعه حرف غناء منذ أفضت الخلافة إليه ، إلى أن فارق الدنيا ، أما قبلها ، لما كان أمير المدينة ، فكان يسمع الغناء ، ولا يظهر منه إلاّ الأمر الجميل ، ولا يخرجه السرور إلى السخف (التاج ٣٢ و٣٣) ، واستسقى الأخطل يوماً في حضرة عبد الملك بن مروان ، وأراد خمراً ، فقال له عبد الملك : أو عهدتني أسقي الخمر لا أمّ لك ، لولا حرمتك بنا ، لفعلت وفعلت (الأغاني ٨/٢٩٤) وكان هشام بن عبد الملك لا يشرب ، ولا يسقي أحدٌ بحضرته مسكراً ، وكان ينكر ذلك ، ويعاقب عليه (الأغاني ٦/٧٧) . وكان أبو العبّاس السفّاح ، أوّل الخلفاء العباسيين ، في أوّل أيامه ، يظهر للندماء ، ثم احتجب (التاج ٣٣) ، أمّا المنصور فكان لا يظهر لندمائه بشرب ولا غناء ، بل يجلس وبينه وبين الندماء ستارة ، وبينهم وبينها عشرون ذراعاً ، وبينها وبينه كذلك ، أمّا المهدي ، فكان في أوّل أمره يحتجب عن الندماء ، وكان يسمع المغنّين جميعاً ، ويحضرون مجلسه ، فيغنّونه من وراء الستارة ، لا يرون له وجهاً ، إلاّ فليح بن أبي العوراء (الأغاني ٤/٣٦٠) ثم ظهر لهم (تاريخ الخلفاء ٢٦٩ ومحاضرات الأدباء ٢/٦٩٤) إلا أنّه كان لا يشرب النبيذ (الأغاني ٥/١٦٠) لا تحرّجاً ، ولكن كان لا يشتهيه (الطبري ٨/١٦٠) ، أمّا الهادي فكان يتناول المسكر ، ويلعب (تاريخ الخلفاء ٢٧٩) ، وكان الرشيد في أخلاق المنصور ، أي إنّه كان لا يظهر للندماء ، وإذا أراد أن يشرب شرب

وقال : أحسنت يا [أبا] صدقة .

فلمّا سمعت ما خصّني به من استحسانه ، قلت : يا أمير المؤمنين ، إنّ لهذا الصوت حديثاً عجيباً ، أفلا أحدّثك به يا أمير المؤمنين ، لعلّه يزداد حسناً .

فقال : بلى ، هات .

فقلت : كنت يا سيّدي ، عبداً لبعض آل الزبير ، وكنت خيّاطاً مجيداً ، أخيط القميص بدرهمين ، والسراويل بدرهم ، وأؤدّي ضريبتي الى سيّدي في كلّ يوم درهمين ، وآخذ ما فضل عن ذلك ، فبينما أنا ذات يوم منصرفاً ، وقد خطت قميصاً لبعض الطالبيّين ، وقد أخذت منه درهمين ، وانصرفت إلى موضع يجتمع فيه المغنّون ، كنت أقصده إذا فرغت من شغلي ، لشغفي بالغناء ،

فلمّا صرت بحذاء بركة المهدي ، إذا أنا بسوداء على رقبتها جرّة ، تريد أن تملأها من ماء العقيق[5] ، وهي تغنّي بهذا الصوت ، أحسن غناء يكون ، فأصابني من الطرب بغنائها ما أذهلني عن كلّ شيء .

فقلت لها : فداك أبي وأمي ، ألقي عليّ هذا الصوت .

فقالت : استحسنته ؟

فقلت : إي والله .

فقالت : وحقّ القبر ومن فيه ، لا أعدته إلّا بدرهمين .

فدفعت الدرهمين إليها ، فأحدرت جرّتها عن رقبتها فارغة ، فوضعتها

بحضرة خاصّ جواريه (التاج ٣٧) والرشيد أوّل من جعل للمغنّين مراتب وطبقات (تاريخ الخلفاء ٢٩٥) وصيّر أمرهم إلى مسرور الخادم (الأغاني ٣٠٤/٦) وكان الرشيد يصحّح على المغنّين أخطاءهم (الأغاني ٣٠١/٦ و ٣٠٢) . أمّا الأمين فكان متبذّلاً لا يبالي مع من قعد ، ولا أين قعد (التاج ٤٢) أمّا المأمون ، فقد أقام بعد قدومه بغداد عشرين شهراً لا يسمع حرفاً من الأغاني ، فكان أوّل من تغنّى بحضرته أبو عيسى ابن الرشيد ، ثم واضب على السماع متستّراً ، متشبهًا في أوّل أمره بالرشيد ، فأقام كذلك أربع حجج ، ثم ظهر للندماء والمغنّين (الأغاني ٣٨٣/٥) .

٥ العقيق : مسيل ماء شقّه السيل خارج المدينة ، للتفصيل راجع القصّة ٤٨٤ من الكتاب .

على الارض ، وجلست عليها ، وكأنّي أنظر إلى فقحتها وقد برزت عن الجرّة نحو ذراع ، وأقبلت تلقيه عليّ ، وتوقّع على الجرّة ، حتّى أخذته ، ثمّ أخذت الجرّة على رقبتها ، وانصرفت .

فحين انصرفت ، أنسيت الصوت ولحنه ، حتّى كأنّي لم أسمعه قط ، فبقيت متحيّراً لا أدري ما أصنع ، وانصرفتُ إلى سيّدي بأسوء حال ، وأكسف بال .

فلمّا رآني ، قال : هات ضريبتك [١٢٣ ر] .

فلجلجت في كلامي ، وقلت : يا سيّدي ، اسمع حديثي .

فقال : يا ابن اللّخناء[٦] ، أبي تتعرّض ؟

فبطحني ، وضربني مائة مقرعة ، وحلق رأسي ولحيتي ، ومنعني قوتي ، وكان أربعة أرغفة ، فلم يكن شيءٌ من ذلك ، أشدّ عليّ ، من ذهاب الصوت منّي ، وبتّ ليلتي أسوء خلق الله حالاً ، وأنا لا أعرف الجارية ، ولا موضعها ، ولا لمن هي .

فلمّا أصبحنا ، خرجت وَلِهاً أطلبها في الموضع الّذي لقيتها فيه ، وأسأل الله أن يحوج أهلها إلى الماء ، حتّى تخرج لتأتيهم به ، فأراها ، فلم أزل أطلبها ، لا أعمل شيئاً إلى العصر .

فبينما أنا كذلك ، وإذا بها قد أقبلت ، فلمّا رأتني ، وما بي من الوَلَه ، قالت لي : مالك ، أنسيت الصوت ؟

فقلت : إي والله ، وضربت مائة مقرعة ، ومنعت قوتي ليلتي ، وحلقت رأسي ولحيتي .

---

٦ اللخناء : المرأة المنتنة المغابن أي مطاوي الجسد . والبغدادي العامي إذا أقذع ، قال : إبن الجايفة ، والمعنى واحد في الكلمتين .

فقلت : دع هذا عنك ، فوربِّ الكعبة ، لاسمعته منّي ، فضلاً عن أخذه ، إلّا بدرهمين .

فقلت : اللهَ ، اللهَ ، فيّ ، فيمرّنّ عليّ الليلة مثل ما مرّ عليّ البارحة ، فارحميني .

فقالت : قد سمعتَ اليمين ، وذهبَتْ لتمضي .

فقلت : اصبري ، وجئت إلى بقال كان يعاملني ، فرهنت عنده الجلمين[7] ، على درهمين ، وجئت بهما إليها ، فأخذتهما ، وجعلتهما في فيها .

فلمّا بدأت بالصوت ، ذكرته ، فقلت : اللهَ ، اللهَ ، ردّي عليّ الدرهمين ، فلا حاجة بي إلى غنائك .

فقالت : أنت أحمق ، ولست تعرف هذا الأمر ، لئن لم أردّده عليك مائة مرّة ما حصل لك منه شيء ، وجلست على الجرّة ، فغنّته مائة مرّة ، أعدّها عليها [١٥٠ ظ] حتّى فهمته ، وصرت به أمهر منها ، وانصرفَتْ .

فساعة فارقتها ، لحقتني الندامة ، وقلت : سيلحقني اللّيلة أكثر ممّا لحقني البارحة ، لفقد الجلمين .

فرجعت إلى مولاي ، فحين رآني ، قال : هات ضريبتك .

فقلت له : اسمع منّي .

قال : أيّ شيء أسمع ، يا ابن الفاجرة ، أما كفاك ما مرّ بك أمس ، ووثب إلى السوط .

فقلت له : اسمع ، واصنع ما شئت .

فقال : هات ، فغنّيته الصوت .

---

٧ الجَلَمان : المقص . ذكر بلفظ التثنية ، لأنّ المقصّ له عضادتان ، قال رجل في لحيته :

لها درهم للدهـن في كلّ ليلـة ... وآخر للحنّـاء يبتـدران

ولولا نوال من يزيـد بن مزيـد ... لصوّت في حافاتهـا الجلمان

فقال : أحسنت ، والله ، يعزّ عليّ ما أصابك ، أما الضرب فقد مضى ، ولا حيلة فيه ، وأما قوتك فمردود ، وأما ضريبتك ، فساقطة عنك ما عشنا ولو متُّ أنا وعيالي جوعاً ، فأنت اليوم واحداً منّا أبداً ما بقينا ، فهذا خبر الصوت .

وكان المغنّون الّذين حضروا ، إبراهيم الموصلي ، وابنه إسحاق ، وابن جامع ، ومسلم بن سلام .

فأمر لكلّ واحد منهم بألف دينار ، وأمر لي بعشرة آلاف دينار ، مثل ما أمر لجماعتهم ، ثمّ استدعى ألف دينار ، فقال : خذ هذه بدل المائة مقرعة الّتي ضربتَ .

فانصرفت ، والمغنّون يتعجّبون ممّا جرى[8] .

---

٨ لم ترد القصّة في م ولا في غ ولا في هـ.

٢٥٣
الوليد بن يزيد يستقبل البريد بموت هشام

وحدّث المنذر بن عمرو ، وكان كاتباً للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، قال : أرسل إليّ الوليد صبيحة اليوم الّذي أتته فيه الخلافة ، فقال لي : يا أبا الزّبير ، ما أتت عليّ ليلة أطول من البارحة ، وعرضت لي أمور حدّثت نفسي فيها بأمور ، وهذا الرّجل قد جدّ بنا ، فاركب بنا .

فركبنا جميعاً ، وسرنا نحو ميلين ، فوقف على تلٍّ ، فجعل يشكو إليّ هشاماً ، إذ نظر إلى رهج[1] قد أقبل ، وقعقعة البريد .

فتعوّذ بالله من شرّ هشام ، وقال : إنّ هذا البريد ، قد أقبل ، بموت حيّ ، أو هلك عاجل .

فقلت : لا يسؤك الله أيّها الأمير ، بل يسرّك وينفعك ، إذ بدا رجلان على البريد مقبلان ، أحدهما مولى لآل أبي سفيان بن حرب ، فلمّا رأيا الوليد نزلا ، وسلّما عليه بالخلافة ، فوجم ، فجعلا يكرّران عليه السّلام بالخلافة .

فقال لهما : ويحكما ما الخبر ، أمات هشام ؟.

قالا : نعم .

قال : فمرحباً بكما ، ما معكما ؟.

قالا : كتاب مولاك سالم بن عبد الرحمن ، فقرأ الكتاب ، وانصرفنا .

وسأل عن عياض بن سالم ، كاتبه الّذي كان هشام قد حبسه ، وضربه ، فقالا : لم يزل محبوساً ، حتّى نزلت بهشام مصيبة الموت ، فلمّا بلغ إلى حال لا يرجى معها الحياة له ، أرسل عياض إلى الخزّان : احتفظوا بما في أيديكم ،

---

[1] الرهج : ما أثير من الغبار .

ولا يصل أحد إلى شيء منه ، فأفاق هشام إفاقة ، فطلب شيئاً ، فمنعه الخزّان ، فقال : أرانا كنّا خزّاناً للوليد ، وقضى من ساعته .

فخرج عياض لوقته من السجن عندما قضى هشام ، فغلّق الأبواب ، وختمها ، وأمر بهشام ، فأنزل عن فراشه ، ومنعهم أن يكفّنوه من الخزائن ، فكفّنه غالب مولاه ، ولم يجدوا قمقماً[2] يسخّن فيه الماء ، حتّى استعاروه .

وذكر باقي الحديث ممّا لا يتعلّق بهذا الباب[3] .

---

٢ القمقم : له مدلولات عدّة ، منها : الحلقوم ، ومنها : القنينة أو الإبريق من الزّجاج أو الفضّة ، يملأ بماء الورد ، ويرشّ على من يراد تعطيره ، ومنها : الوعاء من النحاس يسخّن فيه الماء ، ووجدت القاضي التنوخي في نشوار المحاضرة ، في القصّة ٢/٣٠ قد سمّاه : مسينة ، ولعلها معرّبة عن مسين الفارسية ، أي المصنوع من النحاس ، أو مخفّف مسخنة ، أي الوعاء الذي يسخّن فيه الماء ، والبغداديّون الآن يسمّونها : مصخنه ، بالصاد ، وبعضهم يسميها : مشربة (قاله المحامي حسين جميل) ، أمّا أهل المناطق المحيطة ببغداد ، فإنّهم ما يزالون يسمّونها : القمقم ، ويلفظون القاف كافًا فارسيّة .

٣ لم ترد القصّة في م ولا في غ ولا هـ .

محتويات الكتاب

الباب الخامس : من خرج من حبس أو أسر أو اعتقال ، إلى سراح وسلامة وصلاح حال